نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب

تأليف:

الشيخ محمد الحسن بن أحمد الخديم
اليعقوبي الجوادي. أطال الله بقاءه آمين

شرح مطهرة القلوب

للعلامة الجليل محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي
الموسوي رحمه الله تعالى

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية 1422-2001

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الواسع الفضل والامتنان، المتفضل بالإيمان والإسلام والإحسان، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد أفضل المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فيقول العبيد المعترف بذنبه، المرتجي بكل حال فضل ربه، أفقر العبيد إلى مولاه، وأحوجهم إلى مغفرته ورحماه، محمد الحسن بن أحمد الخديم اليعقوبي الجوادي : لما كان علم التصوف فرضا على كل أحد، وكان من الدين بمنزلة الروح من الجسد، وكان نظم الإمام العلامة الورع محمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي الموسوي رحمه الله تعالى المسمَّى «مطهرة القلوب» من أحسن ما نظم في التصوف وأعذبه أسلوب، جمع بين البيان وإيجاز العبارة، والنكت البديعة بألطف إشارة، فهو كما قال :

قد بَرَزَتْ باديةَ المحاسن　　　به مخدَّراتُ عِلم الباطن

بيد أن مخدراته قد تحتجب عن خطابها، وينبوا فكرهم عن فهم خطابها، إذ تأبى غير كفؤها من ذوي الألباب، ولا تجيبه بصمت ولا إعراب، فسنح لي أن لابأس بشرح على هذا النظم يستعين به كل بليد الفهم، ويساير المؤلف في كل مجال، بنقل ما يناسب من كلام الرجال، فينشرح للقاصر معناه، ويتضح للناظر مبناه، فتتنزه في محاسن أزهار رياضه العيون، وتصغي المسامع لكل حديث منه ذي شجون.

ثم اعلم أنني إذا ذكرت الخاتمة فالمراد خاتمة التصوف وشرحها للشيخ محمّد اليدالي، أو المشرب فمشرب العام والخاص للحسن اليوسي، أو البصائر فبصائر ذوي التمييز لمجد الدين، أو رسالة السلوك فاختصارها للعلامة أحمد بن محمد الحاجي، أو الشرنوبي فشرحه لتائية السلوك، أو القشيري فرسالته، أو الشعراني فطبقاته، أو الأنوار القدسية له، وأنقل

من شروح الحكم كابن عباد وزروق وابن عجيبة والشرقاوي، ومن قوت القلوب لأبي طالب المكي، ومن كتب الغزالي كمنهاج العابدين وكتاب الأربعين والإحياء وشرحه للزبيدي إلى غير ذلك من الكتب كما ستراه إن شاء الله تعالى. ولم أر من تعرض لشرح هذا النظم غير مؤلفه فحيث أطلقت الشرح فهو المراد، وقد سميت هذا التعليق «نُخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب» والله أستعين في إتمامه، معتمدا على فضله وإنعامه، وإياه أرجوا أن يضع عليه القبول، فإنه المرجو والمامول، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهذا أوان الشروع في المقصود، باسم ربنا الملك المعبود، قال رحمه الله تعالى :

الحَمْدُ للّهِ الَّذِي بَيَّنَ مَا لِلْقَلْبِ مِن صَقْلٍ وَحَلْيٍ لَزِمَا

«**الحمد لله الذي بين**» لنا «**ما للقلب**» صلة «**من صقل**» من الأمراض «**وحلي**» له بالمقامات «**لزما**» أي أظهر ما لزم المكلف شرعا من صقل للقلب ومن حلي فكل ذلك تضمنه الكتاب والحديث. ابن عجيبة : التصوف مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين. الشعراني : كفى شرفا بعلم القوم قول موسى عليه السلام للخضر : ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾ وهذا أعظم دليل على وجوب طلب علم الحقيقة كما يجب طلب علم الشريعة. الشرنوبي : يقال : الشريعة أمر العبد بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية عند التحقق بمقام الإحسان المشار إليه في خبر أن تعبد الله كأنك تراه، والطريقة هي سلوك طريقة الشريعة مع العمل بالأحوط وعدم تتبع الرخص فالشريعة جاءت بتكليف الخلق والحقيقة إنباء عن تصريف الحق فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده، فقولك : إياك نعبد حفظ للشريعة وإياك نستعين إقرار بالحقيقة، فبطون الحقيقة في الشريعة والطريقة كبطون الزبد في اللبن لا يظهر بدون مخضه، والمراد من الثلاثة إقامة العبودية على الوجه المراد من العبد، وإنما وقعت التفرقة بين الحقيقة والشريعة بالنظر للغلبة في حال العابد والعارف فإن العابد لما كان يغلب عليه الوقوف مع الأعمال وإتقانها وإخلاصها سمي صاحب شريعة ولما كان العارف يغلب عليه حال الحق ويرى أن جميع ما هو فيه من فضله سمي صاحب حقيقة.

القشيري : الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مؤيدة بالشريعة فأمرها غير محصول.. ثم قال : واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره، والحقيقة أيضا شريعة من حيث أن المعارف به سبحٰنه وجبت بأمره، وقد قلت :

جمع الشريعة مع الطريقه	وجمع هاتين مع الحقيقه
لابد منه للذي قد سلكا	طريق الآخرة كي لا يهلكا
أما الشريعة فما الله أمر	به وما عنه عباده زجر
ثم الطريقة لدى كل نبه	جري على ذلك والعمل به
ونظر إلى بواطن الأمور	والفعل يشهد من الله الشكور
هو الحقيقة وتستبين	في قوله «إياك نستعين»

صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَٱلآلِ مَا كَانَ إِليهِ سُلَّماً وَسَلَّمَا

وفي أجوبة الفاسي : الشريعة والحقيقة لفظان متباينان من حيث المدلول، أما من حيث الحكم فالتفريق بينهما ودعوى التناقض ورفض إحداهما ربما كان كفرا أو زندقة كما قال زروق في عدة المريد وغيرها فالذم إنما هو لمدعي التناقض وأن الحقيقة إبطال للشريعة كما هو مشاهد كثيرا من جنوح مفتقرة العصر إلى الحقيقة ورفض الشرائع زاعمين الاستغناء عنها وأنهم ترقوا عنها !! وأنها ــ أي الشريعة ــ حظ العامة لا الخاصة، أي فهي خطاب للجمهور دون الخواص وكل ذلك من مخايل الزندقة نسأل الله العافية والسلامة، كيف والشرع جاء بهما معا ؟ ومرجعهما إلى شيء واحد من حيث الطلب، وإن كان أحدهما كمالا وتتميما للآخر فكمال الشيء لا يكون مناقضاً له، والمجموع شرع، كما أن الدين مجموع الإيمان والإسلام والإحسان مع أن الإحسان كماله وأعلى درجاته. «**صلى**» الله تعلى «**على محمد**» ﷺ «**والآل ما**» مصدرية ظرفية «**كان**» أي مدة كونه عليه السلام «**إليه**» تعلى «**سلما**» يعني واسطة «**وسلّما**» عليه فقد اقتضت حكمته تعلى أن يجعل الواسطة في كل إحسان وصل أو يصل إلينا محمدا ﷺ كما قال القطب مولانا عبد السلام ولاشيء إلا وهو به منوطٌ أي معلق استمدادا أو استنادا فإن الكل مستمد منه ﷺ ومستند إليه ومن جملة ما هو واسطة فيه نور المعرفة والإيمان، ووقع لبعضهم أنه قال : ليس لي من النبي ﷺ إلا الهداية وأما نور الإيمان فمن الله تعلى بلا واسطة، فقال له الأولياء : أرأيت لو قطعنا ما بين نور إيمانك وبين نوره ﷺ أترضى بذلك ؟ فقال : نعم، فما تم كلامه حتى سجد للصليب وكفر والعياذ بالله !! ولبعضهم :

ما أرسل الرحمٰن أو يرسل — من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه — من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده — نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها — يعلم هذا كل من يعقل

انظر شرح الشيخ الطيب وحاشيته للوزاني، وفي كشف القناع : قال بعضهم : كما يجب إكثار الذكر كذلك يجب إكثار الصلاة على النبي ﷺ إذ شكر النعم

والوسائط واجب وهو ﷺ نعمة كبرى من الله على أمته وواسطة بينه وبينهم فكل نعمة ظاهرة أو باطنة عاجلة أو آجلة إنما اتصلت لأمته بواسطته ﷺ. «**ما**» ظرفية أيضا «**نيرات درر التصوف**» مبتدأ خبره «**في غيرها**» من علم الشريعة حال كونها «**كدرة في صدف**» محركة غشاء الدر الواحدة بهاء، فالتصوف ثمرة العلوم فالشريعة هي الشجرة والحقيقة هي الثمرة. الشرنوبي : ومعلوم أن الحقيقة لا تكون إلا بعد الاغتراف من عين الشريعة فإن الحقيقة نتائج العلوم. وقال أيضا : إذا علمت أن الحقيقة ثمرة الشريعة بل هي عينها في الحقيقة على ما قاله السادة الأخيار فشم رائحة للشريعة قبل ادِّعاء الحقيقة تكن من أهل الاستبصار. الشيخ زروق : نسبة التصوف من الدين نسبة الروح من الجسد؛ لأنه مقام الإحسان الذي فسره رسول الله ﷺ لجبريل (أن تعبد الله كأنك تراه...) الحديث إذ لا معنى له سوى ذلك؛ إذ مداره على مراقبة بعد مشاهدة أو مشاهدة بعد مراقبة وإلا لم يقم له وجود ولم يظهر له موجود فافهم.

ولعله أراد بالمراقبة بعد المشاهدة الرجوع للبقاء بشهود الأثر بالله، قاله ابن عجيبة. الشعراني : اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعلم بالكتاب والسنة فكل من عمل بهما انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حين عملوا بما علموه من أحكامها فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة إذا خلا عمله من العلل وحظوظ النفس كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو فمن جعل علم التصوف علما مستقلا صدق ومن جعله من عين أحكام الشريعة صدق كما أن من جعل علم المعاني والبيان علما مستقلا فقد صدق ومن جعله من جملة علم النحو فقد صدق، لاكنه لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلا من تبحر في علم الشريعة حتى بلغ إلى الغاية. ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيها أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآدابا ومحرمات ومكروهات وخلاف الأولى نظير ما فعله المجتهدون،

وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئا لم تصرح الشريعة بوجوبه أولى من إيجاب ولي الله تعلى حكما في الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه كما صرح بذلك اليافعي وغيره، وإيضاح ذلك أنهم كلهم عدول في الشرع اختارهم الله عز وجل لدينه، فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعلى عن الشريعة، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة والشريعة هي وصلتهم إلى الله عز وجل في كل لحظة، ولكن أصل استغراب من لا له إلمام بأهل الطريق أن علم التصوف من عين الشريعة كونه لم يتبحَّرْ في علم الشريعة ولذلك قال الجنيد رحمه الله تعلى : علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة.. ردا على من توهم خروجه عنهما في ذلك الزمان أو غيره، وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عز وجل إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصِّها وعامِّها وناسخها ومنسوخها وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك فكل صوفي فقيه ولا عكس، وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم. وقال القشيري : لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به ولولا مزية وخصوصية للقوم لكان الأمر بالعكس. انظر بقية كلام الشعراني في الطبقات.

وقال اليوسي في قانونه ــ بعد أن عرَّف الفقه وأنه اصطلاحا ينحصر في قسمين عبادات ومعاملات ــ : إن علم التصوف فقه أيضا غير أن الفقيه اهتمامه بالأحكام الشرعية الظاهرة من حيث سقوط الحرج والذم وحصول الأجر وانضباط أمر المعاش، والصوفي اهتمامه بالأحكام الشرعية الظاهرة والباطنة من حيث طلب الكمال وإقامة العبودية لحق الربوبية ولم يظهر هذا الاسم إلا بعد مضي الصدر الأول، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا على بصيرة من أمرهم ويقين من ربهم وثبات في دينهم ولم يكن شيء أشرف من وصف الصحبة لهم فوصفوا به، ثم التابعون كذلك على أثرهم، فلما ذهب المشاهدون لنور النبوءة والمشاهدون لمن شاهده كرت الدنيا على الناس بزخارفها وأجلب الشيطن عليهم بخيله ورجله فداخلت القلوب الشهوات والغفلات، وكثرة الهفوات والرعونات، فانفرد قوم أحيا الله قلوبهم بنور الإيمان، وعصمهم من الدنيا والشيطن، بالدؤوب

وَكَسُطُورِ ٱلضَّادِ وَٱلطَّا ذَهَبَا   فِي جَنْبِ سَطْرٍ بِمِدَادٍ كُتِبَا

على سنن النبي ﷺ وسنن أصحابه من المحافظة على التقوى، ومداومة الرعوى، وترك الدعوى، والإعراض عن الدنيا وطلب رضى المولى، وهم الصوفية. انظر بقية كلامه.

ولاختلاف مشارب أهله عبر عنه كل بما يوافق مقامه فقال الجنيد : التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به، ومعناه استقامة العبودية بأن يفنى مراد العبد في مراد ربه وعلمه في علمه حتى لا يبقى إلا عبودية تعلقت بربوبية وربوبية تولت عبودية وهذا مقام رفيع وهو الذي طلبه أبو يزيد حيث قال : أريد أن لا أريد، وقيل التصوف استرسال النفس مع الله تعلى على ما يريد وهو كالأول، وقيل التصوف أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في الوقت، وقال سهل ابن عبد الله : الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله تعالى عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر. وقيل هو تجريد القلب إلى الله واحتقار ما سواه، وقيل هو صدق التوجه إلى الله تعلى بما يرضى من حيث يرضى فلكل من أعطي نصيبا من التوجه نصيب من التصوف غير أنه لتعدد الوجه تعدد التوجه وتنوع فكان لكل تصوف بحسب توجهه وتعريف يليق به، فقد يغلب على الإنسان مباشرة الأعمال الصالحات قولا وفعلا وهو العابد، وقد يغلب عليه ترك الدنيا وملاذها وتنظيف الذيل منها وهو الزاهد، وقد يغلب عليه ما مرَّ من العبودية والقيام بين يدي الله بلا علاقة وهو العارف، ولابد من اتصاف كل واحد بما لابد منه من وصف الآخر وإلا لم يعتبر، ولكل واحد مجاهدة وسلوك في بابه وبداية ونهاية قاله اليوسي أيضا.

«**و**» ما نيرات درره «**كسطور الضاد والطا ذهبا في جنب سطر بمداد كتبا**» قال في الإبريز عن شيخه عبد العزيز الدباغ : علم الباطن بمثابة من كتب تسعة وتسعين سطرا بالذهب وعلم الظاهر من كتب السطر المكمل المائة بالمداد ومع ذلك إذا لم يكن ذلك السطر الأسود مع سطور الذهب المذكورة لم تفد شيئا وقل أن يسلم صاحبها.

زروق : **قاعدة** : صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعلى

وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ فلزم تحقيق الإيمان ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ فلزم العمل بالإسلام فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف إذ لا عمل إلا بصدق توجه ولا هما إلا بإيمان إذ لا يصح واحد منهما بدونه فلزم الجمع لتلازمهما في الحكم كتلازم الأرواح الأجساد إذ لا وجود لها إلا فيها كما لا كمال لها ــ أي للأشباح ــ إلا بها، ومنه قول مالك رحمه الله تعالى : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق. قلت : تزندق الأول لأنه قائل بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام وتفسق الثاني لخلو عمله عن صدق التوجه الحاجز عن معصية الله وعن الإخلاص المشروط في الأعمال وتحقق الثالث لقيامه بالحقيقة في عين تمسكه بالحق انظر ابن عجيبة. وقال في شرح المباحث : فالفقه من غير تصوف جسد بلا روح والميت لا عبرة به، والتصوف من غير فقه ما يلزم الإنسان في نفسه لا يصح؛ إذ لا يدخل للحقيقة إلا من باب الشريعة وإلا فهي زندقة فالمتكلم في أحكام الإسلام يسمى فقيها، والمتكلم في أحكام الإيمان يسمى أصوليا، والمتكلم في أحكام الإحسان يسمى صوفيا ويسمى علمه تصوفا، فغاية التصوف ومداره تفسير مقام الإحسان لأنه دال بأوله على خشية الله وبأوسطه على معاملته وبآخره على معرفته. وقال في الخاتمة : علم التصوف أشرف العلوم لأن شرف العلم بشرف متعلقه ومتعلق علم التصوف أشرف المتعلقات؛ إذ هو دال بأوله على خشية الله تعلى التي هي نتيجة معرفته ومقدمة اتباع أمره وبأوسطه على معاملته وإحكام عبوديته وبآخره على معرفته والانقطاع إليه والتبري مما سواه حتى من وجود العبد وموجوده، ولأن نسبته من الدين نسبة الروح من الجسد لأنه مقام الإحسان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه... الحديث لأن معاني صدق التوجه لهذا الأصل راجعة وعليه دائرة كما دار الفقه على مقام الإسلام والأصول على مقام الإيمان فالتصوف أحد أجزاء الدين الذي علمه النبي ﷺ ليتعلمه الصحابة رضي الله عنهم، والدليل على فضل التصوف أيضا أن الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج والأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد والصوفي ينظر فيما يحصل به الكمال في الأول وفيما يتقوى به اليقين في الثاني، وطلب الكمال يستدعي إيثار الأحسن أبدا لقوله تعلى : ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ فالصوفي يأخذ من كل شيء بأحسنه، وأن

المفسر وصاحب الحديث كل منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا والصوفي يزيد بطلب الإشارة مع إثبات ما أثبتاه وإلا فهو باطني خارج عن الشريعة فضلا عن التصوف، وأن العلماء ورثوا من النبي ﷺ أقواله والعباد ورثوا منه أفعاله والصوفية ورثوا الجميع بزيادة الأخلاق الجميلة فسند العالم ﴿وقل ربّ زدني علما﴾ ومدد العابد من قيامه عليه السلام حتى تورمت قدماه [رواه ابن خزيمة] وموقف الصوفي عند قوله تعلى : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ قالت عائشة رضي الله عنها : كان خلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه [رواه مسلم] ﴿خذ العفو﴾ الآية، وبحسب هذا فالمتعلق بخلقه عليه السلام متعلق بكل ما له من علم وعمل وحال؛ لأنها تابعة للأخلاق. قال في المباحث الأصلية :

تبعـه العـالم في الأقـوال والعابـد النـاسك في الأفعـال
وفيهمـا الصوفي في السبـاق لكنـه قـد زاد بالأخـلاق

وقال الجنيد : لو أعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم لسعيت إليه لاكنه مقيد بما قيده به حيث قال : علمنا مؤيد بالكتاب والسنة فمن لم يسمع الحديث ويجالس العلماء ويأخذ أدبه عن المتأدبين زلت به قدمه أو كما قال، فحق على كل من أراد التمسك بهذا الفن أن يلازم العلماء ويتبع الفقهاء ويأخذ بما بان رشده ويدع ما لم يتضح له. وقال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله وأقل عقوبة من ينكره أن لا يرزق منه بشيء.

تنبيه : في الخاتمة أيضا أن الفقه مقدم على التصوف؛ لأن التصوف إنما يحصل في الغالب بعد مجاهدات ورياضات ولا تنتج تلك المجاهدات إلا بموافقتها لعلم الشريعة وإلا كانت عبثا وإتعابا. قال بعض الشيوخ : إذا بدأ المريد بكتب الحديث ثم لزم التصوف نفذ وإذا بدأ بالتصوف ثم كتب الحديث فتر، أي إذا ابتدأ بالتعبد والتقوى شغل بذلك عن العلم والسنن فخرج إما شاطحا وإما غالطا لجهله بالأصول والسنن؛ لأن من بدأ بالفرع قبل الأصل ضاع في حقه الأصل والفرع، وذلك كله لأن من ضيع علم الشريعة أولا ربما خدعه الشيطٰن بتزيينه له البدع والخروج عن سنن السلف فيتخذ إلٰهه هوٰيه فيلتحق بالمبتدعة ولو سلم من هذا الوجه فلا يؤمن عليه أن يستولي عليه سلطان الحقيقة وليس له من الشريعة ما

يقابله به فربما باح بالأسرار وهتكها ووجد الناس السبيل إلى الطعن عليه وتوجههم بالأذى إليه فيتكدر عليه صفوه ويمر عليه حلوه وسبب هذا كله تفريطه في علم الشريعة، وقال سيدي زروق : لما كان الفقه لا يصح التصوف بدونه كان التزامه مع صدق القصد به محصلا له فمن ثم كان الفقيه الصوفي أتم حالا من الصوفي الذي لا فقه له، قيل : كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها. وقال أيضا : نظر الفقيه أعم من نظر الصوفي ولذلك صح إنكاره عليه لا العكس، ولزم الرجوع من التصوف للفقه لا العكس باعتبار الحكم لا الترك وكفى أيضا الفقه عن التصوف ولم يكف التصوف عن الفقه، ومن ثم حض الأئمة على القيام بالظاهر علما وعملا مع السلامة، وقال عليه السلام للذي سأله عن غرائب العلم : «ما صنعت في رأس العلم ؟».

وقال المناوي في شرح الحكم : ومن قواعد الصوفية تقديم المهم في كل شيء فكل من طلب من علوم القوم دقيقها قبل علمه بجلي أحكام العبودية منها أو عدل عن جلي الأحكام إلى غامضها فهو مخدوع بهواه.. سيما إن لم يحكم الظواهر الفقهية ولم يحقق الفرق بين السنة والبدعة فهي البلية والرزية، ومن ذلك من طالبته نفسه بالتحلي — بالمهملة — قبل التخلي — بالمعجمة — أو ادعى لها ذلك فهو لاشك هالك.

وفي النصح الأنفع : قال ابن العريف : كل باطن تجرد عن الظاهر باطل وجيده من الحقيقة عاطل، وفي البصائر : قال الجنيد : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات أن تربَّع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة، وقال النووي : أبو الحسين : من رأيتموه يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تقربوه. وقال النصرابادي : أفضل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم كرامات المشائخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتاويلات والكلمات التي تروى عن بعضهم في التزهيد في العلم فمن أنفاس الشيطن كمن قال : نحن ناخذ علمنا من الحي الذي لا يموت وأنتم تاخذونه من حي يموت، وقال آخر : العلم حجاب بين القلب وبين الله... إلى أن قال : ومن فارق الدليل ضل عن السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة إلا الكتاب والسنة، والعلم

خير من الحال، الحال محكوم عليه والعلم حاكم، والعلم هاد والحال تابع، الحال سيف فإن لم يصحبه علم فهو مخراق لاعب، الحال مركوب لا يجارى فإن لم يصحبه علم القى صاحبه في المتالف والمهالك، دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة ودائرة الحال ربما تضيق عن صاحبه، العلم هاد والحال الصحيح مهتد به فهو تركة الأنبياء وتراثهم وأهله عصبتهم ووراثهم، انتهى باختصار فانظر بقيته.

وقال في المشرب : فالعلم الذي تقع به حياة القلوب والاهتداء إلى علاَّم الغيوب علمان مكسوبٌ وموهوب وكلاهما يقع به التطهير، الظاهر بالظاهر والباطن بالباطن، ويفهم من شرط الماء المطلق وهو غير النجس والمضاف أن الذي يقع به التطهر المعنوي إنما هو العلم الصحيح الصافي دون الأباطيل والوساويس أما الظاهر فالمعتبر منه ما أخذ من أصول الأحكام وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس بشرط أن يكون ذلك كله جاريا على سنن تاويل الراسخين والفقهاء المعتبرين، وأن يكون كل واحد بانيا على أساسه راجعا إلى أصله، وأما الباطن فالمعتبر منه ما أخذ أيضا من الكتاب والسنة على حسب ما فهمه وحرره أرباب القلوب من الصوفية وأهل البصائر المحققين لا الجهلة المدعين، وأما العلم الموهوب فالمعتبر منه ما هو من جنس ما يحصل لهؤلاء العارفين مما هو وارد رباني أو ملكي لا شيطاني ولا نفساني، وهذا هو ماء الغيب المشار إلى التطهر به في قول قائلهم وينسب للإمام الجنيد رضي الله عنه : تطهر بماء الغيب إن كنت ذا سر.. الأبيات المشهورة، وفي هذا الماء تقع الإضافة والنجاسة بورود الواردات النفسانية أو الشيطانية بما يضر أو بما لا يضر ولا ينفع، ويفهم أيضا من اشتراط طهورية الماء لكونه مصححا للطهارة المصححة للعبادة أن العبادة التي هي طريق الوصول والمجاهدة التي هي سبب القرب لابد أن تكون صافية غير مشوبة بما يفسدها من اختلال شرط أو فرض أو أدب ظاهر أو باطن سالمة من الزيادة التي لا تنبغي وإلا لم توصل إلى الغرض ولم تفد المطلوب. انتهى باختصار.

الشعراني : من شأن الفقير أن لا يدخل في طريق القوم إلا بعد تضلعه من علم الشريعة والحديث وإلا فيخاف عليه الزندقة والابتداع، لأنه ينفتح للسالك أمور بحيث لا ينضبط على شريعة، منها لا فاعل إلا الله ولا مالك إلا الله ولا موجود إلا الله، وهذا وإن كان حقا لاكن على هذا فالأحكام المأمور بها تتوجه

هَذَا وَقَدْ رَامَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَوَانَ ٱلاَشْغَالِ وَٱلِارْتِحَالِ
مِنِّي كِتَاباً فِي صَلاَحِ الْبَالِ إِذَا بِفَضْلِ ٱللَّهِ فِي إِسْبَالِ

على من ؟ يقول هو الآمر نفسه بنفسه وغير ذلك، فإن كان معه الميزان الشرعي وزن هذه الأمور وعلم أن لله الحجة البالغة.. إذا علمت ذلك علمت أنها طريق كثيرة المهالك والحفر والأوحال والمهاوي والحيات وغيرها؛ لأنها طريق مجهولة لا يعرف السالك فيها ما يستقبله من المهالك ولا أين ينتهي، فلابد من دليل له يمشي فيها به وهو نور الشرع مع نور البصيرة، قال الله تعلى : ﴿نور على نور﴾ فلو كان نورا واحدا لما ظهر له ضوء فافهم.

«**هذا وقد رام**» أي طلب «**لسان الحال أوان الاشغال والارتحال**» علي «**مني**» صلة رام «**كتابا في صلاح البال**» : القلب، قال في الخاتمة : التصوف علم بأصول يعرف بها صلاح القلب والحواس وأنواع الفضائل وكيفية اكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها، وهو أيضا تجريد القلب لله واحتقار ما سواه. «**إذا بفضل الله**» مبتدأ فالباء زائدة لأن إذا الفجائية تختص بالجمل الإسمية والخبر «**في إسبال**» أي كثرة، والفضل والإفضال والتفضل الإعطاء عن اختيار لغير غرض وقد قال رحمه الله تعلى : إنه بعثه على هذا الكتاب أنه لم يجد خلافا في وجوب التآليف المفيدة ولا في وجوب علم التصوف قلت : وكذا بعثني أنا أيضا على هذا الشرح يسره الله تعلى.

واعلم أن العلم قسمان علم الظاهر وعلم الباطن، قال القسطلاني : لو لم يكن من فضيلة العلم إلا آية شهد الله فبدأ الله تعلى بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفا، والعلماء ورثة الأنبياء كما ثبت في الحديث، وإذا كان لا رتبة فوق النبوءة فلا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة وغاية العلم العمل لأنه ثمرته وفائدة العمر وزاد الآخرة فمن ظفر به سعد ومن فاته خسر فإذاً العلم أفضل من العمل به لأنه يشرف بشرف معلومه والعمل بلا علم لا يسمّى عملا بل هو رد وباطل، وينقسم العلم بانقسام المعلومات وهي لا تحصى فمنها الظاهر والمراد به العلم الشرعي المقيد بما يلزم المكلف في أمر دينه عبادة ومعاملة، ومنها علم الباطن وهو نوعان الأول علم المعاملة وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة

فَجِئْتُ فِي جَوَابِهِ بِنَظْمِ فَصْلٍ يَفِي بِمُعْظَمِ ٱلأَهَمِّ
يُدْنِي ٱلْبَعِيدَ لِبَطِيءِ الفَهْمِ يَغْدُو بِهِ ٱلأُمِّيُّ غَيْرَ أُمِّي

فالمعرض عنه هالك بسطوة مالك الملوك في الآخرة كما أن المعرض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا وحقيقته النظر في تصفية القلب وتهذيب النفس باتقاء الأخلاق الذميمة التي ذمها الشارع كالرياء والعجب والغش وحب العلو والثناء والفخر والطمع ليتصف بالأخلاق الحميدة المحمدية كالإخلاص والشكر والصبر والزهد والتقوى والقناعة ليصلح عند إحكامه لذلك لعمله بعلمه ليرث ما لم يعلم فعلمه بلا عمل وسيلة بلا غاية وعكسه جناية وإتقانهما بلا ورع كلفة بلا أجرة فأهم الأمور زهد واستقامة لينتفع بعلمه وعمله، وأما النوع الثاني فهو علم المكاشفة وهو نور يظهر في القلب عند تزكيته فتظهر به المعاني المجملة فتحصل له المعرفة بالله تعلى وأسمائه وصفاته وكتبه ورسله وتنكشف له الأستار عن مخبئات الأسرار فافهم وسلم تسلم. انتهى منه باختصار.

الشيخ زروق : قد صح أن لا كمال إلا بالعلم ولا حصن للعلم إلا العمل فلا تسمع مقالة من صدك عن واحد منهما ولا من رجح واحدا في محل الآخر دونه، وبالله قل لي : إذا كان العلم وظيفة الوقت متى تقف عنه بين يدي الله وقفة صدق وحق وإذا جعلت العمل ديوان زمانك متى تصل إلى تحقيق أعمالك ؟. «**فجئت في جوابه بنظم**» أي منظوم، والنظم لغة جمع الجواهر في سلك على وجه مستحسن، وفي اصطلاح العروضيين الكلام الموزون الذي قصد وزنه فارتبط لمعنى وقافية. «**فصل**» أي واضح «**يفي**» من علم صلاح القلب «**بمعظم الأهم يدني البعيد**» منه «**لبطيء الفهم يغدو به**» أي يصير بسببه «**الأمي**» وهو الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة كأنه باق على أصل ولادة أمه له من الجهل بذلك والمراد به هنا ما هو أعم من ذلك «**غير أمي**» قال في الخاتمة : يصح أخذ الفقه والتصوف دون الأشياخ ولكن أخذه منهم أتم. قال سيدي زروق : أخذ العلم والعمل عن المشائخ أتم من أخذه دونهم ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾ فلزمت المشيخة سيما والصحابة أخذوا عنه عليه السلام وقد أخذ عن جبريل واتبع إشارته في أن يكون نبيا عبدا لا ملكا وأخذ

التابعون عن الصحابة فكان لكل اتباع يختصون به كابن سيرين وابن المسيب والأعرج وأبي هريرة وطاووس ووهب وابن عباس إلى غير ذلك فأما العلم والعمل فأخذه جلي فيما ذكر وكما ذكر، وأما الإفادة بالهمة فقد أشار إليها أنس بقوله : ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى أنكرنا قلوبنا فإن رؤية شخصه الكريم كان نافعا لهم في قلوبهم والعلماء ورثة الأنبياء حالا ومقالا وإن لم يدانوا المنزلة وهو الأصل في طلب القرب من أهل الله في الجملة؛ إذ من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها فلذلك أمر بصحبة الصالحين ونهي عن صحبة الفاسقين، وقال أيضا : وقد تشاجر فقهاء الأندلس من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب عن المشائخ ثم كتبوا للبلاد فكل أجاب على حسب فتحه وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة أولها النظر للمشائخ فشيخ التعليم تكفي عنه الكتب للبيب الحاذق الذي يعرف موارد العلم، وشيخ التربية تكفي عنه الصحبة لديِّن عاقل ناصح، وشيخ الترقية يكفي عنه اللقاء والتبرك وأخذ كل من وجه واحد أتم. الثاني النظر لحال الطالب فالبليد لابد له من شيخ يربيه واللبيب تكفي الكتب في ترقيه لاكنه لا يسلم من رعونة نفسه وإن وصل لابتلاء العبد برؤية نفسه، الثالث المجاهدات فالتقوى لا تحتاج إلى شيخ لبيانها وعمومها والاستقامة تحتاج للشيخ في تمييز الأصلح منها وقد يكتفي دونه اللبيب بالكتب ومجاهدة الكشف والترقية لابد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها لرجوعه عليه السلام للعرض على ورقة لعلمه بأخبار النبوءة ومبادىء ظهورها حين فاجأه الحق هذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها والله أعلم.

ابن عجيبة : أما من لم يصل إليه يعني شيخ التربية فلا يطمع في السير أبدا ولو جمع العلوم كلها وصحب الطوائف كلها وهذا أمر ذوقي لا أقلد فيه أحدا فقد صلينا كثيرا وصمنا كثيرا واعتزلنا كثيرا وذكرنا كثيرا وقرأنا القرآن كثيرا والله ما عرفنا قلوبنا ولا ذقنا حلاوة المعاني حتى صحبنا الرجال أهل المعاني فأخرجونا من التعب إلى الراحة ومن التخليط إلى الصفا ومن الإنكار إلى المعرفة... ثم قال : إن قول الحضرمي بانقطاع التربية إنما قصد به التحذير من مدعي أهل زمانه وحاشاه أن يتحكم على الله ويعجز قدرته وقد وجد بعد الحضرمي رجال كانوا من أهل التربية النبوية بالحال والمقال والهمة لا يمكن عدُّهم فانظره... ثم

فَقُلْتُ بَادِئـاً بِقَلْبِ ٱلْبَـدْءِ إِذْ هُوَ أَشْرَفُ مَعَالِي الْبَدْءِ

ذكر قوله في لطائف المنن : اعلم أنه لا يعوزك وجدان الدَّالِّين وإنما يعوزك وجدان الصدق في طلبهم جد صدقا تجد مرشدا.

وفي النصح الأنفع : قال أبو علي الثقفي : فلو أن رجلا جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس فلا يقتدى به حتى يأخذ أدبه عن شيخ وإمام. وفيه أيضا أما التمسك بالأموات فهو من قلة الاعتقاد في الأحياء وذلك من نقص الهمة اللهم إلا أن يكون ذلك على سبيل التعرض لنفحات الرحمة بالزيارة لطلب الزيادة فمدد الميت أقوى من مدد الحي لأنه في بساط الحق ولأن التعلق به عري عن الأغراض والعوارض من الاستئناس ونحوه وكرامة الله لأوليائه لا تنقطع بموتهم بل ربما زادت كما هو معلوم في كثير منهم.

«**فقلت**» حال كوني «**بادئا بقلب**» أي ببيان مقلوب «**البدء**» الذي هو الأدب أي مع الله تعلى وعلل بدأه به فقال : «**إذ هو أشرف معالي البدء**» أي السيد الأول في السيادة، والمعالي جمع معلاة كسب الشرف فالأدب أفضل الأعمال إذ بالآداب في الطاعة تصل إلى الله تعلى وبها تصل إلى الجنة وقد قالوا كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين، وقال ابن المبارك : الأدب أشرف أخلاق العبد، وقال أيضا : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم، وقال : الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف. وقال الجلال البصري : التوحيد يوجب الإيمان فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له، وقال أبو بكر الدينوري ما ارتفع من ارتفع بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة وإنما ارتفع بالأدب وحسن الخلق. وقال ابن أبي العشائر : لم يصل الأولياء إلى ما وصلوا إليه إلا بالأدب.

القشيري : روي عن ابن سيرين أنه سئل : أي الآداب أقرب إلى الله تعلى ؟ فقال : معرفة بربوبيته وعمل بطاعته والحمد لله على السراء والصبر على الضراء. وقيل للحسن البصري : قد أكثر الناس في علم الآداب فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا ؟ فقال : التفقه في الدين والزهد في الدنيا والمعرفة بما لله عز وجل عليك.

فَادُبْ مَعَ ٱللَّهِ عَلاَ وَجَلاَّ   بِأَنْ تُلاَزِمَ ٱلْحَيَا وَالذُّلاَّ
مُنكَسِراً تَحْتَ الحَيَا وَخَاضِعَا   تَحْتَ الْمَهَابَةِ إِلَيْهِ ضَارِعَا
مُلْغٍ مُرَادَكَ إِلَى مُرَادِهِ   خَالٍ مِنَ الطَّمَعِ فِي عِبَادِهِ

«**فادب**» أمر من أدب كظرف أي تأدب «**مع الله علا وجلا**» وذلك «**بأن تلازم الحيا**»ء بالمد وهو لغة تغيُّر يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، وشرعا خلق يبعث على اجتناب القبيح ويمنع من التقصير في حق ذوي الحق. وقد عده في نور البصر مما يبعث على التقوى.. قال : وهو مقام المراقبة. وقال الجنيد : رؤية الآلاء ـــ أي النعم ـــ ورؤية التقصير تتولد من بينهما حالة تسمَّى الحياء. ابن عطاء العلم الأكبر الهيبة والحياء فإذا ذهبت الهيبة والحياء لم يبق فيه خير، وفي الحديث : (الحياء خير كله) [رواه مسلم] وفيه (الحياء لا ياتي إلا بخير) [متفق عليه] وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ذات يوم لأصحابه : (استحيوا من الله حق الحياء فقالوا : إنا نستحيي يارسول الله قال : ليس ذلك ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلا ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا) المناوي : والحياء مراتب أعلاها الاستحياء من الله تعلى ظاهرا وباطنا وهو مقام المراقبة الموصل إلى مقام المشاهدة. القشيري : يقال : الحياء انقباض القلب لتعظيم الرب. «**والذلا**» حال كونك «**منكسرا تحت الحيا**» فمن خصائص الحضرة الإلٰهية أن لا يدخلها أحد إلا بوصف الذل والانكسار. قال الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه : أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها ازدحاما فأتيت باب الذل والانكسار فوجدته خاليا فدخلت منه وقلت هلموا إلى ربكم : نقله ابن عجيبة «**وخاضعا**» أي متذللا «**تحت المهابة إليه ضارعا**» أي خاضعا ذليلا مستكينا. القشيري : عن سعيد الحيري : الصحبة مع الله تعلى بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله تعلى بالاحترام والخدمة، والصحبة مع الأهل بحسن الخلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن مأثما، والصحبة مع الجاهلين بالدعاء لهم والرحمة عليهم. «**ملغ مرادك إلى مراده**» تعلى، قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : لن يصل الولي

مُبَادِراً لأَمْرِهِ وَمِنْ دَخَلْ إِسَاءَةِ ٱلأَدَبِ فِي أَيِّ وَجَلْ

إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته، وقال الشيخ أبو العباس : لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول أي حتى يزهد فيه أدبا واكتفاء بعلم الله، وقال المشائخ رضي الله عنهم : لا يكون العاقل عاقلا حتى يفتقر بعقله لكل عاقل ولا يكون العالم عالما حتى يفتقر بعلمه لكل عالم ولا يكون المريد مريدا حتى لا تبقى له إرادة. ولبعضهم :

تكون مريدا ثم فيك إرادة إذا لم ترد شيئا فأنت مريد

ابن عجيبة : أعظم الكرامة الفهم عن الله والرضى بقضاء الله وترك التدبير والاختيار مع الله وإقامة العبد حيث أقامهِ الله. «**خال من الطمع في عباده**» فهو من أعظم العيوب القادحة في العبودية بل هو أصل جميع الآفات لأنه محض تعلق بالناس والتجاء إليهم واعتماد عليهم وعبودية لهم وفي ذلك من المذلة والمهانة ما لا مزيد عليه ولا يحل للمومن أن يذل نفسه، والطمع مضاد لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العزة والعزة التي اتصف بها المومنون إنما تكون برفع هممهم إلى مولاهم وطمأنينة قلوبهم إليه وثقتهم به دون من سواه. ابن عجيبة : قال في التنوير : وإنما منع العباد من السبق إلى الله جواذب التعلق بغير الله فكلما همت قلوبهم أن ترحل إلى الله جذبها ذلك التعلق إلى ما به تعلقت فكَرَّتْ راجعة إليه ومقبلة عليه فالحضرة محرَّمة على من هذا وصفه وممنوعة على من هذا نعته. قال بعض العارفين : لا تظن أن تدخل الحضرة الإلٰهية وشيء من ورائك يجذبك، وافهم هنا قوله سبحٰنه : ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ والقلب السليم هو الذي لا تعلق له بشيء دون الله. «**مبادرا لأمره**» مجتنبا لنهيه، وقد قلت :

العبد مطلوب بشيئين هما إقامة الأمر بظاهر كما
في باطن تعلق بالخالق مستغنيا به عن الخلائق
فالله إن رزقه الأمرين لغاية الأمل في الدارين
أوصله كما عليه مننه أسبغها ظاهرة وباطنه

وقلت أيضا :

إن الحيـا أولى بـه مـولاكا فاستحي من موليك ما أولاكا
وذا بأن حيث نهاك لم يرك وليس يفقدك حيث أمرك

قال في الخاتمة : آداب الباطن معه تعلى بتفويض الأمر له، والتسليم له، والرضى بقسمته، ورفض الاختيار معه، ودوام اللجإ إليه والانكسار، والقيام بالحقوق على نعت الفناء عن كل مخلوق، وإطراق الطرف، وجمع الهم، ودوام الصمت، وسكون الجوارح، ومبادرة الأمر، واجتناب النهي، وترك الاعتراض على القدر ودوام الذكر، وملازمة الفكر، والإياس من الخلق، والخضوع تحت الهيبة، والانكسار تحت الحياء، والسكون عن حيل الكسب؛ ثقة بالضمان، والتوكل على فضل الله معرفة بحسن الاختيار. «و» أنت «**من دخل**» أي عيب «**إساءة الأدب**» الإضافة بيانية أي من دخل هو إساءة الأدب معه تعلى «**في**» وجل «**أي وجل**» أي خوف خبر المبتدإ المحذوف كما قررنا ويتعلق به قوله من دخل.. فإساءة الأدب عقوبتها قسمان : جلية بالعذاب لأجل الذنوب، وخفية بالطرد عن الحضرة الإلٰهية وتبدل الأنس بالوحشة وانتساخ الضوء بالظلمة. قال أحمد النوري : من لم يتأدب للوقت فوقته مقت. وقال ذو النون المصري : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء. الدقاق : ترك الأدب موجب يوجب الطرد فمن أساء الأدب على البساط رُدَّ إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب رُدَّ إلى سياسة الدوابِّ. وقد قال بعض العارفين : قد أكثر الناس الكلام في الأدب، ونحن نقول : هو معرفة النفس بعجزها وافتقارها إلى ربها، فإن من عرف نفسه بالعجز والافتقار فقد عرف ربه بالغنى والاقتدار، ومن عرف نفسه وربه بما ذكر تأدب في طاعته. ابن عباد : آكد ما ينبغي أن يجتنبه المريد من سوء الأدب أن يوطن خاطره على شيء من الاعتراض على الله تعلى وتعاطي التدبير معه، والتبرم بأحكامه المولمة في نفسه أو غيره، وأن يسرح لسانه بالشكوى إلى الخلق فإن خطر بباله أو جرى على لسانه شيء من ذلك فليبادر إلى الاستغفار منه والتقصي عنه، وليعلم أن تشاغله بذلك من أعظم الحسنات وأفضل القربات، وذلك يدخله في مقامات الرضى ويوصله إلى غاية النعيم والعطا، كما أن توطينه عليه وتهاونه به من أعظم خطاياه وأكبر ذنوبه، ويؤديه ذلك إلى تسخط الأقدار، والوقوع في دركات النار، نعوذ بالله من ذلك. انتهى باختصار.

إن تَتَحقَّقْ بِصِفَـاتِكَ تُمَـدْ   يَأَيُّها العَبْدُ بِأَوْصَافِ الصَّمَدْ
بِالذُّلِّ والْفَقْرِ تَحقَّقْ تَظْفَـرِ   بِالعِزِّ وَالغِنَـى مِـنَ المُقْتَـدِرِ

زروق : الآداب كلها منحصرة في خمسة **أولها** : حفظ الحرمة مع الله ومع من له نسبة من جانب الله من نبي أو ولي أو عالم أو غيرهم حتى عوام المسلمين على مراتبهم، **الثاني** : علو الهمة في أمر الدين والدنيا حتى لا يكون له تعلق بشيء من النقائص لا ظاهرا ولا باطنا وما جرى عليه من ذلك بادره بالتوبة، **الثالث** : حسن الخدمة بلزوم الاتباع وترك الابتداع والتبري من الحول والقوة في كل أمر، **الرابع** : نفوذ العزيمة بحيث لا يسمح للنفس في حل عزيمة ولا يتراخى في محل تشمير ولا يركن لموضع تقصير، **الخامس** : شكر النعمة وأصله شهود المنة وهو مبني على خالص التوحيد وخالص الإيمان ولكل من هذه معارض وقادح هو سوء الأدب في حق فاعله وله عقوبة من نوعه على قدر صاحبه.. فمن الناس من عقوبته بالعذاب، ومن الناس من يعاقب بصرفه عن مواقف الأحباب.

فائدة : المناوي : قال العارف ابن عربي : حرمة الحق في حرمة الشيخ وعقوقه في عقوقه، والمشائخ حجاب الحق الحافظون أحوال القلوب فمن صحب شيخا ممن يقتدى به و لم يحترمه فعقوبته فقدان وجود الحق في قلبه والغفلة عن الله وسوء الأدب عليه بأن يدخل عليه في كلامه ويزاحمه في رتبته فإن وجود الحق إنما هو للأدباء، ولا حرمان أعظم على المريد من عدم احترام الشيخ، ومن قعد معهم في مجالسهم وخالفهم فيما يتحققون به من أحوالهم نزع الله نور الإيمان من قلبه، فالجلوس معهم خطر وجليسهم على خطر.

«**إن تتحقق بصفاتك**» من ذل وفقر وعجز وضعف، والتحقق بها أن تراها لازمة لك فلا تنفك عن النظر إليها في حال من أحوالك.. «**تمد يا أيها العبد بأوصاف الصمد**» من عز وغنى وقدرة وقوة.. فإقرارك بأوصافك يرجعك إليه فتصير قادرا به غنيا به عزيزا به.. فيعود فقرك غنى وعجزك قدرة وضعفك قوة وذلُّك عزا؛ لأنك في محل الاضطرار وهو يجيب المضطر إذا دعاه، وفي مقام الرضى والصبر وهو مع الصابرين، ولذا قال : «**بالذل والفقر تحقق**» وكذا بالعجز والضعف «**تظفر بالعز والغنى**» والقدرة والقوة «**من المقتدر**» قال الشيخ أبو الحسن

وَلاَ نَجَاةَ كَنَجَـاةِ القَـلْبِ   إِذْ كُلُّ جَارِحٍ لَـهُ مُـلَبِّ
وَبَعْـدَ وَصِّ البَـدْإِ فَالإِتْقَـانُ   لِعِلَـلِ ٱلأَفْئِـدَةِ الثُّنْيَـانُ

الشاذلي رضي الله تعلى عنه : وتصحيح العبودية بملازمة الفقر والعجز والضعف والذل لله تعلى وأضدادها أوصاف الربوبية فمالك ولها ؟؟ فلازم أوصافك وتعلق بأوصافه وقل من بساط الفقر الحقيقي : يا غنيٌّ من للفقير غيرك ؟ ومن بساط الضعف يا قوي من للضعيف غيرك ؟ ومن بساط العجز يا قادر من للعاجز غيرك ؟ ومن بساط الذل يا عزيز من للذليل غيرك ؟ تجد الإجابة كأنها طوع يدك واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين.

«**ولا نجاة كنجاة القلب**» يعني لا صلاح كصلاحه أي ولا فساد كفساده. المناوي : سمي به لأنه محل الخواطر المختلفة الحاملة على الانقلاب أو لأنه خالص البدن وخالص كل شيء قلبه أو لأنه وضع في الجسد مقلوبا. «**إذ كل جارح له ملب**» أي مجيب ملازم لطاعته فبفساد القلب تفسد الجوارح وبصلاحه تصلح لخبر : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) [متفق عليه]، المناوي : وذلك لأنه مبدأ الحركات البدنية والإرادات النفسانية فإن صدرت عنه إرادة صالحة تحرك البدن حركة صالحة أو إرادة فاسدة تحرك حركة فاسدة، فهو ملك والأعضاء رعيته، وهي تصلح بصلاح الملك وتفسد بفساده، وفي الحديث : (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه) [رواه أحمد]. قال في الخاتمة : والظاهر تبع للباطن فإذا صلح المتبوع صلح التابع لأن الباطن أصل والظاهر فرع؛ لأن القلب ملك والجوارح جنوده وشأن الرعية طاعة الملك في الأمر والنهي، ولاشك أن الرعية تصلح بصلاح الملك وتفسد بفساده، فالقلب خزانة كل جوهر للعبد نفيس كالعقل والمعرفة التي هي سبب السعادة والبصائر والنية الصالحة وأنواع العلوم والحكم وسائر الأخلاق الشريفة، والقلب هو العالم بالله تعلى والعامل له والساعي إليه والمتقرب إليه والمكاشف بما عند الله والجوارح أتباع وخدم يستخدمها ويستعملها استعمال المالك للعبيد والراعي للرعية. «**وبعد وص البدإ**» أي إتقانه الوصُّ إحكام العمل من بناء أو غيره «**فالإتقان لعلل الأفئدة**» هو «**الثنيان**» بالضم للذي يجيء ثانيا

عِرْفَانُ أَمْرَاضِ القُلُوبِ وَسَبَبْ كُلٍّ وَمَا يُزِيلُهُ عَيْناً وَجَبْ
لَدَى الغَزَالِيِّ وَلَيْسَ لاَزِمَا ذَلِكَ مَنْ رُزِقَ قَلْباً سَالِمَا
مِنْهَا لَدَى غَيْرِ الغَزَالِي فَالْغَزَا لِيُّ يَرَى أَمْرَاضَهَا غَرَائِزَا

في السؤدد ولا يجيء أولا. «**عرفان**» حدود «**أمراض القلوب**» ككبر وعجب وحقد وحسد «**وسبب كل**» منها «**وما يزيله**» أي علاجه «**عينا وجب**» على كل مكلف «**لدى الغزالي**» وهو المختار كما في ابن حمدون، قال في النشر الطيب ويؤيده قول أبي الحسن الشاذلي : من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر.. يعني أمراض القلوب، وقول الإمام مالك : ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، وعلى الوجوب درج في محصل المقاصد[1] فقال :

به وصول العبد للإخلاص روح العبادة بالاختصاص
وذاك واجب على المكلف تحصيله يكون بالمعرِّف

أي شيخ التربية، وكذا يوخذ الوجوب من قول ابن عاشر : على الضروري من علوم الدين.. حيث جعل جميع ما ذكر من قبيل الواجب ضرورة. قلت : الحكم عليه بالوجوب العيني بالنظر إلى المهم منه كعلم أمراض القلوب وعلاجها أو بالنظر إلى أصله ومركزه وهو صدق التوجه إلى الله تعلى بما يرضى من حيث يرضى وإلا فهو علم كبير مشتمل على واجبات وفضائل وآداب، وإنما يحصل علاجها على الوجه الأكمل بمخالطة أطباء القلوب الذين سلكوا الطريق مَنَّ الله علينا بمعرفتهم آمين. انتهى منه باختصار.

قال في الخاتمة : وما سوى هذا العلم قد لا يحتاج إليه وربما أضر بصاحبه مداومته عليه، وهذا الفن لابُدَّ للمرء من مطالعته كل حين. قال ابن عباد : وليجعل المرء هجيراه مطالعة كتب التصوف وموالاة أهله بالتألف والتعرف فبذلك يقوى نور إيمانه ويقينه وتنتفي عنه الغرة. «**وليس لازما ذلك**» المذكور من عرفانها وسببها ودوائها «**من رزق قلبا سالما منها**» أي من هذه الأمراض المحرمة «**لدى غير الغزالي**» لأن الدواء إنما يحتاج إليه من به الداء «**فالغزالي يرى أمراضها غرائزا**»

---

(1) منظومة في علم الكلام تزيد على 1500 بيتا للعلامة أحمد بن محمد بن زكري (199هـ/1493م).

فِي الآدَمِيِّ وَسِوَاهُ غَالِبُهْ فِيهِ رَآهَا لاَ سَجَايَا لاَزِبَهْ

جمع غريزة الطبيعة «**في الآدمي**» فهي جِبِلِّيَّةٌ وقد لا يتفطن لحصولها فوجب البحث عن علاجها «**وسواه**» من العلماء «**غالبه فيه رآها لا**» أنها «**سجايا**» في الآدمي «**لازبه**» أي لازمة. ابن عجيبة : أما حكم الشارع فيه فقال الغزالي إنه فرض عين إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض إلا الأنبياء عليهم السلام، وقال الشاذلي : من لم يتغلغل... إلخ وحيث كان فرض عين يجب السفر إلى من ياخذه عنه إذا عرف بالتربية واشتهر الدواء على يده وإن خالف والديه حسبما نص عليه غير واحد كالبلالي والسنوسي وغيرهما، قال الشيخ السنوسي : النفس إذا غلبت كالعدو إذا فجأ تجب مجاهدتها والاستعانة عليها وإن خالف الوالدين كما في العدو إذا برز قاله في شرح الجزائرية.

القشيري : سئل أبو محمد عبد الله الرازي : ما بال الناس يعرفون عيوبهم ولا يرجعون إلى الصواب ؟ فقال : إنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ولم يشتغلوا باستعماله واشتغلوا بالظواهر ولم يشتغلوا بآداب البواطن فأعمى الله تعلى قلوبهم وقيد جوارحهم عن العبادات، قال في الشرح ولما كانت ــ يعني أمراض القلوب ــ لا تنحصر اكتفيت بالأهم ليقاس عليه غيره كما فعل ابن شاس وغيره مع أن من سلم من بخل وعجب وكبر ورياء وحسد وحب جاه ومال وشدة غضب وشهوة بطن وفرج سلم من غيرها، كما أن المنجيات تكفي منها عشر أيضا : شكر، زهد، رضا، حب، إخلاص، خشوع، حسن خلق، صبر بلاء، اعتدال خوف ورجاء توبة.

فائدة : في المناوي وشرح الإحياء حاول بعضهم جمع مساوىء الأخلاق فقال : هي الانتقاد على أهل الله، واعتقاد كمال النفس، والاستنكاف من التعلم والاتعاظ، والتماس عيوب الناس، وإظهار الفرح وإفشاؤه، وإكثار الضحك، وإظهار المعصية، والإيذاء، والاستهزاء، والإعانة على الباطل، والانتقام للنفس، وإثارة الفتن، والاختيال، والاستماع لحديث قوم وهم له كارهون، والاستطالة، والأمن من مكر الله، والإصرار على الذنب مع رجاء المغفرة، واستعظام ما يعطيه، وإظهار الفقر مع الكفاية، والبغي، والبهتان، والبخل، والشح، والبطالة،

والتجسس، والتبذير، والتعمق، والتملق، والتذلل للأغنياء لغناهم، والتعيير، والتحقير، وتزكية النفس، والتجبر، والتبختر، والتكلف، والتعرض للتهم، والتكلم بالمنهي، والتشدق، وتضييع الوقت بما لا يعني، والتكذيب، والتسفيه، والتنابز بالألقاب، والتعبيس، والتفريط، والتسويف في الأجل، والتمني المذموم، والتخلق بزي الصالحين زورا، وتناول الرخص بالتاويلات، والتساهل في تدارك الغيرة، والتهور، والتدبير للنفس، والجهل، وجحد الحق، والجدال، والجفاء، والجور، والجبن، والحرص، والحقد، والحسد، والحمق، وحب الشهرة، وحب الدنيا وحب الرياسة والجاه وإفشاء العيب والحزن الدائم، والخديعة والخبثة والخيانة وخلف الوعد والخيلاء والدخول فيما لا يعني، والذم والذل، والرياء والركون للأغيار ورؤية الفضل على الأقران، وسوء الظن والسعاية، والشماتة والشره والشرك الخفي وصحبة الأشرار، والصلف، وطول الأمل والطمع والطيرة وطاعة النساء وطلب العوض على الطاعة، والظلم، والعجلة والعجب والعداوة في غير الدين، والغضب والغرور والغفلة والغدر، والفسق والفرح المذموم، والقسوة وقطع الرحم، والكبر وكفران النعمة والعشير والكسل وكثرة النوم، واللوم، والمداهنة والملاحاة ومجالسة الأغنياء لغناهم والمزاح المفرط، والنفاق والنية الفاسدة، وهجر المسلم وهتك الستر، والوقوع في العرض والوقوع في غلبة الدين، واليأس من الرحمة.. فهذه كلها أخلاق خبيثة مذمومة عند الله تعلى.

وأما الأخلاق الحسنة فحاول بعضهم جمعها كما في المناوي فقال : الإحسان، والإخلاص والإيثار واتباع السنة والاستقامة والاقتصاد في العبادة والمعيشة والاشتغال بعيب النفس عن عيب الناس والإنصاف وفعل الرخص أحيانا والاعتقاد مع التسليم والافتقار الاختياري والإنفاق بغير تقتير وإنفاق المال لصيانة العرض والأمر بالمعروف وتجنب الشبهة واتقاء ما لابأس به لما به بأس وإصلاح ذات البين وإماطة الأذى عن الطريق والاستشارة والاستخارة والأدب والاحترام والإجلال لأفاضل البشر والأزمنة والأمكنة وإدخال السرور على المومن والاسترشاد والإرشاد بتربية وتعليم وإفشاء السلام والابتداء به وإكرام الجار وإجابة السَّائل والإعطاء قبل السؤال واستكثار قليل الخير من الغير واحتقار عظيمه من نفسه، وبذل الجاه والجهد، والبشر والبشاشة، والتواضع والتوبة والتعاون على البر

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْمَحْوَ حَتَّى لاَ أَثَرْ   لَهُنَّ يَبْقَى لَيْسَ فِي طَوْقِ الْبَشَرْ

والتقوى والتؤدة والتأني وتدبير المنزل والمعيشة والتفكر والتكبر على المتكبر وتنزيل الناس منازلهم وتقديم الأهم والتبصر والتغافل عن زلل الناس وتحمل الأذى والتهنئة والتسليم لمجاري القدر، وترك الأذى والبطالة، ومعاداة الرجال والتكلف والمراء والتحميض لدفع الملالة والتحدث بألنعمة والتكثير من الإخوان والأعوان وتجمل الملبس والتسمية باسم حسن مع تغيير اللقب القبيح، والتوسعة على العيال وتجنب مواقع التهم ومواضع الظلم والكلام المنهي عنه والتعرف بالله والتطبب بالطب النبوي، والثبات في الأمور والثقة بالله، وجهاد النفس وجلب المصالح، والحب في الله والبغض في الله والحلم والحياء وحفظ الأمانة والعهد والعرض وحسن الصمت والتفهيم والتعقل في المقال والسمت والظن والحزم، وطلب المعيشة والمعاشرة والحمية، وخدمة الصلحاء والفقراء والعلماء والإخوان والضيف، والخشوع وخوف الله وخداع الكفار، ودرء المفاسد ودوام التفكر والاعتبار والدأب في طلب العلم، والذلة لله، والرفق في المعيشة ورحمة الصغار والمساكين واليتيم والحيوان والمريض، والرضى بالدون من المجالس والرجاء والرقة للغير لتأذيه، والزهد، والسخاء والسماح والسلام عند اللقاء حتى على من لا تعرفه، والشجاعة والشهامة والشفاعة والشكر، والصبر والصدق والصلح والصداقة والصحبة وصلة الرحم والصمت والصوم، وضبط النفس عن النفرة، وطهارة الباطن، والعفة والعدل والعفو والعزلة وعلو الهمة، والغضب لله والغيرة لله الحميدة، والغبطة، والفزع إلى الصلاة عند الشدائد والفراسة وفعل ما لابدّ منه، والقيام بحق الحق في الخلق وقبول الحق وقوله وإن كان مُرّاً والقنع وقضاء حوائج الناس، وكظم الغيظ وكفالة اليتيم، ولقاء القادم ولزوم الطهارة والتهجد والصلوات المأثورة والفوائد الجميلة، والمدارات والمخاطبة بلين ومحاسبة النفس ومخالفتها والمعاشرة بالمعروف ومعرفة الحق لأهله ولمن عرفه ذلك ومحبة أهل البيت والمكافأة والمزح القليل، والعدل، والنهي عن المنكر والنصح والنزاهة، والورع، وهضم النفس، واليقين ونحو ذلك.

«**واعلم بأن المحو**» لتلك الأمراض «**حتى لا أثر لهن يبقى ليس في طوق البشر**»

وَهَـا أَنَـا آتِيكَ بِٱلْكَفَـــافِ   مِنْ حَدِّهَا وَٱلأَصْلِ وَٱلأَشَافِي
فَمَنْعُ مَا يَجِبُ شَرْعاً أَوْ مُرُو   ءَةً هُو البُخْلُ اللَّذَيَّا يُذْكَـرُ

المناوي : قالوا : لا يصح زوال ما كان جبليا في النشأة، وإنما العبد يوقى العمل بالصفات المردية، ولهذا قال تعلى : ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ ولم يقل ومن يزل شح نفسه ولهذا عين الشارع للصفات مصارف فقال : «لا حسد إلا في اثنتين» [متفق عليه] فحث على الحسد الذي هو غبطة أهل الخير لا على تمني زوال النعمة ونهى عن التبختر في المشي وأباحه في الحرب ليقهر به العدو، وقس عليه، فإن ما في أصل النشأة محال أن يزول إلا بانعدام الذات. وقال زروق : ما جبلت عليه النفوس لا يصح انتفاؤه عنها، بل ضعفه وقوته فيها وتحويله عن مقصد لغيره كالطمع لتعلق القلب بما عند الله توكلا عليه ورجاء فيه والحرص على الدار الآخرة بدلا من الدنيا، والبخل فيما حرم ومنع، والكبر على مستحقه، وكرفع الهمة عن المخلوقين حتى تتلاشى في همته جميع المقدورات فضلا عن المخلوقات، والحسد للغبطة والغضب لله حيث أمر به، والحقد على من لا نسبة له من الله حسب إعراضه والتعزز على الدنيا وأهلها والانتصار للحق عند تعينه إلى غير ذلك... قال : وفائدة التدقيق في أحوال النفس وتعرفها وتعرف دقائق الأحوال معرفة المرء بنفسه وتواضعه لربه ورؤية قصوره وتقصيره وإلا فليس في قوة البشر التبري من كل عيب بإزالته إذ لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك ومحو دعاويك لم تصل إليه أبدا فافهم.

«**وها أنا آتيك بالكفاف**» أي بما يكفي «**من حدها والأصل**» الذي تنشأ عنه «**والأشافي**» جمع أشفية جمع شفاء، وقد ياتي بالحد فقط كما في البغي أو به وبالدواء كما في البطر أو بالدواء فقط كما في البغض، ثم إن الدواء دواءان دواء الجملة وهو الآتي في قوله : وطب أمراض القلوب... إلخ ودواء التفصيل وقد بدأ به مرتبا للأمراض على حروف المعجم فقال : «**فمنع ما يجب شرعا**» أي بالشرع «**أو مروءة**» أي يجب بها وبالعادة «**هو البخل اللذيا**» مصغر الذي «**يذكر**» من الأمراض أي يحسب ويعد، فمن منع واحدا منهما فهو بخيل ولكن من يمنع واجب الشرع أبخل. قال في كتاب الأربعين : اعلم أن البخل من المهلكات العظيمة قال

فَٱلْوَاجِبُ الشَّرْعِيُّ كَٱلزَّكَـاةِ وَٱلنَّفَقَـاتِ وَحُقُـوقِ ٱلنَّـاتِ
وَفَكِّ نَفسٍ وَمِثَالُ ٱلآخَـرِ تَرْكُ المُضَايَقَةِ فِي مُحَقَّـرِ
وَتَرْكُ الِاسْتِقْصَاءِ فِيهِ أَحْرَى مِنْ جَارٍ اوْ قَرِيبٍ اوْ مَن أَثْرَى

الله تعلى : ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ وقال الله تعلى : ﴿ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتيهم الله من فضله﴾ الآية وقال تعلى : ﴿الذين يبخلون ويامرون الناس بالبخل﴾ الآية وقال ﷺ : (إياكم والبخل فإنه أهلك من كان قبلكم) وقال ﷺ : (السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخي والبخل شجرة تنبت في النار فلا يلج النار إلا بخيل) وقال ﷺ : (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) وقال ﷺ : (شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع) وقال ﷺ : (إن الله يمقت البخيل في حياته ويحب السخي عند موته) وقال ﷺ : (السخي الفاجر أحب إلى الله من العابد البخيل) وقال ﷺ : (لا يجتمع اثنان في مؤمن البخل وسوء الخلق). وفي الجامع الصغير : (ثلاث منجيات خشية الله تعلى في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الفقر والغنى وثلاث مهلكات هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه) المناوي : قال الراغب : خص المطاع لينبه أن الشح في النفس ليس مما يستحق به ذم؛ إذ ليس هو من فعله وإنما يذم بالانقياد له. «**فالواجب الشرعي كالزكاة**» يمنع أداءها «**والنفقات**» على العيال والأهل فلا ينفق عليهم «**وحقوق النات**» كدين وصلة رحم «**وفك نفس**» كترك مواساة مضطر «**ومثال الآخر**» الذي هو الواجب مروءة «**ترك المضايقة في محقر**» فمن سلم إلى عياله القدر الذي فرضه القاضي عليه ثم ضايقهم في لقمة زادوها عليه أو تمرة أكلوها من ماله عد بخيلا مع أنه لم يضايق في القدر الواجب شرعا «**وترك الاستقصاء**» والتدقيق «**فيه**» أي في المحقر، فمن رد لحما مثلا إلى القصَّاب وخبزا إلى الخباز لنقصان قدر منه يسير عد بخيلا وإن كان له ذلك في الشرع لكنه مستقبح مخالف وصف الكرم، وقد روي عن علي رضي الله عنه : ما استقصى كريم حقه قط. ثم إن ما ذكر من المضايقة والاستقصاء قد يكون في حال وفي شخص يستقبح أشد الاستقباح دون حال وشخص كما قال : «**أحرى**» إن كان ما ذكر «**من جار**» فيستقبح منه ما لا يستقبح مع البعيد «**أو قريب**» فيستقبح منه ما لا يستقبح مع الأجنبي «**او**» كان من «**من**

أَوْ فِي الضِّيَافَةِ وَمَا لَمْ يَحْسُنِ ذَلِكَ فِيــهِ كَشِرَاءِ كَفَــنِ
أَوِ الضَّحِيَّةِ وَشَيْءٍ يُشْتَـرَى تُرِيـدُ أَنْ تَصْرِفَـهُ لِلْفُقَــرَا
فَمَنْ يُضَايِقُ مِنَ الْمُضَايَقَـهْ فِي حَقِّهِ كَالْجَارِ غَيْرُ لائِقَهْ
هَتَكَ أَسْتَارَ الْمُرُوءَةِ كَمَـا قَالَ أَجِلاَّءُ الْهُدَاةِ الْحُكَمَـا
كَمَنْ يُؤَدِّي الْوَاجِبَاتِ دُونَـا طَيْبَةِ نَفْسٍ أَوْ يَؤُمُّ الدُّونَـا

أثرى» فمن كثر ماله يستقبح منه ما لا يستقبح من الفقير «**أو في الضيافة**» فيستقبح فيها من المضايقة ما لا يستقبح أقل منه في المبايعة والمعاملة «و» في «**ما لم يحسن ذلك**» المذكور من المضايقة بل يستقبح «**فيه كشراء كفن**» لميت «**أو**» شراء «**الضحية و**» بمعنى أو «**شيء يشترى**» كخبز مثلا «**تريد أن تصرفه للفقرا**» ثم إذا تقرر هذا «**فمن يضايق**» في الأمور الحقيرة «**من المضايقة في حقه كالجار**» والقريب «**غير لائقه**» لقبحها «**هتك أستار المروءة**» لحب المال فهو بخيل «**كما قال أجلاّء الهداة الحكما**» كالغزالي وذلك لأن صيانة المروءة أهم من حفظ المال، والمراد بالمروءة هنا الإنسانية وهي الصفة التي يصير بها الإنسان إنسانا كاملا، قاله الزبيدي. ابن زكري : المروءة عبارة عن الخصال المحمودة والأخلاق التي يكمل المرء بها.. مصدر مرء بضم العين. «**كمن يؤدي الواجبات**» كالزكاة «**دونا طيبة نفس**» منه بها، بل يشق عليه أداؤها ويستصعبه فهذا بخيل بالطبع، وإنما يتسخى بتكلف من غير انشراح صدر «**أو يؤم الدونا**» أي يقصد الردي من ماله فمنه ينفق، ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه وقد قال تعلى : ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ فهذا بخل. واعلم أن هذا من قسم الواجب بالشرع فالصواب الإتيان به هناك والله تعلى أعلم انظر الإحياء. قال في كتاب الأربعين : والتحقيق فيه أي في حد البخل أن المال خلق لفائدة لأجلها يمسك وفي بذله أيضا فائدة فمهما ظهر أن فائدة البذل أعظم من فائدة الإمساك ثم شق عليه البذل فهو بخيل محب للمال، والمال لا ينبغي أن يحب لذاته بل لفائدته فيصرف إلى أقوى فائدة وحفظ المروءة أفضل وأقوى من التنعم بالأكل الكثير مثلا وقد يحمله البخل وحب المال على أن يجهل أقوى الفائدتين وأولاهما وذلك

وَأَصْلُهُ حُبُّ الدُّنَا لِذَاتِهَا ... أَوْ لِتَنَالَ النَّفْسُ مِن لَذَّاتِهَا
عَالِجْ بِمَنْ بِجَمْعِهَا قَدْ تَعِبُوا ... دَهْراً طَوِيلاً فَحَوَوْا مَا طَلَبُوا
فَبَيْنَمَا هُمْ دَارِجُو مَرَاقِي ... زَهْرَتِهَا إِذْ هَجَمَتْ حَلَاقِ
وَبِازْدِرَاءِ الْبُخَلَا وَبُغْضِهِمْ ... فِي ٱلنَّاسِ حَتَّى بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ

غاية البخل فإن علم وعسر عليه البذل فهو بخيل أيضا وإن بذل تكلفا، بل إنما يبرأ من البخل بأن لا يثقل عليه بذل المال فيما ينبغي أن يبذل فيه عقلا وشرعا، وأما درجة السخاء فلا تنال إلا ببذل ما يزيد على واجب الشرع والمروءة جميعا. «**وأصله حب الدنا**» أي المال، ولذلك الحب سببان كما قال: إما «**لذاتها**» بأن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على عادة نفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض «**أو لتنال النفس من لذاتها**» وشهواتها ما شاءت ولا وصول إلى ذلك إلا بالمال مع طول الأمل فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما لا يبخل بماله إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو سنة قريب وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد قام الولد مقام طول الأمل فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك المال لأجلهم؛ ولذا قال عليه السلام: (الولد مبخلة مجبنة مجهلة) [رواه أحمد والحاكم] فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة. «**عالج**» كل علة بمضادة سببها فحب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر، وعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت و«**بمن**» أي بالنظر في الأقران من أشكالك الذين «**بجمعها قد تعبوا دهرا طويلا فحووا ما طلبوا**» منها «**فبينما هم دارجو**» درج كصعد وزنا ومعنى أي صاعدو «**مراقي زهرتها**» أي حسنها وبهجتها، والمراقي جمع مرقاة بالكسر للدرجة. «**إذ هجمت**» عليهم من باب نصر أي انتهت إليهم بغتة أو دخلت بلا إذن «**حلاق**» من أسماء الموت فضاعت أموالهم بعدهم ولم تنفعهم، بل كانت وبالا عليهم. «**و**» عالج أيضا بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العذاب العظيم و«**بـ**»ـكثرة التأمل في «**ازدراء البخلا**» أي احتقارهم واستقذارهم «**وبغضهم في**» قلوب «**الناس**» ونفرة الطبع عنهم «**حتى**

بعضهم» مبغض «لبعضهم» فكل بخيل يستقبحه من غيره ويستثقل كل بخيل من أصحابه. قال في كتاب الأربعين : اعلم أن دواءه معجون مركب من العلم والعمل، أما العلم فهو أن تعلم ما في البخل من الهلاك في دار الآخرة والمذمة في الدنيا وتعلم أن المال لا يتبعه إن بقي إلى قبره وإنما المال لله تعلى مكنه منه ليصرفه إلى أهم أموره وتعلم أن إمساك المال إن كان للتنعم في الشهوات فحسن الأحدوثة وثواب الآخرة أعظم وألذ منه، فقضاء الشهوة سجية البهائم وهذه سجية العقلاء، وإن كان يمسكه ليتركه لولده فكأنه يترك ولده بخير ويقدم على ربه بشر وهذا عين الجهل، كيف وولده إن كان صالحا فالله تعلى يكفيه وإن كان فاسقا فيستعين به على المعصية ويكون هو سبب تمكنه منها فيتضرر هو ويتنعم غيره، وأما العمل فهو أن يحمل نفسه على البذل تكلفا ولايزال يفعل ذلك حتى يصير له عادة، ومن نوافذ حيله فيه أن يخدعه بحسن الاسم وتوقع المكافأة حتى يرغب في البذل ثم بعد ذلك يتدرج أيضا إلى قمع هذه الصفات.

فتح الحق : في بعض الكتب المنزلة : ابن آدم مهلا فإن الرزق مقسوم والحريص محروم والبخيل مذموم والحسود مغموم والدنيا لا تدوم والرازق الحي القيوم.

وإنما يتخلص من البخل بإدمان العطاء لكن يجب أن يكون في اقتصاد فإن الله تعلى لا يحب المسرفين ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ وقال : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ وقال جل وعلا : ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ الآية وقال ﷺ : (ما عال من اقتصد) [رواه أحمد] والاقتصاد التوسط في المأكل والملبس بحيث لا يذمك السخي ولا يبالغ في السخرية بك البخيل.

فائدة : القشيري : لا فرق على لسان العلم بين الجود والسخاء، ولا يوصف الحق سبحانه بالسخاء لعدم التوقيف، وحقيقة الجود أن لا يصعب عليه البذل، والسخاء عند القوم يحتمل المرتبة الأولى ثم ياتي الجود بعده ثم الإيثار، فمن أعطى بعض الناس وأبقى بعضهم فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئا فهو صاحب جود، والذي قاسى الضرر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار.

وَمَا بِهِ عَالَجْتَهُ عَالِجْ بِهِ ... مَن كَانَ حُبُّ المَالِ دَاءَ قَلْبِهِ
وَٱلْبَطَرُ المَرَحُ جِدّاً وَالْمَرَحْ ... فَسِّرُهُ المِلْحُ بِشِدَّةِ الفَرَحْ
عَالِجْهُ بِالجُوعِ وَذِكْرِ الآخِرَهْ ... وَلاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ الزَّاجِرَهْ
وَالبُغْضُ لاَ فِي جَانِبِ العَلِيِّ ... دَوَاؤُهُ الدُّعَاءُ لِلْمَقْلِيِّ

وعنه أيضا قال بشر ابن الحارث : النظر إلى البخيل يقسي القلب. «**وما به عالجته عالج به**» أيضا «**من كان حب المال داء قلبه**» لأن حب المال سبب البخل كما مر. «**والبطر المرح جدا والمرح فسره الملح بشدة الفرح**» والتوسع فيه. القاموس : البطر محركة النشاط والأشر وقلة احتمال النعمة والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهة، فعل الكل كفرح. وفي الحديث : (الكبر بطر الحق وغمص الناس) [رواه أبو داوود والترمذي] معنى بطر الحق أن يجعل ما جعله الله حقا من توحيده وعبادته باطلا، وأصل البطر مأخوذ من قول العرب ذهب دمه بطرا أي باطلا، هذا قول الكسائي، وقال الأصمعي : البطر الحيرة، ومعناه أن يتحير عند الحق فلا يراه حقا. وقال الزجاج : البطر أن يطغى أي يتكبر عند الحق فلا يقبله. «**عالجه بالجوع**» فقد عدّ في الإحياء من فوائد الجوع الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعلى فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع فإن فيه إماتتها واستكانتها وضعفها وفي ذلك حياة القلب. «**وذكر الآخره و**» تذكر آية : ﴿لا تفرح إن الله «**لا يحب الفرحين**﴾ **الزاجره**» عنه. وفي فتح الحق أن الثعالبي في تفسيره قال في قوله تعلى : ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ يدل على أن الفرح المنهي عنه ما أدى إلى الاختيال، وأما الفرح بنعم الله تعلى المقترن بالشكر والتواضع فإنه لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه ولا حرج فيه. «**والبغض**» لمومن «**لا في جانب العلي**» بل بهوى النفس دون موجب شرعي ففي الصحيحين (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا) وأما بغضه على معاصي الله تعلى وهتك حرماته فليس من هذا القبيل بل هو مندوب إليه؛ إذ من قوة الإيمان الحب في الله والبغض في الله ومن ضعف الإيمان عدم الحب في الله وعدم البغض في الله. «**دواؤه الدعاء للمقلي**» أي لمن أبغضته فإن وسوسة

هَذَا وَلاَ تَاثَمْ إِنْ قِلاَهُ تَكْرَهْ وَلَمْ تَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهُ
وَٱلْبَغْيُ قَالَ فِيهِ فَتْحُ الحَقِّ إِذَايَةُ الخَلْقِ بِغَيْرِ حَقِّ
مُدَامُهَا الْقَرْقَفُ حُبُّ الْمَنْزِلَهْ فَاذْكُرْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تُخَلِّلَهْ
كَمْ مِنْ أَمِيرٍ نَالَ مِنْهَا أَمَلَهْ ثُمَّ اسْتَوَى السَّاجِدُ وَٱلْمَسْجُودُ لَهْ

الشيطن تنقطع بذلك عنك والخروج من الإثم يحصل بأن تكره ذلك من نفسك وأن لا تعمل بمقتضى بغضه كما قال: «**هذا ولا تاثم**» ببغضك له «**إن قلاه**» بالكسر أي بغضك له «**تكره**» من نفسك «**ولم تعمل بمقتضاه**» فلم توذه. «**والبغي**» الظلم والتعدي ومنه إذا حسدت فلا تبغ، وقال الهروي: الاستطالة على الناس والكبر والفساد ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أي فسادكم راجع إليكم، و«**قال فيه فتح الحق**» للشيخ محمذن فال بن متالي: هو التعدي و«**إذاية الخلق**» بقول أو غيره «**بغير حق**» شرعي وقد قال تعلى: ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ وقال ﷺ: (لا تمكر ولا تعن ماكرا ولا تبغ ولا تعن باغيا) وقال ﷺ: (أسرع الخير ثوابا صلة الرحم وأعجل الشر عقابا البغي واليمين الفاجرة) وعن ابن عباس: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي! وكان المامون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة فاربع فخير فعال المرء أعدله
فلو بغى جبل يوما على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله

وأما الإذاية بحق شرعي فقد تجوز وقد تطلب كالتقبيح على من يترك تعليم طفله وكتعزير الإمام لمن عصى الله تعلى. «**مدامها**» أي خمر أمراض القلوب «**القرقف**» كجعفر الخمر يرعد عنها صاحبها «**حب**» قيام «**المنزله**» في القلوب، وذلك معنى الجاه وهو مذموم بل المحمود الخمول أي خفاء الذكر والقدر إلا من شهره الله لنشر دينه من غير طلب منه كما يشهر الأنبياء والخلفاء الراشدين والعلماء والأولياء، قال في الإحياء: حب الجاه هو منشأ كل فساد. «**فاذكر إذا أردت أن تخلله**» أي أن تجعل ذلك المدام خلا «**كم**» يحتمل أن تكون مفعول اذكر على لغة رديئة تخرجها عن الصدرية «**من أمير نال منها**» أي المنزلة «**أمله**» أي رجاءه «**ثم**» كان آخر ذلك أن «**استوى الساجد**» أي الخاضع «**والمسجود له**». فليس الجاه من الباقيات الصالحات التي تستمر إلى ما بعد الموت، بل لو سجد

وَأَنَّهُ مَيْلٌ عَنِ ٱلْمَوْلَى إِلَى عِبَادِهِ الْمُفْتَقِرِينَ الْبُخَلا
وَأَنَّ فِي رَعْيِ ٱلْقُلُوبِ تَعَبَا إِن تُرْضِ بَعْضاً فَرَّ بَعْضٌ غَضَبَا
وَلَكِنِ الْحَرَامُ مِنْهُ مَا رُعِي بِخَدْعٍ اوْ رِيَاءٍ اوْ تَصَنُّعِ

لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب فإلى خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له غالبا ويكون حالك كحال من مات من ذوي الجاه مع المتواضعين له «و» اذكر «**أنه ميل عن المولى إلى عباده المفتقرين البخلا**» قال في كتاب الأربعين : إذا علمت أن أهل الأرض لو سجدوا لك مثلا لما بقي إلا مدة قريبة لا الساجد ولا المسجود له، كيف ويشح الدهر عليك بأن يسلم لك الملك في محلتك فضلا عن قريتك أو بلدتك فكيف ترضى أن تترك ملك الأبد والجاه الطويل العريض عند الله تعلى وعند ملائكته بجاهك الحقير المنغص عند جماعة من الحمقى لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يملكون لك موتا ولا حياة ولا نشورا ولا رزقا ولا أجلا ؟! «و» اذكر «**أن في رعي القلوب**» أي في الاشتغال بمراعاتها وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء «**تعبا**» وكدرا متواصلا وغما عاجلا وذلك لأنها أشد تغييرا وانقلابا من القِدر في غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض فـ«**بإن ترض بعضا**» منها ليلا تتغير منزلتك فيه «**فر بعض**» منها وانقلب حال كونه «**غضبا**» ككتف أي غضبان أو بالتحريك أي لأجل الغضب فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لا ثبات له. وفي الشعراني بعد كلام ما نصه : وبالجملة فمن كان قصده التعظيم عند الخلق لم يزل في تكدير؛ لأنه لابد في الوجود من منكر عليه وطلبه من جميع الخلق أن يقبلوا عليه بالثناء والحمد والاعتقاد جهل منه فلابد من ذام ومادح ولو كان في فضل نحو الصحابة رضي الله عنهم «**ولكن الحرام منه**» أي من رعيها هو «**ما رعي**» أي رعيها طلبا للمنزلة «**بخدع**» باعتقاد صفة فيه هو منفك عنها كعلم وورع ونسب فيظهر أنه علوي أو عالم أو ورع ولا يكون في نفس الأمر كذلك سواء كان ذلك بالقول بأن نطق به أو بالمعاملة كالتزيي بهيئة العلماء أو الزهاد أو الشرفاء، وكذا لو زعم فيه ذلك وسكت على زعمه فهو أيضا حرام فيجب عليه نفي ذلك عنه. «**او رياء**» بعبادة فالتوصل إلى الجاه بها جناية على الدين «**او تصنع**»

وَمُبْتَغِي رِضَاهُمُ لاَ يَنتَظِرْ رِضَى المُصَوِّرِ العَزِيزِ المُقْتَدِرْ

القاموس : التصنع تكلف حسن السمت والتزيين. زروق : التصنع تحسين العمل والتكلف بالهيئات وغيرها لأجل الخلق وهو قادح في كمال العمل. قال في الإحياء : ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ليحسن فيه اعتقاده فإن ذلك رياء وهو ملبس؛ إذ يخيل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله وهو مراءٍ بما يفعله فكيف يكون مخلصا ؟ فطلب الجاه بهذا الطريق حرام وكذا بكل معصية وذلك يجري مجرى اكتساب المال من غير فرق، وكما لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره فلا يجوز له أن يتملك قلبه بتزوير أو خداع، فإن ملك القلوب أعظم من ملك الأموال، وأما المباح من طلب الجاه فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها لغرض صحيح كقول يوسف عليه السلام : ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾. فإنه طلب منزلة في قلبه بكونه حفيظا عليما، فكان محتاجا إليه وكان صادقا فيه. وكذا أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه حتى لا يعلم ولا تزول منزلته به فهذا مباح أيضا؛ إذ لا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح على نفسه كما لا يجوز على غيره، وليس فيه تلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة في العلم به. «**ومبتغي رضاهم**» أي طالبه «**لا ينتظر رضى المصور العزيز المقتدر**» لأن رضاهم غاية لا تدرك، وأحمق الناس من طلب ما لا يدرك، وهذا ــ أعني طلب رضى الناس ــ عذاب أليم استعجله في دنياه، إذ يفوته بذلك راحة قلبه وطيب عيشه ويسلبه أثواب الغنى والعزة ويلبسه لباس الطمع والذلة فتردى بذلك همته وتقل قيمته ولعذاب الآخرة أكبر قاله في شرح منهاج العابدين. قال إبراهيم ابن أدهم رحمه الله تعلى : صحبت أكثر رجال الله تعلى في جبل لبنان فكانوا يوصونني : إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظهم بأربع خصال : قل لهم : من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة، ومن ينم كثيرا لا يجد في عمره بركة، ومن طلب رضا الناس فلا ينتظر رضا الرب، ومن يكثر الكلام بالفضول والغيبة فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام. وفي القشري عن بعضهم : إياك أن تطمع في الأنس بالله تعلى وأنت تحب الأنس بالناس، وإياك أن تطمع في حب الله تعلى وأنت تحب الفضول، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله تعلى وأنت تحب المنزلة عند الناس.

وَمَن حُبَابُ أُمِّهِ يَرِينُ بِقَلْبِهِ فَطِبُّهُ اليَقِينُ

تنبيه : تقدم علاج الجاه من حيث العلم، وأما من حيث العمل فمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويانس بالخمول وبرد الخلق ويقنع بالقبول من الخالق وأقوى طريق في قطعه اعتزال الناس جملة والهجرة إلى موضع يصح له فيه خمول ذكره. «**ومن حباب**» بالضم أي حب «**أمه**» أي أم حباب من أسماء الدنيا ففيه استخدام «**يرين بقلبه**» أي يغلبه ويغطيه «**فطبه**» بالتثليث أي علاجه «**اليقين**» قال في الحكم : لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها. زروق : اليقين إذا أشرق كشف عن الدنيا والآخرة إذ شأنه الكشف فيحصل العلم بأن الآخرة خير من الدنيا.. قال ﷺ : (إن النور إذا دخل في القلب انفسح وانشرح) قيل : يا رسول الله وهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : (التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله) قال في البصائر : اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتهما يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين، قال المحققون : اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد وفيه تفاضل العارفون وتنافس المتنافسون وإليه شمر العاملون وعمل القوم إنما كان عليه وإشارتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين ولد بينهما حصول الأمانة في الدين، قال الله تعلى : ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وغم وهم وامتلأ محبة لله وخوفا منه ورضا به وشكرا له وتوكلا عليه وإنابة إليه فهو مادة جميع المقامات والحامل له، قال ذو النون : اليقين يدعو إلى قصر الأمل وقصر الأمل يدعو إلى الزهد والزهد يورث الحكمة وهي تورث النظر في العواقب، وثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس في العشرة وترك المدح لهم في العطية والتنزه عن ذمهم عند المنع، وثلاثة من أعلامه أيضا : النظر إلى الله تعلى في كل شيء والرجوع إليه في كل أمر والاستعانة به في كل حال، والفرق بين علم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبر الصادق والعيان وحق اليقين فوق هذا، وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك أن عنده عسلا وأنت لا تشك في صدقه ثم أراك إياه فازددت يقينا ثم ذقت منه.. فالأول علم يقين والثاني

عين يقين والثالث حق يقين، فعلمنا الآن بالجنة والنار علم يقين فإذا أزلفت في الموقف وشاهدها الخلائق وبرزت الجحيم وعاينها الخلائق فذلك عين اليقين فإذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك هو حق اليقين. ابن جزي : اليقين هو صدق الإيمان حتى يطمئن به القلب بحيث لا يتطرق إليه شك ولا احتمال وسببه شيئان أحدهما قوة الأدلة وكثرتها والآخر نور من الله يضعه في قلب من يشاء. ابن حمدون : اليقين عبارة عن استقرار العلم بالله في القلب فكل يقين إيمان ولا عكس، والفرق بينهما أن الإيمان قد تكون معه الغفلة واليقين لا تجامعه وقيل مترادفان، ويتنوع إلى ثلاثة أنواع : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، ونظيرها من تيقن بوجود البحر بلا رؤية ومن تيقنه بمشاهدة على بعد ومن تيقنه بانغماسه فيه، فمن رأى ليس كمن علم كما أن من انغمس فيه ليس كمن رآه على بعد وإن اشترك الثلاثة في العلم به، ولكل منها ثمرة فثمرة علم اليقين مراقبة الله تعلى والاستحياء منه وسكون القلب إليه، وثمرة عين اليقين الذي ينكشف به أوصاف الحق جل جلاله التي منها الوجود الحقيقي الذاتي أن لا يبقى في نظره ما يعتمده ولا ما يستند إليه ولا ما يستأنس به غير مولاه؛ لأنه يشهد الأكوان كلها عدما إذ وجودها عارية مردودة فلا يعبأ بها ولا يلتفت إليها فيتم له التوكل والتفويض والاستسلام، وثمرة حق اليقين الفناء في التوحيد وناهيك بما يكون لصاحبه من المواهب والأسرار والفيوضات الإلهية.

القشيري : علم اليقين على موجب اصطلاحهم هو ما كان بشرط البرهان وعين اليقين ما كان بحكم البيان وحق اليقين ما كان بنعت العيان، فعلم اليقين لأرباب العقول وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف، وقال في كتاب الأربعين : من عرف نفسه وعرف ربه وعرف زينة الدنيا وعرف الآخرة شاهد بنور البصيرة وجه عداوة الدنيا للآخرة إذ ينكشف له قطعا أن لا سعادة في الآخرة إلا لمن قدم على الله سبحانه عارفا به محبا له، فإن المحبة لا تنال إلا بدوام الذكر وإن المعرفة لا تنال إلا بدوام الطلب والفكر، ولا يتفرغ لهما إلا من أعرض عن أشغال الدنيا ولا تستولي المعرفة والحب على القلب ما لم يفرغ من حب غير الله تعلى ففراغ القلب عن غير الله تعلى ضرورة اشتغاله بحب الله تعلى ومعرفته ولن يتصور ذلك إلا لمعرض عن الدنيا قانع منها بقدر الزاد

وَجَعْلُهُ لِلْمَوْتِ نَصْبَ العَيْنِ فَهُوَ صَابُونٌ لِهَذَا الرَّيْنِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ حُبَّهَا الذَّمِيمَ مَا لِمَحْضِ حَظِّ النَّفْسِ لاَ لِيُسْلَمَا

والضرورة، فإن كنت من أهل البصيرة فقد صرت من أهل الذوق والمشاهدة وإن لم تكن كذلك فكن من أهل التقليد والإيمان، وانظر إلى تحذير الله سبحٰنه إياك والكتاب والسنة. انظر بقية كلامه.

«**وجعله للموت نصب العين**» بالضم والفتح أو الفتح لحن أي منصوبها أي مرئيها رؤية ظاهرة بحيث لا ينسى ولا يغفل عنه و لم يجعل بظهر. «**فهو صابون لهذا الرين**» أي الطبع والدنس ففي الخاتمة قال الفخر : اعلم أن الدنيا حلوة خضرة والحواس الخمس مائلة إليها فإذا كثرت وتوالت استقرت فيها وانصرف الإنسان بكليته إليها فيصير ذلك سببا لحرمانه من ذكر الله تعلى، ثم إنه يحصل في قلبه نوع قسوة وقوة وقهر وكلما كان المال والجاه أكثر كانت القسوة أقوى، قال تعلى : ﴿إن الإنسان ليطغىٰ أن رآه استغنى﴾ فظهر أن كثرة المال سبب قوي في زوال حب الله وحب الآخرة من القلب وفي حصول حب الدنيا وشهواتها في القلب فعند الموت كأن الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن ومن مجالسة الأقرباء والأحبة إلى موضع الغربة والكربة فيعظم تألمه ويقوى حزنه، وقال : اعلم أن أعقل العقلاء مومن مقبل على آخرته قد جعل الموت نصب عينيه ولم يغتر بزخرف الدنيا كما اغتر به الحمقاء، ومن جعل همه هما واحدا هم المعاد كفاه الله هم الدنيا، ومن تشعبت به الهموم هموم الدنيا لم يبال الله تعلى في أي أوديتها هلك. «**واعلم بأن حبها الذميم**» أي المذموم شرعا هو حب «**ما**» كان منها «**لمحض حظ النفس**» العاجل من غير أن يعين على عمل أخروي ولا يقصد به، فمن أحبها بحكم الطبع كرهه الحق على قدر محبته لها كثرة وقلة، وأخذها واستعمالها شهوة حبس لصاحبه عن الجنة مدة الحساب، وحساب وهو أن يسأل يوم القيٰمة عن : ماذا اكتسبت ؟ وفي ماذا أنفقت ؟ وما أردت بذلك ؟ قال تعلى : ﴿لتسئلن يومئذ عن النعيم﴾ «**لا**» أن تحبها للاستغناء «**ليسلما منك**» أي ليسلم العباد من يدك ولسانك وأذاك فتتعفف عن مسألتهم، وفي الحديث : (من سأل وله أوقية فقد ألحف) وفيه : (المسألة كلها كدوح إلا أن يسأل الرجل قدر الحاجة وما جاءك من غير مسألة

مِنْكَ وَتَسْلَمَ مِنَ العِبَادِ أَوِ التَّزَوُّدِ إِلَى المَعَادِ
حُبُّ الدُّنَا الأَحْكَامُ تَعْتَرِيهِ فَهْوَ بِحَسْبِ مَا يُعِينُ فِيهِ
فَحُبُّ مَا مِنْهَا إِعَانَةٌ عَلَى شَيْءٍ مِنَ آلْمُحَرَّمَاتِ حُظِلَا
وَهَكَذَا وَذَمُّهَا مُقَيَّدُ بِغَيْرِ مَا عَلَى النَّجَاةِ يُرْفِدُ

ولا إشراف نفس فخذه فإنما هو رزق ساقه الله إليك) «**وتسلم**» أي يسلم لك دينك «**من العباد**» وفي الحديث : (كاد الفقر أن يكون كفرا) وقال ذو النون المصري : أقرب الناس إلى الوقوع في الكفر شخص ذو فاقة وعيال لا صبر له. قال الشعراني : وقوعه في الكفر بالألفاظ التي ظاهرها السخط على مقدور الله. «**أو**» أي ولا أن تحبها لـ«**لتزود**» منها بالطاعة «**إلى المعاد**» أي الآخرة، والتعطف على الناس ولاسيما على العيال وعلى الجار فأجره جزيل؛ لأن العبادة المتعدية فائدتها أنفع من القاصرة فالتعطف عليهم عبادة في نفسها تقربه إلى الله تعلى ثم يحصل له بالصدقة فائدة الغير وتنجذب إليه بركة دعوات المسلمين فيتضاعف له الأجر.

«**حب الدنا الأحكام تعتريه فهو**» يختلف «**بحسب ما يعين**» لعل الأولى تعين بالتاء هي أي الدنيا «**فيه**» أي عليه «**فحب ما**» هو «**منها إعانة على شيء من المحرمات**» أيا كان «**حظلا**» وكذا حبها للتكاثر «**وهكذا**» فيكره ما هو إعانة على مكروه ويتردد حبها لذاتها بين هاتين المرتبتين قاله في فتح الحق. وفي كشف القناع : والمراد بالدنيا ما زاد على الحاجة الشرعية وفي الحديث : (أكبر الكبائر حب الدنيا) وفي لفظ : (حب الدنيا رأس كل خطيئة) ومن كلامهم لا يترقى مريد قط إلا إن صحت له محبة الحق تعلى ولا يحبه الحق تعلى حتى يبغض الدنيا وأهلها إلا ما لابُدَّ منه، وليس من حبها أن يكون الرجل قائما بحقوق ما في يده ناويا بذلك امتثال أمره تعلى والتعفف بها عن الناس والتقوي على العبادة بل ذلك من اتباع السنة. فتح الحق : وأما حبها لغرض صحيح كمباح توسعة فيها بنفقة وكسوة والمطلوب شرعا ندبا أو وجوبا فلابأس فيه بل يباح ويطلب بحسب مقصده «**وذمها مقيد بغير ما على النجاة يرفد**» أي يعين رفده وأرفده أعانه

وَقَيْــدُهُ قَيْــدٌ لِــذَمِّ حُبِّهَـــا   لِذَا نَهَى خَيْرُ الوَرَى عَنْ سَبِّهَا

«وقيده» أي قيد ذمها المذكور **«قيد»** أيضا **«لذم حبها»** ففي الجامع الصغير : (من فقه الرجل أن يصلح معيشته وليس من الدنيا طلب ما يصلحك) المناوي : أي ما يقوم بأودك وحاجة عيالك وخدمك ونحوهم فإنه من الضروريات التي لابد منها فليس طلبه من محبة الدنيا المنهي عنها **«لذا»** القيد المذكور **«نهى خير الورى»** ﷺ **«عن سبها»** بقوله : (لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر).

وفي الخاتمة عن الغزالي : أما المومن فالمال له محمود لأن الفقير في طلب العلم والكمال وليس معه كفاية كساع إلى الهيجاء بغير سلاح وكباز يروم الصيد بغير جناح، وفي الخبر (نعم المال الصالح للرجل الصالح) وفيه (نعم العون على تقوى الله المال) كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الفكر والذكر ولا يندفع ذلك إلا بسلاح المال، ثم بعد ذلك يحرم فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاضة الخيرات فالمذموم من الدنيا إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إليها وللذاتها، وأما قدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم، ومن سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزاد فلابأس بالاستكثار له وفي الحديث : (ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب) معناه لأنفسكم خاصة وإلا فقد كان من يروي هذا الحديث ويعمل به ياخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة، ولما ذكر ﷺ أن الأغنياء يدخلون الجنة زحفا استأذنه عبد الرحمٰن ابن عوف في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام فقال له : مره أن يطعم المسكين ويكسو العاري ويقري الضيف... الحديث. وفي المفيد عن الهيتمي : اختلف العلماء أيهما أفضل طلبها لفعل الخير أو تركها فرجحت طائفة الأول وطائفة الثاني. وفي الخاتمة : من أخلاق السلف تقديم السلامة على الغنيمة من حيث رفض الدنيا وفراغ أيديهم منها على جمعها وإنفاقها في سبيل الله خوفا أن يمنعوا منها، حتى كان أحدهم يقول : ياطالب الدنيا لتبر بها غيرك تركك لها أبرُّ وأبرّ. وقال الجنيد : تجريد القلب من

وَإِنَّمَا تُمْدَحُ الأَشْيَا وَتُـذَمْ   بِمَـا تَجُـرُّ كَشِفَـاءٍ وَسَقَـمْ

الدنيا أفضل من أخذها وإنفاقها. وقال الحسن : من تفرغ لعبادة ربه فهو أفضل ممن تركها وسعى على عياله..

قلت : ومن أدلة القوم على أن ترك الدنيا مقدم على جمعها وإنفاقها ما ورد أنه ﷺ خرج يوما على أهل الصفة فقال : (أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان أو العقيق فيأتي بناقتين كوماوين زهراوين فيأخذهما في غير إثم ولا قطع رحم ؟ قالوا كلنا يحب ذلك يا رسول الله فقال : فلأن يغدو إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين وثلاث خير من ثلاث وأربع خير من أربع ومن اعدادهن من الإبل) [رواه أحمد] والحاصل أن من كان موقنا بحيث لم توسوس له نفسه إن تركها ولم تتعلق به نفقة واجبة وجب إرشاده لرفض الدنيا ليصير الفقر زينة له والقناعة له ذخيرة فإن نزل العبد عن هذه الرتبة وجب إرشاده لجمع الحلال ليدخر منه ما تسكن إليه نفسه وينقطع عنها الوسواس من أجله ويجعل الفضلة ذخيرة لمعاده، فإن نزل العبد عن هذه الرتبة أيضا وغلب عليه شحه وجب إرشاده لجمع ما تسكن إليه نفسه من الحلال ويدخره ولا يرشده للأحوال الزهدية والمقامات العلية فإن نفسه لا تسكن إلى القسمة السابقة لاكنها بما تدخر واثقة. انتهى منها. «**وإنما تمدح الاشيا وتذم بما تجر**» إليه «**كشفاء وسقم**» فالمال ليس خيرا محضا من كل وجه ولا شرا محضا من كل وجه، وإنما هو كالسيف في يد المقاتل يقتل به معصوما تارة ومهدرا أخرى، وكحية في يد إنسان فيها سم وترياق لاكن سمها أكثر وأغلب وأوهى للنفوس وأذهب. قاله في الخاتمة. وفيها أيضا : قال عبد الله ابن المبارك : لا يخرج العبد من الزهد إمساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس. وقال لقمان لابنه : يا بني حملت الصخر والحديد فلم أر شيئا أثقل من الدين، وأكلت الطيبات وعانقت الحسان فلم أر شيئا ألذ من العافية، وذقت المرارات كلها فلم أذق شيئا أمر من الحاجة إلى الناس. قال الشعراني : من أخلاق السلف تقديمهم الخوف من الحاجة إلى الناس على خوف الحساب من جهة المال الذي ربما دخلته الشبهة. وقال سفيان الثوري : لأن أخلف عشرة آلاف درهم أحاسب عليها أحب إلي من الاحتياج إلى الناس. وقال : المال فيما

فَمَا بِهِ إِلَى مُهِمَّاتِ الْبَـدَنْ   تَصِلُ مِنْ مَالٍ وَمِن جَاهٍ حَسَنْ

مضى يكره وأما اليوم فهو ترس المومن. وقال : حفظك لما في يدك لتقضي به حاجتك أولى من تصدقك وطلبك لما في يد غيرك. وقيل : قال لقمان لابنه : يابني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فإنه ما افتقر أحد إلا أصابته إحدى خصال ثلاث رقة في دينه وضعف في عقله وذهاب في مروءته وأعظم من هذه الثلاثة استخفاف الناس به. «**فما به إلى مهمات البدن**» الضرورية «**تصل من مال ومن جاه حسن**» شرعا فليس بمذموم، ففي الخاتمة أن الجاه والرئاسة المذمومين المهلكين هما اللذان يطلب بهما مجرد التقدم على أبناء الجنس والاستعلاء بالكلمة عليهم لا اللذان يطلب بهما إغاثة الملهوف ونصر المظلوم وإحياء السنن وإخماد البدع فإنهما محمودان ومعنى الجاه ملك القلوب والقدرة عليها فحكمه حكم ملك الأموال فإنه عرض من أعراض الدنيا وينقطع بالموت كالمال، والدنيا مزرعة الآخرة فكل ما خلق الله في الدنيا يمكن أن يتزود منه للآخرة، وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس فلابد من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، والإنسان كما لا يستغني عن قوت فيجوز أن يحبه وما يبتاعه به فكذلك يحتاج إلى خادم يخدمه ورفيق يعينه وسلطان يدفع عنه الظلم فحبُّه لأن يكون في قلوبهم ما يعين على ذلك ليس بمذموم، وكذا حبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به. انظر الإحياء. وقال في كتاب الأربعين : ملك القلوب كملك الأعيان وأنت محتاج منه إلى قدر يسير لتحرس نفسك عن الظلم والعدوان وعما يشوش عليك ما تستعين به على دينك من سلامة وفراغ فطلبك لهذا القدر مباح بشرط القناعة بقدر الضرورة كما في المال، ويشرط أن لا تكتسبه بالمراءات بالعبادات فذلك حرام، ولا بالتلبيس بإظهار ما أنت خال منه.. فإذا حصلت الجاه بطريقه محترزا من الآفات رجيت سلامتك إلا أنك في خطر عظيم أكثر من خطر المال؛ لأن قليل الجاه يدعو إلى كثيره فإنه ألذ من المال ولذلك لا يسلم الدين غالبا إلا لخامل لا يعرف، انتهى باختصار.

وفي الخاتمة : قال الشعراني : من أخلاق السلف تقديمهم عمل الحرفة والصنعة التي تكفهم عن سؤال الناس على سائر نوافلهم وواجباتهم الموسعة، وقد سئل

الحسن البصري عن رجل محتاج إلى الكسب ولو ذهب لصلاة الجماعة احتاج ذلك النهار إلى سؤال الناس ؟ فقال : يكتسب ويصلي منفردا.

قال الشعراني : لعل ذلك في غير صلاة الجمعة.

وفيها أيضا : قال أبو سليمان الداراني : ليس الشأن أن تصف قدميك للعبادة وغيرك يقوت لك، إنما الشأن أن تحرز رغيفك في بيتك ثم تعلقه وتصلي فلا تبالي بعد ذلك بأي داق دق عليك الباب، بخلاف من قام في بيته يصلي وليس عنده شيء ياكله فيصير كل داق دق الباب يقول إن معه رغيفا، وقال الثوري : عليكم بالحرفة فإن عامة من أتى أبواب الأمراء إنما أتاهم من الحاجة.

وفيها أيضا : والحاصل أن المال كالحية التي فيها سم ناقع وترياق نافع، فإن أصابها المعزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن سمها وطريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة وإلا فهي عليه هلاك وبلاء، وأن الجاه كالبحر الذي تحته أصناف الجواهر واللئالىء فمن ظفر بها فهي عليه نعمة، وإن خاضه جاهل هلك، وأكثر الناس جاهل بطريق الرقية لحية المال وبطريق الغوص في بحر الجاه فوجب تحذيرهم ليلا يهلكوا بسم المال قبل الوصول إلى ترياقه وبتمساح الجاه قبل العثور على جواهره، فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواءها ومن لا فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار ولا تعدل بالسلامة شيئا. «**وكرهوا إكثار جمع المال خوف خروجه عن الحلال**» وخوف أن لا يقوم بحق الله تعلى عليه فيه كما في جامع خليل.

القسطلاني : اختلف في التفضيل بين الغني والفقير وكثر النزاع في ذلك، وقال الداودي : السؤال أيهما أفضل لا يستقيم؛ لاحتمال أن يكون لأحدهما من العمل الصالح ما ليس للآخر فيكون أفضل، وإنما يقع السؤال عنهما إذا استويا بحيث يكون لكل منهما من العمل ما يقاوم به عمل الآخر.. قال : فعلم أيهما أفضل عند الله، وكذا قال ابن تيمية لاكن قال إذا استويا في التقوى فهما في الفضل سواء. وقال ابن دقيق العيد : وحديث (ذهب أهل الدثور...) يدل هلى تفضيل الغني على الفقير لما تضمنه من زيادة الثواب بالقرب المالية إلا إن فسر الأفضل

بمعنى الأشرف بالنسبة إلى صفات النفس فالذي يحصل للنفس من التطهير للأخلاق والرياضة لسوء الطباع بسبب الفقر أشرف فيترجح الفقر، ولهذا المعنى ذهب جمهور الصوفية إلى ترجيح الفقير الصابر؛ لأن مدار الطريق على تهذيب النفس ورياضتها وذلك مع الفقر أكثر منه في الغنى. وقال بعضهم : اختلف هل التقلل من المال أفضل ليتفرغ قلبه من الشواغل وينال لذة المناجاة ولا ينهمك في الاكتساب ليتسريح من طول الحساب ؟ أو التشاغل باكتساب المال أفضل ليستكثر به من التقرب بالبر والصلة والصدقة لما في ذلك من النفع المتعدي ؟ قال : وإذا كان الأمر كذلك فالأفضل ما اختاره النبي ﷺ وجمهور أصحابه من التقلل في الدنيا والبعد عن زهرتها. وقال أحمد بن نصر الداودي : الفقر والغنى محنتان من الله يختبر بهما عباده في الشكر والصبر كما قال تعالى : ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾ وذكر ابن رشد في البيان أن الفقر أفضل من الكفاف لأن الفقير يوجر من وجهين الصبر على الفقر مع الرضى والشكر والثاني تصرفه فيما لابد منه من نفقة نفسه ومن تلزمه نفقته، وصاحب الكفاف إنما يوجر على الشكر على الكفاف وأن الغنى أفضل من الفقر لأن الغني يوجر من وجوه وهي الشكر والصبر على بذل واجب الزكاة والإنفاق على العيال، وفي الخاتمة أن الكفاف في الدنيا أي قدر الحاجة لا يفضل عنها أفضل من الفقر والغنى لحديث : (اللهم اجعل رزق آل محمد في الدنيا كفافا) [رواه مسلم] في هذا الحديث دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفير نعيم الآخرة وإيثارا لما يبقى على ما يفنى.. فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك، ومعلوم أنه ﷺ لا يسأل إلا أفضل الأحوال وأسنى المقامات والأعمال، ولحديث : (قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا وقنعه الله بما رزقه) ولحديث : (يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف) [رواهما مسلم] وحديث : (إن أغبط الناس عندي لمومن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر والعلانية وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك) الحديث ولأن الكفاف أيضا حالة متوسطة وفي الحديث : (خير الأمور أوساطها) ولأن حالته أيضا حالة الفقير إذ لا يترفه في الطيبات وكانت حاله إلى الفقر أقرب فقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر وكفي مرارته وآفاته، وعلى هذا فأهل

الكفاف هم ــ إن شاء الله ــ صدر كتيبة الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام لأنهم وسطهم والوسط العدل وليسوا من الأغنياء كما ذكرنا. قلت : وإذا تأملت هذا وجدت حالة الكفاف هي حالة أكثر الناس اليوم سيما أهل البادية، قاله الشعراني. ولأن في الكفاف أيضا السلامات من آفات الغنى والفقر وفتنتيهما اللتين كان يتعوذ منهما النبي ﷺ. أما آفات الغنى فقال الغزالي : هي الحرص على جمع المال حتى يكسبه من غير حله ويمنعه من واجبات إنفاقه. وقال البيضاوي : هي البطر والطغيان والتفاخر وصرف المال في المعاصي وما أشبهه كأخذه من الحرام وأن لا يؤدي حقه وأن يتكثر به. وأما آفات الفقر فقال بعضهم هي حسد الأغنياء والطمع في ماهم والتذلل لهم بما يدنس به عرضه ويثلم به دينه وعدم الرضى بما قسم الله له إلى غير ذلك مما لا تحمد عاقبته. قال في الشرح فالفقر أصلح إلا لرجلين رجل مستو عنده وجود وفقد فالوجود خير له لينفق ورجل افتقر عن قدر الضرورة ولا يطغى بالغنى فكفافه أفضل.

«**وكاسب الأموال للتفاخر عدوه من مكتسب الكبائر**» فقد عدَّ في الزواجر التنافس في الدنيا والمباهاة بها من الكبائر. وفي الخبر : (من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسألة وسعيا على أهله وتعطفا على جاره بعثه الله يوم القيٰمة ووجهه مثل القمر ليلة البدر ومن طلبها حلالا مكاثرا بها مفاخرا لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان) رواه أبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كما في شرح الإحياء.

فائدة : المناوي : أخذ بعضهم من حديث (حب الدنيا رأس كل خطيئة) أنه ينبغي أن لا يوخذ العلم إلا عن أقل الناس رغبة في الدنيا فإنه أنور قلبا وأقل إشكالات في الدين، فكيف يوخذ علم عمن جمع في قلبه رأس خطيئات الوجود ؟ كيف وذلك يمنع من دخول حضرة الله وحضرة رسوله فإن حضرته تعالى كلامه وحضرة رسوله كلامه ومن لم يتخلق بأخلاق صاحب الكلام لا يمكنه دخول حضرته ولو في صلاته؛ إذ لا يفهم أحد عن أعلى صفة إلا إن صلح لمجالسته، فمن زهد في الدنيا كما زهد فيها المصطفى ﷺ فقد أهل لفهم كلامه ولو رغب

وَحُبُّهُ المَدْحَ بِمَا لَمْ يَفْعَلِ سَبَبُهُ الطَّمَعُ فِي غَيْرِ العَلِي
وَارْسُمْ بِحُبِّكَ زَوَالَ النِّعْمَهْ عَن غَيْرِكَ الحَسَدَ تُحْسِنْ رَسْمَهْ

فيها كغالب الفقهاء لا يؤهل لذلك ولا يفهم مراد الشارع إلا إن فسر له بكلام مغلق قلق ضيق كذا في إرشاد الطالبين... ثم قال : وشكى بعضهم لعارف كثرة خواطر الشيطان فقال : طلق بنته يهجر زيارتك وهي الدنيا تريد أن يقطع رحمه لأجلك، قال هو ياتي لمن لا دنيا عنده، قال : إن لم تكن عنده فهو خاطب لها، ومن خطب بنت رجل فتح باب مودته وإن لم يدخل بها.

«**وحبه المدح بما لم يفعل سببه الطمع في غير العلي**» قال تعالى : ﴿ولا يحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا... الآية﴾ ومفهوم بما لم يفعلوا أن حب الإنسان المدح بما فعل ليس منهيا عنه، ولابُدَّ في ذلك من تفصيل وهو أنه إما أن يقصد بالفعل من أول الأمر حمد الناس له فهذا منهي عنه أيضا لأنه من الرياء وسواء كان قصد الناس بالفعل تابعا لقصد الثواب أو متبوعا أو مساويا والأول ينقص الثواب والثاني يحبطه والثالث لا له ولا عليه أو له من الثواب مثل ما عليه من العقاب قاله الغزالي، وإن كان مخلصا في عبادته قاصدا وجه الله تعالى غير طالب لحمد الناس عندها بحال ثم اطلع عليه فحمد بها وأثنى عليه فسره ذلك وفرح به فإن كان فرحه لقيام منزلته في القلوب فيرجو التعظيم والمعاملة بالإكرام فهذا مكروه وإن كان فرحه من حيث أن الله تعالى أظهر عليه الجميل وستر عليه القبيح ورجا مع ذلك أن يفعل به ذلك في الآخرة فهو فرح محمود وقد قال ﷺ : (ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة) انظر الإحياء.

«**وارسم بحبك زوال النعمه عن غيرك**» أو حبك نزول مصيبة به «**الحسد تحسن رسمه**» أي حده بذلك فحده كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه كما في الإحياء، وهو من قبيح الخصال ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب الرقيق، ولا يمكن قطع مادته إلا بسلوك طريق التصوف قاله في تقريط المسامع. وأما إن تمنيت لنفسك مثل النعمة من غير زوال فغبطة فإن تعلقت بالدين فمحمودة وإلا فالعكس وقد يطلق عليها ومنه (لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالا فسلطه

بِحَيْثُ أَن لَوْ أَمْكَنتْكَ حِيلَهْ　　تُزِيلُهَا أَعْمَلْتَ تِلْكَ الْحِيلَـهْ
أَمَّا إِذَا كَانَتْ مَخَافَةُ الصَّمَدْ　　عَنهَا تَصُدُّكَ فَلَسْتَ ذَا حَسَدْ
فِيمَا تَرَجَّى حُجَّـةُ الإِسْلاَمِ　　مِن فَضْلِ ذِي الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ

على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس) الحديث. قال في الخاتمة : والحسد حرام بالكتاب والسنة والإجماع ويقال إنه أول معصية عصي الله تعالى بها حسد إبليس لآدم، قيل إن أثر الحسد يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك. وقال معاوية : كل إنسان أقدر أن أرضيه إلا الحاسد فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة. وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد غم دائم ونفس متتابع. وقال وهب : من علامات الحاسد أن يتملق إذا شهد ويغتاب إذا غاب ويشمت بالمصيبة إذا نزلت. وقيل : الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له بخيل بما لا يملكه.

ثم الحسد المذموم هو أن تكون «**بحيث أن لو**» ألقي الأمر إليك ورُدَّ إلى اختيارك و«**أمكنتك حيله تزيلها**» عنه لسعيت في إزالتها عنه و«**أعملت تلك الحيله**» التي تزيلها، و«**أما إذا كانت مخافة الصمد عنها**» أي عن الحيلة التي تزيلها «**تصدك**» أي تمنعك ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل﴾ «**فلست ذا حسد**» مذموم «**فيما ترجى حجة الإسلام**» الغزالي «**من فضل**» الله «**ذي الجلال والإكرام**» عز وجل قائلا : فيعفى عما يجده في طبعه من ارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده مهما كان كارها لذلك من نفسه بعقله ودينه، ولعله المعني بقوله ﷺ : (ثلاث لا ينفك المومن عنهن الحسد والظن والطيرة) ثم قال : وله منهن مخرج إذا حسدت فلا تبغ أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به.

التاودي : قال ابن حجر في حديث : (لا تحاسدوا ولا تدابروا) والحسد تمني الشخص زوال النعمة عن المنعم أعم من أن يسعى في ذلك أو لا، فإن سعى كان باغيا، فإن لم يسع في ذلك ولا أظهره نظر فإن كان المانع له من ذلك العجز بحيث لو تمكن لفعل فهو آثم، وإن كان المانع له التقوى فقد يعذر؛ لأنه لا يستطيع دفع الخواطر النفسانية فيكفيه في مجاهدتها أن لا يعمل بها، وقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل ابن أمية رفعه (ثلاث لا يسلم منهن أحد الطيرة والظن

قَالَ وَمَن كَرِهَهُ حَتَّى كَأَنْ يَمْقُتُ نَفْسَهُ لَهُ بَرِيءَ مِن
أَدَاءِ مَا لَزِمَهُ أَمَّا الدَّوَا فَعَمَلٌ بِضِدِّ مُقْتَضَى الهَوَى

والحسد قيل بما الخروج منهن يا رسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع وإذا ظننت فلا تحقق وإذا حسدت فلا تبغ) وعن الحسن البصري : ما من آدمي إلا وفيه الحسد فمن لم يجاوز ذلك إلى البغي والظلم لم يتبعه منه شيء.

ثم «**قال**» حجة الإسلام «**ومن**» كف ظاهره فلم يظهر الحسد بقول أو فعل و«**كرهه**» أي الحسد بأن الزم قلبه كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة «**حتى كأن**» أي كأنه «**يمقت نفسه**» أي يبغضها «**له**» أي لأجل ذلك الحسد أو عليه فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد «**برىء من أداء ما لزمه**» وانظر هل عدم فصل كأن المخففة هنا من الفعل المخبر ضرورة لقول ابن بونه :

وإن يك الخبر فعلا فافصلا بلم وقد كما بأن قد فعلا

على أنه يحتمل عدم تخفيفها وحذف الاسم للعلم به.

قال في الإحياء بعد كلام : وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال أحدها أن تحب مساءتهم بطبعك وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك وتمقت نفسك عليه وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك وهذا معفو عنه قطعا؛ لأنه لا يدخل تحت الاختيار أكثر منه، الثاني أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك فهذا هو الحسد المحظور قطعا، الثالث وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ومن غير إنكار منك على قلبك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه وهذا في محل الخلاف، والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك وضعفه. وقال في كتاب الأربعين : لعل نفسك لا تطاوعك على التسوية بين عدوك وصديقك بل تكره مساءة الصديق دون العدو وتحب نعمة الصديق دون العدو ولست مكلفا بما لا تطيق، فإن لم تقدر على ذلك فتتخلص من الإثم بأمرين أحدهما أن لا تظهر الحسد بلسانك وجوارحك وأعمالك الاختيارية بل تخالف موجبها، والثاني أن تكره من نفسك حبها زوال نعمة الله تعالى عن عبد من عباده فإذا اقترنت الكراهة

كَنَفْعِهِ إِنْ زَانَ ضُرًّا والثَّنَـا عَلَيْهِ حَيْثُ لَكَ ذَمّاً زَيَّنَـا

وَعِلْـمِ أَنَّـهُ يَضُرُّ الحَـاسِدَا يَغْتَـمُّ ٱلآنَ وَيُعَـاقَبُ غَـدَا

وَلاَ يُفِيـدُهُ بِشَيْءٍ مَّـا وَلاَ يُزِيلُ عَنْ مَحْسُودِهِ مَا نُوِّلاَ

عن باعث الدين بحب زوال النعمة الذي اقتضاه الطبع اندفع عنك الإثم، «**أما الدوا**»ء الذي ينفيه «**فـ**»ـإن مرض القلب لا يداوى إلا بمعجون العلم والعمل، فأما العلاج العملي فهو «**عمل بضد مقتضى الهوى**» ونقيضه من قول وفعل. «**كنفعه إن زان**» الهوى لك «**ضرا والثنا عليه**» والمدح له «**حيث لك ذما زينا**» وتظهر الفرح بنعمته وتتواضع له. قال في الإحياء: لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولا طبعا آخرا. زروق: نفي الأخلاق الذميمة بالعمل بضدها عند اعتراضها كالثناء على المحسود والدعاء للظالم بالخير والتوجه له بوجوه النفع ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ «**و**» أما علاجه العلمي فهو «**علم أنه**» تحقيقا «**يضر الحاسدا**» في دنياه ودينه فهو يتألم بحسده ويتعذب به ولايزال «**يغتم الآن**» في الدنيا؛ إذ أعداؤه لا يخليهم الله من نعم يفيضها عليهم فيتعذب بكل نعمة يراها عليهم ويتألم بكل بلية تنصرف عنهم فيبقى مغموما محزونا كما يشتهيه لأعدائه فقد كان يريد المحنة لعدوه فتنجزها في الحال نقدا لنفسه «**ويعاقب غدا**» فإنه يبطل حسناته ويعرضه لسخط الله تعالى إذ يسخط قضاء الله ويشح بنعمته التي وسعها من خزائنه على عباده، وهذا ضرر في دينه. «**ولا يفيده بشيء ما**» لا عاجلا ولا آجلا «**ولا يزيل عن محسوده ما نولا**» أي أعطي من النعم، بل ما قدر الله من نعمة لابد أن يدوم إلى أجل قدره الله تعالى ولا حيلة لأحد في دفعه، فالحسد ينفع عدوه ولا يضره؛ لأن النعمة لا تزول بحسده، ولأنه يضاعف حسناته إذ تنقل حسنات الحاسد إليه، لاسيما إذا طول اللسان فيه فإنه مظلوم من الحاسد فقد طلب الحاسد زوال نعمة الدنيا منه فأضاف إليه نعمة الآخرة وحصل لنفسه مع عذاب الدنيا عذاب الآخرة، فهو كمن رمى عدوه بحجر فلم يصب عدوه وعاد إلى عينه فأعماها وزادت عليه شماتة عدوه إبليس فإنه فاتته النعمة وفاته الرضا بالقضاء ولو رضي به لكان فيه ثواب، لاسيما إذا حسد على العلم والورع فإن محب العلم يعظم ثوابه قاله في كتاب الأربعين.

المناوي ـــ في شرح (وإذا حسدت فلا تبغ) ـــ أي إن وجدت في قلبك شيئا فلا تعمل به؛ لأن الحسد واقع في النفس كأنها مجبولة عليه فلذلك عذرت فيه فإذا استرسلت فيه بمقالها وفعالها كانت باغية، وينبغي للحاسد أن يرى أن حرمانه من تقصيره ويجتهد فيما به صار المحسود محظوظا لا في إزالة حظه فإن ذلك مما يضره ولا يفيده.

وفي الخاتمة : قال العلقمي : من حق المسلم على المسلم أن يزيد في توقير من تدل هيئته وزيه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم ويؤيد ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءها سائل وعندها طعام فقالت : ناولوا هذا المسكين قرصا ثم مر رجل على دابته فقالت ادعوه إلى الطعام فقيل لها : تعطين الغني وتدعين المسكين !! فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لابد لنا أن ننزلهم تلك المنازل.. هذا المسكين يرضى بقرص وقبيح بنا أن نعطي الغني على هذه الهيئة قرصا. وأصول الشر ثلاثة : الكبر وأول من عصى الله به إبليس، والحرص وأول من عصى الله به آدم، والحسد وأول من عصى الله به قابيل حين قتل أخاه هابيل من الحسد، المناوي : زعم بعضهم أنه لا حيلة للمحسود في إزالة حسد الحاسد فإن سعى فيه ضاع سعيه كما قال :

كل العداوة قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك عن حسد

ويكفي في قبح الحسد كما في الإحياء أنه أول ذنب عصي الله به، لأن إبليس لم يحمله على ترك السجود إلا الحسد، كما أن قابيل لم يحمله على قتل هابيل إلا الحسد !.

«**أسبابه**» أي الحسد المذموم ومداخله سبعة منها «**عداوة**» فيكره النعمة عليه لأنه عدوه، إما بسبب ديني أو دنيوي، وهذا لا يختص بالأمثال والأقران بل يحسد الخسيس الملك فيحب زوال نعمته لكونه مبغضا له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبه، ومنها «**تحبب**» أي طلب المحبة وعبارة الإحياء الخوف من فوات المقاصد، وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد؛ فإن كل واحد يحسد صاحبه في كل نعمة تكون عونا له في الإنفراد بمقصوده، ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في

التزاحم على مقاصد الزوجية والإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلوب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال فيطلب كل منهم أن يكون مكرما عندهما وأن يخصاه بالمال دون غيره، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد في نيل المنزلة من قلب الأستاذ وتحاسد ندماء الملك وخواصه، ومنها «**تكبر**» بأن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته أو ربما يتشوف إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبرا بعد أن كان متكبرا عليه، ومنها «**تعزز**» وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره، فإذا نال بعض أقرانه ولاية لمنصب أو مالا أو علما خاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه فليس من غرضه أن يتكبر بل من غرضه أن يدفع كبره فإنه قد رضي بمساواته مثلا ولكن لا يرضى بترفعه عليه ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا : كيف يتقدم علينا غلام يتيم ؟ وكيف نطأطئ له رؤوسنا فقالوا : ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له ونتبعه إذا كان عظيما، وقال تعالى يصف قول قريش : ﴿أهؤلاء من الله عليهم من بيننا﴾ كالاستحقار لهم والأنفة منهم، ومنها «**تعجب**» وذلك أن تكون النعمة عظيمة والمنصب كبيرا فيتعجب من فوز مثله بتلك النعمة وذلك المنصب كما أخبر الله تعالى عن الأمم الماضية إذ قالوا : ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ و ﴿قالوا أنومن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾ ﴿ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾ فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله بشر مثلهم فحسدوهم وأحبوا زوال نعمة النبوءة عنهم خوفا أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة الظاهرة لا عن قصد تكبر ولا غيره من باقي الأسباب وقالوا متعجبين : ﴿أبعث الله بشرا رسولا﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة﴾ فقال تعالى ردّاً عليهم ﴿أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم﴾ ومنها «**حب الرياسة**» وطلب الجاه لنفسه من غير أن يتوصل به إلى مقصود وذلك كالذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر

وَنِعْمَــةٌ بِكَافِـرٍ أَوْ فَاجِــرِ   يَقْوَى بِهَا عَلَى ٱلأَذَى وَيَجْتَرِي
فِيهَا يَجُوزُ مَـرَضُ الضَّرَائِـرِ   أَفَـادَهُ مَيَّـارَةُ ابْـنِ عَـاشِرِ

في فنه وأنه لا نظير له فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم ساءه ذلك وأحب موته أو زوال ما شاركه به في المنزلة ولا سبب في ذلك سوى تمحض الرياسة بدعوى الانفراد «و» منها «**شح**» النفس بالخير على عباد الله فإذا وصف عنده حسن حال عبد شق عليه ذلك وساءه، أو وصف له اضطراب أمور الناس وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به فيبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، وهذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع «**هاتي**» السبعة هي «**أسبابه اللوات منها ياتي**» وقد يجتمع بعضها أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد لذلك ويقوى قوة لا يقوى معها على الإخفاء والمجاملة وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة منها، وقلما يتجرد سبب واحد منها؛ لأن بعضها يجر بعضا، ثم إن الحسد حرام كما مر إلا ما أشار له بقوله : «**ونعمة بكافر**» أي عنده «**أو فاجر**» فاسق وهو «**يقوى بها**» ويستعين «**على الأذى**» للخلق وتهييج الفتن وإفساد ذات البين «**ويجتري**» بها على معاصي الله تعالى «**فيها يجوز مرض الضرائر**» يعني الحسد، فلا تضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها إن كان كراهتك لها من حيث هي آلة للفساد لا من حيث هي نعمة «**أفاده**» الغزالي وابن حجر في الفتح و«**ميارة ابن عاشر**» في شرحه عليه وغيرهم.

فائدة : قال المناوي في شرح حديث : (الحسد ياكل الحسنات كما تاكل النار الحطب) ما نصه : لأنه اعتراض على الله فيما لا عذر للعبد فيه؛ لأنه لا تضره نعمة الله على عبده والله لا يعبث ولا يضع الشيء بغير محله فكأنه نسب ربه للجهل والسفه، ومن لم يرض بقضائه فليطلب ربا سواه، والحاسد معاقب في الدنيا بالغيظ الدائم وفي الآخرة بإحباط الحسنات، ومن ثم كان من الكبائر. قال القاضي : تمسك به من يرى إحباط الطاعات بالمعاصي كالمعتزلة، وأجيب بأن المعنى أن الحسد يذهب حسناته ويتلفها بأن يحمله على أن يفعل بالمحسود من إتلاف مال وهتك عرض وقصد نفس ما يقتضي صرف تلك الحسنات بأسرها في عوضه، وقال الطيبي : الأكل هنا استعارة لعدم القبول وأن حسناته مردودة عليه وليست بثابتة في ديوان عمله الصالح حتى تحبط.

فصـــل

أَمَّا الحَيَا الذَّمِيمُ فَالْمَانِعُ مِنْ تَغْيِيرِ مُنكَرٍ أَوِ السُّؤَالِ عَنْ
أَمْرٍ مِنَ الدِّينِ وَنَحْوِ ذَلِكْ فَهْوَ الَّذِي جَرَّ إِلَى المَهَالِكْ
أَمَّا حَيَاءُ كَرَمٍ كَمَا جَرَى لِلْمُصْطَفَى إِذْ زَيْنَباً تَقَمَّـرَا

«**فصل**» أما الحياء الممدوح فهو ما يبعث صاحبه على اجتناب القبيح شرعا وعادة، و«**أما الحيا الذميم**» وهو الحياء الطبيعي الذي هو من الكبر «**فالمانع**» له «**من**» امتثال المأمورات أو اجتناب المنهيات كأن يمنعه من أمر بمعروف و«**تغيير منكر أو السؤال عن أمر من الدين**» إذا أشكل عليه، ولذا ورد : (نعم النساء نساء الأنصار لا يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمر دينهن) [رواه مسلم] وورد أيضا : (إن ديننا هذا لا يصلح لمستحي ــ أي حياء مذموما ــ ولا لمتكبر) ابن جزي : الحياء نوعان حياء من الله وحياء من الناس وهو مستحسن في كل حال إلا في طلب العلم. «**و**» أي أو المانع من «**نحو ذلك**» المذكور كأداء الحقوق والمواجهة بالحق ورفع الصوت بالأذان وبالذكر بحضرة الناس «**فهو الذي جر إلى المهالك**» فليس بحياء حقيقة بل هو عجز وخور وضعف وجبن ومهانة، وإنما يطلق عليه أهل العرف الحياء مجازا. قال في الفتح : قال الحليمي : حقيقة الحياء خوف الذم بنسبة الشر إليه، وقال غيره إن كان في محرم فهو واجب وإن كان في مكروه فهو مندوب وإن كان في مباح فهو العرفي، وهو المراد بقوله : (الحياء لا يأتي إلا بخير) ويجمع كل ذلك أن المباح إنما هو ما يقع على وفق الشرع إثباتا ونفيا. وحكي عن بعض السلف : رأيت المعاصي مذلة فتركتها مروءة فصارت ديانة. وقد يتولد الحياء من الله تعالى من التقلب في نعمه فيستحيي العاقل أن يستعين بها على معصية، وقد قال بعض السلف : خف الله على قدر قدرته عليك واستحي منه على قدر قربه منك. «**أما حياء كرم كما جرى للمصطفى**» ﷺ «**إذ زينبا**» بنت جحش «**تقمرا**» يعني نكح. التاج : من المجاز تقمر المرأة بصر بها في القمراء وقيل اختدعها وطلب غرتها وقيل ابتنى بها في القمراء أي في ضوء القمر أو أتاها في القمراء، وبكل ذلك فسر قول الأعشى :

وَأَشْبَعَ الْقَوْمَ مِنَ الوَلِيمَـةِ وَخَرَجُوا عَنْهُ سِوَى ثَلاثَـةِ
لَبُّوا فَلَمْ يَامُرْ بِالانطِـلاقِ فَهُوَ مِن مَحَاسِنِ ٱلأَخْـلاقِ
لَوْ كَانَ رَجْلاً كَانَ رَجْلاً صَالِحَا وَلاَ يَجِي إِلاَّ بِخَيْرٍ رَائِحَا

تقمرها شيخ عشاء فأصبحت قضاعية تاتي الكواهن ناشصا

أي ناشزا. «و» حين بنى بها ذبح شاة و«**أشبع القوم**» الصحابة «**من الوليمة**» خبزا ولحما «**وخرجوا عنه**» بعد الطعام «**سوى ثلاثة**» نفر كما في البخاري وغيره، وفي ضياء التاويل ثمانية «**لبوا**» أي أقاموا وأطالوا المكث يتحدثون في بيته «**فلم يامر بالانطلاق**» بل استحيا منهم وخرج لكي يخرجوا بخروجه ثم عاد فوجدهم في الحديث وزينب معهم فشق عليه ذلك فأحسوا بذلك فخرجوا «**فهو من محاسن الأخلاق**» القشيري : قيل الحياء على وجوه : حياء الجناية كآدم عليه السلام لما قيل له أفرارا منا فقال لا بل حياء منك، وحياء التقصير كالملائكة يقولون سبحٰنك ما عبدناك حق عبادتك، وحياء الإجلال كإسرافيل عليه السلام تسربل بجناحه حياء من الله عز وجل، وحياء الكرم كالنبي ﷺ كان يستحيي من أمته أن يقول اخرجوا فقال الله عز وجل : ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ وحياء حشمة كعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه حين سأل المقداد حتى سأل رسول الله ﷺ عن حكم المذي لمكان فاطمة رضي الله عنها، وحياء الاستحقار كموسى عليه السلام قال : إني لتعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحيي أن أسألك يارب فقال الله عز وجل : (سلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك) وحياء الإنعام وهو حياء الرب سبحٰنه يدفع إلى العبد كتابا مختوما بعدما عبر الصراط وإذا فيه : فعلت ما فعلت ولقد استحييت أن أظهر عليك فاذهب فإني قد غفرت لك «**لو كان**» الحياء «**رجلا**» بسكون الجيم لغة «**كان رجلا صالحا**» في الجامع الصغير (لو كان الحياء رجلا لكان رجلا صالحا) المناوي : قال الطيبي فيه مبالغة أي لو قدر أن الحياء رجل لكان صالحا فكيف تتركونه ؟ وفيه جواز فرض المحال إذا تعلق به نكتة. وفي الترغيب هذا الحديث بلفظ (يا عائشة لو كان الحياء رجلا كان رجلا صالحا ولو كان الفحش رجلا لكان رجل سوء) «**ولا يجي إلا بخير رائحا**» ففي الخبر (الحياء لا يأتي إلا بخير) متفق عليه، المناوي : لأن من استحيا من الناس أن يروه ياتي

فصـــل

وَالخَوْضُ فِيمَا لَيْسَ يَعْنِي إِنَّمَا يَحْرُمُ حَيْثُ كَانَ فِيمَا حَرُمَا
كَالفِكْرِ فِي مَحَاسِنِ الأَجَانِبِ وَعَـوَرَاتِ المُسْلِمِيـنَ الغُـيَّبِ

بقبيح دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشد فلا يضيع فريضة ولا يرتكب خطيئة. قال ابن عربي : الحياء أن لا يفعل الإنسان ما يخجله إذا عرف منه أنه فعله، والمومن يعلم بأن الله يرى كل ما يفعله فيلزمه الحياء منه لعلمه بذلك وبأنه لأبُدَّ أن يقرره يوم القيٰمة على ما عمله فيخجل فيؤديه إلى ترك ما يخجل منه وذلك هو الحياء، فمن ثم لا ياتي إلا بخير.

وفيه (الحياء من الإيمان) متفق عليه أيضا. المناوي : أول الحياء وأولاه الحياء من الله وهو أن لا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك، وكماله إنما ينشأ عن المعرفة ودوام المراقبة. الشرنوبي : قيل لأبي سفيان : ما أول الحياء ؟ فقال : أن تستحي منه أن يراك حيث نهاك، قيل : فما غايته ؟ قال : أن تستحي منه أن يعلم أنك تريد بقلبك سواه.

«**فصل : والخوض فيما ليس يعني**» عبارة فتح الحق : خوض القلب في الأمور التي لا ينبغي الخوض فيها شرعا «**إنما يحرم حيث كان فيما حرما كالفكر في محاسن الأجانب و**» التفتيش عن «**عورات المسلمين الغيب**» أو الحاضرين ونحو ذلك، وأما جولان القلب في أمور العبث ونحوها فينبغي تجنب ذلك ولا يحرم.

وفي جامع خليل : مما ينهى عنه الخوض فيما لا يعني. التاودي : فإنه يقسي القلب وينسي الرب وقد نهى ﷺ عن قيل وقال فإن كان مما لا يجوز فالنهي للتحريم وإلا فللكراهة، ويتأكد في حق المريد ترك الخلطة الموجبة للخوض. وقال سيدي أبو الحسن : إن أردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله فعليك برفض الناس جملة إلا من يدلك على الله وأعرض عن الدنيا بالكلية وإذا أعرضت عن الدنيا وزهدت في الناس فأقم مع الله بالمراقبة والزم التوبة بالرعاية والاستغفار بالإنابة والخضوع للأحكام بالاستقامة. وقد قلت :

فصـــل

وَأَصْلُ خَوْفِ الْفَقْرِ سُوءُ الظَّنِّ بِهِ تَعَلَى وَالدَّوَا فِي الحُسْنِ

ما ليس يعني وهو الفضول له ابن زكري حدَّ إذ يقول
ما لم تكن تدعو له ضروره وحاجة ولا يخص صوره
بل عمَّ في الأقوال والأفعال وفي العوارض التي بالبال

وفي روح البيان أن من النصائح التي نصح بها رسول الله ﷺ أمته قوله : (علامة إعراض الله عن العبد اشتغاله بما لا يعنيه وإن امرءا ذهبت ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول عليه حسرته ومن جاوز الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار) وفي هذه النصيحة كفاية لأهل العلم.

تتمة : يحرم التفكر في حقيقة ذاته تعالى وصفاته؛ لأنه إما أن يؤدي إلى التشبيه أو التعطيل وكلاهما كفر. انظر المباحث. وفي الجامع الصغير : (تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله) المناوي : فإن العقول تحير فيه ولا يطيق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطيقون دوام النظر، بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلاله كبصر الخفاش بالإضافة إلى الشمس فلا يطيقه البتة نهارا ويتردد ليلا لينظر في بقية نور الشمس فحال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس، فإنه يقدر على نظرها ولا يطيق دوامه فإنه يفرق البصر ويورث الدهش فكذا النظر إلى ذات الله يورث الحيرة والدهش واضطراب العقل فالصواب أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذاته وصفاته؛ لأن أكثر العقول لا تحتمله. انتهى كلامه.

«**فصل : و**» أما «**أصل خوف الفقر**» وهو إشعار النفس بأن ما بيده إن فرغ افتقر وأن لا يحصل ما يؤمله بسببه ونحو ذلك فهو «**سوء الظن به تعلى**» فقد قيل : منع الموجود من سوء الظن بالمعبود، وقال ﷺ : (يقول الله تعالى : ياعبدي أنفق أنفق عليك) [متفق عليه] وقال ﷺ لأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما : (لا توكي فيوكي الله عليك) [رواه مسلم] وفي الخبر أن ملكين يناديان كل يوم : اللهم عجل لمنفق خلفا ولممسك تلفا. وخوف الفقر هو أصل الطمع قاله في فتح الحق، وفي ابن زكري أن أصل خوف الفقر طول الأمل فانظره.

وَعِلْمِ أَنَّ مَا لَدَيْهِ لاَ يَقِلّ وَأَنَّ مَـا تُرْزَقُـهُ لَكَ يَصِلْ
وَبَاذِلُ الدِّينِ لإِصْلاَحِ الدُّنَا مُدَاهِنٌ فِي بَيْعِهِ قَدْ غُبِنَـا

القشيري : يقول حمدون القصار : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء : رجل مومن قتل مومنا ورجل يموت على الكفر وقلب فيه خوف الفقر. وقال ذو النون المصري : علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر. «و» أما «**الدوا**»ء والخلاص من هذه البلية فهو «**في الحسن**» أي حسن الظن به تعالى «**و**» في «**علم أن ما لديه لا يقل**» فخزائنه تعالى مملوءة لا يغيضها شيء «**و**» علم «**أن**» هذا الخوف لا يفيدك إلا شرا، وأن «**ما تُرزقه لك يصل**» لا محالة، وقد قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : أيست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لها ؟ ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي ؟!.

«**وباذل الدين لإصلاح الدنا مداهن**» قال في الخاتمة : المداهنة إعطاء المرء دينه ليسلم ماله ودمه ومجالسة أهل المعاصي ومخالطتهم وتحسين أفعالهم ومدحهم وإظهار الرضى بما هم فيه من غير إنكار عليه، والفرق بينها وبين المداراة أن المداراة بذل الدنيا لإصلاح الدين أو لإصلاح الدنيا أو لإصلاحهما معا، ومن المدارات الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر بما فيه والإنكار عليه بلطف القول والفعل ولاسيما إن احتيج إلى تألفه ونحو ذلك وهي محمودة.

ابن زكري : قال في شرح الجوهرة : الفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا ليحفظ الدين والعرض والجاه والمداهنة مقابلة الناس بما يحبون من القول والفعل ومنه قوله تعالى : ﴿ودُّوا لو تدهن فيدهنون﴾ أي هم يودون لو أثنيت على عبادتهم وأحوالهم ويقولون لك مثل ذلك فهذه مداهنة حرام وكذلك كل من شكر ظالما على ظلمه أو مبتدعا على بدعته أو مبطلا على باطله؛ لأن ذلك وسيلة لتكثير ذلك الظلم والباطل من أهله وروي عن أبي موسى أنه كان يقول إنا لنبشر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم يريد الظلمة والفسقة الذين يتقى شرهم يتبسم في وجوههم ويشكرون بالكلمات المحقة فإن ما من أحد إلا وفيه صفة تشكر ولو كان أبخس الناس فيقال له ذلك اتقاء لشره فهذا قد يكون مباحا وقد

وَأَصْلُهَـــا الطَّمَـعُ وَالرِّيَـــاءُ دَوَاؤُهُ عِنْــدِي لَهَـــا دَوَاءُ
وَشَمِّرِ انْ أَخَذْتَ فِي دَوَاءِ عَاقِـدِ أَلْوِيَـــةِ ذِي آلأَدْوَاءِ
أَعْنِـي الرِّيَـاءَ أَحَـدَ الْبَوَائِـقِ إِيقَـاعُ قُرْبَـةٍ لِغَيْـرِ الخَالِـقِ
بَلْ طَلَباً لِنَفْعٍ اوْ لِحَمْـدِ مِن خَلْقِـهِ أَوِ اتِّقَـاءِ الضِّدِّ

يكون واجبا إن كان يتوصل القائل به لدفع مفسدة ظلم محرم أو محرمات لا تندفع إلا بذلك أو يكون الحال يقتضي ذلك، وقد يكون مكروها إن كان عن ضعف لا عن ضرورة تقتضيه بل لحذر في الطبع أو يكون وسيلة للوقوع في مكروه.. فانقسمت المداهنة إلى الأقسام الخمسة الشرعية وقد شاع بين الناس أن المداهنة كلها محرمة وليس كذلك. «**في بيعه**» آخرته بدنياه «**قد غبنا وأصلها الطمع**» «**الرياء دواؤه**» الآتي «**عندي لها**» صلة «**دواء**» قلت : ويؤيده أن الرياء أيضا أصله الطمع كما في النصيحة وذلك ينشأ عنه حب المحمدة وخوف المذمة واستجلاب المنفعة ودفع المضرة؛ إذ لولا طمعه في الانتفاع بالخلق ما أحب مدحهم له ولا خاف ذمهم، بل الطمع أصل جميع الآفات كما سيأتي.

«**وشمر**» عن ساق الجد والاجْتهاد «**ان أخذت**» أي شرعت وأقبلت «**في دواء عاقد ألوية ذي الأدواء**» فوق رأسه «**أعني**» به «**الرياء أحد البوائق**» جمع بائقة الداهية. وحده عند الغزالي : إرادة نفع الدنيا بعمل الآخرة سواء أردته من الله تعالى أو من الناس إلا إن قصد بالدنيا العدة على الطاعات وما يتصل بأمر الآخرة وأسبابها فلا يكون رياء، وأما حده عند القرافي فهو «**إيقاع قربة لغير الخالق**» جل فخرج غير القربة كالتجمل باللباس ونحوه فلا رياء فيه وخرج أيضا إرادة غير الناس بها كحجه ليتجر وغزوه ليغنم فلا تفسد قربته بذلك. «**بل**» يوقعها «**طلبا لنفع او لحمد من خلقه أو اتقاء الضد**» من ضر أو ذم. ميارة : الرياء طلب المنزلة في قلوب الناس بإراءتهم خصال الخير وهو حرام موجب لمقت الله تعالى بل هو الشرك الأصغر. ابن حمدون : مرجع الرياء إلى ستة أصناف : الأول البدن كإظهار النحول والصفرة ليظن به السهر والصيام وإظهار شعث الرأس ليظن أنه لشدة استغراقه في الدين لم يتفرغ لنفسه، الثاني الهيئة كإطراق الرأس في المشي وإبقاء أثر السجود على الوجه وتغميض العينين ليظن أنه في الوجد

أَعْظَمُهُ مَا كَانَ وُصْلَةً إِلَى ذَنْبٍ كَمُبْدِي وَرَعٍ لِيُجْعَلَا
بِيَدِهِ مَالُ يَتِيمٍ ثُمَّ مَا لِدُنْيَوِيٍّ امْتَطَاهُ سُلَّمَا

والمكاشفة والتفكر. الثالث: الثياب كلبس الصوف والثوب الخشن وترك الثوب مخرقا وسخا ليظن أنه مستغرق الوقت عن الفراغ له. الرابع: القول كرياء أهل الوعظ والتذكير بحسن الألفاظ وتسجيعها والنطق بالحكمة والاخبار وكلام السلف مع ترقيق الصوت وإظهار الحزن مع الخلو عن الصدق والإخلاص في الباطن ليظن به ذلك وكالمبادرة إلى تصحيح الحديث وتسقيمه لتظن به غزارة العلم. الخامس: العمل كتطويل القيام وتحسين الركوع والسجود وقلة الالتفات. السادس: كثرة التلاميذ والأصحاب وكثرة الشيوخ ليظن به أنه لقي شيوخا كثيرة وأن يحب أن يزوره العلماء والسلاطين ويقال إنه ممن يتبرك به، وأما طلب المنزلة في قلوب الناس بأفعال ليست من العبادة وأفعال الدين ككثرة المال والغلمان وحسن الثياب الفاخرة وحفظ الأشعار وعلم الطب والحساب والنحو واللغة فليس بحرام ما لم ينته إلى الإيذاء بالتكبر وإلى الأخلاق المذمومة كما في الإحياء.

فائدة: في البصائر قال بعضهم رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين وهذا كلام ظاهره منكر ومحتاج إلى شرح فإن العارف لا يراءي المخلوق طلبا للمنزلة في قلبه وإنما يكون ذلك منه نصيحة وإرشادا وتعليما فهو يدعو إلى الله بعمله كما يدعو إلى الله بقوله وإخلاص المريد مقصور على نفسه.

ثم الرياء له ثلاث درجات فأشده و«**أعظمه ما كان**» منه «**وصلة إلى**» تمكن من «**ذنب كمبدي**» أي مظهر تقوى و«**ورع**» وعبادة بالامتناع من الشبهات وكثرة النوافل وغرضه أن يعرف بالأمانة «**ليجعلا بيده مال يتيم**» أو وقف أو وصية أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما يقدر عليه منها أو تودع عنده الودائع فيجحدها «**ثم**» الدرجة الثانية منه «**ما**» كان «**لدنيوي امتطاه**» أي جعله مطية لنيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح ذات جمال أو شرف حال كونه «**سلما**» إليه ووصلة كالذي يظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتبذل له الأموال ويرغب في نكاحه النساء وكمن يرغب في تزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته فهذا رياء محظور لأنه

ثُمَّتَ مَا كَانَ لِخَوْفِ نَظَرِ بِعَيْنِ سُخْطٍ مِن عُيُونِ البَشَرِ
بِعِلْمِ أَنَّ الْخَلْقَ لَوْ تَظَافَرَا عَلَيْكَ أَوْ لَكَ أَخِي مَا قَدَرَا
إِلاَّ بِإِذْنِهِ وَعِنْدَهُ أُجُورْ دَارَيْكَ وَهْوَ القَادِرُ الْبَرُّ الشَّكُورْ

طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه. «**ثمت**» الدرجة الثالثة «**ما كان**» منه «**لخوف نظر**» إليه «**بعين سخط من عيون البشر**» فيظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والعباد ويعتقد أنه من جملة العامة ومن آحاد الناس كالذي يمشي مستعجلا فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كي لا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار وكذلك يسبق إلى الضحك أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ويقول ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه والله تعالى يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك وإنما يخاف أن ينظر إليه لا بعين التوقير، وكما يعظم الرياء ويتغلظ إثمه بالباعث عليه فيعظم أيضا بما به المراءاة فأغلظ درجاته أن يرائي بأصل الإيمان كالمنافق يظهر أنه مسلم .وليس بمسلم بقلبه، الثانية بأصل العبادات كمن يصلي ويخرج الزكاة بين يدي الناس ولو خلا بنفسه لم يفعل ذلك، الثالثة أن يرائي بالنوافل كمن يكثر النافلة ويحسن هيئة الفريضة ويخرج الزكاة من أجود ماله مثلا أو يتهجد أو يصوم يوم عرفة مثلا ولو خلا بنفسه لم يفعل شيئا من ذلك وهذا حرام أيضا وإن كان لا تنتهي شدة العقوبة فيه إلى حد الرياء بالأصول وانظر رتبه فيما مر عند قوله : وحبه المدح إلخ.

ثم شرع في دوائه وهو علمي وعملي فإلى الأول أشار بقوله : «**بعلم**» خبر قوله الآتي دواؤه العلمي أي بأن تعلم «**أن**» الأمر كله بيده تعالى يعطي من يشاء ويمنع من يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لأمره، وأن «**الخلق**» لا يملك شيئا فـ«**لو تظافرا**» أي تعاون «**عليك**» ليضرك «**أو**» تظافر «**لك**» لينفعك يا «**أخي ما قدرا إلا بإذنه**» فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا، «**و**» بأن تعلم أنه تعالى «**عنده أجور داريك**» قال تعالى : ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ وفي الحديث :

وَبِشُعُــــورِ ضُرِّهِ فَيُكْسِبَـــــا ذَلِكَ بُغْضَهُ وَذَا أَنْ يَذْهَبَـا

(إن الله يعطي الدنيا بعمل الآخرة ولا يعطي الآخرة بعمل الدنيا) فإذا أنت أخلصت النية للآخرة حصلت لك الآخرة والدنيا وإن أردت الدنيا ذهبت عنك الآخرة في الوقت وربما لا تنال الدنيا كما تريد وإن نلتها لا تبقى لك فتكون قد خسرت الدنيا والآخرة. انظر الخاتمة. «و» أنه «**هو القادر**» فالقلوب والنواصي بيده فأخلص سعيك لله تعالى فهو يميل القلوب إليك ويجمع النفوس لك ويشحن من حبك الصدور، وإن قصدت المخلوق دونه تعالى فإنه يصرف عنك القلوب وينفر عنك النفوس ويسخط عليك الخلق فيحصل لك سخط الكل بسخط الله تعالى وسخط خلقه، قال بعض الصوفية : يامراءي قلب من تراءي بيد من تعصيه. يعني أنك بالرياء عاص لله طالب بريائك قلب من تراءي له وقلبه بيد الله. وقال الجنيد : من أشار إلى الحق وتعلق بالخلق أحوجه الله إليهم ونزع الرحمة من قلوبهم عليه. «**البر**» قال في المقصد الأسنى : البر هو المحسن، والبر المطلق هو الذي منه كل مبرة وإحسان، والعبد إنما يكون برا بقدر ما يعطاه من البر لاسيما بوالديه وأستاذه وشيوخه. «**الشكور**» في المقصد الأسنى أيضا : الشكور هو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيما في الآخرة غير محدود، ومن جازى الحسنة بأضعافها يقال إنه شكر تلك الحسنة، ومن أثنى على المحسن أيضا يقال إنه شكره، فإن نظرت إلى معنى الزيادة في المجازاة لم يكن الشكور المطلق إلا الله تعالى؛ لأن زياداته في المجازاة غير محصورة ولا محدودة فإن نعيم الجنة لا آخر له، والله تعالى يقول : ﴿كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ انظر بقيته.

قال في الخاتمة : ومثال المرائي بعمله من أمكنه أن يبيع جوهرة نفيسة له بألف ألف من الدنانير فباعها بفلس ومن أمكنه رضى أعظم ملك بسعيه فطلب به رضى دني من الناس، فكيف والدني يبغضك ويسخط عليك بسبب سخط الملك عليك إن علم أنك تعمل لأجله. «**وبشعور ضره**» ففيه فضيحتان ومصيبتان، أما الفضيحتان فإحداهما فضيحة السر وهي اليوم على رؤوس الملائكة وذلك لما روي أن الملائكة تصعد بعمل العبد مبتهجين به فيقول الله تعالى ردوه إلى سجين فإنه

لم يردني به فيفتضح ذلك العمل والعبد عند الملائكة، والثانية فضيحة العلانية وهي يوم القيٰمة على رؤوس الخلائق كلهم، وأما المصيبتان فإحداهما فوت الجنة لحديث : (إن الجنة تكلمت وقالت أنا حرام على كل بخيل ومراءٍ) والثانية دخول النار لما ورد أن أول خلق تسعر بهم النار رجل جمع القرآن ورجل قاتل في سبيل الله ورجل كثير المال إذا قرأ وقاتل وأنفق رياء في حديث طويل كما في الخاتمة باختصار. «**فيكسبا ذلك**» الشعور «**بغضه و**» يكسب «**ذا**» أي بغضه «**أن يذهبا**» عنك مرضه «**دواؤه العلمي**» قال في كتاب الأربعين : وعلاجه يعني الرياء في دفع الأسباب الباعثة عليه وهي ثلاث : حب المدح وخوف الخلق والطمع، أما حب المدح فكمن يهجم على صف القتال ليقال إنه شجاع أو يظهر العبادات ليقال إنه ورع وعلاجه ما تقدم في علاج حب الجاه وهو أن تعلم أنه كمال وهمي لا حقيقة له وعلاجه في الرياء خاصة أن يقرر على نفسه ما فيه من الضرر؛ فإن العسل وإن كان لذيذا فإذا علم أن فيه سما سهل تركه فيقرر على نفسه أنه يقال له في يوم فقره بسبب ريائه يا فاجر يا غاوي استهزأت بالله عز وجل وراقبت العباد وتحببت إليهم واشتريت حمدهم بذم الله تعالى وطلبت رضاهم بسخطه أما كان أحد أهون عليك من الله تعالى ؟ فلو لم يكن إلا هذا الخزي والخجلة لكان كافيا في المنع عنه كيف وقد انضم إليه العقوبة وإحباط العبادة وأنه ربما يترجح به كفة السيئات بعد أن قارنت كفة الحسنات فيكون سبب هلاكه، وليقرر على نفسه أن رضى الناس غاية لا تدرك ومن طلب رضى الناس بسخط الله تعالى أسخطهم الله عليه فكيف يترك رضى الله بما لا يطمع في حصوله، وأما الباعث الثاني وهو الخوف من ذمهم فيقرر على نفسه أن ذمهم لن يضره إن كان محمودا عند الله عز وجل ولم يتعرض لذم الله ومقته خوفا من ذم الخلق، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء لمقتوه ويأبى الله إلا أن يكشف سره حتى يعرف نفاقه فيمقته الناس أيضا بعد أن يمقته الله عز وجل، ولو أخلص وأعرض بقلبه عنهم وجرد نظره إلى الله تعالى لكشف لهم إخلاصه له وأحبوه، وأما باعث الطمع فيدفعه بأن يعلم أن ذلك أمر موهوم وفوات رضى الله تعالى

وَسُورَةُ ٱلإِخْلَاصِ فِي ٱلإِكْثَارِ مِنهَا وَمِنْ سَيِّدِ الِاسْتِغْفَارِ

ناجز ويعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب وأن من طمع في الخلق لم يخل عن الذل والمهانة والمنة ومن أعرض عن الطمع في الخلق كفاه الله تعالى وسخر له القلوب فإذا أحضر في قلبه نعيم الآخرة والدرجات الرفيعة وعلم أن ذلك يفوت بالرياء أعرض قلبه عن الخَلق واجتمع همه وفاضت عليه أنوار الإخلاص وأمده الله سبحٰنه بمعونته وتوفيقه، ثم أشار إلى الثاني بقوله : «**وستر العمل**» أي تعويد نفسه إخفاء العبادة «**عن أعين الناس**» وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عبادته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به هو «**الدواء العملي**» وقد روي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال له : أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها وهو غير لائق بأحوال المخلصين !. قال في كتاب الأربعين : وإخفاء العبادة إنما يشق في البداية فإذا صار عادة ألف الطبع لذة المناجاة في الخلوة ومهما هجم وارد الرياء فعلاجه أن تجدد على قلبك ما رسخ فيه من قبل من المعرفة بالتعرض لمقت الله عز وجل مع عجز الناس عن منفعتك ومضرتك حتى تنبعث منه كراهية لداعية الرياء، ثم الشهوة تدعو إلى إجابة الرياء بتحسين العمل والفرح به والكراهية تدعو إلى رده والإعراض عنه وتكون اليد للأقوى فإن قويت الكراهية حتى منعتك من الركون إليه واستصحبت حالتك التي كنت عليها فلم تزد ولم تنقص ولم تتكلف إظهار الفعل وإيثاره فقد اندفع عنك الإثم ولم تكلف أكثر من ذلك، وأما دفع الخواطر ودفع الطبع عن الميل إلى أقوال الناس فلا يدخل تحت التكليف وإنما منتهى التكليف الكراهية والإباء عن إجابة الداعية. «**وسورة الإخلاص في**» صلة يلفى الآتي «**الإكثار منها ومن سيد الاستغفار**» وهو : اللهم أنت ربي لا إلٰه إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

العياشي : لما كان هذا الدعاء جامعا لمعاني التوبة كلها استعير له اسم السيد

لِزَمِنِ الْقَلْبِ مِنَ ٱلرِّيَاءِ يُلْفَى دَوَاءٌ أَيُّمَا دَوَاءِ
أَمَّا الرِّيَا بِسَتْرِ ذَنْبٍ أَوْ خَنَا فَوَاجِبٌ كَمَا ابْنُ زُكْرِي بَيَّنَا

وسمي سيد الاستغفار، والسيد في الأصل هو الرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في الأمور. ولشيخ شيوخنا زين بن أَجَّمَدْ :

سيد الاستغفار كل مسلمه تبدل لفظ العبد فيه بالأمه

قال الهلالي في نور البصر : عرضت على الشيخ الحبيب أن المرأة تقول في سيد الاستغفار : وأنا أمتك فوافق عليه. «**لزمن القلب**» يعني مريضه صلة دواء «**من الرياء يلفى دواء أيما دواء**» قال الشيخ زروق في النصيحة : ومن أراد الإخلاص فليكثر من قراءة قل هو الله أحد وليقل كل يوم : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك من كل ما لا أعلم ثلاثا صباحا وثلاثا مساء ويذكر سيد الاستغفار دائما «**أما الريا بستر ذنب أو**» ستر «**خنا**» أي عيب «**فواجب كما ابن زكري**» في شرح النصيحة «**بينا**» ففيه عن الإحياء أن من أخذه سلطان فسأله عن فاحشة فعلها بينه وبين الله ارتكبها فله أن ينكر ويقول : ما زنيت وما شربت قال ﷺ : (من ارتكب شيئا من هذه القاذورات فليستتر بستر الله تعالى) وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يوخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا، ومن تعليله يعلم أن مراده الوجوب. انتهى منه. وقد قال زروق في الإعانة : متى أمكن الستر في رد مظلمة وتصور وصوله دون إلحاق وصم بالعبد فلا يحل إظهار الأمر لأنه لا يحل له أن يلحق الوصم بنفسه ولا يشيع الذنب على نفسه ولذلك قيل : من أذنب سرا تاب سرا ومن أذنب جهرا تاب جهرا ليذهب الآخر بالأول.

وفي الخاتمة : قال الغزالي : وليس من الرياء ستر المعصية، بل هو ممدوح لأمور خمسة : الفرح لستر الله وكراهة ظهور المعاصي وخوف توجه المحذور من الناس وخوف اقتداء الغير به والحياء. قال في كتاب الأربعين : يجوز إظهار الطاعات لأجل اقتداء الناس وترغيبهم إذا صحت النية ولم يكن معه شهوة خفية، وعلامته أن يقدر أن الناس لو اقتدوا بأحد أقرانه وكفي مؤنة الترغيب وأخبر بأن أجره في الإسرار كأجره في الإظهار فلا يرغب في الإظهار، فإن كان ميله إلى أن يكون

أَمَّا المُبَاحُ فَالتَّجَمُّلُ بِهِ يَدُورُ بَيْنَ مَنْعِهِ وَنَدْبِهِ
لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَإِظْهَارِ النِّعَمْ نَدْبٌ كَذَا لِمَنْ عَلَى أَخٍ قَدِمْ

هو المقتدى به أكثر ففيه داعية الرياء؛ لأنه إن كان يطلب سعادة الناس وخلاصهم فقد حصل ذلك بغيره ولم يفته إلا إظهار نفسه، وكذلك يجوز كتمان المعاصي والذنوب ولكن بشرط أن يكون غرضه أن لا يعتقد فيه الورع بل لا يعتقد فيه الفسق، ولابأس بفرحه باستتار معاصيه وحزنه بانكشافها إما فرحا بستر الله عليه وإما فرحا بموافقة أمر الله تعالى فإنه تعالى يحب كتمان المعاصي وينهى عن المجاهرة بها، وإما لأنه يكره أن يذم فيتأ لم به إذ التألم بذم الناس ليس بحرام بل يوجبه الطبع وإنما الحرام الفرح بمدح الناس إياه بالعبادة فإن ذلك كأجر يأخذه على العبادة، وإما لأنه يستحيي من ظهورها والحياء غير الرياء ولكن قد يمتزج به.

ولما كان الرياء العمل لقصد الناس كان التجمل باللباس غير رياء ولذا قال: «**أما المباح**» من اللباس «**فالتجمل به يدور بين منعه وندبه**» فهو «**لطلب العلم و**» قصد «**إظهار النعم ندب**» الباجي: استحسن عمر لأهل العلم والصلاح حسن الزي والتجمل المباح لأن ذلك مشروع، وفي الحديث: (إن الله جميل يحب الجمال) [رواه مسلم].

العلقمي: تستحب ثياب تليق بحال الغني ليعرفه الفقير وذو الحاجة ما لم يكن محرما ولا مكروها ولا سرف فيه ونيته في ذلك إظهار نعمة الله تعالى ليعرفه المحتاج ومن هنا كان العلماء يلبسون من الثياب ما يليق بهم من غير إسراف ليعرفهم المستفتي وطالب العلم ولا يلبسون من رقيق الثياب التي تلبس للتفاخر فمن رق ثوبه رق دينه ومن ملك نفسه لا يضره شيء من ذلك فإن الله جميل يحب الجمال.

وقال الشيخ سيدي محمد وفا: في هذا الحديث إشارة إلى أنه تعالى يحب أن لا يرى أحدا من عبيده فيه نقص لا ظاهرا ولا باطنا لأن العبد من ربه وأمره راجع إليه. وقال في البيان: وما فضل عند الرجل من ماله بعد أن أدى منه الواجب عليه فيه فاستمتاعه به في الرفيع من اللباس والطيب من الطعام والحسن من الركوب والجيد من السكنى من غير إسراف في شيء من ذلك كله لقوله

كَكُلِّ قَصْدٍ حَسَنٍ وَإِنْ تَؤُمْ بِهِ اخْتِيَالاً أَوْ مُبَاهَاةً حَرُمْ
وَلَهُمُ فِي السَّعْيِ بِالتَّعَبُّدِ لِنَفْعِ الآنَ لاَ ادِّخَاراً لِغَدِ

تعالى : ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾، أولى من ترك ذلك وامساك ماله إذ لا أجر فيه وإنما يوجر على إمساكه إذا أمسكه لخير يريد أن يفعله منه وقد يوجر على الاستمتاع بماله في لباس الحسن لما جاء من أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده وما أشبه ذلك من الآثار، «**كذا**» ندب «**لمن على أخ قدم**» قال أبو العالية : كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا كما في الخاتمة، و«**ككل قصد حسن**» كأن يقبل قوله.

قال في الخاتمة : يستحب التجمل باللباس لطلب العلم وللقدوم على الغير ولقبول قوله عند الناس ولإظهار نعمة الله تعالى كما حكي عن العز ابن عبد السلام أنه أنكر على قوم منكرا فلم يقبلوا فلبس ثياب الفقهاء وأنكر عليهم فقبلوا فلبسها لمثل هذا أجر ؛ لأنه سبب لامتثال أمر الله تعالى والانتهاء عما نهى عنه. المناوي : قال الغزالي رحمه الله تعالى : التزين بالمباح غير حرام لكن الخوض فيه يوجب الأنس به حتى يشق تركه، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداهنة ومراعاة الخلق فالحزم اجتناب ذلك، نعم يحرم على غني لبس ثوب خشن ليعطى؛ لأن كل من أعطي شيئا لصفة ظنت فيه وخلي عنها حرم عليه قبوله ولم يملكه. «**وإن تؤم به**» أي تقصد بالتجمل به «**اختيالا أو مباهاة**» أي مفاخرة «**حرم**» لحديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء) وهو عام يشمل الرجال والنساء. «**ولهم**» أي للعلماء قولان «**في السعي بالتعبد لنفع الان**» أي لقصد الدنيا المجرد «**لا ادخارا لغد**» أي لا لادخار الثواب للآخرة، فعند الغزالي رياء إذ هو عنده العمل لغير الله، وغير رياء عند القرافي إذ هو عنده مراءاة الناس بالعمل كما مر. وأما إن قصد بسعيه دنيا نوى بها خيرا من عدة وعون على الطاعة ونفع المسلمين وسعي على عياله وتعطف على جاره وتعفف عن الناس وسلامة الناس منه وسلامة دينه فإخلاص، كنية أن يكون له تعظيم عند الناس أو محبة عند المشائخ والأئمة ليتمكن من تأييد الحق والرد على أهل البدع ونشر العلم أو حض الناس

أَوْ لِغَدٍ أَوْ مَعَ الِاسْتِحْـلاَءِ قَـوْلاَنِ بِالإِخْـلاَصِ وَالرِّيَـاءِ

على العبادة ونحو ذلك دون أن يقصد بذلك شرف نفسه من حيث هي أو دنيا ينالها، وكقراءة سورة الواقعة في أيام العشرة ليرزق قناعة أو قوة تكون له عدة على العبادة وقوة على درس العلم فهذه الإرادات كلها لا تكون رياء بل تصيره بتلك النية خيرا وتصيره في حكم أعمال الآخرة ولا تكون إرادة الخير رياء، ويجري مثل هذا في ما يستعمله مشائخ الصوفية من الأدعية التي تدفع الآفات والشدائد انظر الخاتمة. «**أو**» أي ولهم أيضا قولان في السعي به «**لغد**» أي طلبا للثواب ودخول الجنة. ففي المفيد عن الأبي : العبادة لدخول الجنة جائزة وإن كانت مرجوحة بالنسبة لمن يعبد الله سبحٰنه لاستحقاقه العبادة وكونه سبحٰنه أهلا لأن يعبد، وغلا بعضهم وقال إنه لا يجوز، قال في المفيد : وبهذا القول جزم العارف بالله سبحٰنه سيدي عبد العزيز الدباغ قائلا : إن العبادة لنيل الثواب حرام يعذب فاعلها عليها في نار جهنم، نعم إن عبد لذلك وللامتثال فلا. وقال الشاطبي : إن ذلك مقام خواص الخواص وأن التكليف بذلك يكاد أن يكون من تكليف ما لا يطاق. وفي غاية الأماني : قال الفقهاء : الاحتساب هو إخلاص العمل لله تعالى طمعا في جنته وخوفا من ناره، وقالت الصوفية : الاحتساب هو إخلاص العمل لله تعالى وأنه أهل للعبادة ومحبة فيه من غير طمع في جنته ولا خوف من ناره. ابن العربي : ما قاله الفقهاء أحسن لأن الشرع ورد به. انظر بقيته. «**أو**» أي ولهم في السعي «**مع الاستحلاء قولان بالإخلاص والرياء**» والاستحلاء هو أن تقصد بعملك نيل الحلاوة فهو عند القوم من الرياء لما لك فيه من اللذة والحظ ففي لطائف المنن قال الواسطي : استحلاء الطاعات سموم قاتلة وصدق رضي الله عنه، وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة تصير قائما فيها متطلبا لحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها وتحب دوامها لا قياما بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الحلاوة والمتعة فتكون في الظاهر قائما لله وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك ويخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاء تعجلته في الدنيا فتاتي يوم القيٰمة ولا جزاء لك. وفي كشف القناع : خفي الرياء كجليه في الإثم وإبطال العمل وهو كثير ومنه استحلاء العبادة، قال

بعضهم : أجمع العارفون على أن استحلاء العبادة من خفي الرياء لأن النفس لا تستلذ بعبادة إلا إن وافقت هواها ولو أنها خلصت من الهوى لثقل عليها ذلك، ولولا شهود المريدين تعظيم مقامهم عند الناس بسهر الليالي الكاملة ما استطاعوا سهر ليلة كاملة فضلا عن دوام السهر.

تتمة : عد في الخاتمة من الرياء العمل بقصد التقرب من الحضرة الإلهية وهي دائرة ولاية الله تعالى أو بقصد الوصول إلى الله تعالى؛ لأنه ليس بقصد امتثال الأمر. قال سيدي أبو العباس : لن يصل الولي إلى الله تعالى حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إليه تعالى يعني انقطاع أدب لا انقطاع ملل. وقال أبو عبد الله القرشي : الزم العبودية لربك أدباً ولا تطلب بها الوصول إليه فإنه إذا أرادك له أوصلك إليه وأي عمل خلص لك حتى تطلب به الوصول ؟. ومن الرياء استدعاء التعظيم والإكرام والخدمة من الناس بعلمه باطنا لكونه يرى لنفسه حقا عليهم أو استدعاء الكرامات والتصرف في الكون والخوارق منه تعالى بسبب عمله كالمشي على الماء والطيران في الهواء؛ لأن هذا كله عمل لغير امتثال الأوامر، بل لقصد الكرامات التي يمن بها الله تعالى على أوليائه لظنه أنه منهم، وعد منه أيضا الإطراق والخشوع عند لقاء الناس إطراقا وخشوعا زائدا على ما كان عليه قبل ذلك وترك العمل لأجلهم والشكر طلبا لما فيه من الزيادة لقوله تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ قال اللقاني : ولا ينبغي للإنسان أن يقصد بالصلاة والسلام عقب تمام كل عمل الإعلام بإتمامه، بل ينبغي له أن لا يقصد بهما إلا تحصيل فضيلتهما وإلا دخل في الكراهة، وكذا قولهم عند التمام والله أعلم. ثم قال في الخاتمة إن بعض هذه الأشياء المعدودة ليس برياء عند الفقهاء؛ لأن الرياء عندهم مراءاة الناس وهي ليست كذلك، والرياء عند الصوفية العمل لغير الله أيا كان ذلك الغير ولو بقصد دخول الجنان والتمتع بالحور الحسان وغير ذلك من ثواب الآخرة أو بقصد السلامة من النار وشدة الحساب والعقاب أو بقصد القرب من الله والرضا منه والمحبة له، بل الإخلاص أن يعبد الله امتثالا لأمر الله تعالى لا قصد له في عمله وعلمه إلا علمه باستحقاق مولاه العبادة والتذلل والخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه قد تبرأ من الاعتماد على حوله وقوته وعلمه وعمله وقصده وإرادته فأتى بأعماله على وجه الإخلاص وهو خائف من الله تعالى لا يرى أنه قام بذرة واحدة من الأمور التي كلف بها على الوجه الذي أمر به.

وَالمُسْتَحِبُّ لِشُعُورِ النَّـــاسِ بِسَعْيِـهِ رَاءَى لَـدَى أُنَــاسِ
وَالنَّجْمُ لَمْ يَرَ بِهِ مِن بَاسِ إِنْ بُنِيَ السَّعْيُ عَلَى أَسَاسِ

«**والمستحب لشعور الناس بسعيه**» اللام زائدة تقوية للعامل لضعفه بكونه فرعا.. يعني أن من يحب أن يشعر الناس بعمله أو رتبته «**راءى**» رياء خفيا «**لدى أناس**» فللرياء ثلاث درجات أولها أن يقصد بعمله الخلق ولولاهم لم يعمل، وهذا باسم الشرك أولى، والثاني أن يريد وجه الله بعمله ويتعرض لرؤية الخلق، والثالث أن يفر من ذلك كله لكنه يحب شعورهم برتبته وهذا هو الرياء الخفي. وفي الحديث :٠(إن أخوف ما أتخوف عليكم الشرك الأصغر) وورد (الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء) أو نحو ذلك فقال : دواؤه أن يقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك فيما لا أعلم، قيل : لو أن رجلا عمل عملا من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتمه فهو من أقبح الرياء. وقيل كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله فليس من الله. وقال أحمد بن الحواري : من أحب أن يعرف بشيء من الخير ويذكر به فقد أشرك في عبادته. وقال سهل ابن عبد الله : من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين ربه فهو غافل. وقال أبو الخير : من أحب أن يطلع الناس على عمله فهو مراء. اللهم إلا أن يرى الناس قد زهدوا في العمل فأظهره لأجل النصيحة لا للرياء، قال الجزولي قد يدخل الرياء على الإنسان في بيته وهو وحده مثل أن ينظر في كتبه فيجد فيها مسألة غريبة أو مشكلة فيحفظها ليلقيها على غيره فيمدح بذلك انظر الخاتمة، وفيها أيضا : قال أبو داوود الطيالسي : ينبغي للعالم إذا حرر كتابا أن يكون قصده بذلك نصرة الدين لا مدحه بين الإخوان بحسن التاليف.
«**والنجم**» مالك «**لم ير به من باس إن بني السعي**» أصلا «**على أساس**» من الإخلاص. في جامع الذخيرة : قال ابن أبي زيد : قيل لمالك : المصلي لله يقع في نفسه محبة علم الناس به وأن يُلقى في طريق المسجد ؟ قال : إن كان أول ذلك لله فلا بأس. قلت : كون العبد يحب أن يعظمه الناس غير العمل لهذا الغرض الأول جبلي والثاني كسبي وتحويل للطاعة عن موضوعها. انتهى منها. رزوق : إذا صح أصل القصد فالعوارض لا تضر كما قال مالك في الرجل يحب أن يرى

وَعَمَلٌ عَلَى رِيَاءٍ أَفْضَلُ مِنْ تَرْكِهِ لِخَوْفِهِ وَفَضَّلُوا
ذِكْرَ اللِّسَانِ فَارِغَ الجَنَانِ عَلَى غُفُولِ ٱلْقَلْبِ وَٱللِّسَانِ

في طريق المسجد ولا يحب أن يرى في طريق السوق وفي الرجل ياتي المسجد فيجد الناس قد صلوا فيرجع حياء منهم.

ابن رشد : أما من كان أصل عمله لله وعلى ذلك عقد نيته فلا تضره ــ إن شاء الله ــ الخطرات التي تقع بالقلب ولا تملك، انظر الرهوني فقد أطال فيه.

قال في الخاتمة : وقيل إن ابتدأ العمل لله وأحب أن يحمد عليه بقلبه فلا يضره ذلك لقوله تعالى : ﴿ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ لأن مجرد ميل الإنسان إلى أن يطلع على عمله لا يضره، لأن مجرد حب اطلاع الناس ميل طبعي لا معصية فيه ولو بطل بذلك لكان فيه تكليف ما لا يطاق، وإنما عليه أن يدفعه بقلبه. «**وعمل على**» أي مع «**رياء أفضل من تركه لخوفه**» زروق : قيل : وجود العمل مع الرياء خير من فقده لخوفه.. فمن الرياء ترك العمل لأجل الناس كما أن العمل من أجلهم شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما جميعا قاله الفضيل. وفي طي هذا أن الرياء يقع في الترك كالفعل واشتقاقه من رؤية المراءي للخلق لا رؤيتهم له ولولا ذلك ما صح منه رياء في الخلوة قاله زروق، ومعنى ترك العمل لأجلهم أن لا يحب أن يعمل إلا في محل يحمده الناس فيه فإن لم يجد من يحمده ترك العمل أو كسل عنه، وأما لو تركه ليفعله في الخلوة فهذا مستحب إلا أن يكون فريضة أو زكاة واجبة أو يكون ممن يقتدى به فالجهر في ذلك أفضل «**وفضلوا ذكر اللسان فارغ الجنان**» من الحضور فيه مع الله «**على غفول القلب واللسان**» معا.. فلا ينبغي أن يترك الذكر لفقد الحضور. قال في الحكم : لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره. زروق : وذلك لثلاثة أوجه أحدها أن في وجود ذكره إقبالا بوجه ما والغفلة عنه إعراض بالكلية، الثاني أن في ذكره تزيين جارحة بالعبادة والغفلة عنه تفويت لذلك، الثالث في وجود ذكره تعرض لنفحات رحمته أن يرفعك مما هو أدنى لما هو أعلى وفي الغفلة عن ذكره إهمال لذلك ولا يشك عاقل

وَرَهبُوتَى غَيرِ رَبِّي وَالرَّغَبْ ضِدُّ التَّوَكُّلِ عَلَيْـهِ وَسَبَبْ
آلاَمْرَيْـنِ أَسْتَعِيـذُ بِٱلمَتِيـنِ مِـن كُلِّ دَاءٍ قِلَّـةُ الْيَقِيـنِ
ثُمَّ ٱلحَرَامُ مِنهُمَا مَا غَلَبَـا غَلَبَـةً تَصُدُّ عَمَّـا وَجَبَـا
أَمَّا إِذَا جَرًّا لِتَرْكِ نَـدْبِ فَالكُرْهُ وَافزَعْ مِنْهُمَا لِلـرَّبِّ
فَـإِنَّ كُـلاًّ مِنهُمَـا دَوَاهُ شُعُورُنَـا أَنْ لاَ وَلاَ سِوَاهُ

في أن الإقبال ولو ضعيفا خير من الإدبار بالكلية. «**ورهبوتى**» بالقصر بمعنى الرهبة أي خوف «**غير ربي والرغب**» في غيره تعالى «**ضد التوكل عليه**» تعالى «**وسبب الامرين**» مبتدأ خبره قلة اليقين وما بينهما اعتراض «**أستعيذ بالمتين**» تعالى «**من كل داء قلة اليقين**» فذلك من ضعف الإيمان؛ إذ لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ﴿وإن يمسسك الله بضر... الآية﴾ وقال في الأنبياء إنهم ﴿كانوا يسٰرعون في الخيرات... الآية﴾ ومن قنع بعلم الله لا يخاف إلا الله ولا يرجوا إلا الله. وفي كلام الشاذلي : اللهم إنا نسألك حقيقة الإيمان بك حتى لا نخاف غيرك ولا نرجو غيرك ولا نحب غيرك ولا نعبد شيئا سواك. «**ثم الحرام منهما**» هو «**ما غلبا**» على القلب «**غلبة**» بحيث «**تصد**» صاحبهما «**عن**» تأدية «**ما وجبا**» من الحقوق أو توقعه في ارتكاب حرام، قال في الخاتمة : خوف الخلق المذموم هو المانع من فعل واجب أو ترك محرم أو الخوف الذي لم تجر العادة أنه يخاف منه كالعبور بين الغنم يخاف العابر أنه لا تقضى حاجته، وأما خوفك الأسد والأفاعي والظلمة فجائز وقد يجب الخوف من الخلق كالفرار من أرض الوباء إن لم يدخلها لخوف الوباء؛ لأن صون النفس والأجساد والمنافع والأعضاء والأموال والأعراض عن الأسباب المفسدة واجب قاله المناوي. «**إما إذا جرا لترك ندب فالكره**» بيد أن الأكمل في كل حالة وفي كل مقام أن لا ينظر إلى الخلق رغبة ورهبة إلا من حيث أمر الله بهما ورسوله ﷺ كقوله تعالى : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ وكنهيه ﷺ : (إذا وقع الوباء بأرض فلا تقدموها) وقوله : (فروا من الجذام والبرص كما تفرون من الأسد) «**وافزع**» أي الجأ «**منهما للرب فإن كلا منهما دواه شعورنا**» واعتقاد قلوبنا «**أن لا**» ضار «**ولا**» نافع «سواه» تعالى.. فالمضار والمنافع كلها بيده تعالى لا ضار ولا نافع إلا بإذنه، ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾.

وَسَخَطُ ٱلْقَـدَرِ أَن يَعْتَـرِضَا عَلَيْهِ جَلَّ وَعَلاَ فِيمَا قَضَى
كَقَوْلِهِ مَا كُنْتُ أَسْتَحِقُّ ذَا وَأَيُّ ذَنبٍ جَرَّ لِي هَذَا ٱلأَذَى ؟

«**وسخط القدر**» أي المقدور الذي لا يوافق هوى النفس هو «**أن يعترضا عليه جل وعلا فيما قضى**» أي في قضائه «**كقوله**» إذا ابتلي بمرض «**ما كنت أستحق ذا وأي ذنب**» عملته حتى «**جر لي هذا الأذى**» وهو من الممنوع الذي يوجب الغم في الدنيا فيقع في الضجر والقلق من غير فائدة والعقوبة في الأخرى إلا أن يعفو المولى تبارك وتعالى، والواجب ضده وهو الرضا بالقضاء. القرافي : اعلم أن السخط بالقضاء حرام إجماعا والرضى بالقضاء واجب إجماعا بخلاف المقضي.. قال : والفرق بين الرضى بالقضاء والمقضي والقدر والمقدور أن الطبيب إذا وصف للعليل دواء مرا وقطع يده المتألمة فإن قال ليس ترتيب الطبيب ومعالجته حسنة وكان غير هذا مما هو أيسر منه يقوم مقامه فهو سخط بقضاء الطبيب بأنه جنى عليه بحيث لو سمعه الطبيب كرهه وشق عليه، وإن قال هذا دواء مر قاسيت منه شدة وقطع اليد حصل لي منه ألم شديد فهذا سخط بالمقضي الذي هو الدواء والقطع لا بالقضاء الذي هو ترتيب الطبيب ولا يلومه الطبيب إذا سمع ذلك بل يقول له صدقت الأمر كذلك، فعلى هذا إذا ابتلي الإنسان بمرض فتألم منه بمقتضى طبعه فهذا ليس عدم رضى بالقضاء بل عدم رضى بالمقضي، وإن قال : أي شيء عملت حتى أصابني مثل هذا وما كنت أستحقه ؟ فهذا عدم رضى بالقضاء فنحن ماموررون بالرضى بالقضاء فلا نتعرض لجهة ربنا إلا بالإجلال ولا نعترض عليه في ملكه، وأما أنا أمرنا بأن تطيب لنا الرزايا والبلايا ومولمات الحوادث فليس كذلك ولم ترد الشريعة بتكليف أحد بما ليس في طبعه بل ذم الله قوما لا يتألمون ولا يجدون للبأساء موقعا فذمهم بقوله تعالى : ﴿ولقد أخذنٰهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون﴾ انظر المباحث، قال عز الدين في قواعده : إن كان المقضي به طاعة فليرض بالقضاء والمقضي به جميعا وإن كان معصية فليرض بالقضاء ولا يرضى بالمقضي به بل يكرهه وإن لم يكن طاعة ولا معصية فليرض بالقضاء ولا يتسخط بالمقضي به وإن رضى به كان أفضل. القرافي : اعلم أن كثيرا من الناس يعتقد أن الرضى بالقضاء إنما يحصل من الأولياء

وَالسُّمْعَةُ الإِخْبَارُ بِالطَّاعَاتِ بَعْدَ خُلُوصِهَا مِنَ الآفَاتِ
لِبَعْضِ أَغْرَاضِ الرِّيَاءِ وَالْعَمَلْ تُفْسِدُهُ وَلَكِنِ انْ تُبْتَ انْدَمَلْ
كَذَاكَ مَنْ فَعَلَهَا لِتُسْمَعَا فَهُوَ مُسَمِّعٌ لَدَى مَنْ قَدْ وَعَى

وخاصة عباد الله تعلى لأنه من العزيز الوجود وليس كذلك بل أكثر العوام من المومنين إنما يتألمون من المقضي فقط وأما التوجه إلى جهة الربوبية بالتجوير والقضاء بغير العدل فهذا لا يكاد يوجد إلا نادرا من الفجار والمردة.

الشعراني : كان ـــ يعني أبا الحسن الشاذلي ـــ يقول : خصلة واحدة تحبط الأعمال ولا يتنبه لها كثير من الناس وهي سخط العبد على قضاء الله تعالى قال تعالى : ﴿ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم﴾. «**والسمعة الإخبار بالطاعات بعد خلوصها**» وسلامتها «**من الآفات**» المفسدة «**لبعض أغراض الرياء**» المتقدمة في قوله : بل طلبا لنفع إلخ وقال ابن عبد السلام : هي أن يخفي عمله ثم يحدث به الناس، وأما الإخبار بها ليقتدي به غيره أو تحدثا بنعمة الله حيث وفقه الله فليس من التسميع المحرم «**والعمل تفسده**» وفي الخبر : (من سمَّع سمع الله به يوم القيمة) أي ينادي : هذا فلان عمل عملا ثم أراد به غيري «**ولكن ان تبت**» منها «**اندمل**» أي صلح.. يعني أنه يرجع صحيحا فالفرق بينها وبين الرياء أنها تتعلق بحاسة السمع والرياء بحاسة البصر، والرياء أيضا يبطل العمل من أصله والسمعة إذا تاب منها العبد رجع العمل صحيحا، فالسمعة لها دواء بخلاف الرياء، «**كذاك من فعلها لتسمعا**» أي لأجل أن يسمع الناس بها «**فهو مسمع لدى من قد وعى**» فالسمعة هي أن يخبر بالفعل أو يفعله ليسمع به. القاموس : فعله رياء وسمعة ليراه الناس ويسمعوا به. ابن حجر : عند حديث : (من سمع سمع الله به ومن يُرائي يراءي الله به) [متفق عليه] في الحديث استحباب إخفاء العمل الصالح، لاكن قد يستحب إظهاره ممن يقتدى به على إرادته الاقتداء به ويقدر ذلك بقدر الحاجة، قال ابن عبد السلام : يستثنى من استحباب إخفاء العمل من يظهره ليقتدى به أو لينتفع به ككتابة العلم، قال الطبري : كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتهجدون في مساجدهم ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم ليقتدى بهم.. قال : فمن كان إماما يستن بعمله عالما بما لله عليه قاهرا

شِظَاظُهَا الَّذِي الطَّرِيقَ يَقْطَعُ عَلَى جَمِيعِ السَّالِكِينَ الطَّمَعُ
فَهْـوَ مَجَـرَّةٌ لِكُـلِّ ضَيْـرِ كَغِيبَــةٍ وَكَبَنَــاتِ غَيْــرِ
وَشُغْلِ قَلْبٍ فِي ٱلصَّلاَةِ وَٱلثَّنَا مَيْناً وَلاَبُدَّ مِنَ انْ يُدَاهِنَـا
لَوْ سِيلَ مَا حِرْفَتُهُ قَالَ اكْتِسَابْ مَذَلَّةٍ وَعَـن أَبِيـهِ لأَجَـابْ
الشَّكُّ فِي الْمَقْدُورِ أَوْ عَن غَايَتِهْ قَالَ هِيَ ٱلْحِرْمَانُ مِن أُمْنِيَتِهْ

لشيطانه استوى ما ظهر من عمله وما خفي لصحة قصده، ومن كان بخلاف ذلك فالإخفاء في حقه أفضل وعلى ذلك جرى عمل السلف.

المناوي : سمع الله به أي شهره بين أهل العرصات وفضحه على رؤوس الأشهاد إلى أن قال : وقيل معناه من سمع بعيوب الناس أظهر الله عيوبه وقيل أسمعه المكروه، وقيل أراه ثواب ذلك ولا يعطيه إياه ليكون حسرة عليه.

«**شظاظها**» أي لص أمراض القلوب وفي المثل : ألص من شظاظ رجل من بني ضبة «**الذي الطريق يقطع على جميع السالكين الطمع**» في غير الله تعلى وسببه الغفلة إذ لا أحد غير الله يملك ضرا ولا نفعا أو يستطيع جلبا أو دفعا إلا أن يجري الله تعالى على يده شيئا ﴿إن الله هو الرزاق﴾ «**فهو مجرة**» أي سبب جرٍّ «**لكل ضير كغيبة وكبنات غير**» للكذب «**وشغل قلب في الصلاة والثنا مينا**» على المطموع فيه.. فيثني عليه بما ليس فيه ويتصنع ويتزين له بأنواع من الرياء حتى يصير كأنه معبوده فلايزال يتفكر في حيلة التودد إليه والتحبب «**ولابد من ان يداهنا**» بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ابن عباد : الطمع من آفات النفس وعيوبها القادحة في عبوديتها بل هو أصل جميع الآفات. المناوي : قال الشافعي : من غلبت عليه شهوة الدنيا لزمته العبودية لأهلها ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع. وقال العارف المرسي رضي الله عنه : أردت أن أشتري شيئا ممن يعرفني وقلت لعله يحابيني فنوديت : السلامة في الدّين بترك الطمع في المخلوقين !. وقال : الطمع ثلاثة أحرف كلها مجوفة فهو بطن كله فلذا صاحبه لا يشبع أبداً ! «**لو سيل**» الطمع كما قال أبو بكر الوراق «**ما حرفته قال اكتساب مذلة أو**» سيل «**عن أبيه لأجاب**» هو «**الشك في المقدور أو**» سيل «**عن غايته**

وَهْوَ التَّشَوُّفُ لِنَفْعِ الخَلْـقِ   وَبِادِّكَارِ عَجْزِهِمْ ذُو مَحْـقِ
وَسِمُّهَا السَّاعِيُّ تَطْوِيلُ الأَمَلْ   تَوْطِينُكَ النَّفْسَ عَلَى بُعْدِ ٱلأَجَلْ

قال هي الحرمان من أمنيته» أي مما يتمناه ويريده «**وهو**» حده «**التشوف لنفع الخلق**» أي لحصول الفائدة من قبلهم «**وبادكار عجزهم**» عن ضرورياتهم فضلا عن غيرها وتحقق العلم بعدم نفعهم «**ذو محق**» زوال، وفي الحكم : من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا ؟. قال في الخاتمة : اعلم أن كل ما بيد الخلق من الإنعام مال الله استودعهم إياه بعدما قسمه في الأزل بين خلقه فيكون في ملك الرجل رزقه ورزق غيره وإن حسب أن الكل له فجرت العوائد بين الخلق بوجود رزق بعضهم عند بعض فلما وجد ذلك في العادة توجه طمع أهل ضعف اليقين إلى الخلق سكونا إليهم على حسب العادة فإذا منعوا مما طمعوا فيه غضبوا على من منعهم جهلا منهم بالمانع الذي بيده المنع والعطاء وهو الله سبحٰنه فالغضب على الخلق من أجل المنع جهل فرزق الله يعطيه للعبد على يد الخلق أو من حيث شاء فالعبد الصادق الموقن لا يتعلق طمعه بمنفعة من الخلق فكل منفعة نالها العبد من الخلق فمولاه قدرها له في سابق علمه وأجبر من هي في يده على دفعها لمن هي له في الوقت الذي قدر له فيه أن ينالها لا تتأخر عنه ساعة ولا تستقدمه إما بطيب نفس إن كانت على وجه عطية أو صدقة أو معاملة شرعية أو بغير طيب نفس فيصير حراما لكن تأدب أهل الصدق في هذا الفن تأدبا حسنا مع الخلق والخالق.

«**وسمها**» بالتثليث «**الساعي**» أي سم الساعة منها هو «**تطويل الأمل**» وهو كما في فتح الحق «**توطينك النفس على**» طول الإقامة في الدنيا و«**بعد الأجل**» وسببه الغفلة والجهل، وقد يقال للغفلة عن الموت ولا إثم فيه، وللترسل في جمع المال وهو جائز إلا لقصد تفاخر أو تكاثر أو لتسويف التوبة فكبيرة كما في الشرح. وقال في الخاتمة : الأمل رجاء ما تحبه النفس كطول عمر وزيادة غنى، والفرق بينه وبين التمني أن الأمل طلب ما تقدم له سبب والتمني طلب ما لم يتقدم له سبب، وقيل لا ينفك الإنسان من أمل فإن فاته أمله عول على التمني، وأكثر ما يستعمل الأمل فيما يستبعد حصوله والطمع لا يكون إلا فيما قرب حصوله،

يُورِثُ قَسْوَةَ القُلُوبِ وَالْكَسَلْ عَنِ الفُرُوضِ وَاقْتِحَامَ مَا انْحَظَلْ
لاَكِنَّهُ فِي حَقِّ مَنْ لِغَدِ اَبْ أَوْ كَانَ فِي تَصْنِيفِ عِلْمٍ لَمْ يُعَبْ

والرجاء بين الأمل والطمع، وفي الأمل سر لطيف لأنه لولاه ما تهنأ أحد بعيش ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، فلولا أن الآتين يرتفقون بما يجدون من إنشاء الماضين لافتقر كل عصر إلى بناء المساكن والغرس وغير ذلك، ولولا الأمل لما تجاوز أحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته ! وفي الحديث : (الأمل رحمة من الله ولولاه لما غرس غارس شجرة ولا وضعت أم ولدا) وإنما المذموم منه الاسترسال فيه وعدم الاستعداد للآخرة فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته، وطول الأمل يوقع الخلق في أنواع البليات. قال داوود الطائي : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ومن طال أمله ساء عمله. وقال يحيى الرازي : الأمل قاطع من كل خير. وفي الحديث : (أخوف ما أخاف عليكم اثنان طول الأمل واتباع الهوى ألا وإن طول الأمل ينسي الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق) القشيري : يقول الفضيل بن عياض : خمس من علامات الشقاء : القسوة في القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة في الدنيا وطول الأمل. «**يورث**» ترك التوبة والرغبة في الدنيا ونسيان الآخرة و«**قسوة القلوب**» قال تعالى : ﴿فطال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم﴾ «**والكسل عن الفروض**» وهو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة فيه مع إمكانه. المناوي : من ثمرات طول الأمل ترك الطاعة والتكاسل فيها وترك التوبة وتسويفها والحرص على الجمع والاشتغال بالدنيا عن الآخرة مخافة الفقر والنسيان للآخرة. «**و**» يورث «**اقتحام ما انحظل**» فالكسل يُرِي صاحبه أنه مضطر لترك الفرض وتعاطي المحرم وهو كاذب قد التبس عليه الكسل بالضرورة والتعذر «**لاكنه في حق من لغدِ اب**» أي تهيأ «**أو كان في تصنيف علم لم يعب**» فطول الأمل غير مذموم من العلماء إذ لولا أملهم لما صنفوا ولا ألفوا، وفي دوائه يقول رزوق :

دواؤه دوام ذكـــــــــر الموت والجد والتشمير خوف الفوت

وقال في الخاتمة : فاعلم أن السير بك إلى القبر والآخرة قريب ولعلك على شفا جرف من تلك الأهوال الشديدة وأنت لا تشعر، روي أن في الآخرة مائة

أَمَّـا التَّطَيُّرُ فَـإِنَّ أَصْلَـهُ مِنْ جَهْلٍ أَنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لَهُ

ألف هول الواحد منها أعظم من أهوال الدنيا عشر مائة ألف مرة. وفيها أيضا: قال عون بن عبد الله: كم من مستقبل يوما لم يستكمله ومنتظر غدا لم يدركه ولو رأيتم الأجل ومصيره لأبغضتم الأمل وغروره والدنيا ثلاثة أيام: أمس مضى ما بيدك منه شيء وغد لا تدري أتدركه أم لا ويوم أنت فيه فاغتنمه، والدنيا ثلاث ساعات كذلك، أو ثلاثة أنفاس كذلك، فلست تملك إلا نفسا واحدا لا ساعة ولا يوما فبادر في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن تموت. وريء زرارة بن أوفى في النوم بعد موته وقيل له أي الأعمال أبلغ عندكم؟ قال: الرضى وقصر الأمل، وأنشدوا:

إنما هـذه الدنيـا متـاع والغرور الغرور من يصطـفيها
ما مضى فات والمؤمـل غـيب ولك الساعـة التـي أنت فيها

وأنشدوا أيضا:

إنك في دار بها مهلـــة يقبـل فيها عمـل العامـل
أمـا تـرى الموت محيطـا بها يقطـع فيها أمـل الآمـل؟
تعلـل النـفس بما تشتهي وتامـل التوبـة في قابـل
فالموت يـاتي بعـد ذا بغتـة مـاذا بفعـل الحازم العاقـل؟

وقيل الإمهال زائد على الإهمال. وقال بعض الحكماء: الدنيا مدبرة والآخرة مقبلة فعجبا لمن يقبل على المدبرة ويدبر عن المقبلة!!. «**أما التطير**» أي التشاؤم بالشيء كالطيرة بكسر المهملة وفتح التحتية وقد تسكن مصدر تطيّر كتخير خيرة وهو مشتق من الطير لأن العرب كانت تتشاءم ببعض الطيور ثم أطلق على التشاؤم حيث كان. «**فإن أصله**» وسببه «**من جهل أن الأمر كله له**» تعالى لا ضار ولا نافع غيره، والمخرج من ذلك أن لا يرده عن شيء أراده. القرافي: التطير هو الظن السيء الكائن في القلب والطيرة هو الفعل المترتب على هذا الظن من فرار أو غيره وكلاهما حرام لما في الحديث أنه عليه السلام كان يحب الفال ويكره الطيرة ولأنها من باب سوء الظن بالله تعالى ولا يكاد المتطير يسلم مما تطير به إذا فعله وغيره لا يتأذى به، وسئل عن ذلك بعض العلماء؟ فقال: المتطير اعتقد أن الله

يضره فضره عقوبة له على سوء الظن بالله وغير المتطير لم يسيء الظن بالله فلم يواخذه، وأصل ذلك قوله ﷺ حكاية عن الله : (أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء) وفي رواية : (فليظن بي خيرا) ثم هذا المقام يحتاج إلى تحقيق فإن الإنسان لو خاف الهلاك عند ملاقاة السبع لم يحرم إجماعا، فتعين أن الأشياء في العادة قسمان : ما جرت العادة بأنه موذ كالسموم والسباع وبعض الأغذية فالخوف في هذا القسم ليس حراما؛ لأنه خوف عن سبب محقق في مجاري العادة قال صاحب القبس : قال بعض العلماء : حديث (لا عدوى...) محمول على بعض الأمراض بدليل تحذيره عليه السلام من الوباء والقدوم على بلده وهذا حق، فإن عوائد الله إذا دلت على شيء وجب اعتقاده كما تعتقد أن الماء مرو والخبز مشبع والنار محرقة ومن لم يعتقد ذلك خرج عن نمط العقلاء وما سببه إلا جريان العادة الربانية وكذلك ما كان في العادة أكثريا وإن لم يكن مطردا نحو كون المحمودة مسهلة والآس قابضا إلى غير ذلك من الأدوية فإن اعتقادها حسن متعين مع عدم اطرادها بل لكونها أكثرية، وقسم لم تطرد العادة بإذايته كالعبور بين الغنم وشراء الصابون يوم السبت ونحو هذا من هذيان العوام المتطيرين فالخوف في هذا القسم حرام لأنه سوء ظن به تعالى بلا سبب، ومن الأشياء ما يقرب من أحد القسمين ولم يتمحض كالعدوى في بعض الأمراض ونحوها فالورع ترك الخوف منه حذرا من الطيرة. انظر الفروق. ثم قال : وأما الفال فهو ما يظن عنده الخير عكس الطيرة والتطير غير أنه تارة يتعين للخير وتارة للشر وتارة يكون مترددا بينهما.. فالمتعين للخير مثل الكلمة الحسنة يسمعها الرجل من غير قصد نحو يافلاح يامسعود ومنه تسمية الولد والغلام بالاسم الحسن حتى متى سمع استبشر القلب فهذا فال حسن مباح مقصود، وقد ورد في الصحيح أنه ﷺ حول أسماء مكروهة من أقوام كانوا في الجاهلية بأسماء حسنة فهذان القسمان هما الفال المباح، وعليهما يحمل قولهم إنه ﷺ كان يحب الفال الحسن [رواه مسلم] وأما الفال الحرام فقد قال الطرطوشي في تعليقه إن أخذ الفال من المصحف وضرب الرمل والقرعة والضرب بالشعير.. جميع هذه الأنواع حرام؛ لأنه من باب الاستقسام بالأزلام... إلى أن قال : والفرق بينه وبين القسم المتقدم المباح أن هذا متردد بين الخير والشر والأول متعين للخير فهو يبعث على حسن الظن بالله تعالى فهو حسن لأنه وسيلة للخير، والثاني بصدد أن يبين سوء الظن بالله تعالى فيحرم لذلك وهو يحرم لسوء الظن بغير سبب تقتضيه عادة فيلحق بالطيرة.

وَالظَّنُّ بَعْضٌ مِنْهُ لاَ يُبَـاحُ   كَالسُّو بِمَنْ ظَاهِرُهُ الصَّلاَحُ
أَيْ عَقْدُ قَلْبِكَ وَحُكْمُهُ عَلَيْهْ   بِذَاكَ مِن غَيْرِ دَلِيلٍ يَقْتَضِيهْ

«**والظن بعض منه لا يباح**» المناوي : الظن تهمة تقع في القلب بلا دليل. وذلك البعض الذي لا يباح «**كالسو**»ء تظنه «**بمن ظاهره**» العدالة و«**الصلاح**» إذ هو غيبة بالقلب فهي لا تختص باللسان. قال في شرح المنهاج : الغيبة بالقلب هي أن تظن به السوء وتصمم عليه بقلبك من غير أن تستند في ذلك إلى مسوغ شرعي كما قال : «**أي عقد قلبك وحكمه عليه بذاك**» السوء «**من غير دليل**» سبب «**يقتضيه**» بأن تحقق منه حسن السريرة والأمانة أو غلب عليه الصدق والوفاء بالعهد فإن من أساء الظن به أثم إذ الظن من أكذب الحديث والمبادرة إلى شيء لا يسلم غالبا من الكذب لا تجوز شرعا؛ لحديث : (إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن تظن به السوء) ولحديث : (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) [متفق عليه] وحديث : (من أساء الظن بأخيه فقد أساء بربه) وحديث : (خصلتان ما أوتي المومن خيرا منهما : حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله) قاله في الخاتمة. وفيها أيضا : قال الشافعيُّ : من أراد أن يختم له بخير فليحسن الظن بالناس، قال سيدي زروق : حسن الظن بالناس في عين الحذر منهم فلا تامن أحدا على أهلك ولا مالك ولا دينك إلا من جربته ألف ألف مرة. قال في الإحياء: وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطن يلقيه إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق وقد قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا... الآية﴾ فلا يجوز تصديق إبليس، وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن يصدقه لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدقه حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحد إذ يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها أو حمل عليه قهرا فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها وقد قال ﷺ : (إن الله حرم من المسلم دمه وماله وأن يظن به ظن السوء) فلا يستباح إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدته أو بيِّنة عادلة فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه

لاَ إِثْمَ فِي الشَّكِّ وَلاَ مَا اسْتَنَدَا ... لِسَبَبٍ فَلَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَا
فَظَنُّنَا بِفَاسِقٍ نَظِيرَ مَا ... يَظْهَرُ مِنهُ لَمْ يَكُنْ مُحَرَّمَا

عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر، فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث ؟ فنقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفورا ما ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه، وقد قال ﷺ : (ثلاث في المومن وله منهن مخرج...) فمخرجه من سوء الظن أن لا يحققه أي لا يحققه في نفسه بعقد ولا فعل لا في القلب ولا في الجوارح، أما في القلب فبتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح فبالعمل بموجبه، انظر بقيته.

ثم إن الحرام من سوء الظن هو عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء أما الخواطر وحديث النفس فعفو، بل الشك عفو أيضا فـ«**لا إثم في الشك**» فالمنهي عنه أن تظن والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب، وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يحتمل التأويل فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته فما لم تشاهده ولم تسمعه ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق. كما مرَّ «**ولا**» في «**ما استندا**» من سوء ظن «**لسبب فلم يكن مجردا**» من دليل يقتضيه «**فظننا بفاسق نظير ما يظهر منه لم يكن محرما**» فمن استعمل سوء الظن بمن لم يتحقق منه حسن السريرة ولا الأمانة على المال والأهل والنفس أو ظهر منه المكر والخديعة وخلف الوعد والخيانة طلبا للسلامة من شره فإن ذلك جائز لحديث : (من حسن ظنه بالناس كثرت ندامته) وحديث : (الحزم سوء الظن) وحديث : (احترسوا من الناس بسوء الظن) أي لا تثقوا بكل أحد فإنه أسلم لكم والثقة بكل أحد عجز، وحديث : (لا يلدغ العاقل من جحر مرتين) وقرائن الأحوال تغلب أحد الجانبين. وفي النصح الأنفع ـــ بعد كلام طويل ـــ ما نصه : وبالجملة فالاعتقاد خير كله والانتقاد شر كله والاغترار أصل كل غواية والحذر أصل كل هداية وقد جاء

وَالعُجْبُ الإِسْتِعْظَامُ لِلنِّعْمَةِ مَعْ   نِسْيَانِ كَوْنِهَا مِنَ آللَّهِ تَقَعْ

في الحديث ما يؤيد هذه الجملة مفرقا، غير أن مذهب الفقهاء تقديم سوء الظن للحذر حتى يتحقق الرافع، ومذهب الصوفية تقديم حسن الظن عملا بسلامة الصدر حتى يتحقق الرافع، والحذر عند كل منهما واجب لقوله ﷺ : (الحزم سوء الظن والمومن كيس فطن حذر...) الحديث وإذا كان الله حذر المومنين من بعض أزواجهم وأولادهم فكيف بغيرهم ؟ فالحذر شأن ذوي الحزم لكن مع سلامة الصدر وطلاقة الوجه واستعمال المعروف بغاية الجهد كما ورد معناه في أخبار فاعرف ذلك. «**والعجب**» بالضم هو «**الاستعظام للنعمة**» والركون إليها «**مع نسيان كونها من الله تقع**» قال في كتاب الأربعين : حقيقة العجب استعظام النفس وخصالها التي هي من النعم والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم والأمن من زوالها فإن أضاف إليه أن رأى لنفسه عند الله حقا ومكانا سمي ذلك إدلالا وفي الخبر أن صلاة المدل لا ترتفع فوق رأسه وعلامة إدلاله أن يتعجب من ردِّ دعائه ويتعجب من استقامة حال من يوذيه أما من رأى نعمة الله على نفسه بعمل أو علم أو غيره وخاف زوالها وفرح بنعمة الله عليه من حيث أنها من الله فليس بمعجب بل العجب أن يامن وينسى الإضافة إلى المنعم. والفرق بينه وبين الكبر أن الكبر يستدعي متكبرا عليه ومتكبرا به والعجب لا يستدعي غير المعجب فلو لم يخلق الله إلا الإنسان وحده لتصور أن يكون معجبا ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون معه غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال. قال الغزالي : وهو ذكر العبد حصول شرف العمل الصالح لشيء دون الله تعالى، وضد العجب ذكر المنة وأنه بمحض توفيق الله تعالى وحده، وأنه هو الذي شرفه وعظم ثوابه وقدره وهذا الذكر فرض عند دواعي العجب نفل في سائر الأوقات.. قال : والناس في العجب على ثلاثة أصناف : صنف هم المعجبون بكل حال وهم المعتزلة والقدرية الذين لا يرون لله تعالى عليهم منة في أفعالهم، وصنف هم الذاكرون المنة بكل حال وهم المستقيمون من أهل السنة، وصنف ثالث هم المخلطون وهم عامة أهل السنة تارة ينتبهون فيذكرون منة الله عز وجل وتارة يغفلون فيعجبون. قال : وإنما يلزمك ترك العجب لأمرين أحدهما أنه يحجب عن التوفيق والتأييد من الله تعالى فإن المعجب مخذول فإذا انقطعا عن العبد فما

طَـبِّبْ بِعِلْـمِ أَنَّـهُ تَعَلَـى هُـوَ مُصَوِّرُ وَمُوتِـي الآلاَ

أسرع ما يهلك !! ولذا جاء في الحديث : (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه) والثاني أنه يفسد العمل الصالح ولذا قال عيسى عليه السلام للحواريين : كم من سراج قد أطفأته الريح وكم من عابد أفسده العجب.

قال القرافي والعجب حرام غير مفسد للطاعة؛ لأنه يقع بعدها بخلاف الرياء لأنه يقع معها فيفسدها كما في الخاتمة. وفيها أيضا : قال حذيفة المرعشي : إن لم تخف أن يعذبك الله على أفضل أعمالك فأنت هالك. وقالت رابعة العدوية : أكثر ما أكون راجية للخير حين تقل أعمالي الصالحة. أي لكونها كانت معتمدة على فضل الله لا على الأعمال ولو أنها كانت معتمدة على أعمالها لخافت من وقوع العذاب بها. وكان حسان بن سنان يطلب من أعوان الولاة أن يدعو له فقيل له في ذلك فقال لعل في أحدهم خصلة يحبها الله وفي خصلة يبغضها الله ولعلي أرى نفسي خيرا منه فيكون خيرا مني حينئذ. وقال ابن السماك : حقيقة العجب أن تتطاول على الناس بعملك فتحتقر كل من رأيته مقصرا في العمل. وقال : لا يستكثر عبادته في عينيه إلا جاهل فإن الملائكة لا تفتر عن العبادة طرفة عين ولو أنها استكثرت أعمالها لم يجعلها في حضرته السماوية. قال الشعراني : وربما تعجب بترك العجب فتكون أسوأ حالا ممن أعجب. «**طبب**» أي عالج العجب «**بعلم أنه تعالى هو مصور**» الآلاء «**وموتي الآلا**» أي معطي النعم. قال في الخاتمة : وأما العجب فدواؤه أن تعلم أن العمل ليس لك حقيقة وإنما هو لربك خلقا وإن نسب إليك كسبا، فكيف تعجب بعمل لا مدخل لك فيه على الحقيقة وإنما خلقه الله فيك ونسبه إليك فضلا منه وقال ياعبدي أنت مطيع ومتق ومجتهد وعامل وسأثيبك عليه، وأن تعلم أنه يمكن أن لا يقبل منك وأنك مقصر فيه وأنك لم توف من حق الله عليك ذرة، وأن من اعتمد على غير الله تخلى عنه غدا وأنه ربما أفسد لحظة واحدة عبادة كثيرة، وأن تعلم أنه حرم العجب وسر تحريمه أنه سوء أدب عليه تعالى فإنه لا ينبغي للعبد أن يستعظم ما يتقرب به لسيده بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة سيده لاسيما عظمة الله تعالى ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه فمن أعجب بنفسه وعبادته فقد هلك وعرض

وَالعَجْزِ أَنْ تُخْلَقَ نَفْعاً أَوْ ضَرَرْ فَهْوَ مِنَ ٱلْجَهْلِ بِالامْرَيْنِ صَدَرْ

نفسه لمقت الله وسخطه ونبه على ضد ذلك قوله تعالى : ﴿والذين يوتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ يفعلون من الطاعات ما يفعلون وهم خائفون من لقاء الله تعالى بتلك الطاعة احتقارا لها، وهذا يدل على طلب هذه الصفة والنهي عن ضدها وقد قلت :

ووجل العارف من طاعاته أكثر منه من مخالفاته
إذا المخالفة تمحى بالمتاب وهو في الطاعات قالوا ذو طلاب
بالصدق والتصحيح والإخلاص فيها لكي يظفر بالخلاص

وفي الخاتمة : قال محمد بن واسع : ليس لإبليس كيد أعظم من رؤية العبد نفسه على إخوانه فإنه إذا مات على ذلك أخذه ملك الموت وربه ساخط عليه لم ينفعه شيء من عمله، وقال الفضيل : إن إبليس يقول : إذا ظفرت من ابن آدم بإحدى ثلاث لا أطلب غيرها : إعجابه بنفسه واستكثاره عمله ونسيانه ذنوبه.

وقال في المشرب ــ بعد أن ذكر أن العبد عند أهل السنة بالنظر إلى الحقيقة وباطن الأمور مجبورٌ إذ لا حول له ولا قوة والتأثير كله لله تعالى وبالنظر إلى الظاهر مختار وذلك لأنه في ظاهره يهم بالشيء فيفعله ويريده فيوقعه بحسب ما قدر حتى يظن بجهله أنه يفعل كما ظنت القدرية ما لم يكشف الله عن بصيرته فينفذ إلى الحقيقة التي نفذ إليها أهل الحق ــ ما نصه : فائدة من ألطف ما ينبغي للمرء أن يعمل عليه في أحواله بعد اعتقاده مذهب أهل السنة من النظر إلى الأمرين جمعا بين الشريعة والحقيقة أن يكون كلما عمل طاعة وأسدى معروفا ونحو ذلك يتقوى التفاته إلى جانب الجبر وأن الفعل كله لله تعالى؛ لينتفي عنه بذلك العجب بعمله والرياء به وكلما وقع في معصية أو سوء أدب يتقوى التفاته إلى جانب القدر والاكتساب وبذلك يضيف الظلم إلى نفسه ويعظم خجله وخوفه. «و» بعلم «**العجز**» منك عن «**أن تخلق نفعا أو ضرر فهو من**» محض «**الجهل بالامرين**» أي بأنه تعالى هو مصور النعم وموتيها وبأنك عاجز في كل شيء «**صدر**» فعلاجه العلم المحض، ابن حمدون : علاجه رؤية منة الله تعالى في كل شيء وفقرك وعجزك

وَالغِشُّ إِخْفَا ضَرَرٍ دِينِـــيِّ أَوْ دُنْيَوِي وَلَوْ عَنِ الذِّمِّيِّ
أَوِ المُعَاهَدِ وَبَعْضٌ شَرَحَـهْ بِأَنَّهُ تَزْيِينُ غَيْرِ المَصْلَحَـهْ
وَبَحْرُهَا الزَّاخِرُ أَعْنِي الغَضَبَا إِن تَاتِ شَطَّهُ تَرَ العَجَائِبَـا

في كل شيء فإن العلم والعمل والمال والجمال كلها منن من الله تعالى عليك ولو كان شيء منك كنت تدفع عن نفسك ما لا تريد من الضروريات كالبول ولا يمكن ذلك فدل على أن ما بك من نعمة فمن الله قال تعالى: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبدا﴾ وقال جل من قائل: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ فشاهد إذن منته وفضله عليك حيث استعملك في الطاعة و لم يستعملك في المعصية وانظر إلى الألوف من أقرانك ممن هو أشد منك وأقوى حيث سلبهم ذلك وسخرهم في المخالفة والعصيان، فإذا تحققت ذلك لم يبق في نظرك ما تعجب منه؛ إذ لست الفاعل.

ولله در شيخنا محمد سالم ابن ألمَّا رحمه الله تعالى إذ يقول:

الفعل فعل الله فالعجب سقط والنفع والضر من الله فقـط
فلـيس للريـــا محل يقـــع فيـه وذا علم نفيس ينفـع

وقد قلت:

يلاحـظ الـذي مـن الأنـام بلي بالتعـــظيم والإكـــرام
وبكتقبيـل يــد أن ذا صدر لله تعظيمـا وللهـادي الـبشر
لا هو من ذاك لشيء يستحق فالكبر والعجب بذا عنـه محق

«**والغش**» ملازم للحسد وهو كما في الخاتمة «**إخفا**» عيب أو «**ضرر ديني أو دنيوي**» عن مسلم يجهله بل «**ولو عن الذمي أو المعاهد**» بالفتح وضده النصيحة وفي الحديث (من غشنا فليس منا) [رواه مسلم] «**وبعض شرحه بأنه تزيين غير المصلحه**» فتح الحق: هو تغطية الشر بالخير سواء كان قولا أو فعلا بأن يري أخاه المسلم شرا في صورة خير. ابن حمدون: يكون الغش في الأقوال وغيرها، وقد يطلق على ما يشمل التدليس والخديعة وكتمان العيب. «**وبحرها الزاخر**»: الممتلىء «**أعني الغضبا إن تات شطه**» جانبه «**تر العجائبا أمواجه طامية**» مرتفعة

أَمْوَاجُهُ طَامِيَةٌ كَـذَا اللُّجَـجْ   أَلاَ فَعَنْهُ حَدِّثَنْ وَلاَ حَـرَجْ

«**كذا اللجج**» جمع لجة بالضم معظم البحر «**ألا فعنه حدثن ولا حرج**» قال في النصيحة : وأصله رؤية حق النفس. ابن زكري : بيانه أن الإنسان إذا قصد بالسوء أو نوزع في غرض أو لم يمتثل أمره هاجت عليه نار الغضب لرؤيته أن له حقوقا على المغضوب عليه لم يوفها له وذلك مذموم؛ لأنه مهما رأى الحق لنفسه وانتصر لها لم يقتصر على ما ياذن فيه الشرع، بخلاف من ينتصر لله ويغضب لانتهاك حرماته وتضييع حقوقه.

التاودي : الغضب خلاف الرضى وإرادة الانتقام ومعنى ينشأ عنه سوء الخلق، وفي البخاري (ليس الشديد بالصُّرَعَةِ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) وفي حديث أبي هريرة عند البخاري أن رجلا قال للنبي ﷺ أوصني، فقال : (لا تغضب) فرددها مرارا قال : (لا تغضب) وقيل مكتوب في الإنجيل : (عبدي اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب) والمذموم منه ما كان لحظ النفس فإن كان لله فمامور به فقد كان ﷺ لا ينتقم لنفسه ما لم تنتهك حرمات الله تعالى فإن انتهك منها شيء كان أشد الناس غضبا لله. انتهى باختصار.

ابن زكري : قال الخطابي : ومعنى قوله لا تغضب اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه؛ لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلة، وقيل معناه لا تتكبر لأن أعظم ما ينشأ عنه الغضب الكبر لكونه يقع عند مخالفة أمر يريده فيحمله الكبر على الغضب، فالذي يتواضع حتى تذهب عنه عزة النفس يسلم من شر الغضب، وقيل معناه : لا تفعل ما يامرك به الغضب انظر بقيته. قال في كتاب الأربعين : اعلم أن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ومن غلب عليه فقد نزع إلى عرق الشيطان فإنه مخلوق من النار، وكسر شدة الغضب من المهمات في الدين قال ﷺ : (ليس الشديد...) إلخ وقال ﷺ : (الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل) وقال ﷺ : (ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم) وقال رجل : يا رسول الله أي شيء أشد ؟ قال : (غضب الله)، قال : فما ينقذني من غضب الله ؟ قال : (أن لا تغضب) ثم قال فكيف لا تعظم آفة الغضب وهو يحمل في الظاهر على

لَــــهُ دَوَاءَانِ دَوَاءٌ يَرْفَعُــــهْ فَلاَ يَجِي وَالثَّانِ إِن جَا يَدْفَعُهْ

الضرب والشتم وإطالة اللسان، وفي الباطن على الحقد والحسد وإظهار السوء والشماتة والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والفرح بمصيبة المغضوب عليه والغم بمسرته وكل واحدة من هذه الخبائث مهلك «**له دواءان دواء يرفعه فلا يجي**» لعله يعني أنه يكسر سورته ويضعفه فقمع أصل الغيظ من القلب ليس مقتضى الطبع وهو غير ممكن وانظر ما مر وما سياتي إن شاء الله تعالى. «**والثان إن جا يدفعه**» قال في الإحياء: قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها فلابد من معرفة أسباب الغضب والأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجب والمزاح والهزل والتعيير والمماراة والمضادة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعا، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلابد من إزالتها بأضدادها.. فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع والعجب بمعرفة نفسك والفخر بأنك من جنس عبدك وهذه الثلاثة أساس كل رذيلة، وتزيل الهزل بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة، وتزيل الهزء بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة نفسك عن أن يستهزأ بك، وأما التعيير فبالحذر عن قول القبيح وصيانة النفس عن مر القول، وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلبا لعز الاستغناء وترفعا عن ذل الحاجة وكل خلق من هذه الأخلاق تفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس فإذا انمحت عن النفس فقد زكيت وطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت أيضا عن الغضب الذي يتولد منها. انتهى باختصار، ثم قال أيضا: ومن أكثر البواعث للغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلا حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر فيهيج الغضب في القلب بسببه، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها.. فينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات

فَاذْكُرْ لِتَزْدَانَ بِحَلْيِ الرَّافِعِ كَثْرَةَ مَدْحِ الحِلْمِ وَالتَّوَاضُعِ
فِي الشَّرْعِ وَالشِّعْرِ وَنَثْرِ الحُكَمَا وَوَصْفَ الأَنْبِيَاءِ طُـرّاً بِهِمَـا

أهل الحلم والعفو وما استحسن منهم من كظم الغيظ فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء، وضد ذلك منقول عن الأكراد والأتراك والجهلة والأغبياء الذين لا عقول لهم ولا فضل فيهم. انتهى منه باختصار. وكأنه أشار إلى هذا بقوله: «**فاذكر لتزدان بحلي**» الدواء «**الرافع**» له «**كثرة مدح الحلم والتواضع في الشرع والشعر ونثر الحكما و**» اذكر «**وصف الانبياء طرا بهما**» أي الحلم والتواضع.. فلتستمع تلك الأخبار وما حكي عن الفريقين ولتهذب بأخلاق الأولين من الصالحين وتشبه بهم ولتبعد نفسك عن أحوال المسترذلين وتجنب عنها. وقال في الإحياء أيضا: اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفا، قال ﷺ: (إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن تحرى الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه) وأشار بهذا إلى أن اكتساب الحلم طريقه التحلم أولا وتكلفه كما أن اكتساب العلم طريقه التعلم، وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: (اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم حلمكم) أشار بهذا إلى أن التكبر والتجبر هو الذي يهيج الغضب ويمنع من الحلم واللين وأن التواضع والسكون هو الذي يمنع ثوران الغضب ويورث الحلم، وذكر في الإحياء أحاديث في فضيلة التواضع منها: (ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) ومنها: (ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانه بها فإن هو رفع نفسه جبذاها ثم قالا اللهم ضعه وإن وضع نفسه قالا اللهم ارفعه) ومنها: (طوبى لمن تواضع في غير مسكنة وأنفق مالا جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة). وفيه أيضا قال

وَدَفْعُــهُ يَـحْصُلُ بِاسْتِشْعَــارِ أَن لَيْسَ فَاعِلٌ سِوَى القَهَّارِ
وَبِالتَّــوَضُّيء بِمَــاءٍ بَــارِدِ وَبِٱلسُّكُـوتِ وَاتِّكَــاءٍ قَاعِــدِ

لقمان : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ولا الشجاع إلا عند الحرب ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه. المناوي : قال الجنيد : أربع ترفع العبد إلى أعلى الدرجات وإن قل علمه : الحلم والتواضع والسخاء وحسن الخلق، وفي الجامع الصغير : (من كظم غيظا وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا) المناوي : لأنه قهر النفس الأمارة بالسوء فانجلت ظلمة قلبه فامتلأ يقينا وإيمانا، ولذا أثنى الله على الكاظمين الغيظ في كتابه، وكل ذلك من آداب الأنبياء والمرسلين ومن ثم خدم أنس المصطفى ﷺ عشر سنين فلم يقل له في شيء فعله لم فعلته ؟! ولا في شيء تركه لم تركته ؟!

«**ودفعه**» إن جاء «**يحصل**» بالتوحيد الحقيقي وذلك «**باستشعار أن ليس فاعل**» حقيقة «**سوى القهار**» وحده والخلق آلات ووسائط فمن توجه إليه مكروه من غيره وشهد ذلك التوحيد الحقيقي وآمن بقلبه اندفعت عنه آثار غضبه؛ لأن غضبه إما على الخالق فهو جرءة فاحشة تنافي العبودية وإما على المخلوق وهو إشراك ينافي التوحيد. قال في كتاب الأربعين ــ بعدما مر عنه ــ عليك في صفة الغضب وظيفتان إحداهما كسره بالرياضة ولست أعني بكسره إماطته فإنه لا يزول أصله ولا ينبغي أن يزول بل إن زال وجب تحصيله لأنه آلة القتال مع الكفار والمنع من المنكرات وهو ككلب الصائد إنما رياضته في تأديبه حتى ينقاد للعقل والشرع فيهيج ويسكن بإشارتهما ولا يخالفهما كما ينقاد الكلب للصياد، وهذا ممكن بالمجاهدة باعتياد الحلم والاحتمال مع التعرض للمغضبات، الثانية ضبط الغضب عند الهيجان بالكظم ويعين عليه علم وعمل، أما العلم فهو أن يعلم أنه لا سبب لغضبه إلا أنه أنكر أن يجري الشيء على مراد الله لا على مراده وهذا غاية الجهل والآخر أن يعلم أن غضب الله عليه أعظم من غضبه عليه، وأما العمل فهو أن يتعوذ فإن لم يسكن جلس إن كان قائما ويضطجع إن كان قاعدا فاختلاف الحال يؤثر في التسكين وإن لم يسكن توضأ. انتهى منه بحذف وتغيير. وهذا مما تضمنه قوله : «**وبالتوضيء بماء بارد**» هكذا في خبر ذكره في الإحياء وانظر شارحه.

وَبِقُعُودٍ مِنْ قِيَامٍ يَنْدَرِي ... وَبِالتَّعَوُّذِ كَمَا فِي الْخَبَرِ
وَالغَفْلَةُ الغُفُولُ عَمَّا أَمَرَا ... بِهِ الإِلَهُ وَنَهَى عَنْهُ الْوَرَى
وَهْيَ لَدَيْهِمْ أَصْلُ كُلِّ ذَنْبِ ... وَدَاؤُهَا بِأَرْبَعٍ ذُو رَأْبِ
فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَزُرْ وَصَلِّ ... عَلَى النَّبِيِّ وَكِتَابَهُ اتْلِ

وفي الإحياء وكتاب الأربعين أن النبي ﷺ قال : (إن الشيطن خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ) وفي الجامع الصغير : (الغضب من الشيطن والشيطن خلق من النار وإنما يطفىء النار الماء فإذا غضب أحدكم فليغتسل) أخرجه ابن عساكر عن معاوية. قال المناوي : وكذا أبو نعيم عن أبي مسلم الخولاني قال كلم معاوية بشيء وهو على المنبر فغضب فنزل فاغتسل ثم عاد إلى المنبر فذكره. «**وبالسكوت**» لخبر (إذا غضبت فاسكت) أي عن النطق بغير الذكر المشروع؛ لأن الغضب يصدر عنه من قبيح القول ما يوجب الندم عليه عند سكون سورة الغضب؛ لأن الانفعال مادام موجودا فنار الغضب تتأجج فإذا سكت أخذت في الخمود. رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي في الشعب وأحمد بلفظ (إذا غضب أحدكم فليسكت) قالها ثلاثا انظر شرح الإحياء. «و» بالانتقال من حال إلى حال فإنه يؤثر في التسكين فلذلك بـ«**ساتكاء قاعد وبقعود من قيام يندري**» الغضب أي يندفع، قال أبو هريرة : كان النبي ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه «و» يندرىء «**بالتعوذ**» فتقول بلسانك أعوذ بالله من الشيطن الرجيم هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ متفق عليه وقد رواه أبو داوود والترمذي والنسائي، وفي رواية لهؤلاء الثلاثة (اللهم إني أعوذ بك من الشيطن الرجيم) «**كما في الخبر**» راجع لجميع ما مر من قوله وبالتوضىء... إلخ. «**والغفلة**» التي عدوا من الأمراض هي «**الغفول عما أمرا به الإله**» الورى «و» عما «**نهى عنه الورى وهي لديهم أصل كل ذنب**» وأساس كل رذيلة، وكل ما ذكر من المناهي مندرج تحتها. ابن جزي : هي سبب كل شر وضدها التفكر والتيقظ. القشيري : عن بعضهم أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربه عز وجل وغفلته عن أوامره ونواهيه وغفلته عن آداب معاملته «**وداؤها بأربع ذو رأب**» صلاح «**فاستغفر الله**» تعالى ملازما له «**وزر**» الصلحاء بالمواظبة والتكرار «**وصل على النبي**» ﷺ بالملازمة. قال في الخاتمة : ومما تداوى به عيوب

وَالغِلُّ يَا مَنْ يَبْتَغِي تِبْيَانُـهْ أَنْ يُرْبَطَ القَلْبُ عَلَى خِيَانَهْ
أَوْ غَدْرٍ اوْ خَدِيعَةٍ وَالشَّدُّ لِذَلِكَ الرِّبَاطِ هُوَّ الحِقْـدُ
أَحْسِنْ إِلَيْهِ تَقْنَطِ العِدَى اذْكُرِ مَغْفِـرَةً وَارِدَةً فِـي ٱلْخَبَـرِ
فِي سَائِرِ الجُمَعِ مَرَّتَيْـنِ فِي يَوْمَي الخَمِيسِ وَالإِثْنَيْنِ
وَالْفَخْرُ مِن جُمْلَةِ ذِي الخِلاَلِ وَهْـوَ تَمَـدُّحُكَ بِالْـخِصَالِ

النفس دوام الاستغفار مع الصلاة على النبي ﷺ بخلوة وانجماع «**وكتابه اتل**» قال الشيخ سيدي إبراهيم الخواص رضي الله عنه : دواء القلب خمسة أشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن وقيام اليل والتضرع عند السحر ومجالسة أهل الفضل. «**والغل**» بالكسر من غل كضرب إذا أمسك عداوته في قلبه وتربص بها لفرصته «**يا من يبتغي تبيانه**» فحده «**أن يربط القلب على خيانه أو غدر او خديعة والشد لذلك الرباط**» أي شد ربط القلب على هذه المذكورات «**هو الحقد**» بالكسر من حقد كضرب وفرح، أو هما بمعنى، أو الغل حبس الشحناء في القلب مع إظهار عدمها والحقد الإقامة على ما في الضمير لمن غضبت عليه مع إظهار ذلك أو إخفائه. وقال بعضهم : الحقد تذكر السيئات الماضية ومنه يتفرع المكر والخديعة ثم يرجع ذلك على صاحبه قال تعالى : ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ قال سيدي علي الخواص : الغدر والخدع من أقبح ما يتحلى به المرء ومن سامح نفسه بمثل ذلك فقد رضي لنفسه من الخساسة ما لم يرضه الكلب لنفسه فإن الكلب إذا أحسنت إليه حفظ لك الود و لم يخدعك و لم يغدرك أبدا. «**أحسن إليه**» أي إلى من كنت ذا غل أو حقد عليه وبالغ في إكرامه وادع له بظهر الغيب «**تقنط العدى**» منك فإن الشيطن ييأس منك بذلك «**اذكر مغفرة واردة في الخبر في سائر**» أي جميع «**الجمع**» جمع جمعة الأسبوع عبر عن الشيء بآخره وما يتم به ويوجد عنده كما في المناوي عن القاضي «**مرتين في يومي الخميس والإثنين**» مسلم عن أبي هريرة (تعرض أعمال الناس في كل جمعة مرتين يوم الإثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد مومن إلا عبدا بينه وبين أخيه شحناء فيقال اتركوا هذين حتى يفيئا) أي يرجعا عما هما عليه من التقاطع والتباغض. والشحناء بالمد الغل. «**والفخر من جملة ذي الخلال**» جمع خلة بمعنى الخصلة «**وهو تمدحك بالخصال**»

وَطَوْدُهَا الشَّامِخُ أَعْنِي الكِبْرَا حَقِّرْهُ إِن أَرَدْتَ أَن يَخِـرَّا

كالافتخار ومنه الفخر بالنسب والتكبر به قال الغزالي : وهو جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ولذلك قيل :

لئن فخرت بآباء ذوي شرف لقد صدقت ولكن بيس ما ولدوا

وقال في روح البيان عند قوله تعالى : ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ الآية.. قيل كان ناس يعملون أعمالا حسنة ثم يقولون صلاتنا وصيامنا وحجنا فنزلت وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرياء فأما من اعتقد أن ما عمله من الأعمال الصالحة من الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدح لم يكن من المزكين أنفهسم فإن المسرة بالطاعة طاعة وذكرها شكر. وفيه أيضا قال السري قدس سره : من تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالى فيجب على العبد المومن أن يمتنع عن مدح نفسه، ألا يرى إلى قوله عليه السلام : (أنا سيد ولد آدم) كيف عقبه بقوله (ولا فخر) أي لست أقول هذا تفاخرا كما يقصده الناس بالثناء على أنفسهم لأن افتخاره ﷺ كان بالله وتقربه من الله لا بكونه مقدما على أولاد آدم كما أن المقبول عند الملك قبولا عظيما إنما يكون بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقديمه على بعض رعاياه. وفي الخاتمة : قال العلقمي : الفخر ادعاء العظمة والمباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان كالعلم والمال والجاه. وفيها أيضا قال العلقي : يجوز ذلك إذا كان للتحدث بنعمة الله أو عند تنبيه المخاطب على ما خفي عليه كقول المعلم للمتعلم اسمع مني فإنك لا تجد مثلي، وعلى ذلك قول يوسف عليه السلام : ﴿اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ وقد قلت :

للمرء مدح نفسه ليتبع فيما به امتداح نفسه وقع
أو حاجة دعت إلى امتداحه كخاطب رغب في نكاحه
وهكذا لتعرف الأهليه منه لكالولاية الشرعيه
أبداه عز الدين في قواعده مشمرا عن ساقه وساعده

«**وطودها الشامخ**» أي المرتفع الطويل والطود الجبل أو عظيمه المتطاول في السماء «**أعني الكبرا**» ابن جزي : وهو من المهلكات ومعناه تعاظم الإنسان في نفسه وتحقيره لغيره. ثم إن التكبر له أسباب فمنها العلم والعبادة والحسب

والشجاعة والقوة والجمال والمال والجاه، وهو درجات فأشدها التكبر على الله ورسوله وهو الذي حمل أكثر الكفار على الكفر، ثم التكبر على أهل الدين من العلماء والصالحين وغيرهم بالازدراء بهم وعدم القبول لمناصحتهم ثم التكبر على سائر الناس. وهو أعظم العيوب لقدحه في الدين والاعتقاد وربما جر إلى الكفر والعياذ بالله تعالى فانظر ما وقع لإبليس، وربما يخاف على صاحبه من سوء الخاتمة، وأما غيره من الآفات كالرياء والعجب فقادح في العمل مع بقاء أصل الإيمان انظر الخاتمة. وقد قال تعالى : ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون﴾ الآية وقال : ﴿كذلك يطبع الله﴾ الآية. ابن زكري : استفيد من الآيتين أنه مادام الشخص متصفا بالكبر لا يذعن قلبه للحق ولا يقبله ولا ينتفع به بل يكون الكبر حائلا بينه وبين الحق وصارفا له عن قبوله. قال في النصيحة : فمن الكبر يتولد عدم الإنصاف وبطر الحق واحتقار الخلق والترفع على عباد الله واتباع الهوى وإنكار الكرامات وادعاؤها إلى غير ذلك. ابن زكري : أما إنكاره فإنه لا يرضى الكمال لمن أنكرها منه بل ينظره بعين الازدراء والاحتقار وأما ادعاؤها فلتزكية نفسه وترفيع قدرها، ومن غير ما ذكره الغضب على من لا يبدؤه بالسلام ومن قصر في حوائجه وتعظيمه.

قال في كتاب الأربعين : حقيقة الكبر أن يرى نفسه فوق غيره في صفات الكمال فيحصل فيه نفخة وهزة من هذه الرذيلة والعقيدة ولذلك قال ﷺ : (أعوذ بك من نفخة الكبر) ولذلك استأذن بعضهم عمر رضي الله عنه ليعظ الناس فقال : لأخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا. ثم هذه النفخة يصدر منها أفعال على الظاهر كالترفع في المجالس والتقدم في الطريق والنظر بعين التحقير والغضب إذا لم يبدأ بالسلام وقصر في حقه وتعظيمه ويحمله على أن يأنف إذا وعظ ويعنف إذا وعظ وعلم ويجحد الحق إذا ناظر وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير وإنما عظم الكبر حتى لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة منه لأن تحته ثلاثة أنواع من الخبائث العظيمة أولها أنه منازعة لله تعالى في خصوص صفته إذ الكبر رداؤه كما قال الله تعالى فإن العظمة لا تليق إلا به، ومن أين تليق العظمة بالعبد الذليل الذي لا يملك من أمر نفسه شيئا فضلا عن أمر غيره ؟. الثانية أن يحمله على جحد الحق وازدراء الخلق قال ﷺ في بيان الكبر : (الكبر من سفه الحق

بِعِلْمِ رَبِّكَ وَنَفْسِكَ فَمَنْ عَرَفَ ذَيْنِ يَتَوَاضَعْ وَيَهُنْ

وغمص الناس) والأنفة من الحق تغلق باب السعادة وكذا استحقار الخلق وقال بعضهم إن الله سبحٰنه خبأ ثلاثا في ثلاث خبأ رضاه في طاعته فلا تحقرن شيئا منها صغيرة كانت أو كبيرة لعل رضا الله فيه وخبأ سخطه في معصيته فلا تحقرن شيئا منها صغيرة كانت أو كبيرة فلعل سخط الله تعالى فيها، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقرن أحدا منهم فلعله ولي الله تعالى. الثالثة أنه يحول بينه وبين جميع الأخلاق المحمودة لأن المتكبر لا يقدر أن يحب للناس ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع ولا على ترك الأنفة والحسد والبغض والغضب ولا يقدر على كظم الغيظ ولا على اللطف في النصح ولا على ترك الرياء.. وبالجملة فلا يبقى خلق مذموم إلا ويضطر المتكبر إلى ارتكابه ولا خلق محمود إلا ويضطر إلى تركه.

ثم أشار لعلاجه الجملي القاطع لأصله بقوله «**حقره**» أي صير ذلك الطود حقيرا أي صغيرا «**إن أردت أن يخرا**» أي يسقط وتنقلع شجرته من مغرسها في القلب «**بعلم**» أي معرفة «**ربك**» فقد قال فيما يرويه عنه نبينا ﷺ : (الكبرياء رداءي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته) أي أهلكته، ابن زكري : أخذ من الحديث أن من آفات الكبر منازعة الله في خصوص صفته إذ الكبرياء رداؤه كما قال الله تعالى فإن العظمة لا تليق إلا به، ومن أين تليق العظمة بالعبد الذليل الذي لا يملك من أمر نفسه شيئا فضلا عن غيره ؟. ويكفي هذا وعيدا لمن عقل فإن من نازع ملك الملوك لا يمكن أن يفلت. قال سيدي ابن عباد رضي الله عنه : ومعنى المنازعة الدعوى قولا وعبارة والإضمار فعلا وإشارة. زروق : معنى الحديث أن العظمة والكبرياء وصفان مختصان به تعالى فمن ادعاهما كان كمن ادعى ازار شخص أو قميصه لا يمكن أن يسلم له فيه إلا بعجزه ولا عجز، فوجب هلاكه ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم «**ونفسك**» فإن أولك نطفة مذرة ثم تصير حاملا عذرة ثم جيفة قذرة «**فمن عرف ذين**» ربه ونفسه «**يتواضع**» ابن القيم : الفرق بين التواضع والمهانة أن التواضع يتولد من بين العلم بالله وصفاته ومحبته وإجلاله وبين معرفته بنفسه ونقائصها وعيوب عمله وآفاتها فيتولد من ذلك خلق هو التواضع وهو انكسار القلب لله وخفض جناح الذل والرحمة للخلق،

والمهانة الدناءة والخسة وابتذال النفس في نيل حظوظها، والفرق بين التواضع والخشوع أن التواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة والخشوع يقال باعتبار الجوارح، ولذلك قيل : إذا تواضع القلب خشعت الجوارح. قاله الراغب. «ويهن» هان يهون ذل. قال في الحكم : لا يخرجك عن الوصف إلا شهود الوصف.

الشرقاوي : الوصف المذكور أولا وصف العبد والمذكور ثانيا وصف الرب وهذه قاعدة كلية شاملة فلا خروج للعبد عن شهوده صفات نفسه إلا بشهوده لصفات ربه.. فمن شهد كبرياء الحق لم يبق به كبر ومن شهد غناه لم يبق له غنى ومن شهد قدرته لم تبق له قدرة فيبقى بربه لا بنفسه فإن من شهد أوصاف ربه لم يبق له خبر من نفسه.

قال في الإحياء : وعلاج الكبر علمي وعملي ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما، أما العلمي فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه ويكفيه ذلك في إزالة الكبر فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل فإنه لا يليق به إلا التواضع والمذلة والمهانة وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله فانظره فقد أطال في ذلك.. ثم قال : وأما العلاج العملي فهو التواضع بالفعل لله ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين راجعه وراجع فيه علاجه على التفصيل بالنظر إلى ما به التكبر، وقد قال في كتاب الأربعين إن ما به التكبر أربع خصال الأولى العلم قال ﷺ : (آفة العلم الخيلاء) وقال ﷺ : (...ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم) وقلما يخلو العالم من آفة الكبر فإنه يرى نفسه فوق الناس بالعلم الذي هو أشرف فضيلة عنده تعالى فيتكبر تارة بالدين بأن يرى نفسه عنده جل أفضل من غيره وتارة في الدنيا بأن يرى حقه واجبا على الناس ويتعجب منهم إن لم يتواضعوا له وهذا لأن يسمى جاهلا أولى؛ لأن العلم الحقيقي ما يعرف به ربه ونفسه وخطر خاتمته وحجة الله عز وجل عليه ويلاحظ الخاتمة فلا يرى جاهلا إلا ويقول إنه عصى الله بجهل وأنا عصيته بعلم فحجة الله علي آكد. قال أبو الدرداء رضي الله عنه : من ازداد علما ازداد تواضعا، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين﴾... ثم بعد أن ذكر بعض ما ورد في علماء السوء قال : فلينظر

في الأخبار التي وردت في علماء السوء حتى يغلب خوفه كبره وإنما يبقى الكبر مع هذا لمن اشتغل بعلوم غير نافعة في الدين كالجدل واللغة وغيرهما أو لمن اشتغل بالعلم وهو خبيث الباطن فازداد خبثه بسببه، السبب الثاني : الورع والعبادة ولا يخلو المتعبد في باطنه عن كبر وقد تنتهي الحماقة ببعضهم إلى أن يحمل مصائب الناس ومسراتهم على كرامته فمن آذاه ومات أو مرض يقول قد رأيتم ما فعل الله سبحٰنه به وربما يقول عند الإيذاء سترون ما يجري عليه وليس يدري الأحمق أن جماعة من الكفار ضربوا الأنبياء وآذوهم ثم متعوا في الدنيا فلم ينتقم منهم بل ربما أسلم بعضهم فسعد في الدنيا والآخرة فكأنه يرى نفسه أفضل من الأنبياء وموذيه أخس من الكفار، وحق العابد إذا نظر إلى عالم أن يتواضع له لجهله وإن نظر إلى فاسق أن يقول لعل فيه خلقا باطنا يستر معاصيه الظاهرة ولعل في باطني حسدا أو رياء أو خبثا خفيا مقتني الله سبحٰنه عليه فلا يقبل أعمالي الظاهرة وأن الله سبحٰنه ينظر إلى القلوب لا إلى الصور ومن الخبث الباطن الكبر.. ثم بعد حكايات قال : فانظركم بين من يخلص العمل والورع ثم يخاف على نفسه وبين من يتكلف أعمالا ظاهرة لعلها لا تخلو عن الرياء والآفات ثم يمن على الله بعلمه. السبب الثالث الكبر بالنسب وعلاجه أن ينظر في نسبه فإن أباه نطفة مذرة وجده التراب ولا أقذر من النطفة ولا أذل من التراب. ثم المفتخر بالنسب يفتخر بخصال غيره ولو نطق آباؤه لقالوا من أنت في نفسك ما أنت إلا دودة من بول من له خصلة حسنة ولذلك قيل : لئن فخرت بآباء ذوي نسب... إلخ. السبب الرابع الكبر بالمال والجمال والأتباع والكبر بهم جهل، فإنها أمور خارجة عن الذات أعني المال والأتباع وكيف يتكبر بخصلة تمتد إليها يد السارق والغاصب وكيف يفتخر بالجمال وحمى شهر تفسده والجدري يزيله ولو تفكر الجميل في أقذار باطنه لأدهشه ذلك عن تزويق ظاهره. انظر بقيته. «**مقامه**» أي الكبر «**ينفي**» لعل صوابه نافى كما هو مقتضى المفيد والخاتمة «**مقام الشكر**» ويا لها جناية «**كما التواضع**» وهو ضد التكبر وسببه شيئان التحقق بمقام العبودية ومعرفة الإنسان بعيوب نفسه قاله ابن جزي وفسره الفضيل بأن تخضع للحق وتنقاد له وتقبله ممن قاله. «**له**» أي لمقام الشكر «**ذو جر**» وناهيك بها مزية.. ففي المفيد عن السنوسي : فإن قلت

وَالذُّلَّ وَالضَّعَةَ جَنِّبْ وَاحْذَرِ وَاكْبُرْ عَلَى الغَنِيِّ وَالْمُسْتَكْبِرِ

إذا كان الواجب أن لا يرى العبد شفوفا لنفسه ولو على الكافر والكلب بل لا يرى شرا منه فهو وإن حصل مقام التواضع والخلاص من آفة الكبر فقد وقع بسببه في آفة عظيمة هي من أكبر الآفات ومن أرذلها وهي كفران النعم بعد رؤيتها. قلت : لا يخفى على العاقل أن مقام الكبر هو المنافي للشكر وأن مقام التواضع هو السائق له المستلزم للاتصاف به وأنه على قدر ما يحل القلب من الكبر ينتقص الشكر وعلى قدر ما يحل به من التواضع يتسم به من الشكر، ووجه ذلك أن المتكبر لما كان يتوهم في نفسه كمالا ويرى لها شفوفا فهو إذا رأى نعمة نسبها لذلك الكمال الذي توهم لنفسه وجعلها مستحقة بسببه كأن يرى مثلا زيادة فطنة في فهم علم فينسبها لما توهم في نفسه من ذكاء أو تعب في درس أو سهر لمطالعة أو سفر للقاء المشائخ ونحو ذلك انظر بقيته. المناوي : قال أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما : ما جلست مجلسا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم وما جلست قط مجلسا أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى افتضح. ابن حجر قال الطبري : في التواضع مصلحة الدين والدنيا فإن الناس لو استعملوه في الدنيا لزالت بينهم الشحناء ولاستراحوا من تعب المباهاة والمفاخرة.

ولبعض السلف : ثلاث لو كتبن في ظفر لوسعهن وفيهن خير الدنيا والآخرة : اتبع لا تبتدع اتضع لا ترتفع اترع لا تتسع. وقد قلت :

من لا يرى حالا ولا مقاما لنفسه ولا يرى دواما
في الناس شرا منه في قول أبي يزيد باسم المتواضع حبي

وقلت أيضا :

ومن لنفسه مزية يرى على سواه فهو قد تكبرا
والمتواضع هو المستصغر لنفسه بذاك قد يفسر

«والذل والضعة جنب واحذر» قال في العوارف : التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره والضعة وضع الإنسان نفسه مكانا يزري به ويفضي إلى تضييع حقه. وقال في الإحياء : اعلم أن هذا

الخلق ـــ يعني التواضع ـــ كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرا وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسا ومذلة والوسط يسمى تواضعا والمحمود أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فإن كلا طرفي قصد الأمور ذميم، وأحب الأمور إلى الله أوساطها فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ومن يتأخر عنهم فهو متواضع أي وضع شيئا من قدره الذي يستحقه، والعالم إذا دخل عليه إسكاف فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوى له نعله وغدا إلى باب الدار خلفه فقد تخاسس وتذلل وهذا أيضا غير محمود بل المحمود عند الله العدل وهو أن يعطي كل ذي حق حقه، فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ومن يقرب من درجته فأما تواضعه للسوقي فبالقيام والبشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك وأن لا يرى نفسه خيرا منه... إلى أن قال : والميل عن الوسط إلى طرف النقصان وهو التملق أهون من الميل إلى طرف الزيادة بالتكبر كما أن الميل إلى طرف التبذير في المال أحمد عند الناس من الميل إلى طرف البخل فنهاية التبذير ونهاية البخل مذمومان، وقال شارحه : والفرق بين التواضع والضعة أن التواضع رضا الإنسان بمنزلة دون ما تستحقه منزلته والضعة وضع الإنسان نفسه بمحل يزري به. «**واكبر على الغني والمستكبر**» ففي الخبر : (إذا رأيتم المتواضعين فتواضعوا لهم وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم فإن ذلك مذلة لهم وصغار) كما في الإحياء. قال شارحه : والمعنى أن المتكبر إذا تواضعت له تمادى في تيهه وإذا تكبرت عليه يمكن أن يتنبه ومن ثم قال الشافعي : ما تكبر علي متكبر مرتين، وقال الزهري : التجبر على أبناء الدنيا أوثق عرى الإسلام، وفي بعض الآثار (التكبر على المتكبر صدقة). وفي الخاتمة : من التواضع التكبر على المتكبر والغني. الغزالي : هذا في غني صالح فما ظنك بالغني الظالم ! لحديث (من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه) ثم قال فيها وإنما كان التكبر عليهما علامة على تواضع العبد لربه تعالى لأنه لولا تواضعه لله وعزه له ما قدر على التكبر والتعزز عليهما بل كان يذل لهما قاله الشعراني.. وفيها أيضا في معنى ذهب ثلثا دينه عن سيدي محمد بن يوسف أن المراد بهذا الدين الدين المامور به عند ملاقاة الأغنياء وهو الاحتقار لما خصوا به من متاع الدنيا وللإنسان ثلاثة أشياء قلبه ولسانه وبدنه فإذا تواضع الفقير للغني من أجل غناه بلسانه بأن يثني عليه وبدنه بالخدمة فقد ذهب ثلثا دينه أي ثواب ما أمر به من الاحتقار

بهما أي باللسان والبدن فإذا تواضع له بقلبه بأن عظم ما بيده فقد ذهب دينه كله أي الذي أمر الإنسان به أن يفعله بلسانه وبدنه وقلبه عند ملاقاة الغني، ولا يصح أن يكون المراد بالدين الصوم والصلاة والزكاة والحج وغيرها من العبادات لما يلزم عليه من حبط العمل بدون الكفر إذ غاية ما في التواضع للغني الكراهة أو خلاف الأولى. انتهى بالمعنى. وقيل إذا عظم الرب في القلب صغر الخلق في العين. وعن سفيان الثوري : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد وفقيه صوفي وغني متواضع وفقير شاكر وشريف سني، وقيل : التواضع نعمة لا يحسد عليها والكبر محنة لا يرحم عليها والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده. يقول إبراهيم ابن شيبان : الشرف في التواضع والعز في التقوى والحرية في القناعة كما في القشيري. وفيه أيضا عن بعضهم أعظم الناس ذلا فقير داهن غنيا أو تواضع له وأعظم الخلق عزا غني تذلل للفقراء وحفظ حرمتهم وكرامتهم، وفيه أيضا : من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله تعالى بموت القلب. وفي المفيد فائدة : قال القرطبي في شرح ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله والتواضع يقتضي متواضعا له فإن كان المتواضع له هو الله أو من أمر الله بالتواضع له كالرسول ﷺ والإمام والحاكم والوالد والعالم فهو التواضع الواجب المحمود الذي يرفع الله سبحانه صاحبه في الدنيا والآخرة، وأما التواضع لسائر الخلق فالأصل فيه أنه محمود ومندوب إليه ومرغب فيه إذا قصد به وجه الله سبحٰنه ومن كان كذلك رفع الله سبحٰنه قدره وثبت ذكره في الأفواه ويرفع درجته في الآخرة، وأما التواضع لأهل الدنيا وأهل الظلم فهو الذل الذي لا عز معه والخسة التي لا رفعة معها بل يترتب عليه ذل الآخرة وكل صفقة خاسرة. وقد قلت :

وواجب تواضع الإنسان لله والرسول والسلطان
والأب والشيخ وحرم لذوي دنيا لدنياهم كما في العدوي
وهو مندوب لدى الأعلام لأهل الإسلام لذا الإسلام

«**كراهة الذم**» وحب المدح من الخلق «**ضنى**» أي مرض «**مالوف**» من أمراض القلوب «**فنظر العباد**» أي التفات القلب بالنظر إليهم «**والوقوف معهم**» وحب

مَعَهُمْ حِجَابٌ عَن مَقَامِ الإِحْسَانْ ... وَقَطْعُ ذَلِكَ الحِجَابِ عِرْفَانْ
أَنْ لَيْسَ مِن نَفْعٍ وَضُرٍّ إِلاَّ ... مِن مَالِكِ المُلْكِ عَلاَ وَجَلاَّ
ثُمَّ الْحَرَامُ مِنْهُ مَا جَرَّ إِلَى ... مُحَرَّمٍ كَمَا الْغَزَالِـي فَصَّلاَ
لَكِنْ كَمَالُ الصِّدْقِ أَنْ لاَ تَنْظُرَا ... لِمَدْحٍ اوْ ذَمٍّ مِنَ النَّاسِ جَرَى

مدحهم وبغض ذمهم والطمع فيهم والخوف منهم والشكوى إليهم وغير ذلك «**حجاب**» للعبد «**عن**» الوصول إلى الله تعالى وإلى «**مقام الإحسان**» قال أبو الحسن الوراق : الأنس بالخلق وحشة والطمأنينة إليهم حمق والسكون إليهم عجز والاعتماد عليهم وهن والثقة بهم ضياع وإذا أراد الله بعبده خيرا جعل أنسه به وبذكره وتوكله عليه وصان سره عن النظر إليهم وظاهره عن الاعتماد عليهم فالملتفت إلى الخلق محجوب وكل محجوب عن محبوبه فهو محول بينه وبين ما يشتهيه محترق بنار الفراق. ومن النظر إلى الخلق الذي هو من حجب الوصول نظرك لعملك فلا تعتمد عليه ولا تطلب عليه ثوابا لاعتلاله ولأنه ليس لك بل هو لربك خلقا واختراعا وإن نسب إليك كسبا فكيف تطلب الثواب على عمل لا مدخل لك فيه على الحقيقة وإنما خلقه فيك ونسبه إليك فضلا منه. «**وقطع ذلك الحجاب**» سهل فهو «**عرفان أن ليس من نفع وضر إلا من مالك الملك علا وجلا**» فإذا تحقق العبد ذلك صرف نظره عن الخلق بالكلية ولم يقف معهم، ونظر إلى من يملك الأشياء فعند ذلك يرتفع الحجاب الذي بينه وبين خالقه جل وعلا بعدم نظره إلى خلقه ويصيرون عنده كأنهم أموات «**ثم الحرام منه**» أي مما ذكر من كراهة الذم أو من نظر العباد «**ما جر إلى محرم**» كأن يتوصل إلى نيل المدح بالمراءات بالعبادات وارتكاب المحظورات «**كما الغزالي**» في الإحياء «**فصلا**» أي بين.

«**لكن كمال الصدق**» في العبادة هو «**أن لا تنظرا لمدح او ذم من الناس جرى**» فإن أقبلوا عليك وتوجهوا إليك بالتعظيم والمدح والعطاء فلا تركن إليهم في ذلك لأنه تعالى هو الفاعل لذلك حقيقة ولا تفرح بمدحهم وكن أنت ذاما لنفسك لما تعلم منها من العيوب وعدم تشميرك لما مدحت به وظهور أثر الصلاح عليك دون حقيقته فإذا قاموا بحق ما يجب عليهم من مدحك وحسن الظن بك فقم أنت بما يجب عليك من اتهام نفسك. قال بعضهم : من فرح بمدح فقد مكن

الشيطن أن يدخل في بطنه. وقال آخر: إذا قيل نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال بيس الرجل أنت فأنت والله بيس الرجل.. وإن أدبروا وأعرضوا عنك وقابلوك الإهانة والذم والمنع فأعرض عنهم لعلمك بأن إحسانهم إليك وإساءتهم عليك كل ذلك مخلوق لله تعالى قال الله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ فلا إساءة لهم حتى تذمهم عليها إلا إذا أمر الشرع بذمهم ومعاقبتهم فيفعل ما أمر به تعبدا انظر الخاتمة.

قال في الإحياء: اعلم أن للناس أربعة أحوال بالإضافة إلى الذامِّ والمادح: الأولى أن يفرح بالمدح ويشكر المادح ويغضب من الذم ويحقد على الذام ويكافئه أو يحب مكافأته وهذا حال أكثر الخلق وهو غاية درجات المعصية في هذا الباب، الحالة الثانية أن يمتعض في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافأته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور وهذا من النقصان إلا أنه بالإضافة إلى ما قبله كمال، الثالثة وهي أول درجات الكمال أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة وهذا قد يظنه بعض العباد بنفسه ويكون مغرورا إن لم يمتحن نفسه بعلاماته فانظر فيه علاماته ففيها طول، الحالة الرابعة وهي الصدق في العبادة أن يكره المدح ويمقت المادح إذ يعلم أنه فتنة عليه قاصمة للظهر مضرة له في الدين ويحب الذام إذ يعلم أنه مهد إليه عيوبه ومرشد له إلى مهمه ومهد إليه حسناته... إلى أن قال: وغاية أمثالنا الطمع في الحالة الثانية وهي أن يضمر الفرح والكراهة على الذام والمادح ولا يظهر ذلك بالقول والعمل فأما الحالة الثالثة وهي التسوية بين المادح والذام فلسنا نطمع فيها ثم إن طالبنا أنفسنا بعلامة الحالة الثانية فإننا لا نفي بها فإنا ولابد أن نتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجته ونتثاقل عن إكرام الذام والثناء عليه وقضاء حوائجه ولا نقدر أن نسوي بينهما في الفعل الظاهر كما لا نقدر عليه في سريرة القلب، ومن قدر على التسوية بين الذام والمادح في ظاهر الفعل فهو جدير بأن يتخذ قدوة في هذا الزمان إن وجد فإنه الكبريت الأحمر الذي يتحدث به ولا يرى فكيف بما بعده من الرتبتين؟ انظر بقيته.

قال في الحكم: الزهادُ إذا مدحوا انقبضوا لشهودهم الثناء من الخلق والعارفون إذا مدحوا انبسطوا لشهودهم ذلك من الملك الحق. قال الشرقاوي: فهم

حاضرون مع ربهم لا يشاهدون معه غيره قائلون : ألسنة الخلق أقلام الحق فإذا مدحوا شهدوا الثناء منه فانبسطوا لذلك وكان مزيدا في حالهم ومقامهم لغيبتهم عن أنفسهم فلا يحصل عندهم إعجاب ولا اغترار قيل وهذا محمل قوله ﷺ : (إذا مدح المومن في وجهه ربا الإيمان في قلبه) ولذلك كان يمدح المصنف شيخه المرسي وهو ساكت ويقع عنده المدح موقعا عظيما وكذا وقع لغيره من العارفين وصاحب هذا المقام إذا ذمه أحد لا يجد في نفسه عليه ولا يوذيه لعدم شهوده الذم صادرا منه. زروق : وعمل العارفين في ذلك على الحديث الصحيح : (إن الله إذا أحب عبدا نادى جبريل إني أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السمٰوات ثم يوضع له القبول في أهل الأرض) ولا يتصور تاويله كما تأولت الأحاديث الأخر فلزم حمله على وجهه والعمل به للخاص لا لعموم الخلق. وفي الخاتمة : الناس في قبول المدح ثلاثة أقسام قسم قبله من حيث الطباع والملاءمة وهم العوام وقسم رده لما ورد من ذمه وهم العباد والزهاد ومعنى ربا الإيمان في قلبه في حق هؤلاء أي ربا بزيادة الخوف والإشفاق من المكر به والاستدراج ومعناه في حق العارف أنه يفرح بالمدح ويضيفه إلى مولاه الذي به تولاه فيرد الصنعة إلى صانعها ويشهد في الفطرة فاطرها فيكون ذلك مدحا للصانع ووصفا للفاطر لا ينظر إلى نفسه ولا يعجب بوصفه. ومرّ بشر الحافي بالناس فقالوا هذا لا ينام اليل ولا يفطر النهار فبكى وقال : لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة لكن الله يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفا به، وقسم قبلوه وهم العارفون من حيث أن ألسنة الخلق أقلام الحق.. انظرها فقد أطالت في ذلك.

فائدة : في المناوي ــ عند حديث (من أحسن فيما بينه وبين الله كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن عمل لآخرته كفاه الله عز وجل دنياه) ــ ما لفظه : وملاحظة هذا الحديث يمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله أو تطلب منه نفعا أو دفعا أو تعلق قلبك به والسعيد من عامل الخلق لله لا لهم وأحسن إليهم لله وخاف الله فيهم ولم يخفهم مع الله ورجا الله بالإحسان إليهم وأحبهم لحب الله ولم يحبهم مع الله. «**كراهة الموت**» مبتدأ «**بحيث**» لا يخطر له ببال ولا يحدث نفسه بزوال ولا ارتحال و«**ينفر منه ويانف**» أنف كفرح

حَتَّى كَأَنَّـهُ بِـذَوْقِ كُـلِّ نَفْسٍ لَهُ ٱلَّذِي أَتَى ذُو جَهْلِ
مَعْدُودَةٌ مِنَ جُمْلَةِ ٱلأَمْرَاضِ فَارِضَ بِمَا ٱللَّهُ تَعَلَى قَاضِ
أَمَّـا إِذَا قَـلاَهُ لاَ لِذَاتِـهِ وَلاَ لِـلاِنْصِرَامِ عَـنْ لَذَّاتِـهِ
بَلْ خَوْفِ قَطْعِهِ عَنِ اسْتِعْدَادِهِ بِطَاعَـةِ ٱللَّـهِ إِلَـى مَعَـادِهِ
أَوْ فَوَّضَ الأَمْرَ إِلَى مَوْلاَهُ فَمَـا يَشَا أَرْدَاهُ أَوْ أَبْقَـاهُ
فَـذَانِ مَمْدُوحَـانِ مَحْمُـودَانِ وَالْكُرْهُ لاَ يُبْعِدُ مِنْكَ الدَّانِي
ذَاكِـرُهُ يُكْـرَمُ بِالْقَنَاعَـهْ وَبِـنَشَاطِ قَلْبِـهِ لِلطَّاعَـهْ

استنكف واستكبر «**إذا ما يذكر**» له في الوعظ «**حتى كأنه بذوق كل نفس له الذي أتى**» في قوله تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ ﴿كل من عليها فان﴾ ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ «**ذو جهل**» خبر كأنه ويتعلق به قوله بذوق كل إلخ «**معدودة**» خبر المبتدأ «**من جملة الأمراض فارض بما الله تعالى قاض**» في الجامع الصغير (من لم يرض بقضاء الله ويومن بقدر الله فليلتمس إلٰها غير الله) المناوي : فعلى العبد الرضا بقضائه وقدره ولا يلزم من الرضا بالقضاء الرضى بالمقضي وقد مر قوله : وسخط القدر... إلخ فانظر هناك. «**أما إذا**» نظر فيما هو آت وتأهب لحلوله محل الأموات ومع هذا «**قلاه**» أي أبغضه «**لا لذاته ولا للانصرام**» أي للانقطاع الحاصل به «**عن لذاته بل**» قلاه لـ«**خوف قطعه**» به «**عن استعداده بطاعة الله إلى**» يوم «**معاده**» ولخوفه أن يبادر بأجله قبل إصلاح خلله وتدارك زلله.. ففي الجامع الصغير (خير الناس من طال عمره وحسن عمله» المناوي : لأن من شأن المرء الازدياد والترقي من مقام إلى مقام حتى ينتهي إلى مقام القرب فلا ينبغي للمومن المتزود للآخرة الساعي في ازدياد العمل الصالح أن يطلب قطعه عن مطلوبه بتمني الموت «**أو**» كان من أهل المعرفة بالله تعالى فـ«**فوض الأمر إلى مولاه**» وسلم الحكم إليه فلم يرد إلا ما أراد له «**فما يشا**» مولاه «**أرداه أو أبقاه فذان ممدوحان محمودان**» فللّه درهما «**والكره لا يبعد منك الداني**» قال تعالى : ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾ الآية «**ذاكره**» أي الموت ذكرا كثيرا «**يكرم**» بثلاثة أشياء «**بالقناعه**» ابن خفيف : القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء بالموجود وقال ابن علي الترمذي : القناعة رضى النفس بما

قسم لها من الرزق. وقال وهب : إن العز والغنى خرجا يجولان يطلبان رفيقا فلقيا القناعة فاستقرا. وقال كثير من المفسرين الحياة الطيبة في الدنيا هي القناعة وقيل في معنى قوله تعالى : ﴿ليرزقنهم الله رزقا حسنا﴾ يعني القناعة، انظر القشيري.

فائدة : سئل بعض الصوفية عن مقام القناعة هل يطلب من ربه القناعة بما أعطاه الحق له من معرفته كما يقنع بنظيره من القوت ؟ فأجاب بأن القناعة المطلوبة خاصة بأمور الدنيا ليلا يشتغل بكثرتها عن آخرته لكونه مجبولا على الشح، وأما القناعة من المعرفة بقليل فمذمومة بنص آية : ﴿وقل رب زدني علما﴾ أي بك وبأسرار أحكامك كما في المناوي. «**وبنشاط قلبه للطاعه وببدار توبة**» قال في التذكرة قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ويلين القلب القاسي ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها. «**ويبتلى ناسي المنية بأضداد الثلا**»ثة من باب الاكتفاء وقد عده أهل البيان من البديع المعنوي وعند النحاة من الحذف ضرورة كما في قوله :

درس المنـــا بمتالـــع فأبـــان فتقـــادمت فـــالحبس فالسوبـــان

وفي الشرح أنه رخمه ضرورة فانظر ذلك فترخيم الضرورة يشترط فيه صلاحية الاسم للنداء.

فناسي المنية يعاقب بترك الرضا بالكفاف والتكاسل في العبادة وتسويف التوبة.

ولأبي العباس العماري :

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة وأنت على سوء من الفعل عاكف
وإياك أن تمضي من الدهر ساعة ولا لحظة إلا وقلبك راجـف
وبادر بأعمال يسرك أن تـرى إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

قال الغزالي : علامة التوفيق ذكر الموت كل ساعة والاستعداد لما عسى أن يرد منه في الوقت فإن عاش يومه إلى المساء شكر الله على طاعته ففرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حقه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب من الغد فمثل هذا إذا مات سعد

وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة مزيد خير. وفي تذكرة القرطبي : قيل يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : (نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة) وقال السدي في قوله تعالى : ﴿الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ أي أكثركم للموت ذكرا وله أحسن استعدادا ومنه أشد خوفا وحذرا. وفيها أيضا : اعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة ونعمة ومحنة فإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه فإنه لا يدوم والموت أصعب منه أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها لقطعه عنها، وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ولا زمن معلوم ولا مرض معلوم وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك مستعدا لذلك. انتهى باختصار.

فائدة : روى البخاري : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) قالت عائشة أو بعض أزواجه : (إنا لنكره الموت قال ليس ذلك ولكن المومن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه) ابن حجر : قال الخطابي : معنى محبة العبد للقاء الله إيثاره الآخرة على الدنيا فلا يحب استمرار الإقامة فيها بل يستعد للارتحال عنها والكراهة بضد ذلك، وقال النووي : معنى الحديث أن المحبة والكراهة التي تعتبر شرعا هي التي تقع عند النزع في الحالة التي لا تقبل فيها التوبة حيث ينكشف الحال للمحتضر ويظهر له ما هو صائر إليه. وفي ابن حجر أيضا أن في كراهة الموت في حال الصحة تفصيلا فمن كرهه إيثارا للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذموما ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المواخذة كأن يكون مقصرا في العمل لم يستعد له بالأهبة بأن يتخلص من التبعات ويقوم بأمر الله كما يجب فهو معذور، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتى إذا حضره الموت لا يكرهه بل يحبه لما يرجو بعده من لقاء الله تعالى. وفي الإحياء قال رسول الله ﷺ : (أكثروا

وَمِنْ عُيُوبِ النَّفْسِ نِسْيَانُ النِّعَمْ وَأَصْلُهُ الْغَفْلَةُ عَن وَمَا بِكُمْ
مِن نِعْمَةٍ وَبِدَوَامِ ذِكْرِهَـا وَذِكْرِ الآيِ الْمُرْجِفَاتِ غَيْرِهَا
كَلاَ يُغَيِّـرُ لَئِـنْ شَكَرْتُـمْ مَرَضُهُ الْمُزْمِنُ مِنْكَ يُحْسَمُ

من ذكر هاذم اللذات) معناه نغصوا بذكر الموت حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى. قال شارحه : رواه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه بلفظ : (أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت).

وفي البخاري عن ابن عمر : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك) وفي حديث ابن عباس عند الحاكم : (اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك).

وفي روح البيان : ينبغي للمومن أن يكثر ذكر الموت فإنه لا غنية للمومن عن ست خصال أولاها علم يدله على الآخرة والثانية رفيق يعينه على طاعة الله ويمنعه عن معصية الله والثالثة معرفة عدوه والحذر منه والرابعة عبرة يعتبر بها والخامسة إنصاف الخلق لكيلا تكون له يوم القيٰمة خصماء والسادسة الاستعداد للموت قبل نزوله لكيلا يكون مفتضحا يوم القيامة. «**ومن عيوب النفس نسيان النعم**» أي الغفلة عنها وعدم شكرها ومن لم يشكرها فقد تعرض لزوالها «**وأصله الغفلة عن**» نحو آية : «﴿**وما بكم**﴾» أي وأي شيء اتصل بكم «﴿**من نعمة**﴾» أي دنيوية أو أخروية ﴿فمن الله﴾ أي الغفلة الغالبة عن نسبة النعمة إلى خالقها وغلبة قوة الشهوة على جند باعث الطاعة، وإلى دوائه أشار بقوله «**وبدوام ذكرها**» المرة بعد المرة «**و**» تقوية جند باعث الطاعة بـ«**ذكر الآي المرجفات**» أي المخوفات «**غيرها كـ**»قوله تعالى : ﴿إن الله «**لا يغير**» ما بقوم...﴾ الآية. ابن جزي : إن الله لا يغير ما بقوم من العافية والنعم حتى يغيروا ما بأنفسهم بالمعاصي.. فيقتضي ذلك أن الله لا يسلب النعم ولا يترك النقم إلا بالذنوب. البيضاوي : حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة. و﴿«**لئن شكرتم**» لأزيدنكم﴾ ابن جزي : يحتمل أن تكون الزيادة من خير الدنيا أو من ثواب الآخرة أو منهما.

وَالْهُزْءَ عَالِجْ بِعِلَاجِ الكِبْرِيَا ... وَعِلْمِ أَنَّ قَصْدَهُ أَنْ يُخْزِيَا
سِوَاهُ عِنْدَنَا وَذَاكَ يُخْزَى ... بِهِ لَدَى ٱللَّهِ وَشَرّاً يُجْزَى
وَعِلْمِ مَا جَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمِ ... مِنَ الْوَعِيدِ فِي احْتِقَارِ المُسْلِمِ

«**مرضه**» أي نسيان النعمة «**المزمن**» أي الذي طال عليه الزمن «**منك**» صلة «**يحسم**» أي يقطع بدوام ذكرها... إلخ.

«**والهزء**» بالضم كما هنا وبضمتين الاستهزاء والسخرية، هزأ منه وبه كمنع وسمع واستهزأ. وقد عده ابن حجر من الكبائر، قال في الإحياء : ومعنى السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول وقد يكون بالإشارة والإيماء. قال شارحه : وهو بجميع أنواعه حرام لأنه إيذاء، «**عالج بعلاج الكبريا**» الذي مر في قوله حقره إن أردت... إلخ «**وعلم أن قصده**» أي قصد صاحبه منه «**أن يخزيا**» أي يفضح في الدنيا «**سواه عندنا**» أي عند الناس «**وذاك**» الهزء «**يخزى به**» غدا «**لدى الله**» والملائكة والنبيئين عليهم السلام «**وشرا يجزى**» به فلو تفكر في حسرته وخزيه يوم القيٰمة يوم يحمل سيئات من استهزأ به ويساق إلى النار لأدهشه ذلك عن إخزاء صاحبه، وفي الخبر (الكبر من بطر الحق وغمط الناس) وفي رواية (غمص الناس) أي ازدراهم واحتقرهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه قاله المناوي. ثم قال : وغمط الناس احتقارهم والتهاون بحقوقهم والمتكبر منازع لله في صفته الذاتية التي لا يستحقها غيره فمن نازعه إياه فالنار مثواه، فعقوبة المتكبر في الدنيا المقت من أولياء الله والذلة بين عباد الله. «**وعلم ما جا في صحيح مسلم من الوعيد في احتقار المسلم**» ففي صحيحه (بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله) الباء في بحسب زائدة وهو بإسكان السين خبر مقدم والمبتدأ أن يحقر قاله الأبي وغيره، والتقدير حسب امرىء من الشر احتقاره أخاه أي يكفيه من الشر ذلك. ومن وصايا الإمام النووي إياك أن تحتقر أحدا من إخوانك فإن العاقبة مجهولة والعبد لا يدري بم يختم له فإذا رأيت عاصيا فلا تعجب بنفسك عليه فربما كان في علم الله أعلى منك مقاما ويصير يشفع فيك يوم القيامة وإذا رأيت صغيرا فاحكم بأنه خير منك باعتبار أنه أقل

منك ذنوبا وإذا رأيت كبيرا فاحكم بأنه خير منك لتقدمه في الإسلام، ومما ينبه المغترين قول بعض العارفين :

أرى أبنـــاء آدم أبطـــرتهم حظوظهـم مـن الدنيـا الدنيـه
فَلـم بطـروا وأولهم منـــي ؟ أو افتخــروا وآخرهـم منيـــه؟

كما في الشرنوبي : وقال في الخاتمة : قال جعفر الصادق : إن الله أخفى ثلاثا في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئا فلعل رضاه فيها وأخفى ولايته في عباده فلا تحقروا منهم أحدا فلعله ولي الله وأخفى غضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئا فلعل غضبه فيه. وفي القرطبي عند قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم﴾ الآية ــ بعد كلام ــ وبالجملة فينبغي أن لا يجترىء أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال أو ذا عاهة في بدنه أو غير لبيق في محادثته فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله والاستهزاء بمن عظمه الله، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمر بن شرحبيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع. وعن عبد الله بن مسعود : البلاء موكل بالقول لو سخرت من كلب لخشيت أن أحول كلبا. وفي روح البيان هنا عن التأويلات النجمية يشير إلى أنه لا عبرة بظاهر الخلق فلا تنظروا إلى أحد بنظر الازدراء والاستهانة والاستخفاف والاستحقار لأن في استحقار أخيك عجب نفسك مودع كما نظر إبليس بنظر الحقارة إلى آدم عليه السلام فأعجبه نفسه فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فلعن إلى الأبد لهذا المعنى، فمن حقر أخاه المسلم وظن أنه خير منه يكون إبليس وقته وأخوه آدم وقته ولهذا قال تعالى : ﴿عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾.

تتمة : عدوا من أمراض القلب الإعراض عن الحق استكبارا بحيث يرى أنه أكبر من أن يجري عليه ما يجري على غيره كما قال جبلة بن الأيهم حين أخذه عمر بالقصاص لمن كسر أنفه : أيقتص مني وأنا ملك ؟ حتى حمله ذلك على أن ارتد وقال :

تنصرت بعد الحق عارا للطمة ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر
وأدركنـــي فيها لجاج حميـــة فبعت لها العين السليمة بالعور

فياليت أمي لم تلدني وليتني صبرت على القول الذي قال لي عمر

وعدوا منها نسيان العبد عيوب نفسه لاسيما إن اشتغل مع ذلك بعيوب الناس، وفي الحديث : (طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس) وقال ﷺ : (من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يهتكه ولو في جوف رحله) وقال الشاعر :

لا تلتمس من عيوب الناس ما ستروا فيهتك الله سترا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعبْ أحدا منهم بما فيكا

وقال مالك : أدركنا ناسا لا عيوب لهم تكلموا في عيوب الناس فحدثت لهم عيوب. وعدوا منها الحمية كعطية أي الأنفة بالتحريك وفي التنزيل : ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية﴾ الآية ويرادفها الكبر والخيلاء والغبية بكسرتين وشد ثان وثالث كما في الشرح، ومنها التزين للمخلوقين وهو من باب الفخر ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومنها التنافس في الدنيا أي التغالب في طلب الأنفس منها وتحصيله وأما التنافس في أمور الآخرة فمطلوب شرعا وفي التنزيل ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ أي في الرحيق المختوم أو في النعيم أي في الأعمال الموجبة لذلك فليرغب الراغبون قاله البيضاوي، ومنها الإصرار على الذنوب ومعناه العزم على الدوام عليها وهو ضد التوبة، ومن مناهي القلب تربص الدوائر أي ترقب نزول المصائب بإخوانه المومنين جمع دائرة وهي المصيبة ويحتمل أن تشتق من دوران الزمان أي ما تأتي به الأيام وتدور به والتربص الترقب وسببه بغض في القلب وخبث في النفس ودواؤه الدعاء بصرف المصائب عنهم فإن الشيطان ينقطع بذلك عنه، وانظر جملة من ذلك في فتح الحق. ولابأس بإيراد ما في الشرح ففيه هنا ما نصه :

من عيبها اغتراره بالخارق وبمنامه المصيب الصادق

إذ قد يكون استدراجا ودواؤه الإعراض عنه قال الجنيد : من ألطف ما يخدع به الولي الكرامة، ومن عيبها الترخيص والتأويل فهو مجازفة للحق وعدم تحقق بحال الصدق ومنها اغتراره بمدح الناس ودواؤه علم عدم نفعه، ومنه ترك التكسب ليقال متوكل ومنه قلة الاعتبار بحلم مولاه عن الأوزار، ومنه رضى عملها ودواؤه حثها على زيده، قال الشيخ زروق في أرجوزته :

من عيبها أن يستخير أولا وبعدها يسخط ما قد حصلا

وَطِبُّ أَمْرَاضِ القُلُوبِ الجَامِعُ لَهُنَّ نَهْيُ النَّفْسِ عَمَّا تَتْبَعُ
وَسَغَبٌ وَسَهَرُ اللَّيَالِي وَالصَّمْتُ وَالفِكْرَةُ وَهْوَ خَالِ

وذاك من تهمته لربه ودواؤه علمه بأنه قد يكره ما هو خير وبالضد.

من عيبها نفي التذاذ بالعمل وفقده من بعدما كان حصل
دواؤه في خدمة الأخيار والشغل بالتقوى وبالأذكار
وخفة البطن وأكله الحلال ثم التضرع لرب وابتهال
من عيبها رؤيته لصبره مع أنه من موجبات شكره
دواؤه رؤيته للرحمة في كل حال نعمة ونقمة
من عيبها طلبه الأعواضا بفعله وقصده الأغراضا
ومن يرد أخذ الجزاء بالعمل طولب بالذي يكون من علل
وإنما أعمالنا من منته فكيف نطلب الجزا عن هبته

ولما فرغ من دواء أمراض القلوب تفصيلا أشار لدواء الجملة بقوله: «**وطب**» بالتثليث أي علاج «**أمراض القلوب الجامع لهن نهي النفس عما تتبع**» من شهواتها ومالوفاتها. قال الشاذلي: الصحبة مع الله تعالى بترك الشهوات والمشتهيات ولا يصل عبد إلى الله تعالى مع شهوة من شهواته ولا إرادة من إراداته. وقال بعض العارفين: المريد في بداية سلوكه يلزمه ترك الشهوات فلا يشرب ماء باردا ولا يضع جنبه إلا في الأرض ثم إذا انتهى سلوكه وحصل له مقام المعرفة أمر بالإحسان لنفسه فيأكل الشهي وينام على الفراش الوطيء ويشرب البارد وإلا كان ظالما على رعيته ومطيته فطالما سهرها وأجاعها وأعطشها وألبسها الخشن فلما أوصلته لقصده وهو حضرة العرفان كانت كأجير طلب أجره فيجب أن يعطاه قبل أن يجف عرقه كما في الحديث قاله المناوي في شرح الحكم. انتهى من الخاتمة. ابن حمدون: قد وقع الإجماع من العلماء والحكماء على أن لا طريق للسعادة الأخروية إلا من نهى النفس عن الهوى وسوقها إلى الطاعات ﴿وأما من خاف مقام ربه...﴾ الآية. «**وسغب**» وهو أفضل ما تعالج به النفس فإن الدابة الحرون تلين إذا نقص من علفها. قال بعض الصالحين: أن من رداءة النفس أنها إذا همت بمعصية لو تشفعت إليها بالله تعالى وبرسوله وأنبيائه وكتبه وبكل صالح وتعرض عليها الموت والقبر

وأهوال القيامة والجنة والنار ما تركتها ثم إن استقبلتها بمنع رغيف فإنها تسكن وتترك شهوتها !!. «**وسهر الليالي**» القشيري : سمعت الحسن القزاز يقول : بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء أن لا تاكل إلا عند الفاقة ولا تنام إلا عند الغلبة ولا تتكلم إلا عند الضرورة. «**والصمت**» في الجامع الصغير (أول العبادة الصمت) المناوي : أي أول مقام السالكين إلى الله تعالى أن لا يشغل أحدهم لسانه بغير ذكر الله، قال رجل لبعض العارفين أوصني، قال : اجعل لدينك غلافا كغلاف المصحف ليلا يدنس، قال وما غلاف الدين ؟ قال : ترك الكلام إلا فيما لابد منه وترك طلب الدنيا إلا ما لابد منه وترك مخالطة الناس إلا فيما لابد منه. وقال بعض العارفين : الورع في المنطق أكمل منه في الذهب والفضة كما أن الزهد في الرياسة أكمل منه في الذهب والفضة. «**والفكرة وهو خال**» أي بخلوة جملة حالية، قال في الحكم : ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة فالفكرة هي المقصود والعزلة وسيلة لها ومعينة عليها وقد جاء في الخبر (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) وقال كعب : من أراد شرف الآخرة فليكثر التفكر، وقيل لأم الدرداء : ما كان أفضل أعمال أبي الدرداء ؟ قالت التفكر وذلك لأنه يصل به إلى معرفة حقائق الأشياء وإلى تعظيم الله وتعظيم كل ما يرضيه فيفعله وإلى تحقير كل ما يُسخطه فيجتنبه ويطلع به على خفايا آفات النفس ومكايد العدو وغرور الدنيا ويتعرف به وجوه الحيل في التباعد عنها ويسلم به من الآفات الناشئة عن مخالطة أهلها وبالعزلة المذكورة يحصل التمرن على الخلوة التي هي أحد أركان الطريق الأربعة بالنسبة للمريدين وباقيها الصمت والجوع والسهر وبهذه الأربعة تصير الأبدال أبدالا كما في الشرقاوي. وفي القشيري أن الخلوة صفة أهل الصفوة والعزلة من أمارات الوصلة، ولابد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه، ومن حق العبد إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد سلامته من شر الخلق فإن الأول من القسمين نتيجة استصغار نفسه والثاني شهود مزيته على الخلق ومن استصغر نفسه فهو متواضع ومن رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر، ورئي بعض الرهبان فقيل له : إنك راهب، فقال : لا، بل أنا حارس كلب إن نفسي أشبه بالكلب الذي يعقر الخلق وقد أخرجتها من بينهم ليسلموا منها !.

فائدة : تجب العزلة على من خاف على دينه وفي الفتن إن عجز عن إزالتها وإلا حرمت وإن انتفيا فهل الأفضل الخلطة كما عند الشافعي وكثير من التابعين والفقهاء لاكتساب فوائدها من تعلمه وتعليمه وعبادته وأدبه وتأديبه ونفع وانتفاع وإيناس واستئناس وتحسين خلقه بحلم واحتمال وتواضع ومعرفة أحكام لازمة وتكثير سواد المسلمين وعيادة مريضهم وتشييع جنازتهم وحضور الجمعة والجماعة، أو الأفضل العزلة لاكتساب فوائدها وهو مختار معظم علماء الآخرة قاله الغزالي.. ثم قال : والمختار أن أغلب الناس محتاجون إلى العزلة بعد الخلطة وفوائد العزلة كثيرة منها سلامته هو خصوصا وسلامة الناس من شره عموما، ومنها التخلص من الذنوب التي يتعرض لها بالمخالطة كالغيبة والنميمة وسماعهما والسعاية والمخاصمة والمسارقة للطبائع الرذيلة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أي لعدم وجوبهما عليه، والمداهنة والرياء والتصنع للخلق فإنهم يشغلون المرء عن العبادة حتى لا يكاد يحصل له منها شيء ويفسدون عليه ما حصل له حتى لا يكاد يسلم له منها شيء، ومنها أنه يصون بها دينه ونفسه عن التعرض للفتن والخصومات وأنواع الشر، ومنها أنه ينقطع بها طمعه عن الناس ويحصل له منهم الإياس وذلك من أعظم فوائدها وينقطع طمعهم عنه وعتبهم عليه، ومنها التفرغ للعبادة والتخلص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء، ومنها أنه ينكف بها بصره عما لا يحل من العورات وعن النظر إلى زينة الدنيا فيتخلص من سمها ومن منافسة أهلها، ومنها أنه يجتمع بها همه ويقوى في ذات الله عزمه ويعمل بما يهمه ويانس بدوام ذكره، ومنها أنه يسلم من الاعتراض بقلبه على الناس إذا عصوا إلى غير ذلك من فوائدها.. ثم محل الخلاف المتقدم إن اجتمعت شروط العزلة الخمسة بأن أفادت فكرة ولم يصبر أذى الناس ولم يترفع بها ولم يحتج هو إلى غيره دينا ودنيا ولم يحتج إليه في بيان حق أورد على مبتدع أو دعوة إلى خير وإلا ندبت الخلطة في انتفاء الشرطين الأولين إن سلم من آفاتها ووجبت في الباقي بقدر الضرورة وتجب عليه العزلة عموما فيما فضل عن ذلك متحريا في مخالطته من يسلم معه دينه وطالبا من المواضع ما هو أقرب إلى الخمول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة معتزلا عن الناس بالمعنى وإن كان معهم بالشخص منفردا عنهم بالقلب والعمل وإن كان بين أظهرهم منقبضا عنهم غير تارك لجماعتهم مثل

الفكرونة إذا رأت الناس انقبضت وأدخلت يديها ورجليها وإذا وجدت الخلوة انبسطت وناصبا نفسه إذا احتيج إليه بين الخلق ناصحا لهم ذابا عن دين الله، وفي الحديث (إذا ظهرت البدع وسكت العالم فعليه لعنة الله) انظر الخاتمة فقد أطالت في ذلك. وفيها عن شرح شهية السماع : يحتاج من يخالط الناس إلى عدة أعين عين ينظر بها إلى الحقوق المرتبة عليه في المخالطة فيستغفر منها وعين ينظر بها إلى ما أنزل الله في قلوب الناس من تعظيمهم له فيشكر ويستغفر معا وعين ينظر بها إلى حقارة نفسه في نفسه ليعطي التواضع حقه وعين ينظر بها إلى المواضع التي يحصل للناس بسببها نقص في دينهم فيتركها وعين ينظر بها إلى الحكمة الإلٰهية في المعاصي التي تقع ممن يخالطهم ليسلم من الاعتراض. «**وصحبة الأخيار أهل الصدق**» ومحبتهم وخدمتهم «**من يقتدى بحالهم والنطق**» قال أحمد بن حرب : ليس شيء أنفع لقلب الإنسان من مخالطة الصالحين والنظر إلى أفعالهم قيل كفى بالمرء شرا أن لا يكون صالحا ويقع في الصالحين. وفي الجامع الصغير (خير جلسائكم من ذكركم الله رؤيته وزاد في عملكم منطقه وذكركم الآخرة عمله) المناوي : النظر إلى العلماء العاملين والأولياء الصادقين ترياق نافع.. ينظر الرجل إلى عمل أحدهم فيستشف ببصيرته حسن استعداده واستحقاقه لمواهب الله فيقع في قلبه محبته وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة فيسعى خلفه ويقتدي به في أعماله فيصير من المفلحين الفائزين ومن ثم حثوا على مجالسة الصالحين وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم.

وقال في الحكم : لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله. ابن عباد : إنهاض الحال ودلالة المقال على الله تعالى هو فائدة الصحبة ومعنى الحال المنهضة هاهنا هو أن تكون همته متعلقة بالله تعالى مرتفعة عن المخلوقين لا يلجأ في حوائجه إلا إلى الله تعالى ولا يتوكل في أموره إلا على الله تعالى قد سقط اعتبار الناس من عينه فلا يرى منهم ضرا ولا نفعا وسقطت نفسه من عينه فلا يشاهد لها فعلا ولا يقتضي لها حظا، ويكون في أعماله كلها جاريا على مقتضى الشرع من غير إفراط ولا تفريط وهذه صفة العارفين الموحدين فصحبة من هذه

حاله وإن قلت عبادته ونوافله مأمونة الغائلة محمودة العاقبة جالبة لكل فائدة دينية ودنيوية لأن الطبع يسرق من الطبع والنفس مجبولة على حب الاقتداء بمن تستحسن حاله ولا يشترط في المصحوب اتصافه بتلك الصفات على غاية الكمال والتمام فإن ذلك متعذر وإنما يشترط فيه أن يتصف منها بما يفوق صاحبه به فقط بحيث يكون أعلى منه حالا وأصوب منه مقالا ومن لم يكن على هذا الوصف وكان شأنه المعاملة بالظاهر لا غير فليس له فائدة في صحبته بل ربما زادته شرا لأن خلطته تدعوه إلى التصنع والتزين ويؤديه ذلك إلى كبائر معاصي القلوب وهي أشد عليه من معاصي الجوارح انظر بقية كلامه.

المناوي : قال العارف ابن عربي : والمامور بمجالستهم من الشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة القائلون بها في ظواهرهم المتحققون بها في بواطنهم يراعون حدود الله ويوفون بعهده ويقومون بمراسم الشريعة وهم الذين إذا رُؤُوا ذكر الله، أما من ليس لهم في الظاهر ذلك التحفظ فنسلم لهم أحوالهم ولا يصحبون ولو ظهر عليهم من خرق العوائد ما عسى أن يظهر فلا يعول عليه مع سوء أدبه مع الشرع. وهل للمريد أن يجالس غير شيخه ؟ فيه خلاف.. قال بعضهم : نعم إذا ظهر للمريد أن الشيخ الآخر ممن يقتدى به فله ذلك، وقال آخرون : لا، كما لا يكون المكلف بين رسولين مختلفي الشرائع والمرأة بين زوجين، وهذا إذا كان مريد تربية فإن كان يريد صحبة البركة فلا مانع من الجمع لأنه ليس تحت حكمهم لكن لا يجيء منه رجل في الطريق.

فائدة : في المناوي أيضا : قال الرّاغب : قال بعض الحكماء : مجالسة العلماء ترغبك في الثواب ومجالسة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك من الذمّ ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الله الباري تعالى. وقال بعضهم : إذا جالست أهل الدنيا فحاضرهم برفع الهمة عما بأيديهم مع تحقيرها وتعظيم الآخرة، أو أهل الآخرة فحاضرهم بوعظ الكتاب والسنة وتعظيم دار البقاء وتحقير دار الفناء، أو الملوك فبسيرة أهل العدل مع حفظ الأدب والعفاف، أو العلماء فبالروايات الصحيحة والأقوال المشهورة مع الإنصاف وعدم الجدال المظهر حب العلو عليهم، أو الصوفية فبما يشهد لأحوالهم ويقيم حجتهم على المنكر عليهم مع أدب الباطن قبل الظاهر، أو العارفين فبما شئت فإن لكل شيء عندهم وجها من وجوه المعرفة

وَالِالْتِجَا لِمَنْ إِلَيْهِ تُرْجَعُ   الأُمُورُ فَهْوَ طِبُّهُنَّ الأَنْفَعُ
بِأَنْ يَكُونَ كَغَرِيقٍ وَكَمَنْ   ضَلَّ بِتِيهٍ لاَ يَرَى الغِيَاثَ مِنْ
سِوَى المُهَيْمِنِ العَظِيمِ القَدْرِ   فَهْوَ المُجِيبُ دَعْوَةَ المُضْطَرِّ
وَمَا بِهِ لِلْقَلْبِ صَفْوٌ من عَمَلْ   أَنْفَعُهُ وَهْوَ المُدَامُ لَوْ يَقِلْ

بشرط عدم المزح وحفظ الأسرار سيما من الأشرار. «**والالتجا**» الاضطرار «**لمن إليه ترجع**» بالتركيب وبلاه «**الامور**» كلها قال تعالى : ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ قرىء في السبع بالبناء للمفعول أي يرد وبالبناء للفاعل أي يعود «**فهو طبهن**» أي دواؤهن «**الأنفع**» فدواء تلك الآفات بالرجوع إليه تعالى كما أن الرجوع إلى رب الكلب أولى لأنك إن اشتغلت بمقاومته مزق الإهاب وقطع الثياب وإن رجعت إلى ربه صرفه عنك برفق فكذلك النفس إن رجعت إلى ربها في شأنها أعانك عليها فيصرف عنك شرها فإن النفس كلب سلطه الله عليك فإن اشتغلت بمحاربته بنفسك دون الرجوع إلى ربه تعبت وربما عقرك وجرحك انظر الخاتمة. الشيخ زروق عن التنوير : حسن الأعمال إنما هو بالفهم عن الله، والفهم هو ما ذكرناه من الاكتفاء بالله والغنى به والاعتماد عليه ورفع الحوائج إليه والدوام بين يديه فكل ذلك ثمرة الفهم عن الله. وفي البصائر : قال أبو حفص : أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال وملازمة السنة في جميع الأفعال وطلب القوت من وجه حلال. ثم الاضطرار أن لا يتوهم العبد من نفسه شيئا من الحول والقوة ولا يرى لنفسه شيئا من الأسباب يعتمد عليه ويستند إليه، «**بأن يكون كغريق**» في بحر «**وكمن ضل بتيه**» بالكسر المفازة والمضلة «**لا يرى الغياث**» ولا يرجو النجاة من هلكته «**من**» أحد «**سوى**» مولاه «**المهيمن العظيم القدر فهو المجيب دعوة المضطر وما**» يحصل «**به للقلب صفو**» من شواغل الدنيا والخلق «**من عمل**» هو «**أنفعه**» أي العمل وأفضله لأنه المطلوب تنويره وتصفيته بالأعمال والمحذور إظلامه وتسويده بالسيئات، والقلب هو القوة المستعدة لقبول المفهومات وصفاء القلب له فائدتان إحداهما أن أقرب القلوب إلى الله مارق وصفا، الثانية أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله وذلك هو الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة قاله في الخاتمة

وَعَمَلٌ عَنْكَ شُهُودُهُ أَفَلْ أَوْ لِحُبَابٍ أَوْ جَلاَلٍ انْفَعَلْ

«**وهو**» أي ما به صفوه «**المدام**» من العمل لحديث: (أحب الأعمال إلى الله أدومها) [رواه أحمد] و«**لو يقل**» ابن العربي: معنى المحبة تعلق الإرادة بالثواب أي أكثر الأعمال ثوابا أدومها، قال النووي: لأن بدوام القليل تستمر الطاعة بالذكر والمراقبة والإخلاص والإقبال على الله تعالى بخلاف الكثير الشاق حتى ينمو القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافا كثيرة. وقال ابن الجوزي: إنما أحب الدائم لمعنيين أحدهما أن التارك العمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصل متعرض للذم ولهذا ورد الوعيد في حق من حفظ آية ثم نسيها وإن كان قبل حفظها لا يتعين عليه، ثانيهما أن مداوم الخير ملازم للخدمة وليس من لازم الباب كل يوم وقتاما كمن لازم يوما كاملا ثم انقطع قاله العلقمي. نقله في الخاتمة ثم قال: والأشياء تستبان بأضدادها أي وكذلك العمل الكثير المتصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره وعلى هذا فكل وظيفة لا تمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيرا في القلب من كثيرها. «**وعمل عنك شهوده أفل**» أي غاب قال في الحكم: لا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ويحتقر عندك وجوده. زروق: تقدير الكلام: لا عمل أرجى للقلوب قبوله وحصول النفع به في إفادة ما يترتب عليه من تنوير وتعريف وكمال وثواب وغير ذلك من عمل يغيب عنك شهوده بشهود مدبره حتى لا ترى لنفسك نسبة فيه بل لا تدري له وجودا في ذاته ويحتقر عندك وجوده لما هو عليه من نقص وعيب ظاهر أو خفي منه.. فحاصله أن يرى نفسه مقصرا فيه ويراه مع تقصيره منة من الله عليه؛ إذ لا يليق به من حيث ذاته ومن هو حتى وفق له يوما ما وإلا لكان ممن هم مطرحون في الخسائس بل في أرذل الكفر نسأل الله العافية.

وذكر الشعراني عن بعضهم أنه كان يقول: كل عمل اتصل به شهوده فهو غير متقبل لأنه تعالى يقول: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ فمن شهد له عملا ودام ذلك فعمله عند نفسه لا عند ربه فافهم. «**أو**» عمل «**لحباب**» أي بعثك عليه حبه تعالى «**أو**» لأجل «**جلال انفعل**» فإخلاص المحبين هو العمل شكرا ومحبة وإجلالا وتعظيما لأنه تعالى أهل لأن يعبد ولو لم يكن ثواب ولا عقاب. قال

وَعَمَلُ الزَّاهِدِ مِن أَزْكَى الْعَمَلْ   بِعَكْسِ رَاغِبٍ فَسَعْيُهُ جَلَـلْ

المحققون : العبادات ثلاث درجات الأولى أن تعبد الله سبحانه طلبا للثواب وهربا من العقاب وهي نازلة جدا لأن معبوده بالحقيقة ذلك الثواب، الثانية أن تعبد الله تعالى لتشرف بعبادته والنسبة إليه وهي أعلى ولكنها غير خالصة إذ القصد بالذات غير الله سبحانه، الثالثة أن تعبده لكونه إلها وأنت عبده وهذه أعلاها. انظر المفيد.

فائدة : في قواعد الشيخ زروق : تعظيم ما عظم الله متعين واحتقار ذلك ربما كان كفرا فلا يصح فهم قولهم ما عبدناه خوفا من ناره ولا طمعا في جنته على الإطلاق لأنه إما احتقارا لهما وقد عظمهما الله تعالى فلا يصح احتقارهما من مسلم وإما استغناء عنهما ولا غنى للمومن عن بركة مولاه، نعم لم يقصدوهما بالعبادة بل عملوا لله لا لشيء وطلبوا منه الجنة والنجاة من النار لا لشيء وشاهد ذلك في قوله تعالى : ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾ الآية إذ جعلوا علة العمل إرادة وجهه تعالى ثم ذكروا خوفهم ورجاءهم مجردا عن ذلك بعد وقد أوحى الله إلى داوود عليه السلام : ومن أظلم ممن عبدني خوفا من ناري وطمعا في جنتي لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع ؟ وفي الخبر : (لا يكن أحدكم كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ولا كالأجير السوء إن لم يعط الأجرة لم يعمل) وقال عمر رضي الله عنه ويروى مرفوعا نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه. يعني أنه لا يخاف الله ولا يعصيه فالحامل له على ترك المعصية غير الخوف من رجاء أو حب أو حياء أو هيبة أو خشية أو غير ذلك والله أعلم. «**وعمل الزاهد**» في الدنيا أي غير متعلق القلب بها «**من أزكى العمل**» فهو وإن قل في الحس كثير في المعنى لسلامته مما يقدح في القبول من رياء وتصنع للناس وطلب عوض دنيوي وعدم حضور قلب حال فعله لقلة الوساوس الناشئة من حب الدنيا «**بعكس راغب**» في الدنيا «**فسعيه جلل**» أي حقير فهو وإن كثر حسا قليل في المعنى لعدم سلامته مما ذكر. قال في الحكم : ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب. روي عن ابن مسعود أنه قال : ركعتان من زاهد عالم خير من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمدا، وعن بعض الصحابة :

وَعَمَلُ الرَّاجِينَ أَسْنَى وَأَجَلْ   مِن سَعْيِ مَن دَعَاهُ لِلسَّعْيِ الْوَجَلْ
وَمَـا تَعَـدَّى نَفْعُـهُ لِغَيْـرِهِ   أَوْ شَقَّ بِالنَّفْسِ كَصَوْمِ الشَّرِهِ

قال تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الدنيا والآخرة أبلغ من الزهد في الدنيا. وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي رضي الله تعالى عنه : شكا بعض الناس لرجل من الصالحين أنه يعمل أعمال البر ولا يجد حلاوة في قلبه فقال لأن عندك بنت إبليس وهي الدنيا ولابد للأب أن يزور ابنته في بيتها وهو قلبك ولا يؤثر دخوله إلا فسادا !.

فائدة : قال المناوي : قد جعل الله لكل مطلوب مفتاحا يفتح به فجعل مفتاح الصلاة الطهور ومفتاح الحج الإحرام ومفتاح البر الصدقة ومفتاح الجنة التوحيد ومفتاح العلم حسن السؤال والإصغاء ومفتاح الظفر الصبر ومفتاح المزيد الشكر ومفتاح الولاية والمحبة الذكر ومفتاح الفلاح التقوى ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة ومفتاح الإجابة الدعاء ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا ومفتاح الإيمان التفكر في مصنوعات الله ومفتاح الدخول على الله استسلام القلب والإخلاص له في الحب والبغض ومفتاح حياة القلوب تدبر القرآن والضراعة بالأسحار وترك الذنوب ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الحق والسعي في نفع الخلق ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار ومفتاح العز الطاعة ومفتاح الاستعداد للآخرة قصر الأمل ومفتاح كل خير الرغبة في الآخرة ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل، وهذا باب واسع من أنفع أبواب العلم وهو معرفة مفاتيح الخير والشر ولا يقف عليه إلا الموفقون. «**وعمل الراجين أسنى**» أرفع «**وأجل**» أعظم «**من سعي من دعاه للسعي الوجل**» أي الخوف فالعبادة على الرجاء أفضل منها على الخوف لأن الرجاء يقتضي المحبة. قال في الإحياء : اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله أحبهم له والحب يغلب بالرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفا من عقابه والآخر رجاء لثوابه فالراجي ثوابه أكثر حبا له من الخائف من عقابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما في وقت الموت «**وما**» مبتدأ أي عمل «**تعدى نفعه لغيره**» أي لغير فاعله فعم نفعه كالعلم ونفع المسلمين بالمال والجاه والإرشاد والنصيحة والإرفاق

وَنَشْأَةِ الشَّبَابِ فِي تَأَثُّمِ ... وَطَاعَـةٍ وَنَفَقَـاتِ الْمَلَـمِ

خِيَارَهُ وَهْوَ صَحِيحٌ قَـانِصَا ... بِهِ رِضَى اللَّهِ تَعَلَى مُخْلِصَا

مِمَّـا يُصَفِّيـهِ وَمَـا أَخْفَـاهُ ... كَذَا وَخَيْرُ السَّعْيِ مَا صَفَّاهُ

والجهاد وكالسعي على العيال والفقراء والضعفاء وخدمة الصوفية والفقهاء وأهل الدين والتردد في أشغالهم وإطعام الطعام وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وما يوصل به خيرا إلى مسلم أو يدخل به عليه سرور أو يتيسر له به عمل إلى غير ذلك «**أو شق بالنفس**» أي عليها لحديث : (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس) وذلك «**كصوم الشره**» الذي غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع من صفاء الفكر فأراد تصفية قلبه بالجوع «**ونشأة الشباب في تأثم**» أي تجنب إثم «**وطاعة ونفقات**» الغني الشحيح «**الملم**» محركة البخيل «**خياره**» مفعول ينفق مقدرة فالنفقة اسم لما ينفق لا مصدر «**وهو صحيح**» حال كونه «**قانصا**» أي مصطادا «**به رضى الله تعلى مخلصا**» لا رياء ولا سمعة. قال في الخاتمة : فكل داء حصل من سبب فدواؤه حل ذلك السبب ورفعه وإبطاله ولا يبطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة فكذلك لا سبب لإمساك البخيل إلا الشح المطاع وهو من المهلكات ولا يضاده إلا الصبر على الإنفاق فإن إخراج درهم له أفضل من قيام ليال وصيام أيام لأن صيام مائة سنة لا يزيل من شحه ذرة بل لا يزيله إلا إخراج المال، وكذا من غلبته شهوة البطن صوم يوم له أفضل من طاعات كثيرة لأن ما ينحلّ به ما في القلب من حب الدنيا والشهوات من الإنفاق والصوم أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتمال القلب على حب الدنيا والشهوات «**مما يصفيه**» خبر قوله وما تعدى إلخ.

قلت : انظر عده العمل المتعدي النفع ــ كالتعليم كما في الشرح ــ مما يصفي القلب فعبارة خاتمة التصوف : وأفضل العمل ما تعدت فائدته كالعلم ونفع المسلمين وما صفى القلب وهو مادام منه وإن قل وما شق على النفس كالإنفاق للبخيل والصوم للشره. فتأمل ذلك.

كَنون : كان الشيخ السنوسي يقول : إياك أن تستغرق جميع أوقاتك في

التدريس لأن ذلك يقسي القلب بسبب مخالطة الناس. وفي الإحياء : التجرد لمسائل الفقه على الدوام يقسي القلب وينزع الخشية منه كما هو مشاهد من المتجردين له. وقد عللوا كراهة اشتغال المعتكف بالعلم تعلما أو تعليما إذا كثر بأن حكمة الاعتكاف رياضة النفس وتصفيتها وهي لا تحصل بالعلم.

فائدة : قد قلت :

للعمل القاصر أحوال تقر	نص عليها الهيتمي ابن حجر
فقاصر العمل طورا أفضل	من متعديه وذاك مثلوا
له بتسبيح ورا الصلاة	وبالدعائم سوى الزكاة
الايمان والتوحيد والإسلام	فهذه مرفوعة الأعلام
مع أنها قاصرة لاكن ورد	تفضيلها شرعا فما له مرد
نعم لكالغريق يقطع المصل	إذ من صلاة شأن الانقاذ أجل
فممكن فيها التلافي لا في	الانقاذ إذ لا يمكن التلافي
وقد يكون المتعدي أمثلا	وذا كَبِرٍّ والديك مثلا
إذ جاء أن أفضل الأعمال بر	الوالدين في حديث اعتبر
فالمتعدي من يراه أفضلا	من قاصر جهل حيث أسجلا
بل ما على تفضيله نص وما	مصلحة ترجح فيه منهما
يكون أفضل وحيث لا ولا	نمسك من قبل الدليل مقولا

«**وما أخفاه**» العامل عن الناس «**كذا**» في أنه يصفيه، في الجامع الصغير (تطوع الرجل في بيته يزيد على تطوعه عند الناس كفضل صلاة الرجل في جماعة على صلاته وحده) المناوي : وذلك لأنه أبعد عن الرياء. وفي المحلّي : قال الجنيد : رأيت في المنام أني أتكلم على الناس فوقف علي ملك فقال : ما أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله ؟ فقلت : عمل خفي بميزان وفي فولى وهو يقول : كلام موفق والله.

وفي الخاتمة : قال أبو الوليد الطيالسي : سمعت مالكا يقول : من أحب أن يفتح الله له قريحة قلبه فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية، قال بعضهم : هذا موافق لحديث (من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) لأن عمل السر منعوت بالإخلاص وعن الإخلاص تنبع الحكمة. وقال

كَمَا أَضَرَّ الذَّنْبِ مَا أَقْسَاهُ بِأَنْ أَدَمْتَهُ أَوِ اسْتَحْلاَهُ
وَفَضَّلُوا ذَنْباً لِذُلٍّ جَرَّا عَلَى عِبَادَةٍ كَسَتْكَ كِبْرَا

إبراهيم النخعي : لو أن عبدا اكتتم بالعبادة كما يكتتم بالفجور لأظهر الله تعالى ذلك منه. الشعراني : قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ينبغي للعالم أن يكون له خبيئة من عمل فيما بينه وبين الله غير العلم فإن العلم غالبه ظاهر للناس وكل ما ظهر للناس من علم أو عمل كان قليل الجدوى في الآخرة. ويدل لهذا تقسيمه رضي الله عنه اليل وجعله ثلاثا وجعل منه ثلثا للتهجد مع قوله الاشتغال بالعلم أفضل من صلاة النافلة. «**وخير السعي ما صفاه**» كما مر «**كما أضر الذنب**» وأقبحه «**ما أقساه**» وسوده وأظلمه والقلب القاسي هو الذي لا يرق ولا يلين، ثم ما يقسيه منه نوعان كما قال : «**بأن أدمته**» ولو قل أيضا فإن تأثيره في إظلام القلب وقساوته عظيم «**أو استحلاه**» القلب ولو صغيرة وظلمة القلب مانعة من المكاشفة جاذبة إلى زخارف الدنيا كما أن صفاء القلب مهيىء للمكاشفة موجب قطع علائق الدنيا عنه.

فائدة : يعالج القلب القاسي بأربعة أشياء أحدها الإقلاع عما هو عليه بحضور مجالس الذكر والوعظ والعلم والتذكير والتخويف والترغيب والترهيب وأخبار الصالحين، الثاني ذكر الموت فإنه هاذم اللذات ومفرق الجماعات وميتم البنين والبنات، الثالث مشاهدة المحتضرين، الرابع صحبة الصالحين كما في الخاتمة. «**وفضلوا ذنبا لذل**» وافتقار «**جرّا على عبادة كستك كبرا**» أي ألبستك ثوب الكبر والعز. قال في الحكم : معصية أورثت ذلا وافتقارا خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا، قال زروق : الخير في الطاعة بالذات والشر فيها بالعرض والشر في المعصية بالذات والخير فيها بالعرض وخير الطاعة من حيث أنها عبودية له وخضوع بين يديه ورجوع إليه وطلب لما عنده وشر المعصية في ضد ذلك فإذا أوجبت الطاعة ما هو في المعصية بالذات كانت شرا وإذا أوجبت المعصية ما هو في الطاعة بالذات كانت خيرا، ولذلك أشار رسول الله ﷺ بقوله : (لولا أن الذنب خير من العجب ما خلى الله بين مومن وذنبه أبدا) وقال ﷺ : (لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أشد من ذلك : العجب). قال أبو مدين قدس سره

وَذَرَّةٌ مِن عَمَلِ الْقَلْبِ العَلِي مِثْلُ الرِّضَى وَالزُّهْدِ والتَّوَكُّلِ
أَفْضَلُ عِنْدَ ٱللَّهِ مِن أَجْبَالِ شَمَخْنَ مِن ظَوَاهِرِ ٱلأَعْمَالِ
وَتَرْكُ دِرْهَمٍ لِكَوْنِهِ حَظَرْ أَفْضَلُ مِنْ تَصَدُّقَاتٍ وَعُمَرْ

انكسار العاصي خير من صولة المطيع، وكان سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله الغالب عليه شهود وسع الرحمة وكان يكرم الناس على قدر رتبتهم عند الله تعالى حتى إنه ربما دخل عليه مطيع فلا يعبأ به وربما دخل عليه عاص فأكرمه لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبر بعمله ناظر لفعله وذلك العاصي دخل عليه بكثرة معاصيه وذلة مخالفته. المناوي : قال بعض العارفين : العاصي الذليل الحقير خير من الطائع المتكبر المعجب بنفسه. وفي البصائر : اتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله مع تخليط خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب مع أنه لا صفاء معهما.

«**وذرة من عمل القلب العلي**» صفة عمل «**مثل**» الصبر و«**الرضى والزهد والتوكل**» وحب لقاء الله تعالى «**أفضل عند الله من**» أمثال «**أجبال شمخن من ظواهر الأعمال**» التي هي أعمال الجوارح فطاعة القلب أفضل من طاعة الظاهر لأن طاعة الباطن أشق على النفس.. قال في التنوير : وليس يدل على فهم العبد كثرة عمله ولا مداومته على ورده إنما يدل على فهمه ونوره غناه بربه وانحياشه إليه بقلبه وتحرره من رق الطمع وتحليه بحلية الورع انظر الخاتمة، وفي البصائر : قال بعض السلف : نوم العارف يقظة وأنفاسه تسبيح ونومه أفضل من صلاة الغافل إنما كان نومه يقظة لأن قلبه حي فعيناه تنامان وروحه ساجدة تحت العرش بين يدي ربها، وإنما كان نومه أفضل من صلاة الغافل لأن بدنه في الصلاة واقف وقلبه يسبح في حشوش الدنيا والأماني. «**وترك درهم لكونه حظر**» بوقف ربيعة أو فعل مركب «**أفضل من تصدقات و**» حجات و«**عمر**» جمع عمرة.. ففي كنون عن الديباج : كان سحنون يقول : ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الله وترك الحلال لله أفضل من أخذه وإنفاقه في طاعة الله تعالى وقال : ــ أي سحنون ــ ترك دانق مما حرم الله تعالى أفضل من سبعين ألف حجة تتبعها سبعون ألف عمرة

وَأَصْلُهَا الجَامِعُ حُبُّ الْحَاضِرِ   فِيمَا حَكَى الهِلاَلِ وَابْنُ عَاشِرِ
وَقَالَ إِنَّ أَصْلَ كُلِّ دَاءِ   رِضَى الفَتَى عَن نَفْسِهِ العَطَائِي
وَأَصْلُ كُلِّ خَصْلَةٍ تُسْتَحْسَنُ   عَدَمُهُ وَٱلْوَجْهُ فِيهِ بَيِّنُ

مبرورة متقبلة وأفضل من سبعين ألف فرس في سبيل الله بزادها وسلاحها ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت الله العتيق وأفضل من عتق سبعين ألف رقبة مومنة من ولد إسماعيل. فبلغ كلامه هذا عبد الجبار بن خالد فقال : نعم وأفضل من ملء الأرض إلى عنان السماء ذهبا وفضة كسبت وأنفقت في سبيل الله لا يراد بها إلا وجهه تعالى.

وعن ابن المبارك : ترك فلس من حرام أفضل من مائة ألف يتصدق بها. «**وأصلها**» أي أمراض القلوب «**الجامع**» لها هو «**حب الحاضر**» أي الدنيا. المناوي : قال الحسن البصري : ومن علامة حب الدنيا أن يكون دائم البطنة قليل الفطنة همه بطنه وفرجه فهو يقول في النهار متى يدخل اليل حتى أنام ؟ ويقول في اليل : متى أصبح من اليل حتى ألهو وألعب وأجالس الناس في اللغو وأسأل عن حالهم ؟ «**فيما حكى**» في نصيحته سيدي أحمد بن عبد العزيز «**الهلال**» بحذف ياءي النسب إذ قال :

وأصل داء القلب حب العاجله   فانبذه واحتفل بأمر الآجله

«**وابن عاشر**» إذ قال :

واعلم بأن أصل ذي الآفات   حب الرياسة وطرح الآتي

ابن حمدون : حب الرياسة في الدنيا أي بنيل جاهها وهو حب المدح وانتشار الهيبة والتعظيم والثناء وبنيل مالها والتنعم بلذاتها وشهواتها. «**وقال**» في حكمه «**إن أصل كل داء رضى الفتى عن نفسه العطائي**» فاعل قال أي ابن عطاء الله فخفف ياء النسب وهو لغة «**و**» إن «**أصل كل خصلة تستحسن عدمه**» أي الرضا عنها، ونص الحكم : أصل كل معصية وشهوة وغفلة الرضا عن النفس وأصل كل طاعة وعفة ويقظة عدم الرضا منك عنها. زروق : علامة الرضا عن النفس ثلاث رؤية الحق لنفسه والشفقة عليها والإغضاء عن عيوبها بتزكيتها من حيث أنه يرى قبيحها

لأَنَّهُ دَاعٍ إِلَى بَحْثِكَ عَنْ أَخْلاَقِهَا فَتَتَّقِي غَيْرَ الْحَسَنْ

حسنا بالتاويل. لا أنه يعلم العيب ثم يغضي عنه وإن كان نوعا منه وأنشدوا في ذلك :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وهذا الشطر الثاني يوافق المعنى الذي ذكره المؤلف إذ قال : وأصل كل طاعة... إلخ، ولعدم الرضا عنها ثلاث علامات اتهامها والحذر من آفاتها وحملها على المكاره في عموم أوقاتها فقد قال أبو حفص الحداد رضى الله عنه : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات و لم يخالفها في جميع الأحوال و لم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه فهو مغرور ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب يقول : ﴿وما أبرئ نفسي﴾ الآية. قال النهرجوري : من علامة من تولاه الله في أعماله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره والنقصان في صدقه والفتور في مجاهدته وقلة المراعاة في فقره فتكون أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقرا إلى الله في فقره وسيره حتى يفنى عن كل ما دونه. «**والوجه فيه**» أي فيما قاله العطائي «**بين لأنه**» أي عدم الرضا عنها «**داع إلى**» اتهامك إياها و«**بحثك عن أخلاقها**» وإلى عدم الاغترار بما يظهر من الطاعة والانقياد «**فتتقي**» أي تحذر وتجتنب «**غير الحسن**» من كل ما نهى الله تعالى عنه وتحافظ على جميع ما أمر به تعالى. ابن عباد : الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة وقد اتفق على هذا جميع العارفين وأرباب القلوب وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوها ومساويها ويصير قبيحها حسنا وعدم الرضا عنها على عكس هذا فانظره فقد أطال في ذلك.

تنبيه : قال ابن حمدون : لا منافاة بين ما قال ابن عاشر وبين ما قال ابن عطاء الله لأن من رضي عن نفسه أحب المدح والثناء والرياسة والجاه وتجبر وسعى في إذاية من لم يبادر إلى خدمته ومن رضي عنها عظمها وقلدها فيفسد نظره ويتصور له الحق باطلا والباطل حقا فيرى أنه من الصالحين وذوي الدين وهو في الواقع من أعصى العاصين... إلى أن قال : ومن رضي عنها أحب الدنيا وبقدر

وَأَصْلُ الأَصْلَيْنِ خِلاَلُ أَهْلِ كُلٍّ فَدِينُ الْمَرْءِ دِينُ الخِلِّ

رضاه عنها تكون شفقته عليها وتعظيمه شأنها فيدعوه ذلك إلى السعي في المآكل التي تناسبها في نظره والملبس الذي تستحقه والمسكن الذي يليق بها والذخائر والنفائس التي تشتهيها وتتعلق بها فيحب الدنيا على حسب ذلك وناهيك بما يترتب على حبها من المفاسد والعيوب بتضييع الحدود والتقلب في الحرام والاستهانة بالأوامر والنواهي فمن أحب رياسة الدنيا يراءي ويحسد ويعجب بنفسه فلذلك جعل الناظم ـــ يعني ابن عاشر ـــ ذلك أصلا لكل داء مما تقدم.

القشيري : قيل : إذا أراد الله تعالى أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة وبصره بعيوب نفسه فمن أعطي ذلك فقد أعطي خير الدنيا والآخرة. وفي النصيحة : قال ﷺ : (طوبى لمن شغلته عيوب نفسه عن عيوب الناس) ابن زكري وبيان ما أشار له في الحديث أن من اتهم نفسه وتطلب عيوبها وراعى خواطرها وتفقد أحوالها وجدها فيها من العيوب ما لا يحصى فيصير في شغل شاغل عن تطلب عيوب غيره ويبعثه ذلك على محاسبة نفسه وعدم الرضى عنها وهو أصل كل خير ومن أغفلها ولم يبحث عن عيوبها تفرغ للاشتغال بعيوب غيره ويبعثه ذلك على الرضا عن نفسه وهو أصل كل شر. القشيري : قال أبو عثمان لا يرى أحد عيب نفسه وهو مستحسن من نفسه شيئا وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال. وقال أبو حفص : ما أسرع هلاك من لا يعرف عيبه ! فإن المعاصي بريد الكفر. الشرنوبي : كان السري السقطي يقول : كل من ظن من نفسه أنه محسن فهو ممن زين له سوء عمله ومن لم يظن من نفسه أنه هالك فهو هالك، وكان سيدي علي الخواص يقول لتلميذه الإمام الشعراني : إن لم تخف أن يهلكك الله تعالى بالنقص الذي في أعمالك الصالحة عندك فضلا عن معاصيك فإنك هالك !. «**وأصل الاصلين**» أي أصل أصل كل داء وأصل أصل كل خصلة حميدة هو «**خلال**» أي مصاحبة «**أهل كل فدين المرء دين الخل**» ابن زكري : أخرج أبو داوود والترمذي من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) وفي النصيحة : قال بعض الفقراء : كل ما شئت فمثله تفعل واصحب من شئت

فَمَــنْ تَحَقَّــقَ بِحَالَــةٍ مَّــا لَمْ يَخْلُ مِنهَا حَاضِرُوهُ جَزْمَا
لِذَاكَ وَصَّى بِزِحَـامِ العُلَمَـا سَلِيلَهُ لُقْمَانُ بَـدْرُ الحُكَمَـا
مُشَبِّهاً إِحْيَاءَ نُـورِ الحِكْمَـةِ لِلْقَلْبِ بِالْوَبْلِ لِلاَرْضِ المَيْتَةِ
وَالذِّكْرَ كَثِّرْ وَالقُرَانُ خَيْـرُهُ إِلاَّ بِمَا شُرِعَ فِيهِ غَيْـرُهُ

فإنك على دينه. «**فمن تحقق بحالة ما**» أي أيِّ حالة «**لم يخل منها حاضروه جزما**» فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة «**لذاك وصى بزحام العلما سليله لقمان بدر الحكما**» المناوي: لقمان قيل إنه عبد حبشي وقد اختلف في نبوته والمشهور أنه حكيم لا نبي. «**مشبها إحياء نور الحكمة للقلب بالوبل**» المطر الشديد الضخم القطر أي بإحيائه «**للارض الميتة**» قال: يابني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحٰنه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء. المناوي عن النووي: الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالإحكام المشتمل على المعرفة بالله المصحوب بنفاذ البصيرة وتهذيب النفس والأخلاق وتحقيق الحق والعمل به والصد عن اتباع الهوى والباطل والحكيم من له ذلك. وفي البصائر: قيل: مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الغفلة إلى الذكر ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة ومن الكبر إلى التواضع ومن سوء الطوية إلى النصيحة. وفي النصح الأنفع: قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: أوصاني حبيبي فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ولا تجلس إلا حيث تامن غالبا من معصية الله ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ولا تصطفِ لنفسك إلا من تزداد به يقينا وقليل ماهم. «**والذكر كثر**» ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات﴾ ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله) وفيه (أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون) وفي رواية: (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم.. قالوا: بلى، قال: ذكر

الله تعالى) وفيه (لا ياتي على العبد ساعة لا يذكر الله تعالى فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيٰمة) وفيه (مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره مثل الحي والميت) [رواه البخاري] الشرنوبي : يكفيك في خصائص أهل الذكر أنهم القوم الذين لا يشقى لهم جليس لما في الحديث : (إن لله ملائكة سياحين في الأرض يلتمسون مجالس الذكر فإذا رأوا مجلس الذكر نادى بعضهم بعضا هلموا هذه حاجتكم فتحفهم الملائكة بأجنحتهم إلى عنان السماء ثم يقول الله تعالى لملائكته : أشهدكم يا ملائكتي أني غفرت لهم فتقول الملائكة : إلهنا إن فيهم فلانا جلس لغير حاجة الذكر فيقول الله تعالى : هم القوم لا يشقى لهم جليس) وفي رواية (لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) وفي المشرب : وليس للعبد أن يترك الذكر لكونه لم يكن على أكمل الحالات فإن تركه الذكر هو أقبح العيوب وأعظم المصيبات فينبغي للعبد أن لا يغفل عن الذكر على أي حال كان وفي أي وقت. قال الشيخ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه : ومن خصائص الذكر أنه غير موقت بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مامور بذكر الله تعالى إما فرضا وإما نفلا والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الأوقات والذكر بالقلب مستدام في عموم الحالات. نعم ثم أحوال لا ينبغي الذكر فيها كوقت الجماع ووقت قضاء حاجة الإنسان وفي حال الخطبة يسمع قول الخطيب وفي حالة القيام للصلاة غير القراءة وتحرم القراءة على الجنب ولابأس بسائر الأذكار من التهليل والتسبيح ونحوهما مع الجنابة أو الحيض أو النفاس.. ثم ذكر أن الذاكر تعرض له أحوال يستحب أو يجب له قطع الذكر بسببها ثم يعود إليه بعد زوالها منها إذا سلم عليه رد السلام ثم عاد إلى الذكر وإذا عطس عنده عاطس شمته ثم عاد إلى الذكر وكذا إذا سمع الخطيب وإذا سمع المؤذن فإنه يحكي ثم يعود إلى الذكر، وكذا إذا رأى منكرا غيره أو معروفا أمر به أو سائلا أجابه أو جاهلا علمه ثم عاد إلى الذكر، وإذا غلبه النعاس.

وفي الخاتمة : قال بعضهم : أقرب الطرق إلى دخول حضرة الله ذكر الله لأن الاسم لا يفارق المسمَّى فلايزال الذاكر يذكر والحجب تتمزق شيئا فشيئا حتى يقع الشهود القلبي وحينئذ يستغني عن الذكر بمشاهدة المذكور، ومرادهم بحضرة

الله حيث أطلقت انكشاف الحجاب فتدخلها وأنت قاعد مكانك. الشرنوبي: كان سيدي أبو العشائر يقول: الأصول التي يبني عليها المريد أمره أربعة اشتغال اللسان مع حضور القلب بذكر الله وجبر القلب على مراقبته ومخالفة النفس والهوى لأجله وتصفية اللقمة لعبوديته وهي القطب وبها تزكو الجوارح ويصفو القلب، واعلم أن حقيقة الذكر دوام الحضور من غير تخلل غفلة وقصور... إلى أن قال: قال العلامة الأمير: ينبغي للذاكر بلا إله إلا الله أن يلاحظ كونها آية من كتاب الله ليكثر له الثواب وإن لم يلاحظ المعنى. ومعناها لا معبود بحق إلا الله. ثم اعلم أن الذكر عند العارفين لغير أرباب الشهود لما في الحديث القدسي (من ذكر لم يشهد ومن شهد لم يذكر) أي من كان يرى له وجودا يذكرني به فإنه محجوب والمحجوب لا يشهد ومن شهد أن الوجود لي ولا موجود لغيري علم أني الذاكر والمذكور والذكر فلم يذكر. وبهذا يتضح قول ابن عربي:

بذكـر الله تـزداد الذنـوب ... وتنعكس البصائـر والقلـوب
وترك الذكـر أفضل كل شيء ... فشمس الذات ليس لها غروب

وهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين وقليل أهل هذا المقام الذين قال قائلهم:

الله يعلـم أني لست أذكـره ... وكيف أذكره إذ لست أنساه

وفي الخاتمة قال الغزالي: اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال ولكن له قشور ثلاثة بعضها أقرب إلى اللب من بعض واللب وراء القشور الثلاث وإنما فضل القشور لكونها طريقا إليه فالقشر الأعلى منه ذكر اللسان فقط والثاني ذكر القلب إذا كان القلب يحتاج إلى مراقبة حتى يحضر مع الذكر ولو تركه وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار، الثالث أن يتمكن الذكر من القلب ويستولي عليه بحيث يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غير ذلك كما احتيج في الثاني إلى تكلف في قراره معه ودوامه معه، الرابع وهو اللباب المطلوب وذلك بأن لا يلتفت القلب إلى الذكر ولا إلى القلب بل يستغرق المذكور جملته ومهما ظهر له في أثناء ذلك الالتفات إلى الذكر فذلك حجاب شاغل وهذه الحالة هي التي يعبر عنها العارفون بالفناء وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من ظاهر جوارحه ولا من الأشياء الخارجة عنه ولا من العوارض الباطنة بل يغيب

عن جميع ذلك ويغيب عنه جميع ذلك ذاهبا إلى ربه أولا ثم ذاهبا فيه آخرا وإن ظهر له في أثناء ذلك أنه فني عن نفسه بالكلية فذلك شوب وكدورة بل الكمال فيه أن يفنى عن نفسه ويفنى عن الفناء أيضا والفناء عن الفناء غاية الفناء انظر تمامه. وفيها أيضا قال عياض : ذكر الله تعالى ضربان ذكر بالقلب وذكر باللسان وذكر القلب نوعان أحدهما هو أرفع الأذكار وأجلها وهو الفكر في عظمة الله تعالى وجلاله وجبروته وملكوته وآياته في سماواته وأرضه ومنه الحديث (خير الذكر الخفي) [رواه أحمد] والمراد به هذا والثاني ذكر القلب عند الأمر والنهي فيمتثل ما أمر به ويترك ما نهي عنه ويقف فيما أشكل عليه، وأما ذكر اللسان مجردا فهو أضعف الأذكار ولكن فيه فضيلة عظيمة كما جاء به الأحاديث، واختلف في ذكر القلب بالتسبيح المجرد ونحوه وذكر اللسان مع حضور القلب أيهما أفضل واحتج من رجح ذكر القلب بأن عمل السر أفضل ومن رجح ذكر اللسان بأن العمل فيه أكثر فإنه زاد باستعمال اللسان فاقتضى زيادة أجر. انتهى ببعض اختصار.

وفي المفيد عن شارح الحصن[2] أن الذكر بغير حضور وإن كان له اعتبار في الجملة لكنه قليل الفائدة بالنسبة لذكر الحضور وعليه تحمل عبارة من قال : لا خير في ذكر مع قلب غافل ساه وكذا حديث الدعاء من قلب غافل لاه «**والقران خيره**» قال النووي في التبيان : اعلم أن المذهب الصحيح المختار الذي عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار وقد تظاهرت الأدلة على ذلك.

وفي الخاتمة : أفضل الذكر القرآن لحديث (من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوتي مثل ما أوتي فقد استصغر ما عظم الله) ولحديث (إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها قراءة القرآن وذكر الموت) وقال عمرو بن ميمون من نشر مصحفا حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية رفع الله له مثل عمل أهل الدنيا، وقيل لابن مسعود إنك لتقل الصوم فقال إنه ليشغلني عن قراءة القرآن وقراءة القرآن أحب إلي منه، وروي أن سحنون رأى ابن القاسم في النوم فقال له ما فعل الله بك ؟ قال : وجدت عنده ما أحببت قال له : فأيّ أعمالك وجدت أفضل ؟

(2) هو محمد بن عبد القادر الفاسي.

قال : تلاوة القرآن قال قلت له فالمسائل فكان يشير بأصبعه كأنه يلاشيها فكنت أسأله عن ابن وهب فيقول لي هو في عليين !. وأفضلية القرآن لسائر الذكر ماعدا طرفي النهار ففيهما قولان قال سعيد بن المسيب القرآن أفضل من الذكر فيهما وقال أبو حامد يدعو أولا بالدعاء الماثور ثم بالذكر ثم قراءة القرآن ثم التفكر.. قال وأفضل من ذلك كله الاشتغال بالعلم، وقال صاحب الدرر الملتقطة(3) أفضل ما نطق به المسلم قراءة القرآن ثم ذكر الله ثم ذكر الرسول ﷺ حتى من ذكره في يوم الجمعة وهو يخالف ما ذكره الشافعية من أن الصلاة عليه ﷺ في ليلة الجمعة ويومها أفضل من تلاوة القرآن ماعدا سورة الكهف ونحوها مما استثني. «**إلا بما**» أي بمحل «**شرع**» أي طلب «**فيه غيره**» من الأذكار فالاشتغال بالماثور في وقت أو حال أفضل. قال عز الدين في قواعده إن من أعمال القلوب أن نحفظ الأوقات فلا نصرف شيئا إلا في أفضل القربات فقد يكون الاشتغال بالمفضول في بعض الأوقات أولى من الاشتغال بالفاضل في غيرها كالاشتغال بالدعاء فإنه أفضل من الاشتغال بالذكر في غير أوانه كالدعاء بين السجدتين فالاشتغال به أفضل من الاشتغال بالتسبيح والثناء كذلك قراءة القرآن في الركوع والسجود والقعود فإن الله شرع لكل وقت طاعة هي أفضل من غيرها فيه وإنما يشتغل بالأفضل فالأفضل إذا كان صالحا لهما جميعا، والهداية لأفضل الأعمال والأحوال والأقوال في أوقاتها المضروبة لها أفضل ما من به الإله سبحانه.

تنبيه : قال المناوي في شرح حديث (ألا أنبئكم بخير أعمالكم... إلخ) وهذا الحديث يقتضي أن الذكر أفضل من تلاوة القرآن وقضية الحديث المار وهو قوله (أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن) يقتضي عكسه فوقع التعارض بينهما وجمع الغزالي بأن القرآن أفضل لعموم الخلق والذكر أفضل للذاهب إلى الله في جميع أحواله في بدايته ونهايته فإن القرآن مشتمل على صنوف المعارف والأحوال والإرشاد إلى الطريق فمادام العبد مفتقرا إلى تهذيب الأخلاق وتحصيل المعارف فالقرآن أولى له فإن جاوز ذلك واستولى الذكر على قلبه فمداومة الذكر أولى به فإن القرآن يجاذب خاطره ويسرح به في رياض الجنة والذاهب إلى الله لا ينبغي أن يلتفت إلى الجنة بل يجعل همه هما واحدا وذكره ذكرا واحدا ليدرك درجة الفناء والاستغراق ولذلك قال تعالى : ﴿ولذكر الله أكبر﴾.

(3) هو عبد العزيز بن أحمد الدميري فقيه شافعي زاهد. (612 ــ 694هـ /1215 ــ 1295م).

فوائد الأولى : قال في كشف القناع : اختلفوا في الجهر بالذكر بشرطه والإسرار به أيهما أفضل فقال بعضهم الجهر في الذكر بشرطه أفضل مطلقا من الإسرار لأن النفع فيه أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ويوقظ القلب للذكر ويجمع فكره إلى الحضور ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط، وقال بعضهم الذكر سرا أفضل لمن غلبت عليه الجمعية من أهل النهاية، قلت يوخذ من هذا التفصيل أن (خير الذكر الخفي) إنما هو في حق من غلبت عليه الجمعية والله أعلم. انتهى منه. وقد سئل السيوطي عما اعتاده السادة الصوفية من عقد حلق الذكر والجهر به في المساجد ورفع الصوت بالتهليل هل ذلك مكروه أم لا ؟ فأجاب : لا كراهة في شيء من ذلك وساق أحاديث تقتضي استحباب الجهر بالذكر وأخرى تقتضي استحباب الإسرار به ثم قال بعد هذا إذا تأملت ما أوردناه من الأحاديث عرفت من مجموعها أنه لا كراهة البتة في الجهر بالذكر بل فيها ما يدل على استحبابه إما صريحا أو التزاما، وأما المعارضة بحديث (خير الذكر الخفي) فيجاب عنه بأن الإخفاء أفضل حيث كان الرياء أو تأذى به مصلون أو نيام والجهر أفضل في غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ولأن فائدته تتعدى إلى السامعين ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد في النشاط.. فإن قلت قال الله تعالى : ﴿واذكر ربك في نفسك﴾ قلت : الجواب عنه من وجوه منها أن الآية نزلت حين كان النبي ﷺ يجهر بالقرآن فيسمعه المشركون فيسبون القرآن ومن أنزله فأمر بترك الجهر سدا للذريعة ومنها ما ذكره السادة الصوفية أن الأمر في الآية خاص بالنبي ﷺ الكامل المكمل وأما غيره ممن هو محل الوسواس والخواطر الردية فمأمور بالجهر لأنه أشد تأثيرا في دفعها، انتهى باختصار نقله الرباطي. وفي المشرب لما تكلم على الإسرار والإجهار بعد كلام طويل ما نصه : وبالجملة فما أدى إلى وقوع مفسدة أو فوات مصلحة يترك وما لا فهو تابع لحال الذاكر وبحسب شربه ومن كان وحده فلا محذور عليه في السر والجهر وإنما ينظر إلى ما هو أوقع في قلبه وقد قال في مفتاح الفلاح : ينبغي للذاكر إن كان وحده إن كان من الخاصة أن يخفض صوته وإن كان من العامة أن يجهر به قلت لأن قلب العارف حاضر معمور بالذكر فالسر يكفي فيه وقلب العامي قاس مشغول بالوساويس فيحتاج إلى الصوت ليتأثر القلب

بقوته كالحجر لا يكسره إلا الصدمة القوية وليشتغل باله بما يسمع من الذكر وإلا ضل في أودية الوسواس ولم يدر ما يقول. انتهى منه.

الثانية : من الأدب الاهتمام بالسور والآيات الفاضلة والأذكار الجامعة مثل سبحٰن الله وبحمده عدد خلقه فليواظب العبد على جوامع الكلم ولاسيما إذا ضاق منه العمر في ظنه كما إذا راهق دقاقة الأعناق أو مرض أو وقع المرض في الناس فليرجع إلى الله حينئذ وليذكر بالأذكار الجامعة وجوامع الكلم من الآيات والأخبار ليستدرك بذلك ما فاته من عمره ويصير العمر القصير في حقه طويلا وكذا إذا خاف فوات ورده وذكره وضاق الوقت عن قراءة عادته في التهجد وخاف طلوع الفجر مثلا أو ضاق عن عادته في الذكر فليبتدأ بجوامع الكلم فيصلي بها ويسبح ليستدرك بذلك ما فاته من القيام ومن الذكر ويلحق بمن قرأ كثيرا في قيامه وذكر كثيرا ولأن الله تعالى ما أخبرنا بفضلها إلا لنقدمها على غيرها في مراعاة البداءة بها عند ضيق العمر أو الوقت وإن تهاون بها في البداءة بها فاته ذلك الثواب انظر الخاتمة. وفيها أنه روى الترمذي (من قرأ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك) وروى أيضا هو وغيره (إذا زلزلت تعدل نصف القرآن وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن وقل يٰأيها الكافرون تعدل ربع القرآن وإذا جاء نصر الله والفتح تعدل ربع القرآن) وروى الحاكم (أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية كل يوم قالوا ومن يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ قال أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهٰيكم التكاثر). وفيها أيضا روى الشيخان (من قرأ الآيتين من سورة البقرة في ليلة كفتاه) أي كفتاه آفة تلك الليلة وقيل كفتاه قيامها. النووي : يجوز الأمران. وروى أبو الشيخ في الثواب (آية الكرسي تعدل ربع القرآن) وورد أن من قال حين يصبح أو يمسي ﴿فسبحٰن الله حين تمسون وحين تصبحون... إلى... تخرجون﴾ أدرك ما فاته في ليلته أو يومه رواه أبو داوود. وورد أيضا : (من قال حين يصبح أو يمسي ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطٰن الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات في ذلك اليوم أو تلك الليلة مات شهيدا) رواه الترمذي. وروى رزين في جامعه (من قرأ كل ليلة سورة الواقعة لم تصبه فاقة) وفي المسبحات آية كألف آية قال العلماء هي آخر سورة الحشر. وروى الطبراني : (من قال دبر كل صلاة ﴿سبحٰن ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين﴾ فقد اكتال بالجريب الأوفى) وانظر جملة من الأذكار الجامعة فيها.

الثالثة : في الخاتمة من أفضل الذكر الصلاة على النبي ﷺ لأن ذكر الله تعالى يستلزم ذكره عليه الصلاة والسلام إذ هو دليل ذلك الذكر ومنه عرف ولا اعتداد به إلا من جهة الاعتداد به، وقد ورد في فضل الصلاة والسلام عليه ﷺ أحاديث كثيرة تحتاج إلى ديوان مستقل وفي الغفلة عنها رائحة الجفاء ففي الحديث (من نسي الصلاة علي أخطأ طريق الجنة) وروى الطبراني (من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا ومن صلى علي عشرا صلى الله عليه مائة ومن صلي علي مائة كتب الله بين عينيه براءة من النفاق وبراءة من النار وأسكنه يوم القيٰمة مع الشهداء) وقالوا : ينبغي لمن فاته كثرة الصيام والقيام أن يشتغل بها فإنك لو فعلت في عمرك كل طاعة ثم صلى الله عليك صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة جميع ما فعلت في عمرك من الطاعات لأنك تصلي على قدر وسعك وهو يصلي على حسب ربوبيته هذا إذا كانت صلاة واحدة فكيف إذا صلى عليك عشرا بكل صلاة كما جاء في الحديث الصحيح. قال بعضهم : الصلاة على النبي ﷺ سُلَّمٌ ومعراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لم يلف الطالب شيخا مرشدا، وذكر الشيخ الطيب أن من قال : اللهم صل على محمد عدد كذا فقال ابن عرفة له أكثر من ثواب المرة ودون ثواب من صلى ذلك العدد تفصيلا. وفي حاشية الوزاني ــ بعد أن ذكر عن الشيخ زروق ثلاثة أقوال في ذكر جامع لعدد نحو سبحٰن الله عدد خلقه... إلخ هل يحصل العدد على ما هو به مع تضعيفه وهو أولى بالكرم أو دونه وهو الظاهر في الاعتبار أو ذلك العدد لغو ــ ما نصه : قلت وهذا كله في غير الصلاة التي ورد فيها عن بعض الأكابر عدد مخصوص فيبقى على ظاهره عملا بحسن النية وقد يكون بإخبار من النبي ﷺ كصلاة الكامل وصلاة الفاتح ونحوهما. انتهى منه.

الرابعة : قال في المشرب : قد اختلف أهل السلوك بالذكر في اختيار الذكر الذي يلتزم فمنهم من اختار لا إلٰه إلا الله ومنهم من اختار لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ في الابتداء والانتهاء ومنهم من اختار الاقتصار على الاسم المفرد وهو الله ومنهم من اختار هو هو، وجه الأول ما مر من الأحاديث والأسرار ووجه الثاني أن الشهادة بالرسالة من تتمة الإيمان فلا يكمل إلا بها ووجه الثالث أن اسم الحق جل وعز هو المقصود فهو بالذكر أولى ولأن ذاكر الأول قد يموت

بين النفي والإثبات ولأنه أسهل على اللسان وأقرب لتأثير القلب ولأن نفي العيب عمن يستحيل عليه العيب عيب ولأن نفي الأغيار يرجع إلى شغل القلب بالأغيار وذلك ممتنع على المستغرق في التوحيد ولأن من قال لا إله إلا الله فهو مشتغل بغير الحق ومن قال الله فهو مشتغل بالحق فأين أحد المقامين من الآخر ؟ ولأن نفي الغير إنما نكلف به عند خطوره بالبال وأهل الله لا يخطر لهم غير الله تعالى فلا معنى لتكليفهم بنفيه فيكفيهم أن يقولوا الله ولأن الله تعالى قال لنبيه ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ فأمره بذكر الله ومنعه من الخوض في أباطيلهم والقول بالشريك من الأباطيل وفيه خوض الأولى تركه والاقتصار على ذكر الله.

وذكر صاحب مفتاح الفلاح هذه الوجوه ثم قال : وجواب من قال بالنفي والإثبات عن هذا من حيث المعنى أن النفي للتطهير والإثبات للتنوير وإن شئت قلت النفي للتخلية والإثبات للتحلية واللوح إذا لم تزل نقوشه لا يكتب فيه شيء والقلب الواحد لا يصح أن يكون محلا لشيئين فضلا عن أشياء ومن امتلأ قلبه بصور المحسوسات لو قال الله الله ألف مرة قلما يشعر بمعناها وإذا فرغ القلب عن غير الله لو قال مرة واحدة الله يجد من الخير ما لا يستطيع اللسان وصفه.

ثم بعد أن ذكر ما يقوي أن لا إله إلا الله أفضل قال : واعلم أنا لم نقصد بهذا الفصل إلا تفضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار الخارجة عنها كذكر التنزيه والتحميد مثلا وأما ما وقع فيه الاختلاف المحكي هنا فمتقارب أما قولنا لا إله إلا الله وقولنا لا إله إلا الله محمد رسول الله فلا ينبغي أن يقع بينهما اختلاف من محقق فإن الشهادة بالرسالة مقرونة بالشهادة بالألوهية ولا يتم الإسلام إلا بمجموعهما فهما جملتان متواخيتان متلازمتان حتى كأنهما جملة واحدة والأولى في باب المقاصد والثانية في باب الوسائل فإن الطرق كلها مسدودة على الخلق كما قال إمام الطائفة الجنيد رضي الله عنه إلا من اقتفى آثاره ﷺ وكيف وهو ﷺ سر الوجود ومفتاح الشهود ومظهر الأنوار وقطب دائرة الأسرار ﷺ... إلى أن قال بقي النظر فيما بين لا إله إلا الله وبين لفظ الإفراد وهو الله وقد رأيت ما قيل في ذلك وقال بعض المشائخ والتحقيق في ذلك أن هذا أمر يرجع إلى الذاكر فإن وجد التأثير في قلبه بلا إله إلا الله لزمها وإن وجد التأثير بلفظ الجلالة لزمها وهذان الذكران أيضا ليس في التفاضل بينهما ما يؤدي إلى كون لا إله إلا الله مفضولة لأنهما أيضا شيء واحد فإن المقصود من لا إله إلا الله

إنما هو الاسم الأعظم فمن نطق به فقد أثبته ومن نفى غيره فإنما نفاه ليثبت هذا الاسم. المناوي : الذكر ثلاث نفي وإثبات بغير نفي وإشارة بغير تعرض لنفي ولا إثبات فالأول قول لا إله إلا الله والذكر به قوام كل جسد وموافق لمزاج كل أحد الثاني ذكر اسمه الشريف الجامع وهو الله اسم جلال محرق ليس كل أحد يطيق الذكر به والثالث ذكر الإشارة وهو هو فدوام ذكر لا إله إلا الله سبب لليقظة من الغفلة وذكر اسم لله سبب للخروج من اليقظة في الذكر إلى وجود الحضور مع المذكور وذكر هو هو سبب للخروج عن سوى المذكور.

الخامسة : في المشرب أيضا قال صاحب مفتاح الفلاح الذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق وقيل ترديد اسم المذكور بالقلب واللسان وسواء في ذلك ذكر الله أو صفة من صفاته أو حكم من أحكامه أو فعل من أفعاله أو استدلال على شيء من ذلك أو دعاء أو ذكر رسله وأنبيائه وأوليائه أو من انتسب إليه أو تقرب منه بوجه من الوجوه أو سبب من الأسباب أو فعل من الأفعال بنحو قراءة أو ذكر أو شعر أو غناء أو محاضرة أو حكاية والمتكلم ذاكر والفقيه ذاكر والمدرس ذاكر والمفتي ذاكر والواعظ ذاكر والمتفكر في عظمة الله وجلاله وجبروته وآياته في أرضه وسماواته ذاكر والممتثل ما أمر الله به أو نهى عنه ذاكر.. قال : والذكر قد يكون باللسان وقد يكون بالجنان وقد يكون بأعضاء الإنسان وقد يكون بالإعلان والإجهار والجامع لذلك كله ذاكر كامل. وقد تبين لك من كلامه أن كل طاعة لله تعالى هي ذكر وأن المومن الموفق ذاكر لله تعالى على كل أحيانه ومعنى ذلك أن الذكر كما مر هو ضد النسيان فكل من عمل طاعة من قول أو فعل أو ترك فما عملها إلا وقد ذكر الله إذ لو نسيه ما عملها ألا ترى أن الله تعالى هو الذي حمله عليها بأمره ونهيه ولذلك وقع في كلام عمر رضي الله عنه قوله وأفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه أي يذكر الله عند كل فعل هل أمره به تعالى فيقدم عليه أو نهاه عنه فينتهي وكذا يذكر الله أي وعده ووعيده عند سماع الأمر والنهي فيأتمر وينتهي وهذا كله في قلبه وبذا تعلم أن الذكر على الحقيقة هو ما في القلب وأما ما يذكر من الأفعال والأقوال فهي مظاهره وترجمته تنشأ عنه ويتقوى بها وتتقوى به.

السادسة : في المشرب أيضا أنه ينبغي لمن كان له ورد في ليل أو نهار وفاته

أن يأتي به في وقت آخر ولا يضيعه قال الله تعالى: ﴿وهو الذي جعل اليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ فمن فاته عمل من الليل فليتداركه بالنهار وكذا العكس قال صاحب القوت: ومن فاته ورد من الأوراد فاستحب له فعل مثله في وقته أوقبله متى ذكره لا على وجه القضاء لأنه لا يقضى إلا الفرائض ولكن على سبيل التدارك ورياضة النفس بذلك ليأخذها بالعزائم كي لا تعتاد التراخي والرخص ولأجل الخبر المأثور (أحب الأعمال إلى الله عز وجل أدومها وإن قل) كيف وفي حديث عائشة رضي الله عنها كالوعيد على ترك العادة من العبادة فروت عن النبي ﷺ (من عبد الله عز وجل عبادة ثم تركها ملالة مقته الله عز وجل) وقالت (كان رسول الله ﷺ إذا غلبه نوم أو عاقه مرض فلم يقم في تلك الليلة صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة). فقد أفاد أن استدراك الورد لسببين أحدهما رياضة النفس فإنها إذا سومحت في الترك ألفته فأخلدت إلى الكسل والبطالة وفات المقصود من تعويدها الخير، الثاني تدارك الخلل فإن الورد إذا فات كان ثلمة في صاحبه وكان مغبونا في يومه بل خاسرا فيجبر ذلك بالزيادة في العمل بعده ليكون يومه خيرا من أمسه والله الموفق.

السابعة: في المشرب أيضا عن ابن جزي لكل ذكر خاصية وثمرة فأما التهليل فثمرته التوحيد أعني التوحيد الخاص فإن التوحيد العام حاصل لكل مسلم وأما التكبير فثمرته التعظيم والإجلال لذي الجلال وأما الحمد والأسماء التي معناها الإحسان والرحمة كالرحمٰن والرحيم والكريم والغفار وشبه ذلك فثمرتها ثلاث مقامات وهي الشكر وقوة الرجاء والمحبة فإن المحسن محبوب لا محالة وأما الحوقلة والحسبلة فثمرتها التوكل على الله والتفويض إلى الله والثقة بالله وأما الأسماء التي معناها الاطلاع والإدراك كالعليم والسميع والبصير والرقيب وشبه ذلك فثمرتها المراقبة وأما الصلاة على النبي ﷺ فثمرتها شدة المحبة فيه والمحافظة على اتباع سنته ﷺ وأما الاستغفار فثمرته الاستقامة والمحافظة على شروط التوبة مع انكسار القلب بسبب الذنوب المتقدمة ثم إن ثمرات الذكر بجميع الأسماء والصفات مجموعة في الذكر الفرد وهو قولنا الله الله فذلك هو الغاية وإليه المنتهى. وتقدم هذا الكلام في الاسم الأعظم وأنه قد جمع معاني الأسماء وأن الكلمة المشرفة قد جمعت معاني الأذكار ومدلولها الصريح التوحيد انظر بقية كلامه ففيه درجات التوحيد. وقد قلت:

الإيمان أعلى منن المنان   وهذه مراتب الإيمان
الأول إيمان ذوي النفاق   في سوق الأخرى ليس ذا نفاق
فهو باللسان دون القلب   للنفع في الدنيا فقط ذو جلب
إذ حقن الدم به والمال صين   والثاني إيمان عموم المومنين
بالقلب واللسان قد يحقق   لكن بمقتضاه ما تخلقوا
وثمرة اليقين ليست تظهر   عليهم فمعه جل دبَّروا
رجوا سواه وتجرؤوا على   خلاف أمره ونهيه علا
ثمت إيمان المقربينا   لثالث المراتب استبينا
فغالب عليهم استحضار   عقائد الإيمان فاستناروا
فشاهدوا الأشياء كلا لم تزل   صادرة من عين قدرة أزل
فظهرت ثمرة ذلك فلم   يعولوا على سوى مولي النعم
وما ارتجوا وما اختشوا لذلك   من هو مملوك له لا مالك
ولم يحبوا غيره فالمحسن   هو ولم يعترضوا إذ أيقنوا
بأنه الحكيم جل ولدار   الاخرى سعوا لعلمها دار القرار
رابع هذا المقصد الوحيد   إيمان من فني في التوحيد
وفي المشاهدة كان استغرفا   في عين بحر وحدة قد غرقا
لم ير غير الحق لا يرى السوى   إن يره فكالهباء في الهوا
ويحصل المقام ذا وينقطع   كما به من نقل عليش قطع

الثامنة : سئل الهيتمي عن حكم الموالد والأذكار التي يفعلها كثير من الناس في هذا الزمان هل هي سنة أم فضيلة أم بدعة ؟ فأجاب بقوله : الموالد والأذكار التي تفعل عندنا أكثرها مشتمل على خير كصدقة وذكر وصلاة وسلام على رسول الله ﷺ ومدحه وعلى شر بل شرور لو لم يكن منها إلا رؤية النساء للرجال الأجانب وبعضها ليس فيها شر لكنه قليل نادر ولاشك أن القسم الأول ممنوع للقاعدة المشهورة المقررة إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح فمن علم وقوع شيء من الشر فيما يفعله من ذلك فهو عاص آثم وبفرض أنه عمل في ذلك خيرا فربما خيره لا يساوي شره ألا ترى أن الشارع ﷺ اكتفى من الخير بما تيسر وفطم عن جميع أنواع الشر حيث قال : (إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم

وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) فتأمله تعلم ما قررته لك من أن الشر وإن قل لا يرخص في شيء منه والخير يكتفى منه بما تيسر، والقسم الثاني سنة تشمله الأحاديث الواردة في الأذكار المخصوصة والعامة كقوله ﷺ : (لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده) رواه مسلم وروى أيضا أنه ﷺ قال لقوم جلسوا يذكرون الله تعالى ويحمدونه على أن هداهم للإسلام (أتاني جبريل عليه الصلاة والسلام فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة) وفي الحديثين أوضح دليل على فضل الاجتماع على الخير والجلوس له وأن الجالسين على خير كذلك يباهي الله بهم الملائكة وتنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة ويذكرهم الله تعالى بالثناء عليهم بين الملائكة فأي فضائل أجل من هذه إلى أن قال : وحيث حصل في ذلك الاجتماع لذكر أو صلاة تراويح أو نحوها محرمٌ وجب على كل ذي قدرة النهي عن ذلك وعلى غيره الامتناع من حضور ذلك وإلا صار شريكا لهم ومن ثم صرح الشيخان بأن من المعاصي الجلوس مع الفساق إيناسا لهم.

التاسعة : في الخاتمة عن سيدي زروق أساس الأوراد كلها أن يكون عملك كله لله سواء كان عادات أو عبادات فإن النية إكسير الأعمال ومن لم ينقل قدميه إلا حيث يرجو ثواب الله قل أن يقع في محظور وأعدل أوراد الضحى ست ركعات كما في حديث أنس وعلي وهما في الترمذي وأشارت إليه عائشة رضي الله عنها في مسلم، وقبل الظهر أربعا وبعدها ركعتين كما صح من فعله ﷺ وكره ابن المبارك أن تتبع الصلاة بمثلها وقبل العصر أربعا وبعد المغرب ركعتين كما صح ومن اليل ثلاث عشرة أولها ركعتان خفيفتان وآخرها الوتر بواحدة.

العاشرة : في المفيد : حكى الشعراني عن بعض القوم ما نصه : رأيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله صلى الله عليك وسلم صلوات الله على من صلى عليك عشر مرات هل ذلك لمن كان حاضر القلب ؟ قال لا بل هي لكل مصل علي غافلا ويعطيه الله أمثال الجبال تدعو له وتستغفر له وأما إذا كان حاضر القلب فيها فلا يعلم ذلك إلا الله تعالى. وقال القدامسي : اعلم أن جميع الأذكار لا تفيد صاحبها ولا تقبل إلا مع حضور القلب إلا تلاوة القرآن والصلاة على النبي ﷺ

فإنهما يقبلان مع عدم حضور القلب. «**وابدأ بالاستغفار**» قال عطاء السلمي : لا ينبغي لمن ظلم نفسه أن يذكر الله تعالى إلا بعد التوبة والاستغفار فإن الله تعالى يلعن الظالم إذا ذكره مادام مصرا على الظلم. قال الشعراني : وهذا يؤيد ما ذهب إليه القوم من التوبة كلما أرادوا أن يذكروا ربهم احتياطا لنفوسهم لاحتمال ظلمهم لها ولو بارتكاب المكروه أو غفلة عن ربهم أو خاطر مذموم. المناوي : قيل لبعض الكاملين أيما أفضل التسبيح أو التكبير أو الاستغفار ؟ فقال : الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون منه إلى البخور. وفي كشف القناع : من خطر له أنه مستغن عن الاستغفار في وقت من الأوقات فهو جاهل ويتأكد كثرته على العبد كلما اعتقد الناس فيه الخير وهو في السر على خلاف ذلك وكان بعضهم يقول مادام للعبد سريرة يفتضح بها في الدنيا والآخرة لو كشف فاللائق به كثرة الاستغفار والخوف فإذا تخلق بما ظنه الناس فيه كان له حكم آخر وينبغي أن يكون الاستغفار ختاما لجميع الأعمال ليكون جبرا لما فيها من النقص. انتهى باختصار. «**والصلاة على دليلنا إلى الخيرات**» محمد ﷺ.. ففي الخاتمة : قال في الأجوبة الناصرية : اعلم أن طريق أشياخي هي جعل الأوراد كلها وردا واحدا وهو الهيللة التي هي الذكر الأعظم بعد التوطئة له بتقديم الاستغفار والصلاة على النبي المختار ويتركون ما سواه من الأحزاب والوظائف والدعوات إلا الصلاة على النبي المختار ﷺ وتلاوة القرآن. وقال الشيخ زروق ردا على بعض المبتدعة ما نصه : وأما هجرانهم الصلاة على حبيب الله ﷺ فمن أسباب الحرمان ومبادىء ضعف الإيمان وفقدان الإيقان وكيف يهجر عمل بدأ الله فيه بنفسه وثنى بملائكته وخاطب به جميع العالمين من المومنين والمسلمين فقال جل وعلا : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبيء يٰأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ قال العلماء رضي الله عنهم فهذه الخاصية لا توجد في عمل سواها ولذلك ورد أن كل الأعمال فيها مقبول ومردود إلا الصلاة عليه ﷺ وجاء في الصحيح أن من صلى عليه ﷺ واحدة صلى الله عليه وملائكته عشرا قال ابن عطاء الله رضي الله عنه ومن صلى عليه الله صلاة واحدة كفاه الله هم الدنيا والآخرة فكيف بمن

صلى عليه عشرا. وقد أشار عليه الصلاة والسلام لذلك في حديث أبي رضي الله عنه حيث قال اجعل صلاتي كلها عليك قال (إذا تكفى همك ويغفر ذنبك...) الحديث. وقد أمر سبحنه بتعزيره ﷺ وتوقيره مقرونا بتسبيحه تعالى فدل على عظم ذلك وأنه في الخاصية مساوٍ له أو قريب منه وقال ﷺ (الصلاة علي نور في القلب ونور في القبر ونور على الصراط) وهذه الأنوار هي مطالب العقلاء فضلا عن المريدين فإلى أين يعدلون عنها والله لا يعدل عنها إلا مخذول لا عبرة به ولا همة له، وقال شيخنا أبو العباس الحضرمي رضي الله عنه في وصيته التي كتب لي بها يوم وداعه الأول : وعليك بكثرة الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ فهي سلم ومعراج وسلوك إلى الله تعالى إذا لم يلف الطالب شيخا مرشدا انظر بقيته. المناوي : قال البارزي في الخصائص : من خواصه أنه ليس في القرآن ولا غيره صلاة من الله على غيره فهي خصيصة اختصه الله بها دون سائر الأنبياء، قال الحليمي : والمقصود بالصلاة عليه التقرب إلى الله بامتثال أمره وقضاء حق الواسطة الكريمة، وقال ابن عبد السلام : ليست صلاتنا عليه شفاعة له فإن مثلنا لا يشفع له لكن الله أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا وفائدة الصلاة ترجع إلى المصلي عليه، قال ابن حجر : ويتأكد الصلاة عليه ﷺ في مواضع ورد فيها أخبار صحيحة خاصة أكثرها بأسانيد جياد عقب إجابة المؤذن وأول الدعاء وأوسطه وآخره وفي أوله آكد وفي آخر القنوت وفي أثناء تكبير العيد وعند دخول المسجد والخروج منه وعند الاجتماع والتفرق وعند السفر والقدوم منه والقيام لصلاة اليل وختم القرآن وعند الهم والكرب والتوبة وقراءة الحديث وتبليغ العلم والذكر ونسيان الشيء، وورد أيضا في أحاديث ضعيفة عند استلام الحجر وطنين الأذن والتلبية وعقب الوضوء وعند الذبح والعطاس، وورد المنع منها عندهما أيضا. وفي نور البصر النهي عنها في كل مقام ينافي التعظيم كاللعب في الأعراس وغيرها. وفي ابن حمدون : من أسمج العوائد ما يفعله أصحاب الملاهي في العود ونحوه من ابتدائهم الموازين أو بعضها بثناء على الله تعالى أو أمداح نبوية أو صلاة على المصطفى ﷺ أو ختمهم بأدعية فإنهم إن أرادوا بذلك استحلال ما حرم الله من تلك الآلات فقريب من الكفر والعياذ بالله وإن أرادوا تكفير ما فيه من الوزر فجهل عظيم بل هو إلى الاستهزاء أقرب فيزداد الإثم من جهة استعمال ما وضع للتعظيم في غير محل التعظيم. وفي الخاتمة : من اتخذ وردا بغير شيخ فهو غار مغرور

وَادُبْ بِآدَابِ الصَّلَاةِ وَاحْتَمِ مِن لَحْنِهِ فَهْوَ مِنَ ٱلْمُحَرَّمِ

إلا الصلاة على النبي ﷺ والمسبعات العشر وهي تكفي عن جميع الأوراد والدعاء بالأسماء الحسنى فإن هذا لا يحتاج إلى إذن إلى أن قال : ثم إن الذي لابد فيه من الأخذ من الشيخ إنما هو الورد وهو الذكر بأذكار معلومة على هيئة مخصوصة لتطهير القلب وإيراد المعارف عليه وأما الذكر بمجرد قصد الثواب والأجر فلا يحتاج إلى الأخذ.. ثم قال قال الهيتمي : ومن يريد التبرك يجوز له الأخذ من مشائخ متعددين ومن يريد السلوك والتربية يحرم عليه الخروج عن شيخه بل لا رخصة عندهم للشيخ الثاني إذا علم أن لمريد الأخذ عنه أستاذا كاملا بل يامره بالرجوع لأستاذه.

فائدة : في المفيد : قال صاحب كتاب النورين والحيلة في الجواز على الصراط أن يكون حسن الظن بالله تعالى وأن يكثر الصلاة على رسول الله ﷺ وأن يكون جلوسه مستقبل القبلة إلا في الخلاء وأن يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلها واحدا وربا شاهدا ونحن له مسلمون أربع مرات خلف الفرائض فمن فعل ذلك جعل له الصراط أربعة أذرع في عرض أربعة أذرع. «**وادب**» أي تأدب أدب كحسن «**بآداب الصلاة**» كالطهرين والاستقبال والحضور والسواك «**واحتم من لحنه فهو من المحرم**» قال في المشرب : للذكر آداب كثيرة منها آداب سابقة عليه وآداب مقارنة وآداب لاحقة ثم منها ظاهرة ومنها باطنة فمن الآداب السابقة تصحيح التوبة وتهذيب النفس بالرياضة وقطع العلائق الظاهرة والباطنة والاعتزال وتحصيل العلم المفروض على الأعيان وطهارة الملبس من النجاسة ومن الحرام وأكل الحلال ومن الآداب المقارنة أن يخلص ذكره لله تعالى لا يشوبه بحظ من نيل مال ولا جاه ولا رياسة ولا مقام ولا درجة ولا كشف ولا غير ذلك وأن يطيب رائحة المجلس والملبس لأن مجالس الذكر لا تخلو من الملائكة ومومني الجن وأن يستاك ويستقبل القبلة ويجلس جلسة التشهد أو متربعا قالوا وينبغي إن لم يكن في جماعة أن يكون في خلوة مظلمة لا منفذ لها ويغمض عينيه وإن كان تحت نظر شيخ أن يتخيله بين عينيه وينوي الاستمداد منه وأن الشيخ مستمد من النبي ﷺ وأن يختار من الذكر ما يناسب حاله فإن

ذكر لا إله إلا الله فليذكرها بتعظيم وحضور وينوي بالنفي نفي كل ما سوى الله تعالى كائنا ما كان ليحصل له التخلي عن كل ما سوى الله تعالى وينوي بإلا الله إيصالها إلى القلب اللحمي الصنوبري الشكل ليتمكن في القلب ويسري في جميع الأعضاء ومن الآداب أن يحسن التلفظ بها فيمد لا بقدر الحاجة ومن الناس من كره مدها كثيرا ليلا يموت بين النفي والإثبات ومنهم من قال ذلك فيمن يريد الدخول في الإسلام ثم يتلفظ بالهمزة ثم يمد لام إله جدا ويحذر من مد هائه ومن تخفيف إلا ومد لامها كما يفعله العوام أهل الأغاني فذلك كله لحن وأما اسم الجلالة فإن وقف فعلى حكم الوقف والسكون هو الأصل وإن وصل كأن يقول مثلا لا إله إلا الله وحده لا شريك له فالرفع أو النصب على ما مر في إعرابها، ومن الآداب اللاحقة أن يسكت عند الفراغ من الذكر مع الخشوع والحضور متلقيا لما يرد عليه من واردات الذكر فإن الله تعالى كما جعل الرياح نشرا بين يدي رحمته المطرية جعل الذكر نشرا بين يدي رحمته الغيبية فعسى أن يرد عليه في لحظة ما يتحلى به قلبه مما لا يناله بالمجاهدة الكثيرة والرياضة الطويلة انظر بقية كلامه. وفي كنون عن علي الأجهوري أنه لابد في الجلالة من المد الطبيعي وأن تاركه لا تجزئه صلاته وكذا الذاكر لا يكون ذاكرا بتركه. وفي النشر الطيب : ينبغي للذاكر أن يشدد اللام من اسم الجلالة لئلا يؤدي إلى إسقاط إحدى اللامين لأن الحرف المشدد بحرفين ويحترز من تمكين مد الألف والزيادة على المد الطبيعي ومن حذف الألف بالكلية فلا يصح مع حذفه ذكر ولا صلاة لمن تركه عمدا اختيارا قال علي الأجهوري :

من ترك المد الطبيعي لدى ... إحرام او سلام ابطل أبدا

وذيله كَنون بقوله :

وتارك له بذكر أو قسم ... لم يُسْمَ ذاكرا وحلفه انعدم

وقد أجاب السيوطي في الحاوي بأن إحداث الألحان في الذكر بدعة لم تكن في عهد النبي ﷺ ولا أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا فعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا السلف الصالحين فإن انضم إلى ذلك تمطيط الأحرف والإشباع في غير موضعه والاختلاس في غير موضعه والترقيص والتطريب وتعويج الحنك والرأس فهذا مغن لا ذاكر وأخشى عليه أن يجاب من قبل الله باللعنة فإن

مَنْ زَادَ بَعْدَ هَا إِلٰهَ الهَاوِيَا مُهَلِّلاً أَوْ مَدَّ هَمْزَهُ بِيَا

سر الذاكر إحضار عظمة الله وهيبته في القلب بخشوع وخضوع وإعراض عما سواه والملحن في شغل شاغل عن ذلك وليعرض الإنسان على نفسه أن لو وقف شخص تحت بيته وناداه آه ياسيدي فلان وكرر ذلك بهذا التلحين والترقيص أكان يرضيه ذلك أو يعده قليل الأدب فالتأدب مع الله أولى وأحق. وقال الأخضري :

ومن شروط الذكر أن لا تسقطا بعض حروف الاسم أو تفرطا
في البعض من مناسك الشريعه عمدا فتلك بدعة شنيعه
والرقص والصراخ والتصفيق عمدا بذكر الله لا يليق
وإنما المطلوب في الأذكار الذكر بالخشوع والوقار
وغير ذا حركة نفسيه إلا مع الغلبة القويه
فواجب تنزيه ذكر الله على اللبيب الذاكر الأواه
عن كل ما تفعله أهل البدع ويقتدي بفعل أرباب الورع
وقد رأينا فرقة إن ذكروا تبدعوا وربما قد كفروا
وصنعوا في الذكر صنعا منكرا صعبا فجاهدهم جهادا أكبرا
خلوا من اسم الله حرف الهاء فألحدوا في أعظم الأسماء
لقد أتوا والله شيئا إدّا تخر منه الشامخات هدًّا
والألف المحذوف قبل الهاء قد أسقطوه وهو ذو خفاء
وغرهم إسقاطهُ في الخط وكل من يتركه فمخطي
قد غيروا اسم الله جل وعلا وزعموا نيل المراتب العلا

وقال قبل هذا :

وقال بعض السادة المتبعه في رجز يهجو به المبتدعه
ويذكرون الله بالتغيير ويشطحون الشطح كالحمير
وينبحون النبح كالكلاب طريقهم ليست على الصواب

«**من زاد بعد ها إله الهاويا**» أي الألف. قال في الشرح إنه خفف ياءه للوزن والذي يظهر لي أنه مخفف أصلا لأنه منقوص، وفي شرح الشافية للرضي ما هو كالنص في ذلك ولفظه : واتساع مخرج الألف لهواء صوته أكثر من اتساع مخرجي

عَصَى بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلْأَنَاصِي وَعَبَـدَ الإِلَـهِ بِٱلْمَعَــاصِي
كَمَا بِهِ صَرَّحَ فِي ٱلْخَزِينَهْ مَن نَوَّرَتْ كَلاَمَهُ السَّكِينَـهْ

الواو والياء لهواء صوتهما فلذلك سمي الهاوي أي ذات الهواء كالناشب والنابل. وفي المساعد : الهاوي الألف قيل لاتساع مخرجها وقيل لأنها تهوي في الفم فلا يعتمد اللسان على شيء منها. فتأمل فهو إما فاعل للنسب أو اسم فاعل. «**مهللا**» أي في حال قوله لا إله إلا الله «**أو مد همزه**» أي همز إله «**بيا**» فصار لا إيلاها أو زاد ياء بعد همزة إلا أو مد لامه فصار إيلا الله «**عصى بإجماع من الأناصي**» أي الأخيار «**وعبد الإله**» وذكره «**بالمعاصي**» وصار من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا «**كما به صرح في الخزينه**» أي خزينة الأسرار جليلة الأذكار في الخواص تاليف الحاج محمد بن علي بن إبراهيم «**من نورت كلامه السكينه**» الوقار والطمأنينة قال في البصائر : والسكينة إذا نزلت بالقلب اطمأن بها وسكنت إليها الجوارح وخشعت واكتست الوقار وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة وحالت بينه وبين قول الخنى والفحش واللغو والهجر وكل باطل.. ثم قال في الخزينة أيضا : رأيت بعض العلماء والمشائخ القادرية يذكرون الله تعالى ويوحدونه بزيادة الحروف والنقصان فقلت أنتم تذكرون الله بزيادة الحروف والنقصان فقالوا نحن أخذنا وتلقينا عن بعض مشائخنا هكذا ووصفوا أحواله فقلت لابد لنا من تطبيق قراءتنا وأذكارنا على قراءة من القراءات السبعة المتواترة أو العشرة ولم يرو عنهم مثل هذه الأذكار بالزيادة والنقصان فقبلوا وصدقوا كلامنا فحمدت الله وشكرته قال سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ديننا مبني على النقول لا على مناسبة العقول. ومن أصول الدين أن أسماء الله تعالى توقيفية لا تقبل الزيادة والنقصان.

قال في النشر الطيب : ينبغي لذاكر الهيللة أن لا يشبع حركة الهمزة من إله لئلا ينشأ عنها ياء ساكنة سكونا ميتا كما يفعله بعضهم للتمطيط والإطالة وأن يحرك هاء إله تحريكا متوسطا ولا يمطط الحركة حتى ينشأ عنها ألف كما يفعله بعضهم وكذا يقال في سائر حركاتها لأن الكسرة إذا أشبعت نشأ عنها ياء والفتحة إذا أشبعت نشأ عنها ألف والضمة إذا أشبعت نشأ عنها واو فينبغي أن يوتى بالحركة

لَابُدَّ فِي الذِّكْرِ لِكُلِّ حَرْفِ   مِن وَصِّهِ فِي مَخْرَجٍ وَوَصْفِ

متوسطة لا مختلسة ولا مشبعة «**لابد في الذكر لكل حرف من وصه**» أي إتقانه «**في مخرج ووصف**» ففي الخزينة قال بعض المشائخ : من اتخذ وردا من القرآن والأسماء فعليه أولا أن يصحح مخارج الحروف والصفات وإلا فلا يجد تأثيرا في قراءته ولا يصل إلى مطلوبه لتوقف الخصائص والأسرار على صحة المعاني المتوقفة على صحة الكلمات المتوقفة على صحة الحروف المتوقفة على صحة المخارج والصفات وكلما تغيرت الصفة اللازمة للحرف تغيرت اللغة وكلما تغيرت اللغة تغيرا فاحشا تغيرت المعاني والأسرار وفسدت الصلاة. انتهى منها باختصار. وفي شرح الشيخ الطيب : يجب الاحتراز من لحن العوام في كلمتي الشهادة. قال محشيه الوزاني : لاشك في أنه تنبغي المحافظة على حروفها ومداتها وحركاتها وسكونها وغير ذلك وكذا سائر الأذكار لاسيما إن لاحظ ذاكرها أنها من القرآن كما هو المطلوب وحينئذ يزداد أجرها وثوابها وأطلق الشارح في الوجوب والصواب التفصيل قال شارح الحصن : الكلمة المشرفة إما أن تقال على سبيل أنها من القرآن وإما أن تستعمل بقصد مطلق الذكر وإرادة معناها فقط لا على قصد التلاوة ثم لا يخلو إما أن تكون هي أول نطقه بها للدخول للإسلام أو بنية امتثال الأمر تأدية الواجب أو يراد بها مطلق الذكر وتحصيل الأجر بعد تأدية الواجب من غير قصد تلاوة فإذا قصدت التلاوة فتجري على حكم اللحن في القرآن من عمد أو سهو أو غير ذلك، وإن لم يقصدها بل أراد تأدية الواجب فيحتاط وينظر في اللحن هل يمنع من حصول المقصود أم لا وإن قصد بها مطلق الذكر فيظهر أن هذا مما يسهل الأمر فيه وليس فيه من التشديد ما في غيرها لاسيما من لم يطاوعه لسانه فإنه معذور وأجره إن شاء الله موفور. ثم قال : وفي الأجوبة الناصرية سئل رضي الله عنه هل يواخذ اللاحن في الصلاة على النبي ﷺ باللحن أم لا ؟ فأجاب : ينبغي له الإكثار منها على حسب الإمكان ولا يتركها لأجل اللحن فإنما الأعمال بالنيات ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ثم ذكر أنه سئل الشيخ المنجور عن الجماعة الذين يقول بعضهم لا إله وبعضهم إلا الله فقال لا ينبغي ولا يحرم لأن كلا حذف اعتمادا على صاحبه ولم يقل العلماء بتحريم ذلك في الأذان حيث يجتمع المؤذنون.

وفي المشرب أن الإسراع في الذكر يختلف فأما القرآن فإن المطلوب فيه الترتيل والتدبر وأما التهليل مثلا فهو بحسب الحضور وسمعت من بعض أهل هذا الطريق أنه مما يعين على الحضور أن يقول أولا لا إلٰه إلا الله بقلب حاضر ثم يتمادى مسرعا بلا فترة لئلا يدخل عليه الوسواس وهو كلام صحيح. انتهى منه.

«**وأفضل العبادة التفكر**» الغزالي : قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال : ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحٰنك فقنا عذاب النار﴾. قال سيدي زروق : الفكرة هي استعمال القوة في طلب العلم من وجهه بطريقه. وقال الغزالي : الفكر هو إحضار معرفتين في القلب لتستمد منهما معرفة ثالثة مثال ذلك أن يعرف أن الأبقى أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فتحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أولى بالإيثار فإحضار المعرفتين السابقتين للتوصل إلى الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا ونظرا وتدبرا... إلى أن قال : وثمرة الفكر العلوم والأحوال والأعمال وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب من حب الدنيا والأمن مثلا إلى الزهد والإقبال على عمل الآخرة وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر فالفكر إذن هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأن في الفكر ذكرا وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل بما فيه من الذكر فإذن التفكر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل : تفكر ساعة خير من عبادة سنة. قال سري السقطي ما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك وتجعلها في الآخرة. وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو هو، وقيل لأم الدرداء : ما كان عمل أبي الدرداء ؟ قالت : التفكر، وقال الحسن : الفكر مرآة تريك حسنك من سيئك. وقال ابن عباس رضي الله عنه : ركعتان مع تفكر وتدبر خير من قيام ليلة كاملة والقلب ساه عن الله تعالى. قال الشعراني : والمراد بالتفكر هنا تفكره

في الآداب المتعلقة بحضرة الله تعالى لا التفكر في استنباط الأحكام فإن الصلاة ليست بمحل ذلك. قال الفخر : دلت الآيات على أن أعلى مراتب الصديقين التفكر قال مالك : وهو من الأعمال وهو من اليقين. ابن رشد وهو من أشرف الأعمال لأنه من أعمال القلوب التي هي أشرف الجوارح ألا ترى أنه لا يثاب أحد على عمل إلا مع مشاركة القلوب له بإخلاص النية والفكر يجري في أربعة أنواع معاص وطاعات وصفات مهلكات وصفات منجيات أما المعاصي فينبغي للعبد أن يفتش صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها بنهاره فليستعد للاحتراز والتباعد منها وأما الطاعات فينظر أولا في الفرائض كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يتفكر في أفعال كل عضو وأما المهلكات فإن ظن أن قلبه منزه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فإن النفس أبدا تعد بالخير من نفسها وتخلف وأما المنجيات فيتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يفوته من هذه الصفات المقربة إلى الله تعالى، وقال في الدرر الجوهرية : وللفكرة ابتداء ووسط وغاية فالابتداء استعمالها في تذكر التبعات ورد الظلامات وتذكر أفعاله القبيحة ليندم ويعزم على أن لا يعود لأن من لا توبة له لا عمل له وإن عمل من البر ما عمل والتوسط التفكر في إنعام الله تعالى بالجود على الوجود والغاية التفكر في دقائق المعارف الربانية والعلوم اللدنية التي بها يلج القلب حضرة القدس ويخلع عليه فيها خلعة الأنس حيث المشاهدة والمفاتحة والمواجهة والمطالعة والمكالمة والمنادمة بلذيذ الخطاب عند رفع الحجاب. والجمع بين حديث (تفكر ساعة خير من عبادة سنة) وبين حديث (تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة) أن الأول التفكر في الموت وما بعده والثاني التفكر في الأمور الرفيعة كالسماء والأرض والعرش والكرسي وسائر العوالم وفي قدرة الله تعالى وإرادته وتعلقهما بالممكنات وفي علمه وتعلقه بكل موجود ومعدوم وغير ذلك من عجائب المخلوقات ولاشك أن التفكر في هذه الأشياء أعلى وأفضل من التفكر في الموت وما بعده فالمتفكر فيه إن كان عاليا فيضاعف ثوابه وإن كان أدنى فأدنى قال تعالى : ﴿إن في خلق السموات...﴾ الآية وفي الحديث (ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها) وروي (ويل لمن لاكها بين فكيه و لم يتأملها) وقيل لا تتفكر في ثلاث في فقرك

فيكثر همك وغمك ويكثر حرصك ولا في ظلم من ظلمك فيغلظ قلبك ويكثر حقدك ويدوم غيظك ولا في طول البقاء في الدنيا فتحب الجمع وتضيع العمر وتسوف العمل، وقال مكحول : من أوى إلى فراشه ينبغي أن يتفكر فيما صنع في يومه فإن عمل خيرا حمد الله وإلا استغفر ورجع عن قريب فإن لم يفعل ذلك كان كالتاجر الذي ينفق ولا يحسب حتى يفلس ولا يشعر. انتهى ملفقا من الخاتمة.

المناوي : قال الروذباذي : التفكر على أربعة أنحاء فكرة في آيات الله وفكرة في خلقه وعلامتها تولد المحبة وفكرة في وعد الله بثواب وعلامتها تولد الرغبة وفكرة في وعيده بالعذاب وعلامتها تولد الرهبة وفكرة في جفاء النفس مع إحسان الله وعلامتها تولد الحياء من الله. ابن جزي : التفكر ينبوع كل حال ومقام فمن تفكر في عظمة الله اكتسب التعظيم ومن تفكر في قدرته استفاد التوكل ومن تفكر في عذابه استفاد الخوف ومن تفكر في رحمته استفاد الرجاء ومن تفكر في الموت وما بعده استفاد قصر الأمل ومن تفكر في ذنوبه اشتد خوفه وصغرت عنده نفسه. «**وخيره الفنا**»ء في الواحد الحق فهو «**المقام الأكبر**» فمطلب الصديقين هو التنعم بالفكر في جلال الله وجماله واستغراق القلب فيه بحيث يفنى عن نفسه أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب.

هذا وقد أجاد هذا الناظم محمد مولود رحمه الله تعالى في نظمه في التفكر إذ يقول :

حمدا لمن خلق للعباده ... لنفعهم لا نفعه عباده

وليس للإنسان غير جده ... الان ألا إلا دهٍ فلا ده[4]

هذا وإذ غلب شغل وكسل ... فمل لأيسر وأفضل العمل

كالفكر والتوب وإنماء النيه ... وعمل القلب العلي الأبنيه

فاذكره جل وعلا في كل حال ... وبحجا ومقول حتى يقال

فاذكره عند نهيه والأمر ... واغد ورح وأدلجن وأكر[5]

---

(4) قولهم إلا دهٍ فلا دهٍ أي إن لم يكن هذا الأمر الآن فلا يكون بعد الآن أي إن لم تغتنم الفرصة الساعة فلست تصادفها أبدا. من القاموس.

(5) أكرى سهر في طاعة الله.

فصـــل

هَذَا وَلَمَّا كَـانَتِ الْخَوَاطِـرُ مَنْبَعَ الأَعْمَالِ وَمِنْهَـا الآمِـرُ

والفكـر كل عمـل عــلاه وسعـر سعيك على أعـــلاه
يجب في الــواجب والمنحظـر والمنجيـات الغـر والنهابـر
ونفله ضربـان ما تـدري بـه غـر العدى كخنزب وحزبـه
وما مضى من حسنات وذنوب فتشكـر الله تعـالى وتتـوب
وفي تنعـم غـدٍ وكربـه لجره رجـا وخـوف ربـه
جعـل جـل الأنبيـاء خـالصين لكونهم بالدار الاخرى مذكرين
والثـان في صفاتـه تـعلى فادكـر الجلال والكمـــالا
وصنعــه وجريــان قـدره فيما يشا أحب عبد أم كـره
إذ تـكثر العلـوم والمعـارف بحسبــه وكل سعــي يشرف
بقـدر مـا يفيـده مقترفـه وهـو يفيـد حبـه والمعرفـه
فساعـة منـه وبلـه مدمنـه أفضل من دعـاء سبعين سنـه
وفي الردى وفي توابـع الـردى فـاق دعـاء سنـة تعبـدا

«**فصل**» في خواطر القلب جمع خاطر وهو فكر يعرض للقلب بعد أن كان خاليا منه وذكر لما تقدم للقلب فكر فيه ثم ذهل عنه، قاله ابن زكري. قال في العوارف قال بعضهم : معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة لأن الخواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه وبذلك يُعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان فلا يصح الفعل إلا بصحتها فصار علم ذلك فرضا حتى يصح الفعل من العبد لله. ابن زكري : الخواطر هي الحركة للإرادات فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة فمبدأ الأفعال الخواطر ثم الخاطر يحرك الرغبة والرغبة تحرك العزم والعزم يحرك النية والنية تحرك الأعضاء ولذا قال رحمه الله تعالى : «**هذا ولما كانت الخواطر منبع الأعمال**» ومنشأها قال في الإحياء : لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكا والسبب الداعي إلى الشر يسمى شيطانا واللطف الذي به يتهيأ القلب لقبول إلهام الخير

بِالْخَيْرِ ظَاهِراً وَمَنْ تَأَمَّــلاَ   عَلِـمَ أَنَّــهُ يُرِيــدُ البَاطِــلاَ
إِن كَانَ حَاذِقاً بِفَرْقِ اللَّمَّتَيْنْ   وَمُتْقِنــاً لِوَزْنِهَــا بِالكَفَّتَيْــنْ

يسمى توفيقا والذي يتهيأ به لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواء وخذلانا فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسام مختلفة والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف وقد خلقه وسخره لذلك والشيطان عبارة عن خلق شأنه ضد ذلك وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير بالفقر والوسوسة في مقابلة الإلهام والشيطان في مقابلة الملك والتوفيق في مقابلة الخذلان وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها، «**ومنها الآمر بالخير ظاهرا ومن تأملا علم أنه**» أي ذلك الخاطر الآمر بالخير ظاهرا «**يريد الباطلا**» فربما يكون خاطر الشيطان بالخير مكرا واستدراجا وكذا هوى النفس أيضا قد يدعو إلى الخير والمقصود منه شر كما في المنهاج عن بعض السلف. «**إن كان**» من تأمّل «**حاذقا**» أي ذا مهارة «**بفرق اللمتين**» أي بالفرق بين لمة الشيطن ولمة الملك الواردتين في حديث رواه الترمذي والنسائي في الكبير وابن حبان ولفظهم كما في شرح الإحياء : (إن للشيطن لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطن فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطن الرجيم ثم قرأ ﴿الشيطن يعدكم الفقر ويامركم بالفحشاء﴾) والرواية الصحيحة إيعاد في الموضعين وهو وإن كان مختصا بالشر عرفا إلا أنه استعمله في الخير للازدواج والأمن من الاشتباه بذكر الخير بعده. واللمة بالفتح فعلة من الإلمام بمعنى النزول والمراد بها ما يقع في القلب بواسطة الشيطن أو الملك قال في شرح الإحياء : والتمييز بين اللمتين لا يهتدي إليه أكثر الناس وإنما يتشوف إلى معرفتهما وتمييز الخواطر طالب مريد يتشوف إلى ذلك كتشوف العطشان إلى الماء لما يعلم من وقع ذلك وخطره وصلاحه وفساده ويكون ذلك عبدا مرادا بالحظوة بصفو اليقين ومنح الموقنين وأكثر التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخذ في طريق

الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه قد يكون على قدر الهمة والطلب والإرادة والحظ من الله الكريم ومن هو في مقام عامة المسلمين والمومنين لا يتطلع إلى معرفة اللمتين ولا يهتم بتمييز الخواطر. وفي القشيري اتفق المشائخ على أن من كان أكله من الحرام لم يفرق بين الإلهام والوسواس. «و» كان «**متقنا لوزنها**» أي الخواطر «**بالكفتين**» أي كفتي ميزان الشرع والكفة بالكسر وتفتح «**وكان**» عطف على كانت الخواطر «**من مكائد الخناس ضرب لأخماس إلى أسداس**» من أمثالهم فلان يضرب أخماسا لأسداس أي يسعى في المكر والخديعة وقيل يضرب لمن يظهر شيئا ويريد غيره لأن الرجل إذا أراد سفرا بعيدا عود إبله أن تشرب خمسا سدسا وضرب بين أي يظهر أخماسا لأجل أسداس أي رقى إبله من الخمس إلى السدس فللشيطن تحت الخير تلبيسات ومخادعات لا تتناهى وبها تهلك العلماء والعباد والزهاد والفقراء والأغنياء وأصناف الخلق ممن يكرهون ظاهر الشر ولا يرضون لأنفسهم الخوض في المعاصي الظاهرة للناس فقد استهالهم بتلك الخدع واستولى على قلوبهم فعميت بها أبصارهم. وذكر في الإحياء جملة من مكائده في كتاب الغرور، ومن جملة مكائده أن يعرض الشر في معرض الخير والتمييز في ذلك صعب إلا على العارفين بمكائده وأكثر العباد به يهلكون فإن الشيطن لا يقدر على دعائهم إلى الشر الصريح فيصور الشر ويلقيه بصورة الخير كما يقول للعالم بطريق الوعظ أما ترى الخلق هلكى من الغفلة موتى من الجهل فارحمهم بنصح وعظك فلايزال يستجره بلطائف الحيل إلى أن يشتغل بوعظ الناس ثم يدعوه إلى أن يتزين لهم بتحسين اللفظ ونحوه ويقول له إن لم تفعل ذلك سقط وقع كلامك من قلوبهم فلايزال يقرر ذلك عنده وهو في أثنائه يؤكد فيه شوائب الرياء وقبول الخلق ولذة الجاه والتعزز بكثرة الأتباع والعلم والنظر إلى الخلق بعين الاحتقار فيستدرج المسكين بالنصح إلى الهلاك فيتكلم على العامة وهو يظن أن قصده الخير وإنما قصده الجاه والقبول فيهلك بسببه وهو يظن أنه عند الله بمكان عظيم وهو ممن قال فيهم رسول الله ﷺ (إن الله ليؤيد هذا الدين بقوم لا خلاق لهم) رواه النسائي من حديث أنس بإسناد جيد وقال (إن الله ليؤيد هذا الدين

وَالْحَرْبُ خِدْعَةٌ وَأَعْدَى الأَعْدَا   لَكَ ضَرِيرُكَ تَشِي لَكَ الدَّا
وَأْمِـــرَ العَامِـــلُ بِالتَّثَـــبُّتِ   وَزِنَـــةِ الْخَاطِـــرِ بِالشَّرِيعَـــةِ

بالرجل الفاجر) متفق عليه من حديث أبي هريرة انظر الاحياء وشرحه. «و» في حديث متفق عليه «(**الحرب خدعة**)» مثلثة وكهمزة وروي بهن جميعا كما في القاموس، التاج الفتح أفصح أي ينقضي أمرها بخدعة واحدة. المناوي أي هي خدعة واحدة من تيسرت له حق له الظفر انظر بقية الأوجه فيهما. قال في الإحياء : ومهما غلب على القلب ذكر الدنيا بمقتضيات الهوى وجد الشيطن مجالا فوسوس ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشيطن وضاق مجاله وأقبل الملك وألهم الخير. والتطارد بين جندي الملائكة والشيطن في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما فيتمكن ويستوطن ويكون اجتياز الثاني اختلاسا وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة واطراح الآخرة. «**وأعدى الأعدا لك ضريرك**» أي نفسك «**تشي**» من الوشي أي تحسن وتزين «**لك الدا**» وإن هما محضاك النصح فاتهم.. فالنفس أضر الأعداء وبلاؤها أصعب البلاء وعلاجها أعسر الأشياء وداؤها أعضل الأدواء ودواؤها أشكل الدواء وإنما ذلك لأن العدو حقيقة من سعى في ذهاب آخرتك أو نقصها وإن حصل بذلك صورة نفع في دنياك ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولياءنا وأصدقاءنا لأنهم سعوا في عمارة آخرتنا دون الشيطن والنفس فإنهما سعيا في إفسادها ولأنها عدو من داخل واللص إذا كان من داخل البيت عزت الحيلة فيه وعظم الضرر ولأنها أيضا عدو محبوب والإنسان عمٍ عن عيب محبوبه ولأنها أيضا مجمع الشهوات والمفاسد كحب الدنيا وخوف الخلق وهم الرزق والحسد والكبر والحقد والرياء وغير ذلك من عيوبها ولذا كانت أضر الأعداء وأعداها وهي أيضا أعدى من الشيطن وإنما يقوى عليك بها ولذلك قيل إن النفس كالنمر لا يردها إلا القهر القوي والشيطن مثل الذئب إن أخرجته خرج ثم ياتي من موضع آخر. انظر الخاتمة. «**وأمر العامل بالتثبت**» واتهام النفس قال تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ... الآية﴾ قال في العوارف : ظاهر الآية وسبب نزولها ظاهر وصار ذلك تنبيها من الله عباده على التثبت في الأمور،

وَعِلْمِ مَيْزِ الأَصْدِقَا مِنَ العِدَى   لأَنَّ جَهْلَـهُ يَجُرُّ لِلـرَّدَى
أَبْوَابُهُ لِلْقَلْبِ جَمَّـةٌ وَبَـابْ   الأَمْلاَكِ وَاحِدٌ فَخِيفَ الِاحْتِجَابْ

قال سهل في هذه الآية : الفاسق الكذاب والكذب صفة النفس لأنها تملي أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها فتعين التثبت عند خاطرها وإلقائها فيجعل العبد خاطر النفس نبئا يوجب التثبت ولا يستفزه الطبع ولا يستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة ومن الأدب عند الاشتباه إنزال الخاطر بمحرك النفس وخالقها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والفاقة إليه والاعتراف بالجهل وطلب المعرفة والمعونة منه فإنه إذا أتى الأدب يغاث ويعان ويتبين له هل الخاطر لطلب حظ أو طلب حق فإن كان للحق أمضاه وإن كان للحظ نفاه وهذا التوقف إذا لم يتبين له الخاطر بظاهر العلم لأن الافتقار إلى باطن العلم عند فقد الدليل في ظاهر العلم. «**وزنة الخاطر بالشريعة**» أي بميزانها لئلا يهلك من حيث لا يحتسب فما كان نفلا أو فرضا يمضيه وما كان محرما أو مكروها ينفيه وسياتي ما إذا استوى الخاطران في نظر العلم «**وعلم**» أي وأمر بمعرفة «**ميز الأصدقا من العدى**» أي تمييز خاطر الخير من خاطر الشر «**لأن جهله يجر للردى**» قال في الإحياء : فحق على العبد أن يقف عند كل هم يخطر له ليعلم أنه من لمة الملك أو لمة الشيطان وأن يمعن النظر فيه بنور البصيرة لا بهوى من الطبع ولا يطلع عليه إلا بنور التقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال تعالى : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطن تذكروا﴾ أي رجعوا إلى نور العلم ﴿فإذا هم مبصرون﴾ أي ينكشف لهم الإشكال فأما من لم يَرُضْ نفسَه بالتقوى فيميل طبعه إلى الإذعان لتلبيسه بمتابعة الهوى فيكثر فيه غلطه ويتعجل فيه هلاكه وهو لا يشعر وفي مثلهم قال سبحنه وتعالى : ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ قيل هي أعمال ظنوها حسنات فإذا هي سيئات وأغمض أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكائد الشيطن وذلك فرض عين على كل عبد وقد أهمله الخلق. انظر بقيته. «**أبوابه للقلب**» أي الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطن «**جمة**» أي كثيرة «**وباب الاملاك**» من هذه الأبواب باب «**واحد فخيف الاحتجاب**» لهذا الباب الواحد والتباسه بهذه الأبواب الكثيرة فلا يهتدى له. قال

وَبَيَّنَ القَوْمُ الفُرُوقَ رُمْتُ تَلْخِيصَهَا مُخْتَصِراً فَقُلْتُ
أَرْبَعَةٌ خَوَاطِرُ الجَنَانِ رَبِّي وَنَفْسِي مَلَكِي شَيْطَانِي

في الإحياء : فأهل التقوى لا يتعذر عليهم سد أبواب الشيطٰن وحفظها بالحراسة أعني الأبواب الظاهرة والطرق الجلية التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة وإنما يتعثرون في طرقه الغامضة فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها كما أشرنا إليه في غرور العلماء والوعاظ والمشكل أن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطٰن كثيرة وباب الملائكة باب واحد وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في بادية كثيرة الطرق غامضة المسالك في ليلة مظلمة فلا يكاد يعلم الطريق إلا بعين بصيرة أو طلوع شمس مشرقة والعين البصيرة هاهنا القلب المصفى بالتقوى والشمس المشرقة هو العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فبهما يهتدى إلى غوامض طرقه وإلا فطرقه كثيرة غامضة والمراد بالعلم هنا هو علم المعرفة المخصوص به المقربون وقال ابن مسعود خط لنا رسول الله ﷺ يوما خطا وقال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمين الخط وشماله ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قال : ﴿وأن اهذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ أي لتلك الخطوط فبين ﷺ كثرة طرقه. انتهى بزيد قليل من شرحه. وانظر ما سياتي إن شاء الله تعالى عند قوله وسد الأبواب التي إلخ. «**وبين**» عطف أيضا على كانت «**القوم الفروق**» بينها «**رمت تلخيصها**» تصفيتها وتبيينها حال كوني «**مختصرا**» الاختصار الإتيان بالمعنى الكثير في اللفظ القليل ومثله الايجاز وهو ممدوح في مقام يناسبه كما أن ضده وهو الإطناب ويقال له الإسهاب ممدوح في محل يقتضيه «**فقلت أربعة خواطر الجنان ربي ونفسي ملكي شيطاني**» بتخفيف ياء النسب في الأربعة وهو لغة وبحذف العاطف في الأخيرين، وفي العوارف أن الأخيرين أصل للأولين فأصل خواطر الحق لمة الملك وخواطر النفس نتيجة لمة الشيطٰن فأصلها لمتان وينتجان أخريين ويندرج فيهما خاطر اليقين والعقل. القشيري : الخواطر خطابات ترد على الضمائر فقد يكون الخطاب بإلقاء ملك أو إلقاء شيطان أو أحاديث نفس أو من الحق سبحانه فإذا كان من الملك فهو الإلهام وإذا كان من قبل النفس قيل

يَمْتَـــازُ بِالثَّبَـــاتِ الأَوَّلاَنِ وَالآخِـــرَانِ مُتَـــرَدِّدَانِ
وَإِنَّمَا يَجِيءُ خَاطِرُ الْعَلِـي عَـقِبَ الاِجْتِهَـادِ وَالتَّبَتُّـلِ

له الهواجس وإذا كان من الشيطٰن فهو الوسواس وإذا كان من الله سبحٰنه وكان إلقاؤه في القلب فهو خاطر حق وجملة ذلك من قبيل الكلام فإذا كان من الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم ولهذا قالوا كل خاطر لا يشهد له ظاهره فهو باطل وإذا كان من قبل الشيطٰن فأكثره ما يدعو إلى المعاصي وإذا كان من النفس فأكثره يدعو إلى اتباع شهوة أو استشعار تكبر. «**يمتاز بالثبات الأولان**» فهما غير متزحزحين ولا متزلزلين ووجه ذلك في الرباني هو أنه مبني على أصل ومستند إلى أساس وذلك أنه لا يكون إلا عقب اجتهاد منك وطاعة قال تعالى : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ فالمراد به توفيق العبد إلى علم أو عمل وإذا كان كذلك فلابد من وقوع ذلك التوفيق انظر ابن زكري. القشيري : قيل كل خاطر يكون من الملك فربما يوافقه صاحبه وربما يخالفه وإذا كان الخاطر من الحق سبحانه فلا يحصل من العبد خلاف له. ووجه ذلك في النفساني أن النفس تدعو إلى شهواتها فيكون غرضها فيها بخصوصها فلا ينتقل عنها. القشيري : فرق الجنيد بين هواجس النفس و وساوس الشيطٰن بأن النفس إذا طالبتك بشيء ألحت فلا تزال تعاودك ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها ويحصل مقصودها اللهم إلا أن يدوم صدق المجاهدة ثم إنها تعاودك وتعاودك وأما الشيطٰن إذا دعاك إلى زلة فخالفته بترك ذلك يوسوس بزلة أخرى لأن جميع المخالفات له سواء وإنما يريد أن يكون داعيا دائما إلى زلة ما. «**والآخران**» بكسر الخاء «**مترددان**» وذلك لأن الملكي خاطره ابتدائي لا أساس له في الأغلب وأنه كما ياتي ناصح يرغب في الخير بأي شيء فإن لم يجبه العبد إلى ما دعاه له من الخير دعاه لخير آخر وهكذا ولأن الشيطن غرضه المخالفة بأي شيء حصلت فإن لم يجبه العبد إلى ما دعاه إليه من المعصية تركه ودعاه إلى معصية أخرى وهكذا كما في ابن زكري. «**وإنما يجيء خاطر العلي**» عز وجل «**عقب الاجتهاد**» منك «**والتبتل**» أي الانقطاع للعبادة قال جل : ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ الكشاف عن أبي سليمان الداراني : معنى

تَصْحَبُهُ بُـرُودَةٌ وَلاَ نَمَـــطْ لَهُ وَلاَ وَقْتَ وَبِالشَّرْعِ ارْتَبَطْ
كَالصُّبْحِ يَزْدَادُ اتِّضَاحاً لاَ يُفَكْ بِصَارِفٍ بِعَكْسِ إِلْقَاءِ المَلَكْ
فَرُبَّمَـــا شَيْطَـــانٌ اوْ أَمَّـــارَهْ عَـارَضَهُ فَكَفَّ مَـا أَثَـارَهْ

والذين جاهدوا الآية والذين عملوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا. وعن بعضهم من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما في ابن زكري. «**تصحبه برودة**» تثلج الصدر ويتنعم بها كما في النصح الأنفع «**ولا نمط له**» واحدا ياتي عليه «**ولا وقت**» له واحدا ياتي فيه فقد قال الجيلي رضي الله عنه : الوارد الإلٰهي لا ياتي باستدعاء ولا يذهب بسبب ولا ياتي على نمط واحد ولا في وقت واحد، والطارق الشيطاني بخلاف ذلك. زروق : الواردات منح إلٰهية لا تتوقف على علة ولا على سبب ولا زمان ولا عين ولا أمد ولا وقت ولا غيره. «**وبالشرع ارتبط**» فيكون موافقا لأصل شرعي كما في القواعد لكن الأنسب لقوله الآتي : وقد يجي بشر... إلخ لو قال : وبالخير ارتبط.. وهو أيضا أكثر تعبيرهم قال في النصح الأنفع : الرباني نكتة إلهامية في توحيد خاص وهو راتب مصمم فإن لم يكن في التوحيد الخاص فهو لا ياتي إلا بالخير. وفي المنهاج وشرحه : الرباني يكون في الأصول أي في الاعتقاد والأعمال الباطنة التي هي مساعي القلوب كالتوكل والرضى والملكي في الأكثر يكون في الفروع والأعمال الظاهرة. وفي النصيحة فالرباني غالبا بالخير يريد مع تأن وعلم بالعاقبة وخوف الغوائل. والمراد من التوحيد الخاص توفيق العبد إلى علم أو عمل قاله ابن زكري. «**كالصبح يزداد اتضاحا**» قال في القواعد الرباني كالفجر الساطع لا يزداد إلا وضوحا. وفي ابن زكري عن العدة أنه كالشمس الضاحية «**لا يفك**» أي لا يصرف «**بصارف**» تقدم قريبا أنه لا يذهب بسبب وأنه راتب مصمم قال في القواعد فالرباني لا متزحزح ولا متزلزل كالنفساني ويجريان بمحبوب وغيره فما كان في التوحيد الخاص فرباني وفي مجاري الشهوات فنفساني وما وافق أصلا شرعيا لا يدخله رخصة ولا هوى فرباني وغيره نفساني «**بعكس إلقاء الملك**» أي إلهامه خيرا «**فربما شيطان او أماره عارضه**» بالنهي عنه «**فكف ما أثاره**» خاطر الملك قال الزبيدي قد تختلف اللمتان فقد يتقدم إلهام الملك بالخير ثم يقدح بعده خاطر العدو بالنهي عنه والاملاء بالتاخير عنه محنة

وَالْمَلَكِيُّ نَاصِحاً مُرَغِّبَا فِي الْخَيْرِ إِنْ أَبَيْتَ خَيْراً طَلَبَا
آخَرَ إِنْ تَابَ الصَّلَاةَ يَطْلُبِ ذِكْراً فَصُمْتاً إِن عَنِ الذِّكْرِ أُبِي
بِالذِّكْرِ يَقْوَى وَلَهُ بُرُودَهْ مَعَ انْشِرَاحٍ صَحِبَا وُرُودَهْ
وَأَبَداً لَا تَأْمُرُ الْمَلَائِكْ إِلَّا بِخَيْرٍ خُلِقُوا لِذَلِكْ

من الله تعالى للعبد لينظر كيف يعمل فعليه أن يطيع الخاطر الأول ويعصي الثاني وربما تقدمت لمة العدو بالأمر بالشر وتقدح بعدها لمة الملك نصرة للعبد وتثبيتا على الخير وعناية من الرب فينهى عن ذلك فعلى العبد أن يعصي الأول ويتبع الثاني. «و» إنما يجيء الخاطر «**الملكي ناصحا**» أي مريدا للخير مرشدا للمصالح «**مرغبا في الخير**» فيعرض عليك كل نصح رجاء إجابتك فـ«**إن أبيت خيرا طلبا**» منك خيرا «**آخر**» فيطلب منك مثلا الصلاة فـ«**إن تاب الصلاة يطلب**» منك «**ذكرا فـ**»يطلب منك «**صمتا**» بالفتح والضم أي عما يضرك «**إن عن الذكر أبي**» ولما كان الشيطن قد ياتي بخير كالملك فيشكل ذكر الفرق فالملكي ياتي بخير تعضده الأدلة و«**بالذكر يقوى**» لأنه ناصح داع إلى ما فيه مرضاة الله والذكر هو من جملة ما يدعو إليه فقد حصل به بعض مراده والناصح إذا امتثل قوله زاد في النصيحة وأكدها «**وله بروده**» في القلب «**مع انشراح صحبا وروده**» عليه وأثره كغبش الصبح وله بقاء ما بخلاف الشيطاني فإنه لا يعتضد بالدليل ويضعف بالذكر وتعقبه حرارة ويصحبه اشتعال وغبار وضيق وكزازة في الوقت وربما تبعه كسل. انظر ابن زكري. «**وأبدا لا تامر الملائك إلا بخير خلقوا**» وسخروا «**لذلك**» كما مر عن الإحياء قال الزبيدي فأما خاطر الملك فلا يرد إلا بخير صريح وبر محض على كل حال إذا ورد لأن الخداع والحيلة ليسا من وصف الملائكة ولكن قد تنقطع خواطر الملك من القلب إذا اشتدت قسوته ودامت معصيته من المبعدين فيخلى بين القلب وبين نوازغ العدو اللعين ويتخلى العدو بهوى النفس فيستحوذ ويقترن بالعبد نعوذ بالله من إبعاده ولايزال العبد مع إلهام الملك في مقام الإيمان فإذا رفع إلى مقامات اليقين تولاه الله تعالى بواسطة أنوار الروح. انظر بقية كلامه.

وَقَـدْ يَجِـي بِشَرٍّ الرَّبَّانِـي عُقُوبَةً عَقِبَ ذَنْبِ الجَانِـي
وَمَا لَهُ مِن صَارِفٍ إِلاَّ اللَّجَا مِنكَ إِلَى الَّذِي إِلَيْكَ مِنهُ جَا
وَخَاطِرُ الشَّرِّ إِذَا لَمْ يَقْتَفِ ذَنْباً فَمِنْ شَيْطَانٍ اوْ نَفسٍ يَفِي
مَثَلُ هَجْسِ النَّفْسِ ضَوْءُ المُخْلِفِ تَحْسِبُ صُبْحاً فَإِذَا الَّيْلُ يَفِي

«**وقد يجي بشر**» الخاطر «**الرباني**» إهانة و«**عقوبة**» من الله تعالى وإنما تحصل بوقوع الشر المدعو إليه أو طول الدعاء إليه لا مجرد مرور ذلك بالبال «**عقب ذنب الجاني**» بشؤم ذلك الذنب الذي ارتكبه قال تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم... الآية﴾ الغزالي: قال شيخي الإمام هكذا تؤدي الذنوب إلى قسوة القلب أولها خاطر ثم يؤدي إلى القسوة والرين. «**وما له من صارف إلا اللجا**» أي الالتجاء «**منك إلى**» الله تعالى «**الذي إليك منه جا**» فلا تنفع في طرده المجاهدة أي القيام بالرد والدفع والمخالفة لأنه ليس من النفس ولا من الشيطٰن. قال في النصح الأنفع فإن زاد مع اللجاء إلى الله تعالى فعقوبة تحتاج إلى استغفار وإلا فتذكير أو نفساني لأنه يشاركه في التصميم ويفارقه في انتقاله باللجإ والاستغفار. ابن زكري: إذا أريد بالرباني عقوبة العبد تأديبا له فقد يحصل العفو ويتبدل الخاطر لكن بعد اللتيا واللتي وتكون العقوبة حينئذ بإلقاء الشر في قلبه دون فعل ما دعاه له الخاطر. «**وخاطر الشر إذا لم يقتف ذنبا فمن**» قبل «**شيطان**» في الأكثر إن كان مترددا لأنه يبتدأ بالشر ويطلب الإغواء بكل حال «**او نفس**» إن لم يكن مترددا «**يفي**» قال في العوارف: فرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلح فلاتزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطٰن إذا دعا إلى زلة ولم يُجَبْ يوسوس بأخرى إذ لا غرض له في تخصيص بل مراده الإغواء كيفما أمكنه «**مثل هجس النفس**» أي خاطرها «**ضوء المخلف**» أي الفجر الكاذب «**تحسب صبحا فإذا اليل يفي**» قال في النصح الأنفع هو مثل الفجر الكاذب قائم واضح تعقبه ظلمة ويظنه الظان حقيقة وليس بها. وقال في القواعد: يعقبه يبس وانقباض ثم إن بعض العارفين كان يقول مثل هوى النفس مثل النمر إذا حارب لا ينصرف إلا بقمع بالغ وقهر ظاهر ومثل الخارجي يقاتل تدينا ولا يكاد يرجع حتى يقتل.

وَمَثَلُ الشَّيْطَانِ كَالذِّيبِ مَتَى طُرِدَ مِن وَجْهٍ مِنَ آخَرَ أَتَى
وَإِن أَتَـاكَ خَاطِـرٌ بِعَجَـلِ تَأْمَنُ أَمْـرَهُ مِـنَ الغَوَائِــلِ
تُوقِـنُ خَيْرِيَّـةَ مَا بِـهِ أَمَـرْ وَلَيْس فِي مَآلِـهِ لَكَ نَظَـرْ
فَهْـوَ نَفسَانِـيٌّ اوْ شَيْطَانِــي وَقَدْ عَلِمْتَ الفَرْقَ بَيْنَ ذَانِ
وَالنَّـفسُ وَالشَّيْطٰـنُ يُقْمَعَــانِ بِالذِّكْرِ فَاذْكُرْ يُهْزَمِ الجَمْعَانِ

«**ومثل الشيطٰن كالذيب متى طرد**» أي أبعد «**من وجه**» أي جهة خرج ثم «**من**» وجه «**آخر أتى. وإن أتاك خاطر**» بالخير «**بعجل**» أي مع عجلة أي إسراع لا مع تأن وتثبت «**تامن أمره من الغوائل**» وأمن الغوائل هو أن تجزم بخيرية ذلك وكماله من غير أن تخاف خدع النفس والشيطان كما قال: «**توقن خيرية ما به أمر و**» أنت في عمى عن العاقبة فـ«**ليس في مآله لك نظر**» بأن لا تنظر فيما يؤول له ذلك الأمر كأن يرد الخاطر بالنهي عن المنكر المفضي إلى منكر أعظم منه «**فهو**» اما «**نفساني او شيطاني وقد علمت الفرق بين ذان**» على لغة من يلزم المثنى الألف فقد مر أن الأول ثابت وأن الثاني متردد. وفي ابن زكري: وجه انحصار الخواطر في الأربعة أن الخاطر إما ثابت أو متردد والأول إما بالخير مع تأن وعلم بالعاقبة وخوف وفي التوحيد أو بشر عقب ذنب فهو الرباني وإما بالخير مع عجلة وعمى عن العاقبة وأمن الغوائل والشر لا عقب ذنب فهو النفساني والثاني إما بخير معضود بالدليل فهو الملكي وإما بشر أو خير لا يعضده دليل فهو الشيطاني. وفيه أيضا قال في العدة: إن كان مع عجلة لا مع تأن ومع أمن لا مع خوف ومع عمى العاقبة لا مع بصارة العاقبة فهو من النفس أبدا. أما بصارة العاقبة فبأن يتبصر ويتيقن صاحب الخاطر أن الفعل رشد وخير ويحتمل أن يكون التبصر والتيقن لرؤية الثواب في العقبى ورجائه وأما الخوف فيحتمل أن يكون في إتمام الفعل الذي خطر بقلبك وأدائه على وجهه وحقه وأن يكون في قبول الله إياه «**والنفس والشيطٰن يقمعان**» قمعه ردعه وكفه وقهره «**بالذكر فاذكر يهزم الجمعان**» جمع النفس وجمع الشيطٰن ولعل المراد بقمع النفس بها هو أن خاطرها ينقص به، وفي النصيحة أنه يدفعه اللجاء إلى الله تعالى. ابن زكري

لِلذِّكْرِ نُورٌ لِلشَّيَاطِينِ مَفَـرْ مِنْهُ كَمَا الإِنْسُ مِنَ النَّارِ تَفِرْ
وَلَكِـنِ الذِّكْـرُ دَواً وَإِنَّمَـا تُفِيدُ الأَدْوِيَـةُ بَعْـدَ الاِحْتِمَـا

يعني أنه أسهل وأنفع في دفعه من المجاهدة وقد تقدم تشبيه هوى النفس بالنمر والخارجي وعدم قمعها بعرض القيامة والجنة والنار وهي كالكلب المسلط فالاشتغال بمحاربته تعب وتضييع الوقت فالرجوع إلى ربه أولى في صرفه. وفي الخاتمة أن حجاب الشيطن يمكن دفعه بالذكر والحوقلة والتلاوة والنفس لا تدفع بشيء إلا بالالتجاء إلى الله تعالى. وفيها أيضا عن شرح شهية السماع لا يصح مقام الإخلاص الكامل وهو شهود الأعمال أنها خلق لله تعالى إلا بمداومة الذكر ولا تخمد الأمراض الباطنة إلا به ولا تنقطع الخواطر الشيطانية إلا به ولا تضعف الخواطر النفسانية إلا به. وفي النصيحة والشيطن يضعف بالذكر. ابن زكري : اقتصر على الضعف لأنه المحقق في الغالب دون الانقطاع بالكلية. والمسألة مختلف فيها قال في الإحياء : اختلف العلماء في أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع بالكلية عند الذكر على خمس فرق انظر بسط ذلك فيه. الشيخ زروق : إنما يندفع الشيطن بالتوكل والإيمان قال تعالى : ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ «**للذكر نور للشياطين مفر منه كما الإنس من النار تفر**» قال في العوارف : وللذكر نور يتقيه الشيطن كاتقاء أحدنا النار. وقد ورد في الخبر : (الشيطن جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى تولى وخنس وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه) قال تعالى : ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطن تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ فبالتقوى وجود خالص الفكر وبها ينفتح بابه. «**ولكن الذكر دوا**» أي بمنزلته والتقوى بمنزلة الاحتماء وهي تخلي القلب عن الشهوات «**وإنما تفيد الادوية**» وتنفع إذا شربت «**بعد الاحتما**» أي الامتناع من غليظ الأطعمة ورديها وتخلية المعدة منه فإن أردت الخلاص من الشيطن فقدم الاحتماء بالتقوى أولا ثم أردفه بدواء الذكر يفر منك فالذكر إذا نزل قلبا فارغا عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة فدفع الشيطن إنما يحصل بسد مداخله بتطهير القلب من الصفات المذمومة فإذا قطعت منه كان

وَمَن أَتَاهُ خَاطِرًا خَيْرٍ فَهَلْ يَتَّبِعُ الآخِرَ أَوْ يَتْبَعُ الأُلْ
لِابْنِ عَطَاءٍ وَالجُنَيْدِ وَذَهَبْ بَعْضٌ إِلَى تَخْيِيرِهِ فَمَا أَحَبْ
وَخَاطِرَانِ نَظَرُ العِلْمِ سَوَا فِيهِ اقْفُ أَبْعَدَهُمَا مِنَ الْهَوَى

للشيطن به خطرات ولم يكن له استقرار ويدفعه حينئذ ذكر الله لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارته بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع الشيطن ولذلك قال تعالى ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم...﴾ الآية خصص ذلك بالمتقين والشيطن ككلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك لحم أو خبز فإنه ينزجر عنك بأن تقول له اخسأ فمجرد الصوت يدفعه وإن كان بين يديك لحم أو خبز وهو جائع لم يندفع بمجرد الكلام فالقلب الخالي عن قوت الشيطن ينزجر عنه بمجرد الذكر وأما إذا غلبت الشهوة على القلب فإنها تدفع حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلا يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطن فيه، وأما قلوب المتقين الخالية عن الهوى والصفات المذمومة فيطرقها الشيطن لا للشهوات بل لخلوها بالغفلة عن الذكر فإذا عاد إلى الذكر خنس الشيطن وتأخر. انظر الإحياء، «**ومن أتاه**» من الحق سبحٰنه «**خاطرا خير فهل يتبع الآخر**» منهما لأنه ازداد قوة بالأول «**أو يتبع الال**» بالضم بمعنى الأول وذلك لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل وهذا بشرط العلم ؟ قولان «**لابن عطاء والجنيد**» بنشر مرتب. ابن أبي جمرة : أهل الخواطر يقولون الحكم للخاطر الأول. «**وذهب بعض**» من الشيوخ وهو أبو عبد الله ابن خفيف «**إلى تخييره**» فهما سواء لأنهما من الحق فلا مزية لأحدهما على الآخر «**فما أحب**» منهما يتبعه انظر العوارف والقشيري والزبيدي. «**وخاطران نظر العلم سوا فيه**» أي مستويان في نظر العلم كندبين أو واجبين أو مباحين أو مكروهين لا أرجحية لأحدهما على الآخر بنص من الشارع ولا ما يرجع إليه «**اقف**» أي اتبع إذا التبسا عليك «**أبعدهما من**» موافقة «**الهوى**» وأثقلهما على النفس إذ لا يثقل عليها إلا ما كان خيرا وما مالت إليه منهما وخف عليها فاتركه لاعتلاله لأن الغالب عليها في حال الصحة كره الحق فالندبان كصلاة نفل أو حضور جنازة ولذا اختلف العلماء فيهما وكحضور جنازتين متساويتين والواجبان كأمر الأبوين

بمتناقضين كل يغضب إن خولف أو يتضرر والمباحان كرد هدية من لا يتغير بردها تعففا أو قبولها موافقة لغير وارد ولا عارض حكمي، والمكروهان الأخذ بأسباب الخمول فرارا من المنزلة في قلوب الخلق أو ترك ذلك مع حبها دون تحامل على محققها. وهذا الذي ذكره في غير النفس المطمئنة التي غالب تصرفها بالهوى والشهوة وجري العادة وأما المطمئنة التي ارتاضت على الحق حتى صار إلفا لها فلا تقبل غيره فحلاوة الطاعة لصاحبها دليل قبول عمله، ثم إن ما مر أحد ميزانين ثانيهما وهو أصح وأكثر تحقيقا من الأول أن تقدر نزول الموت بك على ما أنت فيه فما تثبُت عليه ويسرك أن تكون مشغولا به فهو حق إذ ما كنت فيه قائما بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق والموت حق والحق لا يهزم الحق والذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غدا تموت لا يضع الكتاب بين يديه. ابن عباد : لأن العبد في هذه الحالة لا يصدر منه إلا العمل الخالص من الشوائب وممازجة حظ النفس واتباع الهوى وهذا معنى قصر الأمل الذي هو أصل حسن العمل وهو أن لا يقدر لنفسه وقتا ثانيا يكون فيه حيا وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطلة إذ الموت حق والحق يهزم الباطل ويدفعه لقوله تعالى : ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ ﴿قل إن ربي يقذف بالحق علاّم الغيوب﴾ ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ انظر الخاتمة وابن عباد. قال الشرقاوي : فإذا التبس عليك الاشتغال بالعلم أو بطريق القوم فانظر أيهما تحب أن تكون عليه حال خروج روحك فاشتغل به فإن كنت تحب أن تخرج روحك وبيدك الكراس لإخلاصك في طلب العلم وقصدك به وجه الله فاشتغل به وإن كنت تكره ذلك وتحب أن تكون في ذلك الوقت مشتغلا بذكر الله مثلا لا بطلب العلم فلا تطلب العلم بل اشتغل بغيره لأن ذلك دليل على عدم إخلاصك فيه والكلام في الزائد على ما لابد منه من العلم. وأما الأمر الواجب فإن تحققت وجوبه فافعله فإنه خير ولا ياتي عنه إلا الخير أو تحققت تحريمه فاتركه فإنه شر ولا ياتي عنه إلا الشر وأما إن شككت في حكمه وخفت من إثمه فعليك فيه بالاحتياط الصارف عن الشهوات فإن الجنة حفت بالمكاره فاقطع الشك باليقين واحتط لدينك أكثر مما تحتاط لدنياك مثال ذلك إذا شككت في وجوبه وإباحته فافعله أو في تحريمه وإباحته فاتركه أو في تحريمه ووجوبه فاتركه أيضا لأن الحرام

من باب المفاسد والواجب من باب المصالح ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح فعليك بهذه القاعدة فإنها نافعة لكل من ليس بعالم ولم يجد عالما تقيا حاضرا انظر الخاتمة.

فوائد : الأولى : في العوارف عن بعضهم أن الخاطر الذي من النفس يحس به من أرض القلب والذي من الحق من فوقه والذي من الملك عن يمينه والذي من الشيطن عن يساره. وفي النصح الأنفع أن النفس من خلف القلب والخطاب الإلٰهي ياتيه من أمامه ووجه القلب لناحية الظهر.

الثانية : قال شيخنا المحقق العارف بالله تعالى محمد سالم ابن أَلمّا رحمهُ الله تعالى :

ما لم يدم في القلب هاجس فإن   جرى ودام فبخاطر زكن
وصف حديث النفس بالتردد   والعفو عن كل الثلاثة اعدد
والهم ما رجح مما ياتي   ولغوه في السيئات آت
والعزمَ أعْمِل في الجميع وهوا   جزمك بالأمر الذي قد تهوى
هل عزمه على الزنى كفعله   أو دونه خلف أتى بنقله
شيخ الشيوخ ذو العلوم العدوي   فانظره واحذر داء جهله الدوي.

ابن زكري : العزم يواخذ به على المعتمد وهو قول الأكثر ويكتب ذنبا غير المنوي.

الثالثة : في شرح الإحياء : الواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تختص بنوع خطاب أو مطالبة والواردات تكون تارة خواطر وتارة تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط.

الرابعة : سبب اشتباه الخواطر أربعة لا خامس لها إما ضعف اليقين أو قلة العلم بمعرفة صفات النفس وأخلاقها أو متابعة الهوى بخرم قواعد التقوى أو محبة الدنيا وجاهها ومالها وطلب الرفعة والمنزلة عند الناس فمن عصم من هذه الأربعة يفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان ومن ابتلي بها لا يعلمها ولا يتطلبها، وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون البعض، وأقوم الناس بتمييز الخواطر أقومهم بمعرفة النفس، ومعرفة النفس عسر المنال لا يكاد يتيسر

إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى. («**دع ما يريبك**» إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة) رواه النسائي والترمذي وابن ماجه وفتح الياء من يريبك أفصح وأكثر من ضمها من رابه الأمر وأرابه إذا أوقعه في الريب أي اترك ما تشك فيه من الشبهات واعدل إلى ما لا تشك فيه من الحلال البين لما سبق أن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه والأمر للندب فتوق الشبهات مندوب لا واجب على الأصح قاله المناوي، وفيه قال بعضهم: الورع كله في ترك ما يريب إلى ما لا يريب وفي هذه الأحاديث عموم يقتضي أن الريبة تقع في العبادات والمعاملات وسائر أبواب الأحكام وأن ترك الريبة في ذلك كله ورع.
«**وما يعتذر منه**» في العتبية قال مالك: قال حكيم من الحكماء: إذا صليت فصل صلاة مودع يظن أنه لا يعود وإياك والطمع وتطلب الحاجات فإنه فقر حاضر وعليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى واعلم أنه لابد من قول وفعل فإياك وما يتعذر منه. وقد قلت:

لابد من قـول وفعـل فـالحذر من الذي يفضي إلى أن يعتذر
لجهل من يقول أو من يفعل هل عذره يقبل أو لا يقبـل

وفي الجامع الصغير: (إياك وكل أمر يعتذر منه) المناوي قال ذو النون: ثلاثة من أعلام الكمال وزن الكلام قبل التفوه به ومجانبة ما يحوج على الاعتذار وترك إجابة السفيه حلما عنه. وأخرج أحمد في الزهد عن سعد بن عبادة أنه قال لابنه إياك وما يعتذر منه من القول والفعل وافعل ما بدا لك وفي رواية فإنه لا يعتذر من خير ثم ذكر أن هذا الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث سعد والطبراني في الأوسط من حديث ابن عمر وجابر بلفظ: (إياك وما يعتذر منه).
«**ولا تكثر إذا تعتذر**» في الجامع الصغير (أقلي من المعاذير) المناوي: خطاب لعائشة والحكم عام أي لا تكثري من إبداء الأعذار لمن تعتذرين إليه لأنه قد يورث ريبة أو تهمة أو يجدد حادثا كما أن المعتذر إليه لا ينبغي أن يكثر من العتاب كما قيل
إلى كم يكون العتب في كل ساعة؟ ولم لا تملين القطيعة والهجرا؟

فأصل الاعتذار إنما هو من سوء الظن بمن يعتذر إليه لأن الشخص يظن أولا

وَحُبَّ أَن تُعْرَفَ أَوْ أَن يَعْرِفَا أَحَدٌ انْ تُـحِبَّ أَن تُعْرَفَـا

بمن يعتذر إليه أنه أساء الظن في ذلك الأمر الذي وقع فيه ولولا ظنه ذلك ما احتاج إلى الاعتذار ومن لازم الاعتذار تزكية النفس لأن المعتذر يطلب باعتذاره تزكية نفسه ببراءتها من ذلك النقص الذي ظن أنهم ظنوه فيه فهو مذموم من أصله ولكن لما ترتب على تركه العداوة أمرنا به من باب دفع الأشد بالأخف فينبغي بقصد زوال العداوة التي تنشأ من تركه حينئذ فلا يكون مجردا والكمل من العلماء والعارفين لا يحتاجون إلى الاعتذار لهم لأنهم يحملون الناس على أكمل الأحوال ويهضمون أنفسهم على الدوام وإنما يكون بين قاصرين أو بين قاصر وعارف فالعارف يتنزل ويعتذر للقاصر مداراة له. «**و**» دع «**حب أن تعرف**» قال في الحكم : استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك. وفي كتاب الأربعين : قال عليه السلام : (لا يستكمل العبد حقيقة الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته) وفيه أيضا : قال أبو أيوب : والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه. وفي الإحياء قال بشر الحافي : ما أعرف رجلا أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح. وقال أيضا : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس. وفي الحكم : ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه. الشرقاوي : كذلك السالك إذا تعاطى أسباب الشهرة في بدايته قل أن يفلح في نهايته وبقدر تحققه بوصف الخمول يتحقق له مقام الإخلاص فمبنى أمره في الابتداء على الفرار من الخلق وإخمال الذكر وعدم حب الشهرة حتى إذا فنيت أوصافه وبقي بربه كان مع مولاه إن شاء أظهره وإن شاء أخفاه. «**أو**» أي ودع أيضا حب «**أن يعرفا أحد ان تحب أن لا تعرفا**» ابن عباد : قال بعضهم لمن استوصاه : لا تحب أن تعرف ولا تحب أن يعرف أنك ممن لا يحب أن يعرف فعلى العبد إخفاء حاله جهده وأن يبلغ في كتمانه أقصى ما عنده. قال في لطائف المنن : اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله والقناعة بعلمه والاغتناء بشهوده قال سبحنه ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ وقال : ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ وقال : ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وقال : ﴿أو لم يكف بربك أنه على

فصل في المقامات

ثُمَّ إِذَا أَشْرَقَ بِالتَّخَلِّي قَلْبٌ فَلاَ يَغْنَى عَنِ التَّحَلِّي
مِنَ الْمَقَامَاتِ وَلَيْسَ مَطمَعُ فِيهِنَّ قَبْلَ عَقَبَاتٍ تُقْطَعُ

كل شيء شهيد﴾ فمبنى أمرهم في بدايتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال تحقيقا لفنائهم وتثبيتا لزهدهم وعملا على سلامة قلوبهم وحبا في إخلاص أعمالهم لسيدهم حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء فهناك إن شاء الله سترهم وإن شاء أظهرهم هادين لعباده وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه فظهور الولي ليس بإرادته لنفسه ولكن بإرادة الله تعالى له بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد سبحٰنه إظهارهم فأظهرهم تولاهم في ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله ﷺ لعبد الرحمٰن بن سمرة : (لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها) ومن تحقق بالعبودية لله لم يطلب ظهورا ولا خفاء بل إرادته وقف على اختيار سيده له. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبدا لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

«**فصل في المقامات**» أي مقامات اليقين أي أخلاق أهل اليقين جمع مقام مصدر ميمي من الرباعي بمعنى الإقامة كالمدخل بمعنى الإدخال كما في ابن حمدون ونحوه للقشيري ومقتضاه أنه بضم الميم، وفي شرح الكبريت الأحمر للشيخ ماء العينين هو بفتح الميم موضع القيام وبضمها موضع الإقامة وقد قرىء بهما ﴿لا مقام لكم فارجعوا﴾ قال الجوهري : قد يكون كل منهما بمعنى الإقامة وبمعنى موضع القيام.

«**ثم إذا أشرق بالتخلي**» عن مذموم الصفات «**قلب**» السالك «**فلا يغنى**» أي لا يستغني «**عن التحلي من المقامات**» وبعضهم يعبر عنها بالمنازل والمراد بالتحلي الاتصاف بها فيكون متصفا بالخوف والرجاء مثلا «**وليس مطمع فيهن قبل**» ستّ «**عقبات تقطع**» قال إبراهيم بن أدهم لرجل في الطواف : اعلم أنك لا تنال

وَمَـن بِجِـدٍّ وَعَنـاً أَقَامَـــا بِـأَدَبٍ كَـانَ لَـهُ مَقَامَـــا

درجات الصالحين حتى تجوز ست عقبات أولاها أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة والثانية أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل والثالثة أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد والرابعة أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر والخامسة أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر والسادسة أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت. وقد قلت:

العقبـات شدة جـوع سهـــاد فقـــر وذل وتـــزوُّدُ المعـــاد

ثم إن الأحوال مواهب أي تنشأ عن الهبات الإلٰهية لا مدخل للكسب فيها والمقامات مكاسب أي تنال بكسب العبد وطلبه بمساعدة الهبات ويقال أيضا الأحوال تاتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود ولذا قال رحمه الله تعالى: «**ومن بجد**» بالكسر أي باجتهاد وتطلب «**وعنا**» أي تعب ومقاساة تكلف «**أقاما بأدب**» من الآداب مع الخالق تعالى «**كان**» أي صار ذلك الأدب «**له**» أي لمن أقام فيه «**مقاما**» سمي مقاما لإقامة السالك فيه ولا يسمى الوصف مقاما عند القوم إلا إذا ثبت وأقام فإن كان عارضا فقط سمى حالا لسرعة زواله فالمقام كما في رسالة السلوك هو ما يتوصل إليه العبد بتكلف وتسبب من زهد وتوكل وقناعة ومراقبة وغير ذلك، وفي شرح الكبريت: المقام عند القوم ما يتحقق أي يتصف به العبد بمنازلته أي بنزوله فيه وانتقاله إليه باكتسابه له من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف فالمقام ما ينال بتكسب وتطلب أي مع الموهبة إلى أن يكمل العبد فيه بخلاف الحال كما سياتي ولذلك يقال أول المقام تطبع وآخره طبع فمقام كل أحد موضع إقامته وقيامه عند ذلك أي عند اكتسابه ما يوصله إليه يعني ما هو مشتغل بالرياضة له ومحصله أن مقام العبد ما وفقه الله له من أنواع الطاعة وشغل قلبه به في الوقت والساعة، انتهى منه. القشيري: وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، قال في شرح الكبريت: بل يثبت فيما أقامه الله فيه حتى يتم له التحقق بكامل ما فيه من الأحكام لأن اشتغاله بالأرفع يشغله عما هو فيه وذلك يؤدي إلى فوات المقامين الرفيع والأرفع فإن من لا قناعة له لا يصح له

وَهُوَ مِنْ عِلْمٍ وَحَالٍ وَعَمَلْ مُنْتَظِمٌ وَالْحَالُ بِالعِلْمِ تَحُلْ

التوكل وهذا يوضح ذلك بمعنى أن من اشتغل بمقام القناعة و لم يحكمه لا يصح منه أن يرتقي إلى مقام التوكل ولكل مقام بدء ونهاية وبينهما أحوال متفاوتة مثاله في مقام الخوف من الله مثلا أن يترك العبد الكبائر خوفا من الله فإذا ارتقى عن ذلك ترك الصغائر أيضا ثم المكروهات ثم الشبه أي ما فيه شبهة وذلك أول مقام في الورع ثم ترك التوسع في الحلال وهو أول مقام الزهد إلى أن ينتهي إلى ترك كل ما يشغل عن الحق تعالى ثم بعد ذلك مقام التوكل ثم الرضا بما يجري به القضاء لاءم نفسه أم لا يلائمها وهكذا إلى ما لا نهاية له والله تعالى أعلم، ولذلك لا تفهم من المقام السكون إلى ما نازلته منه بل علق همتك بالرحلة عنه إلى موليه وتدبر قول بعضهم :

فلا تلتفت في السير غيرا فكل ما سوى الله غير فاتخذ ذكره حصنا
وكل مقام لا تقم فيه إنه حجاب فجد السير واستنجد العونا
ومهمى ترى كل المقامات تجتلى عليك فحل عنها فعن مثلها حلنا
وقل ليس لي في غير ذاتك مطلب فلا صورة تجلى ولا طرفة تجنى
وسر نحو علام الغيوب فإنها سبيل بها يمن فلا تترك اليمنا

فائدة : قال ابن أبي جمرة عند حديث (مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) في هذا دليل لأهل المقامات والأحوال لأنهم يقولون إذا فتح على أحد في مقام ودام عليه بأدبه رجي له الانتقال إلى ما هو أعلى منه. «**وهو**» أي المقام كله معنى «**من**» ثلاثة أمور مرتبة «**علم وحال وعمل منتظم**» وملتئم «**والحال بالعلم**» أي بسببه «**تحل**» بضم وكسر أي تنزل بالقلب والعمل يحل بالحال فالعلم أول لأنه هو الأصل الذي هو عقد من عقود الإيمان بالله أو لله والحال ثان وهو ما ينشأ عنه من المواجيد والعمل هو ما تنشئه المواجيد على القلوب والجوارح من الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالأثمار.

الزبيدي : اعلم أن جملة ما تكلم الناس فيه من المقامات والأحوال كلها هي من الإيمان بالله ولله قال تعالى : ﴿فليستجيبوا لي وليومنوا بي﴾ والإيمان بالله ولله

بِالتَّوْبَةِ ابْتَدِئْ فَلاَ مَقَامُ يَسْبِقُهَا فَهْيَ لَهَا إِمَامُ

عقود كثيرة لأن كل ما ورد من أسمائه تعالى سواء دل على عين الذات الأقدس أو على صفة من صفاتها أو على سلب نقص وعيب عنها أو على إثبات جلال وكمال لها فهو من عقود الإيمان بالله وكل ما جاء عن الله من أمر أو نهي أو خبر ماض أو مستقبل أو حال فهو من الإيمان لله تعالى فإذا علمت أن عقود الإيمان لا حصر لها لأن النفي والإيجاب لا نهاية لهما والأوامر والنواهي كذلك لأن من جملتها النفي والإيجاب، علمت أن كل عقد من عقود الإيمان أصل ولذلك الأصل فرع وللفرع ثمرة ولذلك شبه الله تعالى الإيمان بالشجرة قال الله تعالى : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾ فعرفنا أن لها أصلا ثابتا في القلوب بما أمد ساقه من النظر والاعتبار وعرفنا أن لها فروعا تنشأ منها هي مواجيد القلوب وأحوال لها بسبب ما جبلها عليه من محبة سعادتها وكمالها وعرفنا بقوله ﴿توتي أكلها كل حين﴾ أن لها ثمارا هي أعمالنا الناشئة عن أحوال قلوبنا وبها نجاتنا وكمالنا وقوله ﴿بإذن ربها﴾ لأنه خالقها ومالكها وفيه دليل الرد على من يقول بالتولد وفيه دليل على أن لا يصدر منا فعل من أفعالنا إلا وهو موجود بقدرته على ما قدرته مشيئته.

فائدة : الشخص في مقامه يعطى حالا من مقامه الأعلى الذي سوف يرتقي إليه فبوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقي أو لا يرتقي فإن العبد بالأحوال يرتقي إلى المقامات والأحوال مواهب ترقي إلى المقامات التي يمتزج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب ترقيه إليه فلايزال العبد يرقى إلى المقامات بزائد الأحوال فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والأحوال حتى التوبة ولا تعرف فضيلة إلا وفيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وكذا في التوكل انظر العوارف. «**بالتوبة**» عن الذنوب «**ابتدىء**» أيها السالك «**فلا مقام يسبقها فهي لها**» أي للمقامات «**إمام**» فلا يصح مقام إلا بعد تصحيح مقامها، قال في العوارف : التوبة أصل كل مقام وقوام كل مقام ومفتاح كل حال وهي أول المقامات وهي بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء

وَهْيَ التَّنَدُّمُ عَلَى أَنِ اعْتَدَى   وَعَزْمُهُ أَنْ لاَ يَعُودَ أَبَدَا

له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له. القشيري : التوبة أول منزل من منازل السالكين وأول مقام من مقامات الطالبين. وفي البصائر : التوبة من أفضل مقامات السالكين لأنها أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقها العبد أبدا ولايزال فيها إلى الممات وإن ارتحل السالك منها إلى منزل آخر ارتحل به ونزل به فهي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية كما حاجته إليها في البداية كذلك. وفي كتاب الأربعين أن توبة العوام من الذنوب الظاهرة وتوبة الصالحين عن الأخلاق الذميمة الباطنة وتوبة المتقين عن مواقع الريبة وتوبة المحبين عن الغفلة المنسية للذكر وتوبة العارفين عن الوقوف على مقام يتصور أن يكون وراءه مقام والمقامات في القرب من الله لا نهاية لها فتوبة العارف لا نهاية لها أيضا. قال في القوت : أصل مقامات اليقين التي ترد إليها فروع أحوال المتقين تسعة أولها التوبة والصبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا والمحبة.. ثم إن التوبة تجب على كل مكلف مسلم فورا بلا خلاف وتجب التوبة من تاخيرها لأنه معصية ثانية ولا تتعدد بتعدد الأزمنة عند أهل السنة خلافا للمعتزلة. ابن زكري : قال الجزولي : هي فرض عين والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيَّهَ المومنون لعلكم تفلحون﴾ وقوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ الآية ولعل وعسى من الله تعالى بمعنى الوجوب وأما السنة فقوله ﷺ : (توبوا فإني أتوب في كل يوم سبعين مرة) وفي بعضها (مائة مرة) وقال : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) والإجماع على أنها واجبة. «**وهي**» لغة الرجوع يقال تاب أي رجع وشرعا الرجوع عن كل مذموم في الشرع إلى ما هو محمود فيه ولابد لها لكي تصح من ثلاثة هي «**التندم**» أي الحزن والتوجع «**على أن اعتدى**» أي على أن عصى الله تعالى وتمني كونه لم يفعل. ابن عرفة : الندم تألم نفس الفاعل لكرهه ما فعل فمن ترك المعصية من غير ندم لم يكن تائبا وكذا من ندم على شرب خمر لإضراره ببدنه مثلا.

المفيد : قال السنوسي : اعلم أن حقيقة التوبة في الشرع الندم على المعصية من أجل أنها معصية وإن شئت قلت هي الندم على المعصية لأجل قبحها شرعا

وَتَرْكُهُ الآنَ لَـهُ وَإِنْ أَصَرّْ عَلَى ذُنُوبٍ غَيْرِهِ فِيمَا انْتَصَرْ

فالندم على المعصية لإضرارها لبدنه أو لإخلالها بعرضه أو حسبه أو نحو ذلك ليس بتوبة. قال في النصيحة فالتوبة الخروج من الذنب لله ولما به وعد الله. ابن زكري : نبه على أن الخروج من الذنب إذا كان الباعث عليه غرضا أخرويا كالرغبة في الثواب والحذر من العقاب لم يمنع ذلك كونه توبة وإن كان أحط من قصد التعظيم والإجلال وفيه تردد أظهره ما اقتضاه كلام المصنف وعليه فالواو بمعنى أو لوضوح أن التعظيم والإجلال أكمل المقاصد فلا يحتاج لاعتبار غيره معه، قال التفتازاني : التوبة هي الندم على المعصية لكونها معصية ثم قال وأما الندم لخوف النار أو طمع الجنة هل يكون توبة فيه تردد مبني على أن ذلك هل يكون ندما عليها لقبحها ولكونها معصية أم لا وكذا وقع التردد في الندم عليها لقبحها مع غرض آخر والحق أن جهة القبح إن كانت بحيث لو انفردت لتحقق الندم فتوبة وإلا فلا كما إذا كان الغرض مجموع الأمرين لا كلا منهما وكذا وقع التردد في التوبة عند مرض مخوف بناء على أن ذلك الندم هل يكون لقبح المعصية أم لا بل للخوف كما في الآخرة عند معاينة النار والظاهر من كلام النبي ﷺ قبول التوبة ما لم تظهر علامات الموت «**وعزمه**» المصمم أي نيته «**أن لا يعود**» إلى مثل ذلك الاعتداء «**أبدا**» في المستقبل كما لا يعود اللبن إلى الضرع فإن ترك الذنب وفي نفسه أنه ربما يعود إليه أو تردد بأنه يقع له العود فإنه ممتنع عن الذنب غير تائب منه. الزبيدي : سئل الحسن عن التوبة النصوح ؟ فقال : هي ندم بالقلب واستغفار باللسان وتزكية الجوارح وإضمار أن لا يعود وروى أبو حاتم وابن مردويه من حديث أبي بن كعب (التوبة النصوح الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله ثم لا تعود إليه أبدا) «**وتركه الآن**» أي في الحال «**له**» وهذا هو معنى الإقلاع فيكف عن ذنب كان ملابسا له كنظر حرام وغيبة تاب منهما وهذا الشرط إنما هو في معصية اتصلت بالتوبة لا في معصية فرغ منها كشرب خمر أمس ولابد من تدارك حق ممكن تداركه وهذا الشرط آئل إلى شرط الإقلاع فمن وجب عليه حق يمكنه تلافيه فلم يفعل لم يقلع إذ ما من وقت إلا وهو عاص فيه بترك التلافي. الزبيدي : المعاصي المرجوع عنها إما أن تكون قاصرة الضرر على المذنب أو متعدية إلى غيره فالقاصرة منها ما يقبل القضاء كالصلاة

والصيام والزكاة والحج ومنها ما لا يقبل القضاء كمس المصحف على غير وضوء واللبث في المسجد على غير طهارة وشرب الخمر وإلقاء المال في البحر وإنفاقه في المعصية وما أشبه ذلك مما لا يقبل القضاء فيكفي فيه الندم والترك والعزم على أن لا يعود والذي يقبل القضاء فتصح أيضا توبته ولكن يجب عليه قضاء ما فات لأن التوبة عبادة الوقت لوجوبها على الفور وقد قام بها والقضاء لا وقت له معين والذمة مشغولة به وهذا الحكم في المعاصي المتعدي ضررها إلى الغير. التاودي : قد اختلف في حقيقة التوبة وماهيتها فقال الفقهاء وبعض الصوفية : للتوبة ثلاثة أركان الإقلاع في الحال والندم على الماضي والعزم أن لا يعود في المستقبل فإن تعلقت المعصية بحق آدمي اعتبر ركن رابع وهو الخروج عن تلك المظلمة، ابن حمدون : قال تقي الدين السبكي : حقيقة التوبة الرجوع فالتائب راجع عن المعصية إلى الطاعة ورجوعه لا يتحقق إلا بما ذكر من الندم وما معه فيجوز أن تسمى كلها شروطا أو أركانا وأعظمها الندم ولذلك اقتصر عليه في حديث (الندم توبة) ولا يتحقق إلا بالثلاثة الباقية فيجوز أن يسمى ركنا وماعداه شرطا كما فعله الناظم يعني ابن عاشر «**و**» تصح و«**إن أصر**» أي أقام «**على ذنوب**» أخرى «**غيره**» أي غير الذي تاب منه وقد اختلف في حقيقة الإصرار هل هو تكرر الذنب كان بعزم على العودة أم لا أو تكريره من غير عزم لا يكون إصرارا كما في ابن ناجي عن القرافي. «**فيما**» أي في القول الذي «**انتصر**» يعني ترجح فتصح عند أهل السنة من بعض الذنوب دون بعض خلافا للمعتزلة. قال في النصيحة : والتوبة من الذنب مع المقام على غيره صحيحة والكمال التوبة من كل ذنب. وقال السبكي : وتصح من ذنب مع الإصرار على غيره ولو كبيرا عند الجمهور وتصح من الصغائر وقيل لا تصح منها لأنها مكفرة باجتناب الكبائر وتصح ولو بعد نقضها عند الجمهور أيضا وقيل لا.

واعلم أن الأقوى صحة تبعيض التوبة كان الجنس واحدا أم لا تفاوتا قبحا أم لا وقيل إنما يصح تبعيضها في غير الجنس الواحد من المعاصي كما لو تاب من الزنى دون شرب الخمر بخلاف الجنس الواحد كزنى بامرأة مع الإقامة على زنى بأخرى فلا يصح فيه ذلك وقيل إن كان المتروك أشد عقوبة مما أصر عليه صحت توبته كأن تاب من شرب خمر بمسجد مع الإصرار عليه في الأخصاص مثلا فإن

كان مصرا على أقبح أو مساوٍ لم تصح انظر المباحث. وفي الخاتمة : اختلفوا في تجديد التوبة كلما ذكر المعصية فأوجبه القاضي منا وأبو علي من المعتزلة و لم يجب عند إمام الحرمين إلا أن يذكرها مشتهيا لها فرحا بها. ابن عرفة : وظاهر لفظ عياض بطلان التوبة الأولى بعدم تجديد الندم عند ذكر الذنب. وقد قلت :

تجديد توبة لذكر الذنب مختلف في حتمه والندب
إلا إذا ذاكره به فرح فحتم توبة هناك متضح.

وقلت أيضا :

معصية المومن والفاجر من ثلاثة الأوجه فرقها يعن
الاول لم يعزم عليها قبلها ولا بها يفرح إذ فعلها
وليس إصرار عليها بعد منه بعكس فاجر إذ يعدو.

تنبيه : مر أن كل مقام منتظم من علم وحال وعمل فالعلم معرفة عظم الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة حقيقية بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب وهو المسمى ندما فإذا غلب ذلك الألم على القلب انبعث في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي والاستقبال أما الحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسا له وأما الاستقبال فبالعزم على استمرار ذلك الترك وأما الماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر قاله في الإحياء. وفي الشرح : العلم هنا معرفة ضرر الذنب دنيا وأخرى ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم﴾ ﴿لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ وفي الخبر (ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة).

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وعلم مزايا التوبة ﴿يحب التوابين﴾ من كلما عصوا تابوا ورب ذنب ندم عليه المذنب حتى قال الشيطان ليتني لم أوقعه فيه ورب توبة جرَّت للجنة والحال الندم والعمل الإقلاع والتحلل وتلافي ما فات ونية أن لا يعود. «و» في حقوق العباد وهي خمسة مالية كغصْب وسرقة وعرضية كغيبة ودينية كتكفير وتفسيق وبدنية

وَشَرْطُهَا اسْتِحْلاَلُـهِ لِلآدَمِـي مِن حَقِّهِ الظَّاهِرِ غَيْرِ الْحَرَمِي
وَنَحْوِهِ إِنْ تَسْتَطِعْ تَحَلُّلَـهْ مِنْهُ وَلاَبُدَّ مِنَ انْ تُفَصِّلَـهْ

كقتل وجرح وحرمية كخيانة في أهل وولد «**شرطها استحلاله**» انظر هل الأولى : ويلزم استحلاله.. وتأمل ما ياتي. «**للآدمي**» أي طلبه أن يجعله في حل «**من حقه**» الذي ترتب عليه قبل التوبة «**الظاهر**» بخلاف نحو حسد الحق «**غير**» «**الحرمي**» كالخيانة في الأهل والولد فيتعين فيه عدم الاستحلال. زروق : وما كان مما يلحق معرة كالزنى بوليته ولو مرة فهذه بلية الله سبحانه أولى بالعذر فيها وواجبك تصميم العزم في التنصل منها لأن إعلامه قذف للمزني بها وفضيحة لنفسك في ذنبها وتعريض له للإذاية إن سكت أو لإهلاكه إن غار وما ثبت وكل ذلك حرام ومخل بوجود النظام مع وجود الخلاف في الزنى هل هو حق لله سبحانه أو حق للآدمي ثالثها الفرج المملوك لمالكه كالزوجة والسرية وماعداه حق لله سبحانه ولا يمكن الاستحلال منه لخوف الفتنة. «**ونحوه**» مما يوذيه ذكره له كأن نسبه باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شرحه له فليس له أن يستحله إلا مبهما ثم تبقى عليه مظلمة فليجبرها بالحسنات كما تجبر مظلمة الميت والغائب «**إن تستطع**» أيها التائب «**تحلله**» أي طلب رب الحق أن يجعلك في حل «**منه**» أي من حقه فإن مات أو غاب من قد تعرضت له بلسانك أو آذيت قلبه بفعل من أفعالك فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتوخذ منك عوضا في القيامة كما في الإحياء، والحقوق المالية يجب ردها إجماعا إذا أمكن إلى أربابها. ابن العربي : فإن مات صاحب الحق فلوارثه فإن لم يفعل فهل يكون الحق في الآخرة له أو للموروث عنه قولان ورد المغصوبات الموجودة شرط في صحتها عن الغصب وأما رد عوض ما هلك وصار متعلقا بالذمة فواجب غير شرط وإن عجزت عن رد المال لفقر أو عدم فتستحل منه وإن عجزت عن ذلك لغيبة الرجل أو موته وأمكن التصدق عنه فافعل وإن لم يمكن فعليك تكثير حسناتك والرجوع إلى الله سبحانه بالتضرع والابتهال أن يرضيه عنك يوم القيٰمة، وأما العرضية ففيها خلاف مشهوره وجوب الاستحلال وذلك قسمان أحدهما ما يلحق ضررا بالمقول فيه كالسعاية والنميمة والشهادة عليه بصفة ذميمة فيتعين عليك تكذيب نفسك عند من قلت

له ذلك والرجوع عن الشهادة إن كانت زورا كذلك إذ ليس لحوق الوصم به أولى منك ولا وجه للسماع فيما صدر من ذلك عنك هذا مع استحلاله مما فعلت وإظهار الرجوع عما قلت ونقلت، والقسم الثاني أن يكون ذلك بوجود الغيبة وذكر ما فيه تنقيص أو ريبة والتحلل منه واجب إن لم تلحق منه ضرورة وإلا فإبداله بالثناء والاستغفار والخدمة فعلة مشكورة وقد قيل إن التحلل منه غير واجب كالتحليل وقيل مباح وقيل إذا تعلق بأمر قليل وقد قيل إن ذكرها ينقلها للبهتان لاسيما مع اشتراط التعيين والبيان فصحح عقدك وجدد عهدك وأكثر من الاستغفار والتحفظ جهدك ثم الله سبحٰنه أولى بالعذر في ذلك والكافي لما هنالك قاله زروق. وفي منهاج العابدين : إذا خشيت من الاستحلال فيما يتعلق بالعرض زيادة غيظ وهيج فتنة فالرجوع إلى الله ليرضيه عنك والاستغفار الكثير لصاحبه. وهل يشترط في توبة القاذف تكذيب نفسه كما للشافعي أم لا كما لمالك. وأما الدينية كأن يكفره أو يفسقه أو يبدعه فقد قال ابن رشد يكذب نفسه عند من قال ذلك فيه عنده ويستحله. زروق : إن أمن شرا أعظم وإلا فالله أولى بالعذر. قال في الخاتمة : وإن لم يمكنك الاستحلال فالابتهال إلى الله سبحٰنه بالتضرع والصدق ليرضيه عنك وتكثر من الدعاء له بالرحمة والصلاح وبالجملة فما أمكنك من إرضاء الخصوم عملت وما لم يمكنك رجعت إلى الله تعالى بالتضرع والصدق ليرضيه عنك. وأما البدنية فاختلف في القتل منها هل على القاتل تسليم نفسه وعليه الغزالي أم لا وهو ظاهر الأحاديث ومال إليه ابن رشد.. قال : وينبغي أن يعتق ويحمل نفسه على الجهاد ونحوه ليكون كفارة له، ويجب التمكين في ضرب وجرح غير مخوفين، انظر ابن حمدون. وأما قتل الخطإ ونحوه مما تتعين فيه الدية فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدَة ذلك قبل الوصول. انظر ابن زكري.

تنبيه : في الخاتمة قال إمام الحرمين إن القاتل إذا ندم من غير تسليم نفسه للقصاص صحت توبته وكان منعه القصاص من مستحقه معصية متجددة تستدعي توبة فلا تقدح في التوبة عن القتل وقيل لا تصح وهو مرجوح. وفي شرح زروق للرسالة إذا لم يرد المظالم إلى أهلها مع الإمكان من ذلك فصحح الإمام توبته وهو مذهب الجمهور وقيل إنها لا تصح، وفي المفيد عن السنوسي : التحقيق أن

رد المظالم واجب آخر خارج عن حد التوبة ثم ذكر ما مر آنفا عن إمام الحرمين، وفي ابن زكري أن رد المظالم واجب غير شرط إلا مغصوبا باقيا بيد غاصبه. وقال حلولو : ونقل الشيخ ابن عرفة عن الأكثر صحة توبته مع عدم فعل ما عليه من قضاء وقصاص وتحلله من عرض أو مال، قال : ونقل القاضي عياض عن ابن المبارك أن من شرطها قضاء حقوق الله تعالى والخروج عن مظالم العباد ؛ يحتمل أن يريد أنه شرط كمال. وفي المباحث : أما حقوق الآدميين ففي الرسالة أن رد المظالم شرط فيها أي التوبة، وقال سيدي زروق في شرحها : أما رد المظالم فليس بشرط وكذا اجتناب المحارم وتعميم القصد أي التعميم للتوبة في جميع الذنوب فهي ثلاثة فروض تاركها عاص ولا تنتقض التوبة بتركها وقاله غيره. قال في الخاتمة : ثم إنه إن استحله وأبى فعليه أن يتلطف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فإن الإنسان عبد الإحسان وكل من نفر بسيئة مال بحسنة فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه سمحت نفسه بالاستحلال فإن أبى إلا الإصرار فيكون تلطفه واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن تجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في إيذائه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر وزاد عليه أخذ ذلك عوضا منه في القيامة بحكم الله تعالى له به عليه كمن أتلف في الدنيا مالا فجاء بمثله فامتنع من له المال عن القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض شاء أم أبى فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين.

فوائد : **الأولى** : قال في إعانة المتوجه في الحلية عن ميمون بن مهران أحد فضلاء أكابر التابعين أن من استغفر لمظلومه دبر كل صلاة خمس مرات فقد أدى ما عليه وهذا في باب الغيبة لا ما له عين والله أعلم. ابن زكري : ووجهه ظاهر مما تقدم في أنواع الحقوق ويؤيده أيضا ما ورد في الحديث (كفارة من اغتبت أن تستغفر له)... إلى أن قال : ولا يعارض هذا الحديث ما تقدم تشهيره من وجوب الاستحلال لقول المناوي هذا إذا تعذرت مراجعته واستحلاله وإلا تعين ما لم تترتب عليه مفسدة ونحوه للعلقمي نعم قال الغزالي : وهذا الحديث يحتج به للحسن في قوله يكفيه في الغيبة الاستغفار دون الاستحلال. وقال السبكي في بعض كتبه لما ذكر وجوب الاستحلال في حقوق العباد فإن قلت : ما تقول

في حديث (كفارة الاغتياب أن تستغفر لمن اغتبته) ؟ قلت في سنده من لا يحتج به وقواعد الفقه تاباه لأنه حق آدمي فلا يسقط إلا بالإبراء فلابد أن يتحلل منه فإن مات وتعذر ذلك قال بعض الفقهاء يستغفر له فإما أن يكون أخذه من هذا الحديث وإما أن يكون المقصود أن يصل إليه من جهته حسنات عسى أن تعدل ما احتمل من سيئاته وأن يكون سببا لعفوه عنه في عرصات القيمة وإلا فالقياس أن لا يسقط أيضا.

الثانية : في الخاتمة قال الغزالي : إذا تبت من سيئاتك فاطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها لحديث (اتق الله وأتبع السيئة الحسنة تمحها) قال تعالى : ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر والقعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر مس المصحف محدثا بإكرامه وكثرة القراءة فيه وكثرة تقبيله وأن يكتب مصحفا ويحبسه وشرب الخمر بالتصدق بكل شراب حلال هو أطيب وأحب إليه ويقابل أيضا إذاية الناس بالإحسان إليهم وغصب أموالهم بالتصدق بحلال ويكفر غيبتهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال أقرانه ويكفر قتل النفس بالعتق وهذا التدريج في محو المعصية أولى من أن يواظب على نوع من العبادات وإن كان أيضا مؤثرا في المحو لأن المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه بحسنة تضادها، انتهى باختصار وتلفيق.

الثالثة : في الخاتمة أيضا الاعوجاج في التوبة من سوء الأدب مع الله تعالى.. قال في شرح شهية السماع لأنه متى كان في التوبة اعوجاج ولو يسيرا انسحب حكم الاعوجاج في كل مقام بعد التوبة فيصير بناء السالك مهلهلا كالذي يبني حائطه من اللبن اليابس بغير طين إذ التوبة أس لكل مقام ترقى إليه العبد حتى يموت فكما أن من لا أس له لا بناء له كذلك من لا توبة له فلا مقام له.. وقال سيدي عبد القادر الجيلاني : من أحكم مقام توبته حفظ من سائر الشوائب التي تشوب في الأعمال فهي نظير مقام الزهد في الدنيا يحفظ به صاحبه من سائر ما يحجب عن الحق سبحانه، وقال سيدي محمد بن عنان : من استقام في توبته عن المعاصي ارتقى إلى التوبة من كل ما لا يعني ومن لم يستقم فلا يشم من التوبة عن الفضول رائحة ولا يقدر على رعاية خاطره أبدا بل تغلب عليه خواطر

المعاصي حتى في صلاته وتأمل قوله تعالى للمعصوم الأكبر ﷺ ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾ فأمره تعالى بالاستقامة في التوبة ومن تاب معه من جميع أتباعه وأمته، وقال سيدي علي الخواص : من استقام في توبته وزهد في الدنيا فقد انطوى فيه سائر المقامات والأحوال الصالحة والمستقيم في التوبة هو الذي لم يكتب عليه صاحب الشمال ذنبا أربعين سنة.

الرابعة : توبة الكافر مقبولة قطعا اتفاقا لنص القرآن ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ وفي كون توبة الفاسق بشروطها مقبولة ظنا أو قطعا قولان الراجح الثاني. قاله التاودي.

الخامسة : قال في منهاج العابدين : ثم من شرط التوبة أن لا يتعمد ذنبا فأما إن وقع منه بسهو أو خطإ فهو معفو عنه بفضله جل فإن قلت إنما يمنعني من التوبة أني أعلم من نفسي أني أعود إلى الذنب ولا أثبت على التوبة فلا فائدة في ذلك فاعلم أن هذا من غرور الشيطان ومن أين لك هذا العلم فعسى أن تموت تائبا قبل العود وأما الخوف من العود فعليك العزم والصدق في ذلك وعليه تعالى الإتمام فإن أتم فذلك المقصود من فضله وإن لم يتم فقد غفرت ذنوبك السالفة وليس عليك إلا ما أحدثته الآن وهذا هو الربح العظيم فلا يمنعك خوف العود عن التوبة فإنك من التوبة أبدا بين إحدى الحسنيين، انتهى باختصار.

السادسة : في الجامع الصغير (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) المناوي : أي قبل توبته ورضيها فرجع متعطفا عليه برحمته وذلك لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه قابله الله بالعفو والتجاوز وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وأن الذنوب وإن جلّت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم وقوله تاب الله عليه كناية عن قبول توبته لأن قبولها مستلزم لتعطف الله وترحمه عليه وقوله قبل أن تطلع حد لقبول التوبة ولها حد آخر وهو وقوعها قبل الغرغرة.

«**ولابد من ان تفصله**» أي تبين ذلك الحق بتعيينه «**له**» فقد قال مالك فيمن يقول للرجل عند الموت اجعلني في حل أنه لا يجزيه ذلك حتى يعين الذنب وسأله وصي أيتام تحللهم بعد رشدهم مما نال منهم فحللوه هل ينفعه ذلك ؟ فقال :

لا حتى يبين لهم قدرا يجعلونه منه في حل. انظر المفيد فقد ذكر في الإبراء المطلق أي الذي لم تعين فيه للمظلوم مظلمته ثلاثة مذاهب الأول أنه لا يكفي ولابد من التعيين الثاني أنه يكفي الثالث التفصيل قلت لعل التفصيل هو عدم اشتراط التعيين في الغيبة أو إن لم تبلغ صاحبها على وجه أفحش.. ففيه بعد أن جلب نقولا على مذهبي الإطلاق عن ابن المعلى عن النووي أنه قال تجب على المغتاب التوبة وطلب العفو من صاحبها ولابد من استحلاله قال وهل يكفيه أن يقول قد اغتبتك فاجعلني في حل أو لابد أن يبين له ما اغتابه به فيه وجهان لأصحاب الشافعي رحمهم الله تعالى أحدهما يشترط بيانه فإن أبرأه من غير بيانه لم يصح كما لو أبرأه عن مال مجهول والثاني لا يشترط لأن هذا مما يتسامح به فلا يشترط علمه بخلاف المال والأول أظهر لأن الإنسان قد يسمح بالعفو عن عيب دون عيب وبالاكتفاء بالإبراء المطلق عندنا صرح النفراوي ونصه : فالغيبة لها جهتان إحداهما من حيث الإقدام عليها والأخرى من حيث إذاية المغتاب فالأولى تنفع فيها التوبة بمجردها والثانية لابد فيها مع التوبة من طلب عفو المغتاب عن صاحبها ولو بالبراءة المجهول متعلقها عندنا وعلى أحد وجهين عند الشافعية وعند الحنفية يعتبر تعيين الغيبة لصاحبها إن بلغته على وجه أفحش. وما عزاه للحنفية جزم به السعد ونصه : ولا يلزم تفصيل ما اغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أفحش، ونقله السنوسي ولم يذكر غيره، ولابن أبي جمرة أنه لابد من التعيين وكذا لابن المعلى عن أبي زيد، انتهى باختصار، ثم ذكر ما مر عن مالك.

وفي الخاتمة : اختلف هل تكفي التوبة في الغيبة أو لابد من استحلال من اغتبت والصواب التفصيل فإن بلغته فلابد من استحلاله وإن لم تبلغه كفته التوبة ولا يخبر بالغيبة من اغتابه لئلا يشغل قلبه بها.

فوائد : الأولى : اختلف هل الأفضل ذكر الذنب أو نسيانه وفي الإحياء أن ذكره أولى في حق المبتدىء لأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع له عن العود إلى مثله فهو كمال بالإضافة إلى الغافل ونقصان بالإضافة لسالك الطريق لأنه شغل، نقله ابن زكري، وفي الخاتمة : أما نسيان الذنوب بعد التوبة وتذكرها فهما طريقتان الأولى للعارفين والمحبين نسوا ذنوبهم شغلا عنها بالأذكار وهي مقام التوحيد وهي أفضل والثانية للمريدين والخائفين تذكروا ذنوبهم دائما لاستخراج

لَهُ وَتَكْفِي فِي ذُنُوبٍ مُجْمَلَهْ وَمُنكَرٍ عَجَزَ أَنْ يَعُودَ لَـهْ

الحزن الدائم والخوف اللازم وهي مقام التعريف وهي أدنى ولا يعترض بقصة داوود عليه السلام في تذكره ونوحه على خطيئته لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يسلك بهم سبيل المتعلمين وذلك لأجل الأمة وفي نسيان الذنوب الذكر لما يستقبل والانكماش على ما يفوت من الوقت خوفا لفوت ثان.

الثانية : في الخاتمة : في الحديث (ما من رجل يذنب ذنبا ثم يتطهر ثم يصلي ركعتين فيستغفر الله من ذلك الذنب إلا غفر الله له) وفيه (من أخطأ خطيئة أو أذنب ذنبا وأحب أن يتوب إلى الله فليات فليمد يده إلى الله ثم ليقل اللهم إني أتوب إليك منها لا أرجع إليها أبدا فإنه يغفر له ما لم يرجع في عمله ذلك) وقال رجل واذنوباه فقال له النبي ﷺ (قل اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ورحمتك أرجى عندي من عملي) فقالها ثلاثا فقال (قم قد غفر الله لك) وروى الطبراني مرفوعا (من قال دبر كل صلاة أستغفر الله وأتوب إليه غفر الله له وإن كان فر من الزحف) ولاشك أن الفرار من الزحف من الكبائر.

الثالثة : في ابن زكري قال زروق : اختلف في جواز الإحلال لمن له حق فقيل مندوب ورجحه جماعة وعليه العمل لحديث أبي ضمضم وغيره وقيل لا مطلقا لتعلق حق الله به إذ لعله أراد عقوبته فيكون إحلالك اختيارا وثالثها قول مالك رحمه الله : إن كان حقا لا ظلم فيه جاز وإن كان عن ظلم فلا.. ثم ذكر أنه ينبغي التعريض بالبقاء على الحق إن رجا الزجر به والتصريح بالعفو إن علم النفع، انظر بقية كلامه.

«**وتكفي في ذنوب مجمله**» وإن علمت مفصلة وقيل لابد من الندم في المعلومة تفصيلا، وفي المفيد عن زروق إذا تاب مثلا من شرب الخمر وكان يشربه في جماعة فتوبته من ثلاثة أشياء شرب الخمر وكونه في جماعة وعدم إنكاره عليهم فإن لم يتب من ذلك كله لم يتب عليه، فانظره. «**و**» تصح في «**منكر عجز**» التائب «**أن يعود له**» كمجبوب يتوب من الزنى بعد الجب وقاذف يتوب بعد الخرس وأعمى من النظر المحرم خلافا لأبي هاشم.

وَالخُلْفُ إِنْ أَصَرَّ فِي اسْتِغْفَارِهِ   ثَالِثُهَا مُجْدٍ لَـدَى انـكِسَارِهِ

تنبيه : قال في الشرح : من كمالها الاستغفار ومفارقة محل الذنب كما فعل كعب ابن مالك والرجل الذي قتل تسعا وتسعين.

«**والخلف إن أصر**» على ذنب أي أقام عليه «**في**» حال «**استغفاره**» منه «**ثالثها مجد**» أي نافع استغفاره إن وقع «**لدى انكساره**» زروق : الاستغفار أي طلب المغفرة إن كان مقرونا بالتوبة فهو أكمل الاستغفار وإن لم يكن مقرونا بها ولكنه مع الندم والانكسار فهو استغفار حقيقة وإن لم يكن مع واحد منهما فهو استغفار الكذابين وهو الذي قالت رابعة العدوية إنه يحتاج إلى استغفار كثير نقله ابن زكري.. ثم ذكر عن الإحياء أن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة وأما إذا انضاف إليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص رغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال رسول الله ﷺ : (ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة) وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب، وللاستغفار والتوبة درجات وأوائلها لا تخلو عن فائدة ولو لم تنته إلى أواخرها.. ثم قال بل قول الاستغفار أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركته في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه وإن كان ناقصا بالنسبة إلى عمل القلب ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول وما ذكره حق واضح، ورابعة لم تذم حركة اللسان من حيث أنه ذكر الله تعالى بل ذمت غفلة القلب فهو يحتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضا احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد هكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد، انتهى منه.

وفي الجامع الصغير (خياركم كل مفتن تواب) المناوي : قال بعض العارفين أخبر أن خيار أمته لن يعروا من الزلل وأن علمهم بالله تعالى لا يدعهم حتى يرجعوا

مَـن آدَهُ الْمَتَـابُ فَالتَّكْثِيـرُ مِن سُورَةِ النَّصْرِ لَهُ ظَهِيرُ

إليه بالتوبة والإنابة، وقال بعضهم رب ذنب يكون أنفع للمومن من كثير من الطاعات من وجله وإنابته ومن ذلك يكون توابا وهو الملازم للتوبة فيصير من الخيار المحبوبين ﴿إن الله يحب التوابين﴾ وقال في المفهم : معناه الذي يتكرر منه الذنب والتوبة فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة لا من قال أستغفر الله بلسانه وقلبه مصر على تلك المعصية فهذا الذي استغفاره يحوج للاستغفار. وقال الغزالي : الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره.. قال الحرالي وما توسوس به النفوس وتوحي به الشياطين للمذنبين أنه لا ينبغي أن يتوب حتى يعلم أنه لا يعود في الذنب فذلك من مكايد الشيطن وهوى النفس، بل ينبغي أن يبادر بالتوبة ولو عاد ما عاد وذلك الذي يحبه الله من ولد آدم ليكسر الذنب عجبهم وتمحو التوبة ذنبهم.

وفي روح البيان عند قوله تعالى : ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ أي لم يقيموا على ما فعلوا من الذنوب فاحشة كانت أو ظلما غير مستغفرين لقوله ﷺ : (ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة ولا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار) أي الصغيرة مع الإصرار كبيرة.

قلت : انظر قوله رحمه الله تعالى : ثالثها مجدٍ لدى انكساره.. فقد يوهم أن هنا من يرى استغفار المصر لا يجدي مع انكساره فلعل الأولى لو قال :

ومـن أصر كان في استغفـاره جدوى ولو خلا من انكساره

فلتتأمل ما مر والله تعالى أعلم.

«**من آداه المتاب**» عسر عليه ﴿ولا يؤوده حفظهما﴾ أي لا يثقله ولا يشق عليه «**فالتكثير من**» قراءة «**سورة النصر له ظهير**» على المتاب أي معين ﴿فلن أكون ظهيرا للمجرمين﴾ قال في النصيحة : ومن عسرت عليه التوبة فليكثر من قراءة ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ ابن زكري : وجهه ــ والله أعلم ــ ما فيها من اسمه تعالى التواب. ومعناه الذي يتوب على عباده ويكثر ذلك منه لهم على كثرة عصيانهم.. قال المصنف في شرح الأسماء الحسنى : وخاصية اسمه التواب دفع الظلم وتحقيق التوبة فمن قرأه إثر صلاة الضحى ثلاثمائة وستين مرة تحققت

توبته ومن قرأه على ظالم عشر مرات تخلص من ظلمه إن شاء الله تعالى ويناسب ذلك أيضا ما فيها من ذكر النصر والفتح والدخول في الدين المستقيم الذي هو أعظم التوبة وطلب التسبيح والاستغفار. «**واهجر قرين السوء**» قال القشيري: إن للتوبة أسبابا وترتيبا وأقساما فأول ذلك انتباه القلب عن رقدة الغفلة ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه بسمع قلبه فإذا تمكن بقلبه سوء ما يصنعه وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال سنحت في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملة فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة والأخذ في جميل الرجعة والتأهب لأسباب التوبة وأول ذلك هجران إخوان السوء فإنهم هم الذين يحملون على رد هذا القصد ويشوشون عليه صحة هذا العزم انظر بقيته. الزبيدي: لابد للمريد من خصال سبع: الصدق في الإرادة وعلامته إعداد العدة ولابد له من التسبب إلى الطاعة وعلامة ذلك هجر قرناء السوء ولابد له من المعرفة بحال نفسه وعلامة ذلك انكشاف آفات النفس ولابد له من مجالسة عالم بالله وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه ولابد له من توبة نصوح فبذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة ولابد من طعمة حلال ولابدّ له من قرين صالح يوازره على حاله وعلامته معاونته على البر والتقوى ونهيه إياه عن الإثم والعدوان، انتهى باختصار. «**وافزع للعلي**» والجأ إليه وتضرع له.. قال في الرسالة: وليلجأ إلى الله فيما عسر عليه من قياد نفسه ومحاولة أمره موقنا أنه المالك لصلاح شأنه وتوفيقه وتسديده لا يفارق ذلك على ما فيه من حسن أو قبيح ولا ييأس من رحمة الله، النفراوي: معنى قيادة نفسه امتثالها وميلها إلى الطاعة فيلجأ إلى الله أن يذللها ويجعل الطاعة سهلة عليها لأنه المسهل والموفق ولذلك ينبغي المواظبة على الدعاء بقوله اللهم ملكنا أنفسنا ولا تسلطها علينا. وفي المفيد: من أعظم ما يعين على نيل المطلوب التوبة والتضرع إلى الله تعالى على أي حالة كنت.. قال ابن أبي جمرة ــ بعد كلام له ــ وفيه دليل لطريق القوم لأنهم يقولون ارجع إلى مولاك على أي حالة كنت تجده بك رحيما وقال بعضهم اجعل قلبك خزانة سرك ومولاك موضع شكواك. «**وزر قبور الصالحين**» وهم القائمون بما وجب عليهم من حقوق الحق والخلق

وَتُسْتَحَبُّ تَوْبَـةٌ مِـنَ الزَّلَـلْ فِي كُرْهٍ اوْ غَفْلَةٍ اوْ غَيْرِ الأَجَلّ
غَايَتُهَـا التَّوْبَـةُ كُلَّمَـا غَفَـلْ عَن رَبِّهِ سُبْحَانَهُ عَزَّ وَجَلّ

«يسهل» المتاب عليك، الشيخ زروق : كان شيخنا أبو عبد الله القوري رحمه الله يقول : إذا كانت الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين فكيف بزيارتهم ومحل اجتماعهم على ربهم، ولبعضهم وأجاد :

اسرد حديث الصالحين وسمهم فبذكرهم تتنزل الرحمات
واحضر مجالسهم تنل بركاتهم وقبورهم زرها إذا ما ماتوا

وفي كلام الشيخ أبي إسحاق إبراهيم التازي رضي الله عنه :

زيارة أرباب التقى مرهم يبري ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث في الصدر الخلي إرادة وتشرح صدرا ضاق من شدة الوزر
وتنصر مظلوما وترفع خاملا وتكسب معدوما وتجبر ذا كسر

إلى أن قال :

عليك بها فالقوم باحوا بسرها وأوصوا بها يا صاح في السر والجهر
فزر وتأدب بعد تصحيح نية تأدب مملوك مع المالك الحر
ولا فرق في أحكامها بين سالك مرب ومجذوب وحي وذي قبر

وقال ابن باديس :

ولا تسمعن من قاصر النفع فيهم على من يكن حيا فذاك من الطلس
فإن شهود النفع ينفي مقاله ولاسيما والقوم نصوا على العكس

«**وتستحب توبة من**» ارتكاب «**الزلل في كره او غفلة او**» الزلل في «**غير الأجل**» يعني في خلاف الأولى، وفي نسخة :

وتندب التوبة ممن زلاَّ في كره او غفلة او عن الاولى

أي الأفضل، النفراوي : قد تكون التوبة مستحبة وهي التوبة من ارتكاب المكروهات وأكل المتشابهات وهي توبة الزهاد، وفي المباحث عن جسوس أنه بعد أن ذكر أنها تطلب من المعصومين والمحفوظين.. قال لكن يبقى النظر في كون التوبة من غير الذنوب واجبة. «**غايتها**» أي نهايتها «**التوبة كلما غفل**» طرفة عين «**عن**» شهود «**ربه سبحانه عز وجل**» قال في الخاتمة : للتوبة بداية ونهاية فبدايتها

إن عَاهَدَ المُرِيدُ شيْخاً قَبْلَمَا تَابَ إِلَى ٱللَّهِ وَأَرْضَى الخُصَمَا
لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ وَلَوْ بَلَغَ مَـا بَلَغَ مِن كَشْفِ القِنَاعِ نُظِمَا

التوبة من الكبائر ثم الصغائر ثم المكروهات ثم من خلاف الأولى ثم من رؤية الحسنات ثم من رؤية أنه صار معدودا من فقراء الزمان ثم من رؤية أنه صدق في التوبة ثم من كل خاطر مذموم وأما نهايتها فالتوبة كلما غفل عن شهود ربه طرفة عين.

وقد مر أن توبة العارف لا نهاية لها. وفي القشيري : سئل ذو النون المصري عن التوبة فقال : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة. وقال النوري : التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عز وجل.. قال عبد الله التميمي : شتان ما بين تائب يتوب من الزلات وتائب يتوب من الغفلات وتائب يتوب من رؤية الحسنات. وفيه أيضا سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول : التوبة على ثلاثة أقسام أولها التوبة وأوسطها الإنابة وآخرها الأوبة فكل من تاب لخوف العقوبة فصاحب توبة ومن تاب طمعا في الثواب فصاحب إنابة ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب أو رهبة من العقاب فصاحب أوبة، وقال أيضا : التوبة صفة المومنين ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيه المومنون﴾ والإنابة صفة الأولياء والمقربين ﴿من خشي الرحمٰن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين ﴿نعم العبد إنه أواب﴾، انتهى باختصار.

«**إن عاهد المريد شيخا**» أي دخل تحت عهده «**قبلما تاب إلى الله**» من سائر الذنوب الظاهرة والباطنة «**و**» قبلما «**أرضى الخصما**» في العرض والمال «**لم ينتفع به**» لا في الظاهر بالامتثال ولا في الباطن بصفاء القلب وصقالته فكمن دنا من الصلاة وفي يده نجاسة لا يعفى عنها أو لمعة لم يصل لها الماء فصلاته باطلة. «**ولو بلغ**» ذلك الشيخ «**ما بلغ**» فكان من أكبر الأولياء فإنه لا يقدر أن يسير به في طريق أهل الله خطوة إلا إن طهره قبل ذلك، وهذا «**من كشف القناع**» عن شهية السماع «**نظما**» وفي القشيري أنه يجب على المريد أن يحصل من علم الشريعة ما يؤدي به فرضه وأنه ياخذ بالأحوط إن اختلفت عليه فتاوي الفقهاء ويقصد دائما الخروج من الخلاف فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين وأصحاب

الحوائج والأشغال وهؤلاء ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحٰنه ولهذا قيل إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله تعالى ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى.. ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا هذا أبو يزيد البسطامي يقول: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان. وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكنها لا تثمر كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفسا فهو عابد هواه لا يجد نفاذا. ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله سبحانه من كل زلة فيدع جميع الزلات سرها وجهرها صغيرها وكبيرها ويجتهد في إرضاء الخصوم أولا ومن لم يرض خصومه لا يفتح له من هذه الطريقة بشيء وعلى هذا النحو جروا ثم بعد هذا يعمل في حذف العلائق والشواغل فإن بناء هذا الطريق على فراغ القلب.

تتمة: في الاحياء: اعلم أن الواجب على من وقع منه ذنب التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة؛ لتمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح فأما بالقلب فليكفر بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول: رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي، وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار، وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا: أربعةٍ من أعمال القلوب وهي: التوبة والعزم على التوبة وحب الإقلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له، وأربعة من أعمال الجوارح وهي: أن يصلي عقب الذنب ركعتين ثم يستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة ويقول سبحٰن الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم يتصدق بصدقة ثم يصوم يوما. وفي بعض الآثار: يسبغ الوضوء ويدخل المسجد ويصلي ركعتين. وفي بعض

وَحَبْسُكَ النَّفْسَ عَلَى أَحْكَامِ رَبِّكَ هُوَ الصَّبْرُ ذُو المَقَامِ
لِعِلْمِ أَنَّ الشَّهَوَاتِ جُنَّهْ لِلنَّارِ وَالكُرْهَ حِجَابُ الْجَنَّهْ

الأخبار : يصلي أربع ركعات وفي الخبر : (إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تكفرها : السر بالسر والعلانية بالعلانية) ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب اليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار. انتهى باختصار يسير.

وفي ابن زكري عن الشيخ زروق : إذا خطر لك نزوع إلى الذنب بعد التوبة فضع يدك على صدرك قائلا : سبحٰن الملك الخلاق ﴿إن يشأ يذهبكم ويات بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز﴾ سبعا تجد بركة ذلك لوقته لاسيما إن أضفت له وجود الاستغفار والصلاة على النبي المختار. «**وحبسك النفس على أحكام ربك هو الصبر ذو المقام**» الشريف والمنزل المنيف وهو المقام الثاني من مقامات اليقين. قال الخواص : الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة وهذا إشارة إلى قسمين منه وهما : الصبر عن المعاصي وعلى الطاعة قاله ابن زكري. وفي البصائر : قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : قد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعا وهو واجب بإجماع الأمة وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر. وكل حسنة لها أجر محصور من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصبر فإنه لا يحصى أجره ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وقد ذكر الله للصابرين ثمانية أنواع من الكرامات : هذه إحداها والمحبة ﴿والله يحب الصابرين﴾ والغرفة ﴿يجزون الغرفة بما صبروا﴾ والبشارة والصلاة والرحمة والهداية ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ والنصر ﴿إن الله مع الصابرين﴾ وفي الحديث : (النصر مع الصبر والفرج مع الكرب واليسر مع العسر) كما في ابن حمدون، الغزالي : الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وهذا الثبات حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادة في الدنيا والآخرة ولذا قال : «**لِعِلْم**» صلة حبسك «**أن الشهوات جنه**» بالضم أي ستر «**للنار**» المناوي : الشهوات ما يستلذ من أمور الدنيا مما منع الشرع منه أصالة أو لاستلزامه ترك مامور وألحق به الشبهات

عَنِ الْمَعَاصِي وَعَلَى الْبَـلاَءِ أَوِ العِبَـادَةِ وَفِـي النَّعْمَـاءِ

والإكثار من المباحات خوف الوقوع في الحرام «و» لعلم أن «**الكُرْه**» بالضم والفتح المكروه «**حجاب الجنه**» روى الشيخان : (حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره) أي بما أمر المكلف بمجاهدة نفسه فيه فعلا وتركا كالإتيان بالعبادة على وجهها والمحافظة عليها وتجنب المنهي قولا وفعلا وأطلق عليها مكاره لمشقتها وصعوبتها على العامل فلا يصل إلى النار إلا بتعاطي الشهوات ولا إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم. قاله المناوي. وفي رواية : (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) المناوي : حفت الجنة بالمكاره أي أحاطت بنواحيها جمع مكرهة وهي ما يكرهه المرء ويشق عليه من القيام بحقوق العبادة على وجهها كإسباغ الطهر في الشتاء وتجرع الصبر على المصائب قال القرطبي : وأصل الحف الدائر بالشيء المحيط به الذي لا يتوصل إليه إلا بعد أن يتخطى غيره فمثل المصطفى ﷺ المكاره والشهوات بذلك فالجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره والصبر عليها والنار لا ينجى منها إلا بفطم النفس عن مطلوباتها. قال ابن حجر : وهذا من جوامع كلم المصطفى ﷺ وبديع بلاغته في ذم الشهوات وإن مالت إليها النفوس والحث على الطاعات وإن كرهتها وشقت عليها. «**عن المعاصي**» في الشرح أنه صلة حبسك وانظر هل الأولى جعله بدلا من قوله على أحكام ربك أو حال ؟ ورب البيت أدرى.. قال في النصيحة : والصبر حبس النفس على أحكام الرب. ابن زكري : هذا يدور على أربعة أقسام : أولها حبس النفس عن المعاصي ثم ذكر بقية الأقسام بيد أنه حذف الصبر في النعماء وجعل ما لا يرتبط باختيار العبد قسمين كما ياتي إن شاء الله تعالى عن الغزالي. وقال في الخاتمة : ومن الأدب الصبر وهو لغة : الحبس وشرعا : حبس النفس على العبادة ومشاقها والمصائب وحرارتها وعن المنهيات والشهوات ولذاتها، فتأمل ذلك.

والصبر عن المعاصي إليه الإشارة بقوله ﷺ : (المجاهد من جاهد هواه والمهاجر من هجر السوء) والصبر عن المعاصي أشد لاسيما عنْ معصية صارت عادة مألوفة إذ يتظاهر فيها على بواعث الدين جندان جند الهوى وجند العادة

فَالثَّانِ أَنْ لاَ يَسْخَطَ المَقَادِرَا   قَوْلاً وَفِعْلاً بَاطِناً وَظَاهِـرَا

فإن انضم إلى ذلك سهولة فعله وخفة المؤنة فيه لم يصبر عنها إلا الصديق وذلك كمعاصي اللسان فإنها هينة سهلة وذلك كالغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس ويحتاج في دفع ذلك إلى أشد أنواع الصبر قاله الغزالي. «**وعلى البلاء**» قسم الغزالي الصبر فيما يخالف الهوى ثلاثة أقسام : الأول : الطاعات والثاني المعاصي ثم قال : القسم الثالث ما لا يرتبط باختيار العبد ولكن له اختيار في دفعه وتداركه كالذي يناله من غيره بيد أو لسان فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يجب وتارة يستحب قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعد إيمان الرجل إيمانا إذا لم يصبر على الأذى قال الله عز وجل : ﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ودع أذىٰهم وتوكل على الله﴾ وقال تعالى : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك﴾ الآية. والرابع : ما لا يدخل أوله وآخره تحت الاختيار كالمصائب بموت الأعزة وهلاك الأموال والمرض وذهاب بعض الأعضاء وسائر أنواع البلاء والصبر عليه من أعلى المقامات وفي الحديث: (إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عواده أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته توفيته إلى رحمتي) وفيه أيضا : (إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيٰمة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا) «**أو العبادة**» والنفس تنفر عن بعضها بمجرد الكسل كالصلاة وعن بعضها بالبخل كالزكاة وعن بعضها بهما معا كالحج والجهاد، والصبر على الطاعة من الشدائد قاله الغزالي، وفي البصائر : الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض وأكره من مفسدة وجود المعصية ونقله عنه الزبيدي، وفي الإحياء : قال ابن عباس رضي الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة. «**و**» الصبر «**في النعماء فالثان**» بالاجتزاء بالكسرة عن الياء يعني صبر البلاء هو «**أن لا يسخط المقادرا**» جمع مقدرة بفتح الدال بمعنى القدر مصدر قدر الله الشيء يقدُره ويقدره «**قولا وفعلا باطنا**

لِنَفْسِهِ يَقُولُ يَا نَـفْسُ وَرَدْ هَذَا وَمَا ٱللَّهُ أَرَادَ لاَ يُرَدّ
وَلَكِ فِيهِ الأَجْرُ والغَفْرُ مَعَا وَلاَ يُفِيدُ جَزَعٌ مَنْ جَزِعَـا

وظاهرا» فيضبط قلبه حتى لا يجزع وحواسه حتى لا تظهر منه شكاية وقلق لاسيما عند الصدمة الأولى، ابن حمدون : معنى الصبر على النقم كما قال ابن عباد : حبس النفس عن تعاطي أفعال أو أقوال اختيارية مضادة للحقيقة والشريعة موافقة للجبلة والطبيعة ولا يتأتى ذلك على الوجه المطلوب إلا ممن قوي يقينه وضعفت صفات نفسه وأما من كان في نهاية ضعف اليقين وقوة صفات النفس فلا يقدر على ذلك ولا يدوم عليه بل يسترسل على مقتضى طبعه بلا رادع ولا مانع حتى ربما قارب الكفر والعياذ بالله تعالى وهو نسبة الله تعالى إلى الجور وتتفاوت مراتب الناس بين هذين المعنيين تفاوتا لا ينحصر كما يتفاوتون في اليقين فمن قوي يقينه جدا لم يجد لما أصابه من النقم ألما بل ربما استحلاه واستطابه وهذا من أعلى مقامات المحبة والرضا. «**لنفسه يقول يا نفس ورد هذا**» ووقع «**و**» لا حيلة لدفعه فـ«**ما الله أراد لا يرد**» فالمقدر كائن لا محالة وقد دفع الله ما هو أعظم منه فتجلدي يانفس «**ولك**» يانفس «**فيه الأجر**» ورفع الدرجات «**والغفر**» للخطايا «**معا**» أي جميعا كما سياتي وفي الحديث : (لا يصيب المومن نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر الله من سيئاته) «**ولا يفيد جزع**» بالتحريك : عدم الصبر «**من جزعا**» بزنة فرح ﴿أجزعنا أم صبرنا﴾ فالجزع لا يفيد أي فائدة ولا مصيبة في الحقيقة مع الصبر، وفي صحيح البخاري : قال محمد ابن كعب : الجزع القول السيء والظن السيء. ابن حجر : المراد بالقول السيء ما يبعث على الحزن وبالظن السيء اليأس من تعويض الله سبحانه المصائب في العاجل مما هو أنفع له من الفوائت والاستبعاد لحصول ما وعد به من الثواب على الصبر، نقله في المفيد. وفي الخبر (أفضل العبادة انتظار الفرج) روح البيان : وذلك لأن فيه استراحة القلب وثواب الصبر؛ إذ المومن المبتلى يعتقد أن المبتلي هو الله تعالى وأنه لا كاشف له إلا هو وذلك يخفف ألم البلاء عنه ويهون عليه الصبر فيرفع الجزع ويجد الاستراحة في قلبه بخلاف حال الجاهل الذي لا يخطر بباله أن ما يجري عليه إنما هو بقضاء الله وأن الله لطيف بعباده؛ إذ ربما يعتقد أنه لا يتخلص

جَمِيلُـهُ الكِتْمَـانُ لِلْمُصِيبَـةِ وَعَدَمُ المَيْزِ مِنَ ٱلْجَمَاعَـةِ
وَمَا إِلَى ٱلطَّاعَاتِ مِنْهُ يُعْزَى مُنْقَسِمٌ إِلَـى ثَـلاَثِ أَجْـزَا
يَكُـونُ قَبْلَهَـا وَمَـعْ وَبَعْـدَا فَقَبْلَهَـا بِعَـزْمٍ أَن تُـؤَدَّى

من بلائه أبدا فينسب العجز إلى الله تعالى من حيث لا يحتسب ويتقلب في ألم البلاء صباحا ومساء فنعوذ بالله منه. «**جميله**» أي الصبر اختلف فيه فقيل: الصبر الجميل هو «**الكتمان للمصيبة**» من كمرض وفقر فإظهارها والتحدث بها قادح في الصبر مفوت للأجر وكتمانها رأس الصبر قاله المناوي، أو هو الذي لا شكوى فيه ولا إظهار وفي الخبر: (من كنوز البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة) المناوي: كتمان هذه الثلاثة كنز يدخر لصاحبه يوم فاقته لا يطلع على ثوابه ملك ولا يدفع إلى خصمائه بل يعوضهم الله من باقي أعماله أو خزائن فضله؛ ليبقى له كنزه وذلك لأنه لصفاء توحيده كتم مصائبه وأمراضه ومهماته عن الخلق صبرا ورضا عن ربه وحياء منه أن يشكو أو يستعين بأحد من بريته.

وفي الخبر: (من إجلال الله تعالى ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك) أو الصبر الجميل هو أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدرى من هو كما قال: «**و**» بمعنى أو «**عدمُ الميز من الجماعة**» فقد قيل في قوله تعالى: ﴿فاصبر صبرا جميلا﴾ الصبر الجميل هو: أن لا يعرف صاحب المصيبة إذ يشبه غيره. الزبيدي: ولا يخرج من حد الصابرين حكاية المصيبة للتداوي وللعالم يتعلم منه الصبر والرضا والصديق ليعرف الحال لا على قصد الشكوى لأن هذا مما تعم به البلوى «**وما إلى**» أداء «**الطاعات منه يعزى**» يعني الصبر عليها وهو واجب فيما يجب وندب فيما يندب «**منقسم إلى ثلاث أجزا**» لعل حذف التاء من العدد: لتاويل الأجزاء بالأحوال. فيحتاج المطيع للصبر في ثلاثة أحوال إذ «**يكون قبلها**» أي قبل الشروع فيها «**ومعْ وبعدا فقبلها**» يكون «**بعزم أن تؤدى**» جعل الغزالي الصبر أول العبادة بتصحيح الإخلاص ودفع شوائب الرياء ومكايد الشيطن ومكايد النفس وغرورها واقتصر على هذا ابن زكري. وفي الخاتمة: ومن الأدب الصبر على أداء العبادة ومشاقها قبلها ومعها وبعدها فأما قبلها فأن يصبر على تصحيح النية فيها وتحريرها وعزم العقود والوفاء بها حتى تصح ﴿وما أمروا إلا

ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (إنما الأعمال بالنيات)... إلخ فانظر هل الأولى لو قال :

يكون قبلها ومعها وورا فقبل بالتصحيح للقصد يرى
الاخلاص والدفع لما قد أفسدا من الرياء ومكائد العدى

والله تعالى أعلم، الغزالي : ولهذا المعنى قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال : ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾ الزبيدي : وهذا يسمى الصبر لله، «و» يكون «**معها بحفظها**» حال أدائها حتى يوقع العمل على شرطه «**لختمها**» أي إلى تمامها «**مع صدقه**» وإخلاصه فيحتاج المطيع إليه حالة العمل كيلا يتكاسل عن تحقيق أدائه بفروضه وسننه ويوقع ذلك على شرط الأدب مع حضور القلب ونفي الوسواس. الغزالي : وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى : ﴿نعم أجر العاملين الذين صبروا﴾ أي صبروا إلى تمام العمل وهذا يسمى الصبر مع الله «**و**» يكون «**بعدها**» أي بعد فراغها «**بكتمها**» فيصبر عن ذكرها وإفشائها والتظاهر بها رياء وسمعة وعن النظر إليها بعين العجب وعن كل ما يبطل ويحبط وقد قال تعالى : ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ ﴿ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى» فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله وأحبط أجره وقال بعض السلف : لا يتم المعروف إلا بثلاث : تعجيله وتصغيره وكتمه وكذلك الصبر بترك التكبر بها على أحد من العباد والإدلال بها على الله بل رؤية المنة والفضل وما أحوج العبادة إلى الصبر في عدم دخول هذه الآفات عليها وهذا القسم يسمى الصبر بالله وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾.

تنبيه : الصبر ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرم فالصبر على أداء الواجب وعن المحظورات فرض وعلى المكاره نفل والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتا وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله من جهة مكروهة في الشرع

وَفِي الإِلَى بِقَيْدِهَا بِالشُّكْـرِ وَعَدَمِ الطَّغْوَى بِهَا وَالْكِبْـرِ
وَصَرْفِ نَفْسِهِ عَنِ الرُّكُـونِ إِلَى سَرَابِ قَاعِهَا الْمَمْنُـونِ

انظر الإحياء والخاتمة. الزبيدي : وهذا يدلك على أن الصبر لا يراد لذاته. المناوي : قال ابن القيم : الصبر ينقسم إلى الأحكام الخمسة فالواجب الصبر على فعل الواجب وترك المحرم وتحمل المصيبة والمندوب الصبر على فعل المندوب وترك المكروه والمحرمُ الصبر على نحو ترك الأكل حتى يموت والصبر على نحو حية أو سبع أو غرق أو كافر يقتله والمكروه الصبر على نحو قلة الأكل جدا وعن جماع حليلته إذا احتاجت[6] والمباح على ما خير بين فعله وتركه. «و» الصبر «**في**» حالة «**الإلى**» بالكسر أي النعمة «**بقيدها بالشكر**» فلا يبذلها في هوى ولا يستعين بها في معصية، بل يأخذها من حقها ويضعها في حقها فيكون من الصابرين الشاكرين «**وعدم الطغوى بها**» قال في البصائر : طغي كرضي طغيا وطُغيانا وطِغيانا وطغا يطغو طغوا وطغوانا بضمهما : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر وأسرف في المعاصي والظلم قال تعالى : ﴿إن الإنسان ليطغى﴾ وقال تعالى : ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ والطغوى الاسم منه قال تعالى : ﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ «**والكبرِ**» على الناس بها «**وصرف نفسه عن الركون إلى سراب قاعها الممنون**» : المقطوع قال في الخاتمة : من الأدب الصبر في النعم والعافية بأن لا يجريها في مخالفة فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى قيل : البلاء يصبر عليه المومن والعافية لا يصبر عليها إلا صديق قالت الصحابة لما فتحت عليهم الدنيا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية أي لا يركن إليها ويعلم أن ذلك مستودع عنده وعسى أن يُسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه بالفرح بها ولا ينهمك في اللذة والتنعم والهوى واللعب وأن يرعى الحقوق في المال بالإنفاق وفي البدن ببذل المعونة للخلق وفي لسانه ببذل الصدق وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل

---

(6) هكذا ولعله احتاج.

وَمِنهُ مَندُوبٌ كِعِنْدَ الصَّدْمَةِ   الاولَى وَكَتْمِ الفَقْرِ وَالمُصِيبَةِ
نَيْلِ الكَرَامَاتِ وَرُؤْيَةِ العِبَـرْ   كَذَا الإِمَامُ السُّهْرَوُرْدِيُّ ذَكَرْ

بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر. قاله الغزالي. «**ومنه**» ما هو «**مندوب كعند الصدمة الاولى**» أصل الصدم : ضرب الشيء الصلب بمثله فاستعير للمصيبة الواردة على القلب. المناوي : استعمل مجازا في كل مكروه وقع بغتة. «**وكتم الفقر**» أي إخفائه «**و**» سائر أنواع «**المصيبة**» كالمرض فهو من عطف العام على الخاص.

قال في القوت : ومن الصبر كتمان المصائب والأوجاع وترك الاستراحة إلى الشكوى بهما فذلك هو الصبر الجميل قيل هو الذي لا شكوى فيه ولا إظهار. وقد مر ذلك. وكتم «**نيل الكرامات**» فتصبر على كتمان ما تجده منها «**ورؤية العبر**» جمع عبرة أي كتم ما تراه منها «**كذا الإمام السهروردي ذكر**» في عوارفه ونصه : ومن الصبر الذي هو فضل : الصبر على الفقر والصبر عند الصدمة الأولى وكتمان المصائب والأوجاع وترك الشكوى والصبر على كتم المنح والكرامات ورؤية العبر والآيات. وفي الخاتمة : ومن أنواع الصبر : الصبر عن إظهار الكرامات وعن الإخبار بكشف القدرة وهو من حقيقة الزهد ومن حسن الأدب معه تعالى ومن معنى الحياء منه وهو طريق المحبين. وقال في كشف القناع : ومنه ــ يعني الأدب ــ الفرار من إظهار المعاني وذلك لأن المعاني نور وكلما تراكمت الأنوار في قلب العبد تمكن وقوي استعداده وكلما أظهر معنى خرج النور أولا فأولا فلا يثبت له قدم في الطريق، ومن كلامهم : أول ما يجب على سالك طريقتنا هذه ترك الدعاوي الصادقة وإخفاء المعاني الخارقة، وفي الحكم : لا ينبغي للسالك أن يعبر عن وارداته فإن ذلك مما يقل عملها في قلبه ويمنعه وجود الصدق مع ربه. زروق : ذكر الشيخ حكمتين قلة عملها ومنعها الصدق وبقي ثالث وهو الحرمان من التحقق بها لأن المريد إذا تكلم صاحب علم لا صاحب حال. وفي فتاوي الهيتمي : قال اليافعي : ومما تفارق الكرامة فيه المعجزة أن المعجزة يجب على النبي ﷺ إظهارها والكرامة يجب على الولي إخفاؤها إلا عند ضرورة أو حال غالب لا يكون له فيه اختيار أو تقوية يقين مريد.. قال وإطلاق المحققين

أنه يجوز له إظهارها يحمل على بعض هذه الصور للعلم بأن إظهارها لغير غرض صحيح لا يجوز بخلافه لغرض صحيح وضابطه أن يكون في إظهارها مصلحة.

تتمة : قال المناوي : عدوا من الصبر الحسن التصبر على ما ينشأ عن الأقران وأهل الحسد سيما ذوي البذاءة منهم. وفي قوت القلوب : ومن الصبر كف الأذى عن الخلق وهو مقام العادلين يدخل في قوله تعالى : ﴿إن الله يامر بالعدل﴾ ثم احتمال الأذى من الخلق وهو مقام المحسنين يدخل في قوله ﴿والإحسان﴾ ومن الصبر الصبر على الإنفاق وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم الأقرب فالأقرب وهذا مقام المنفقين يدخل في قوله تعالى : ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ ومنه الصبر عن الفحشاء وهو الأمر الفاحش في العلم والإيمان والصبر عن المنكر وهو ما أنكره العلماء والصبر عن البغي وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد بالكبر والإسراف في أمور الدنيا فهذه الآية جامعة لمعنى الصبر وهي قطب القرآن ثلاث منها الصبر على العدل والإحسان والإعطاء وثلاث منها الصبر عن الفحشاء والمنكر والبغي وكان ابن مسعود يقول : هذه الآية أجمع آية في كتاب الله لأمر ونهي ومن الصبر الصبر على العيال في الكسب لهم والإنفاق عليهم واحتمال الأذى منهم فإن في العيال طرقات إلى الله تعالى أدناها الاهتمام بهم وأعلاها الرضى عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم وأوسطها الإنفاق وحبس النفس عليهم ومن فضائل الصبر حبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة ومنه حبسها على الخمول والتواضع والذلة إيثارا للآخرة على الدنيا وهربا إلى الله تعالى وتحققا بوصف العبودية وترك المنازعة والتشبه بمعاني أوصاف الربوبية تسليما للإلهية واستسلاما للأحدية فلا تخرجنك قلة الصبر عن ذلك إلى طلب شيء من ذلك فتزل قدم بعد ثبوتها، ومن الصبر إخفاء أعمال البر ومنع النفس الفكاهة والتمتع بذكرها وإخفاء المعروف والصدقات فذلك من الأدب قيل إخفاء الأوجاع والمصائب والصدقات من كنوز البر أي من ذخائره النفيسة عند الله تعالى، ومن الصبر حبس النفس على الحق وعكوفها عليه بمعاملة اللسان والقلب والجسم وقال تعالى : ﴿وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ فأفرد الصبر بإعادة التواصي به، ومنه حبس النفس عن شره الطبع الذي يظهر سوء الأدب بين يدي الرب تعالى وصبرها على حسن الأدب في المعاملة انظر القوت والخاتمة. وفي الخاتمة أيضا أن الصبر عن الأفكار الردية من أشد أنواع

وَالْعَبْدُ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْبَلاَءِ يَنْحُو إِلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءِ
إِذْ هُوَ إِمَّا نَاظِرٌ لِلأَجْرِ فَهَانَ أَوْ مُسْتَسْلِمٌ لِذِكْرِ
أَنَّهُ الْمُصَوِّرُ فَلاَ شَرِيكَ لَهْ فِي مُلْكِهِ مَا شَاءَ فِيهِ فَعَلَهْ
أَوْ بِحُبَابِ رَبِّهِ تَشَاغَلاَ عَنِ ابْتِغَائِهِ إِزَالَةَ الْبَلاَ
أَوْ مُتَلَذِّذٌ بِهِ وَهْوَ أَجَلّ نَفَرِهِ قَدْراً وَأَزْكَاهُمْ عَمَلْ

الصبر وأفضله وفُضِّل هذا النوع من الصبر لأن اختلاج الخواطر لا يسكن وأكثر جولانه إنما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لابد أن يحصل منه ما هو مقدر فهذا كله تضييع زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فإذا غفل عن نفس واحد يستفيد به أنسا بالله تعالى ومعرفة به ليستفيد بها محبة فهو مغبون.
ولشيخنا محمد سالم ابن أُلُمَّا رحمهُ الله تعالى :

حبس الخواطر كفاك كلما ذنب الجوارح فكان سُلَّما
للاستقامة وبالمحاسبه تدرك ما انفلت من مراقبه

«**والعبد في الصبر على البلاء ينحو**» يقصد وينظر «**إلى أربعة أنحاء**» جهات كما في ابن حجر عن ابن الجوزي «**إذ هو إما ناظر للأجر**» في البلاء «**فهان**» عليه فقد قيل إن امرأة فتح الموصلي ــ وكانت من العارفات ــ عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها أما تجدين ألم الوجع ؟ فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه فمن أيقن أن ثواب البلاء أعظم مما يقاسيه لم يبعد أن يرضى به. «**أو**» هو «**مستسلم**» منقاد غير معترض «**لذكر أنه المصور فلا شريك له في ملكه ما شاء فيه فعله**» وهذا أعلى درجة من ذلك «**أو بحباب ربه تشاغلا عن ابتغائه**» أي طلبه «**إزالة البلا**» ورفعه عنه «**أو**» هو «**متلذذ به**» لأنه عن اختياره نشأ فكلما قويت المعرفة بالمبتلي هان عليه البلاء. ابن جزي : التسليم فوق الصبر وهو ترك الاعتراض والتسخط ظاهرا وترك الكراهة باطنا وفوق التسليم الرضا بالقضاء وهو سرور النفس بفعل الله وهو صادر عن المحبة وكل ما يفعل المحبوب محبوب. «**وهو أجل نفره قدرا**» أي أعظم قومه الصابرين شرفا ومنزلة «**وأزكاهم عمل**» بوقف ربيعة فقد مر قوله : وذرة من عمل القلب... إلخ قال في القوت : وأصل قلة

الصبر ضعف اليقين بحسن جزاء من صبرت له؛ لأنه لو قوي يقينه كان الآجل من الوعد عاجلا إذا كان الوعد صادقا فيحسن صبره لقوة الثقة بالعطاء ولا يصبر العبد إلا بأحد معنيين : مشاهدة العوض وهو أدناهما وهذا حال المومنين ومقام أصحاب اليمين أو النظر إلى المعوض وهو حال الموقنين ومقام المقربين فمن شهد العوض عني بالصبر ومن نظر إلى المعوض حمله النظر، والصبر ثلاث معان : أوله ترك الشكوى وهذه درجة التائبين والثاني الرضى بالمقدور وهو درجة الزاهدين والثالث المحبة لما يَصْنَعُ به مولاه وهذه درجة الصادقين. ابن حمدون : أهل الرضى تارة يعطيهم الحق من المعرفة والتعظيم ما يغيبون به عن البلوى ولا يحسون وتارة يعطيهم مع الإحساس بها من السرور بموافقة إرادة مولاهم ما يتلاشى الألم في جنبه فيكون الجسم متوجعا في قبضة المصائب أسيرا والقلب عند الله فرحا بحلول البلاء مسرورا به في نعيم معجل لزوال الضيق والحرج من قلوبهم لمشاهدة الأفعال من محبوبهم فهؤلاء الصنف قلوبهم عند الله لا عندهم، وفي المشرب ـــ بعد كلام ـــ ما نصه : والصبر في الحقيقة الخروج عن الشكوى والتلذذ بالبلوى وقالوا إنه على ثلاث مراتب : الأولى : تجرع مرارة المكاره رجاء الثواب وحميد العاقبة وهذا هو التصبر لله ومثاله أن يمزج للمريض شربة من علقم وضريع في غاية المرارة فيتكلف شربها رجاء البرء وهو صبر العوام. الثانية : شهود يخفف بعض الألم ويذهب ببعض المرارة وهو الصبر بالله ومثاله أن يمزج للمريض شربة من علقم وعسل وهذا صبر المريدين. الثالثة : التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى وهذا هو الصبر على الله ومثاله أن يمزج الشربة من عسل وسكر ويقال له الاصطبار وهو صبر العارفين قلت : وهو نتيجة التوحيد الخالص وهو الاستغراق في الله تعالى ونسيان النفس وحظوظها فلا يبقى سرور إلا في اختيار الله تعالى ومواقع القدر وما قبله معلوم. انتهى منه، وسئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة ! وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى.

تنبيه : قال في البصائر : اعلم أن الشكوى إلى الله عز وجل لا تنافي الصبر فإن يعقوب عليه السلام وعد بالصبر الجميل والنبي إذا وعد لا يخلف ثم قال إنما أشكوا بثي وحزني إلى الله وكذلك أيوب عليه السلام أخبر الله عنه أنه وجده

وَالصَّبْرُ مِن أَشَقِّهِ أَنْ تَصْبِرَا   عَلَى مُجَالَسَةِ بَارِيءِ الْوَرَى
أَوْ فِي أَوَانِ شَهْوَةٍ أَوْ غَضَبِ   وَيَعْظُمُ الأَجْرُ بِقَدْرِ النَّصَبِ

صابرا مع قوله إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين وإنما ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إلى الله كما رأى بعضهم رجلا يشكوا إلى آخر فاقة وضرورة فقال يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ! ثم أنشده :

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها   صبر الكريم فإنه بك أرحم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما   تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

«**والصبر من أشقه أن تصبرا على مجالسة باريء الورى**» سبحٰنه.. قال في القوت : وأفضل الصبر الصبر على الله بالمجالسة والإصغاء إليه وعكوف الهمم عليه وقوة الوجد به وهذا لخصوص المقربين، وفسر الشيخ زروق المجالسة بملازمة القلب للذكر بلا غفلة والخضوع بلا وهلة والأدب بلا مهلة فيكرم إكرام الجليس بالمودة والتانيس وإليه الإشارة بحديث (أنا جليس من ذكرني) أي أكرمه إكرام الجليس، قال في المشرب : ومعنى المجالسة في حقه تعالى الإتحاف بالقرب والعناية والمدد والفيض بحيث إذا صدق في ذكره ملأه أنوارا وأسرارا ونحو ذلك مما هو من المواهب التي تنال بمجالسة الملوك وكيف بمجالسة ملك الملوك تبارك وذلك أن كل معنى أطلق في جانبه تعالى إذا استحال ظاهره فالمراد لازمه عند من يتأوله. «**أو**» أن تصبر «**في أوان شهوة أو غضب**» ولذا كان صبر أذى الناس من أعلى مراتبه؛ لأنه يتعاون فيه على باعث الدين باعث الشهوة والغضب معا. المناوي : الشر إما عن شهوة كالزنى أو غضب كالقتل فهما أصل الشرور ومبدؤها، وقال الغزالي : الصبر صبر عن بواعث الهوى بثبات باعث الدين، وباعث الهوى قسمان : باعث من جهة الشهوة وباعث من جهة الغضب فالشهوة لطلب اللذيذ والغضب للهرب من المولم، وقال أيضا : إنما الفضل والثواب الجزيل في ترك الزنى خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب عند صدق الشهوة وهذه درجة الصديقين ولذلك قال عليه السلام : (من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد) وقال عليه السلام : (سبعة يظلهم الله يوم القيٰمة في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله.. وعد منهم رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين) المناوي : خص ذات المنصب والجمال لأن الرغبة فيها أشد فالصبر

عنها مع طلبها له أشق، وفي الصحيحين : (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) وفي الفتح في شرح حديث لا تغضب، قال البيضاوي : لعله لما رأى أن جميع المفاسد التي تعرض للإنسان إنما هي من شهوته ومن غضبه وكانت شهوة السائل مكسورة فلما سأل عما يحترز به من القبائح نهاه عن الغضب الذي هو أعظم ضررا من غيره وأنه إذا ملك نفسه عند حصوله كان قد قهر أقوى أعدائه. «**ويعظم الأجر بقدر النصب**» أي التعب فلهذا لما كان الصبر عند قوة المصيبة أشد كان الثواب عليه أكثر، وما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر وفي الخبر (ما من عبد إلا يعطى أجره بحساب وحد إلا الصابرين يجازفون مجازفة بغير ميزان ولا حد) قال تعالى : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ قيل في التفسير : يغرف لهم غرفا والمعنى في ذلك أن الصبر أشق على النفس وأكرهه وأمره على الطبع وأصعبه فيه الألم والكظم وعنه الذل والحلم ومنه التواضع والكتم ومعه الأدب وحسن الخلق وبه يكون كف الأذى عن الخلق واحتمال الأذى منهم وهذه من عزائم الأمور التي يضيق عنها أكثر الصدور وفيه إكراه النفوس وحملها على الشدة والبوس وقد جاء (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس) انظر الخاتمة والقوت.

تنبيه : في الحطاب أن الله تعالى لم يطلب من عباده المشاق لأن القرب كلها تعظيم وتوقير وليس عين المشاق تعظيما ولا توقيرا وإنما طلب منهم تحصيل المصالح فإن لم تحصل إلا بمشقة عظم الأجر، انتهى باختصار. قال الوزاني محشي الشيخ الطيب : وعلى هذا يحمل (أجرك على قدر نصبك) وفي الذخيرة إنما قال عليه السلام (أفضل العبادة أجهدها وأجرك على قدر نصبك) لأن الفعل إذا لم يكن مشقا كان حظ النفس فيه كثيرا فيقل الاخلاص فيه، وإذا كثرت مشقته قل حظ النفس فيه فيتيسر الاخلاص وكثرة الثواب، فالثواب في الحقيقة مرتب على مراتب الإخلاص لا على مراتب المشقة. «**تكفر الذنب المصيبة**» وهي عرفا كل ما يصيب الإنسان من مكروه ففي الصحيحين (ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها) «**بلا شرط اصطبارها على ما انتخلا**» أي اختير

وَالقَائِلُونَ إِنَّهَا تُكَفِّرُ حُوبَ المُصَابِينَ وَلَوْ لَمْ يَصْبِرُوا
تَخَالَفُوا هَلْ يَحْصُلُ الثَّوَابُ مَعْ ذَلِكَ أَوْ لاَ وَبِالاَوَّلِ قَطَعْ
حَافِظُ عَسْقَلاَّنَ وَابْنُ الشَّاطِ. وَجَزَمَا أَنَّ القَرَافِي خَاطِي
فِي نَفْيِهِ مَعِيَّةَ الثَّوَابِ وَمَحْوِهَا الذَّنْبَ عَنِ المُصَابِ

من الخلاف ففي المناوي عند خبر (إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) ما نصه : وظاهر الخبر وما أشبهه ترتب التكفير على مجرد المرض — هبه انضم له صبر أم لا — واشتراط القرطبي حصوله منع بأنه لا دليل عليه واحتجاجه بوقوع التقييد بالصبر في أخبار غير ناهض لأن ما صح منها مقيد بثواب مخصوص فاعتبر فيه الصبر لحصوله ولن تجد حديثا صحيحا ترتب فيه مطلق التكفير على مطلق المرض مع اعتبار الصبر. أفاده الحافظ العراقي.. قال : وقد اعتبرت الأحاديث في ذلك فتحرر لي ما ذكرته. «**والقائلون إنها تكفر حوب المصابين**» أي ذنبهم «**ولو لم يصبروا تخالفوا هل يحصل الثواب**» ورفع الدرجات «**مع ذلك**» التكفير ؟ «**أو لا**» يحصل «**وبالاول قطع**» أحمد بن حجر «**حافظ عسقلان وابن الشاط**» أبو القاسم قاسم بن عبد الله الأنصاري «**وجزما**» كما في المفيد بموضعين «**أن**» شهاب الدين أبا العباس أحمد «**القرافي خاطي**» : غير مصيب «**في نفيه معية**» أي اجتماع «**الثواب ومحوها الذنب عن المصاب**» فقد جزم في فروقه بأن المصائب لا ترفع الدرجات ولا يترتب عليها ثواب بل تكفر الذنوب فقط قائلا : إن المثوبة لها شرطان : أحدهما : أن تكون من كسب العبد ومقدوره، وثانيهما : أن يكون ذلك المكتسب مامورا به بخلاف المكفرات فلا يشترط فيها شيء من ذلك بل قد تكون كذلك مكتسبة من باب الحسنات لقوله تعالى : ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ وقد لا تكون كذلك كما تكفر الحدود والعقوبات السيئات ومن ذلك المصائب والمولمات، انتهى باختصار. وقد خطأه ابن الشاط في ذلك قائلا : الصحيح أن رفع الدرجات لا يشترط في أسبابها أن تكون مكتسبة ولا مامورا بها فمنها ما يكون سببه كذلك ومنها ما لا يكون سببه كذلك ومن ذلك الآلام وجميع المصائب فانظره، والذي وقفت عليه — الآن — لابن حجر هو قوله في شرح حديث (ما من مصيبة... إلخ) ما نصه : وفي هذا الحديث

تعقب على الشيخ عزالدين بن عبد السلام حيث قال : ظن بعض الجهلة أن المصاب ماجور وهو خطأ صريح فإن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب والمصائب ليست منها بل الأجر على الصبر والرضا ووجه التعقب أن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة وأما الصبر والرضا فقدر زائد يمكن أن يثاب عليهما زيادة على ثواب المصيبة قال القرافي : المصائب كفارات جزما سواء اقترن بها الرضا أم لا لكن إن اقترن بها الرضا عظم التكفير وإلا قل كذا قال، والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها وبالرضا يوجر على ذلك فإن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازيه، انتهى منه.

«**وبمجرد**» حصول «**البلاء توجر**» عليه «**ولرضا وصبر اجر آخر**» زائد على ثواب المصيبة كما في القسطلاني.

فائدة : في الجامع الصغير (من أصيب بمصيبة فذكر مصيبته فأحدث استرجاعا وإن تقادم عهدها كتب الله له من الأجر مثله يوم أصيب) المناوي : لأن الاسترجاع اعتراف من العبد بالتسليم وإذعان للثبات على حفظ الجوارح ولأنه قد تكلم بتلك الكلمة ثم دنسها بسوء أفعاله وأخلقها فإذا أعادها فقد جدد ما وهى وطهر ما تدنس.. قال القاضي : وليس الصبر بالاسترجاع باللسان بل به وبالقلب بأن يتصور ما خلق لأجله فإنه راجع إلى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى ما بقي عليه أضعاف ما استرده منه فيهون على نفسه ويستسلم له. وقال بعضهم : جعل الله هذه الكلمة ملجئا لذوي المصائب لما جمعت من المعاني العجيبة، انتهى منه. ويعني بالكلمة إنا لله وإنا إليه راجعون. ولمحمد مولود بن أحمد فال رحمهما الله تعالى :

ينـدب الاسترجـاع للمصيبـة   الدنيويـة أو الدينيـة
ومـن تلاهـا كلمـا تذكـرا   كأجـره يـوم المصاب أجـرا

وفي الجامع أيضا : (من أصيب بمصيبة في ماله أو جسده وكتمها ولم يشكها إلى الناس كان حقا على الله أن يغفر له) المناوي : لا يناقضه قول النبي ﷺ في مرضه (وا رأساه) وقول سعد قد اشتد بي الوجع يا رسول الله وقول عائشة

وَخَيْرُ أَوْقَاتِكَ وَقْتٌ تَشْهَـدُ فِيهِ الأَشَى لِمَنْ إِلَيْهِ يُصْمَدُ
فَمَنْعُــهُ سُبْحَنَـــهُ امْتِنَـــانُ كَمَا العَطَا مِنْ خَلْقِهِ حِرْمَانُ

وارأساه فإنه إنما قيل على وجه الإخبار لا الشكوى فإذا حمد الله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى بخلاف ما لو أخبر بها تبرما وتسخطا فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها وقد يعاقب بالنية والقصد.

«**وخير أوقاتك**» أيها المريد الصادق «**وقت تشهد فيه الأشى**» بالفتح أي الاضطرار أشي إليه كرضي اضطر. «**لمن إليه يصمد**» في جميع الحوائج أي يقصد وهو الله تعالى.. قال في الحكم : خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وترد فيه إلى وجود ذلتك، الشيخ زروق : فتسكن النفس عن الدعوى ويدوم وقوفها بباب المولى ومن هنا كان أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل «**فمنعه سبحٰنه**» وعدم إعطائه «**امتنان**» وإحسان حيث لم يغب قلبك عنه فهو وإن كان منعا ظاهرا إعطاء باطنا لأنه ألزمك الوقوف ببابه وعافاك من وجود حجابه. زروق : لأن المنع منه تعالى يقتضي اللجاء إليه والدوام بين يديه وحسن الاختيار فيما وجه به إليه إذ لا يمنعك من بخل ولا عدم ولا افتقار ولا احتياج وإنما يمنعك رحمة بك فالعطاء منه هو العطاء والمنع منه هو عين العطاء لمن فهم مراده به ولكن لا يفهم العطاء في المنع إلا صديق «**كما العطا من خلقه**» أي إذا أعطوك شيئا فأخذته غافلا عن مولاك فهو وإن كان عطاء ظاهرا «**حرمان**» من وجوه ثلاث أحدها تقلد المنة وقد قال الحكماء : الصبر على العدم أيسر من تقلد المنن الثاني صرف الوجه إليهم والأنس بهم وربما أدى إلى الاعتماد عليهم فكان سبب الطرد والإبعاد والعياذ بالله الثالث شغل القلب بهم مكافأة وغيرها طلبا للسلامة من الذل معهم وإلا كنت ذليلا فيهم وقد قيل عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم لأن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك ولعدو ترجع به إلى الله تعالى خير من صديق يصدك عن الله، وفي وصية علي كرم الله وجهه : لا تجعل بينك وبين الله منعما واعدد نعمة غير الله عليك مغرما فلذلك قال القائل :

وَكُلُّ مَا يُكَدِّرُ اللَّـذَّاتِ   فَهُـوَ قَائِـدٌ إِلَـى النَّجَـاةِ

فلا ألبس النعمى وغيرك ملبسي   ولا أقبل الدنيا وغيرك واهبي

قاله زروق. «**وكل ما يكدر اللذات**» على الإنسان «**فهو**» سبب «**قائد إلى النجاة**» ففي الإحياء في كتاب ذكر الموت ما نصه : وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل فإن المنهمك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذته وكل ما يكدر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة.

ابن عباد : البلايا التي يبتلي الله بها عباده مناقضة لإرادتهم ومنغصة لشهواتهم وكل ما أزعج النفس ونغصها وآلمها فهو محمود العاقبة من قبل أن ذلك راد لها إلى الله تعالى وملازمة بابه بصدق اللجإ والافتقار وهذا هو أعظم فوائد البلايا ويجد ذلك من نفسه كلما نزلت به بلية أو أصابته رزية. انظره.

ثم تكلم رحمه الله تعالى على الشكر وهو الثالث من مقامات اليقين.. قال في البصائر : وهو تصور النعمة وإظهارها وقيل هو الثناء على المحسن بما أولى من المعروف يقال شكرته وشكرت له وتعديه باللام أفصح قال تعالى : ﴿واشكروا لي﴾ ثم قال : واعلم أن الشكر أعلى منازل السالكين وفوق منزلة الرضا فإنه يتضمن الرضا وزيادة والرضا مندرج في الشكر إذ يستحيل وجود الشكر بدونه وهو نصف الإيمان وقد أمر الله به ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن جزائه وجعله سببا للمزيد من فضله وحارسا وحافظا لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق له اسما من أسمائه فإنه سبحانه هو الشكور وهو موصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورا وهو غاية رضا الرب عن عبده وأهله هم القليل من عباده ثم ساق أدلة ذلك من الكتاب فانظرها فيه، واعلم أن الشكر أيضا ينتظم من علم وهو معرفة النعمة من المنعم ومن حال وهو الفرح الحاصل بإنعامه ومن عمل وهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان قال في الخاتمة : الشكر قسمان عام وهو الحمد باللسان وأن يعرف أن النعمة من الله تعالى، وخاص وهو الحمد باللسان والمعرفة بالجنان

وَالشُّكْرُ صَرْفُ الْعَبْدِ مَا أَوْلاَهُ   مَوْلاَهُ مِن نُعْمَاهُ فِي رِضَاهُ
مُتَّضِعاً وَفَرِحاً بِالْمُنْعِمِ   عَليهِ لاَ بِفَوْزِهِ بِالنِّعَمِ

والخدمة بالأركان وحفظ الجوارح عما لا يحل، وينتظم الخاص من شيئين علم وهو شهود النعمة من المنعم وعلم أنها منه وعمل وهو المشار إليه بقوله : «**والشكر صرف العبد**» أي استعماله «**ما أولاه**» أي أعطاه «**مولاه من نعماه**» وفي نسخة نداه «**في رضاه**» مما هو مقصوده ومحبوبه حال كونه «**متضعا**» أي متواضعا ومستكينا، القشيري : حقيقة الشكر عند أهل التحقق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. «**وفرحا بالمنعم عليه**» تبارك وتعالى «**لا بفوزه بالنعم**» الشيخ زروق : الشكر فرح القلب بالمنعم لأجل نعمته حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فينطق اللسان بالثناء وتسخو الأعضاء بالأعمال وترك المخالفة، ابن حمدون : قد فهم من كلامه أمران الأول أن الشكر فعل الطاعة لا مجرد اجتناب المعصية خلاف قول الجنيد الشكر أن لا يعصى الله بنعمه، الثاني أنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام شكر بالقلب وهو اعتقاد أن النعم كلها من الله ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ وشكر باللسان وهو الثناء على الله ويدخل فيه التحدث بالنعم وإظهارها ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ ومنه شكر الوسائط بالثناء عليهم والدعاء لهم (من لم يشكر الناس لم يشكر الله) (أشكر الناس لله أشكرهم للناس) وشكر بسائر الجوارح وهو أن يعمل بها العمل الصالح قال الله تعالى : ﴿اعملوا آل داوود شكرا﴾ وسأل رجل أبا حازم فقال له ما شكر العينين ؟ فقال : إذا رأيت بهما خيرا أعلنته وإذا رأيت بهما شرا سترته، قال فما شكر الأذنين ؟ قال : إذا سمعت بهما خيرا وعيته وإذا سمعت بهما شرا دفنته، قال فما شكر اليدين ؟ قال لا تأخذ بهما ما ليس لك ولا تمنع بهما حقا هو لله فيهما، قال فما شكر البطن ؟ قال أن يكون أسفله صبرا وأعلاه علما، قال فما شكر الفرج ؟ قال كما قال الله تعالى : ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ الآية قال : فما شكر الرجلين ؟ قال : إن رأيت شيئا غبطته استعملتهما في عمله وإن رأيت شيئا مقته كففتهما عن عمله وأنت شاكر لله.

وفي البصائر : الشكر مبني على خمس قواعد خضوع الشاكر للمشكور وحبه له واعترافه بنعمته والثناء عليه بها وأن لا يستعملها فيما يكره.. هذه الخمسة

هي أساس الشكر وبناؤه عليها فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر وكل من تكلم في الشكر فكلامه إليها يرجع وعليها يدور. وفيه أيضا قال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعم ويحتمل كلامه أمرين أحدهما أن يفنى برؤية المنعم عن رؤية النعمة الثاني أن لا تحجبه رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها وهذا أكمل والأول أقوى عندهم والكمال أن يشهد النعمة والمنعم لأن شكره بحسب شهوده للنعمة وكلما كان أتم كان الشكر أكمل والله يحب من عبده أن يشهد نعمه ويعترف بها ويثني عليه بها ويحبه عليها لا أن يفنى عنها ويغيب عن شهودها، وفي العوارف عن بعضهم : الشكر هو الغيبة عن النعمة برؤية المنعم. وفي القوت : قال بعض العلماء : شكر القلب المعرفة بأن النعم من المنعم لا غير وشكر العمل كلما وهب الله عز وجل لك عملا أحدثت له عملا ثانيا شكرا منك للعمل الأول وعلى هذا يتصل الشكر بدوام المعاملة وأول الشكر عند العارفين أن لا تعصيه بنعمة من نعمه فتجعلها في طاعة الهوى فأما شكر الشاكرين فهو أن تطيعه بكل نعمة فتجعلها في سبيل المولى وهذا شكر جملة العبد وحقيقة الشكر التقوى وهو اسم مستوعب جمل العبادة التي أمر الله تعالى بها عباده في قوله تعالى : ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم﴾ الآية ثم عبر عن حقيقة الشكر بتقواه وأخبر سبحٰنه وتعالى أن التقوى هو الشكر فقال سبحٰنه وتعالى : ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ ابن جزي : اعلم أن النعم التي يجب الشكر عليها لا تحصى ولكنها تنحصر في ثلاثة أقسام نعم دنيوية كالعافية والمال ونعم دينية كالعلم والتقوى ونعم أخروية وهي جزاؤه بالثواب الكثير على العمل القليل في العمر القصير، والناس في الشكر على مقامين منهم من يشكر على النعم الواصلة إليه خاصة ومنهم من يشكر الله عن جميع خلقه على النعم الواصلة إلى جميعهم والشكر على ثلاث درجات فدرجات العوام الشكر على النعم ودرجة الخواص الشكر على النعم والنقم وعلى كل حال ودرجة خواص الخواص أن يغيب عن النعمة بمشاهدة المنعم، قال رجل لإبراهيم بن أدهم : الفقراء إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا. وفي الخاتمة : للشكر درجات يدخل في جملتها أمور دون أقصاها منها أن حياء العبد من تتابع النعم عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وبكثيف ستره شكر والاعتراف بأن النعم ابتداء من الله

تعالى من غير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر أيضا نعمة شكر وكذا حسن التواضع بالنعم والتذلل فيها وشكر الوسائط وقد قلت :

في نعمةٍ على يَدِ الإنسانِ تأتي وظيفتان إحْدَى تانِ
أن تشهدَ الله علا بذا انفردْ فلا ترى النعمةَ من سِوى الأحَدْ
فمن على يديه أجْرَى ذاكا قُهِرَ حتى عَدِمَ انفكاكَا
وذاك للتوحيدِ حقٌّ مَرْعِي ثانيهما وهُو حقُّ الشرْعِ
شكرُكَ مَن على يديه وَصَلا ذا بالدعاء والثنا ممتثلا
وعملاً بما من الشرع دُري مثل أن اشكر لي ومن لم يشكر
وربنا الشكور من أسمائه فليتخلقْ عبدُه بذائه
أفاد ذلك ابن عبَّادٍ وكم أفاد في تنبيهِه على الحكم

تنبيه : قال المناوي في شرح خبر (التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر) أي ستر وتغطية لما حقه الإظهار والإذاعة. قال بعض العارفين : ذكر النعم يورث الحب في الله ثم هذا الخبر موضعه ما لم يترتب على التحدث بها ضرر كحسد وإلا فالكتمان أولى كما يفيده قول الزمخشري : وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد أن يقتدى به وأمن على نفسه الفتنة وإلا فالستر أفضل ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل السمعة والرياء لكفى. وقد قلت :

بنعمةٍ تحدُّثُ الإنسانِ ما إن خلا من غرض نفْسَانِي
إلا إذا من الأكابر حصل فكم على غيرهِمُ الرِّيا دخل
والعبدُ إن دَرى بلا ارتياب بأنه مستوجبُ العقاب
وأن ما من الكمال بيده عاريةٌ من محض فضل سيده
تحديثه بنعم لا يُنتقَدْ إذ لا يرى فخرا بها على أحد
عزا الوزاني لأهل الباطن ذاك وهم أدرى بذي المواطن

فائدة : في النصح الأنفع : قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : العاقل من عقل عن الله ما أراد به ومنه شرعا والذي يريد الله لعبده أربعة أشياء إما نعمة أو بلية أو طاعة أو معصية فإذا كنت في النعمة فالله تعالى يقتضي منك الشكر شرعا وإذا أراد الله تعالى بك البلية فالله يقتضي منك الصبر شرعا وإذا أراد الله تعالى بك الطاعة فالله يقتضي منك شهود المنة ورؤية التوفيق شرعا وإذا

فَالنَّاسُ فِي نِعَمِهِ جَلَّ عَلَى ثَلاَثَــةٍ فَفَــرِحٌ بِهِــنَّ لاَ
مِن حَيْثُ مُهْدِيهَا وَلاَ مُنْشِيهَا بَـلْ لِتَمَتُّعِ النُّفُوسِ فِيهَــا
وَفَرِحٌ بِهَا لِمَا فِيهَا شَهِـدْ مِن أَنَّهَا تَفَضُّلٌ مِنَ الصَّمَدْ

أراد الله بك معصية فالله تعالى يقتضي منك التوبة والإنابة شرعا فمن فعل ذلك فهو عبد حقيقة بدليل قوله ﷺ (من أعطي فشكر وابتلى فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر.. ثم سكت فقالوا ماذا له يا رسول الله ؟ قال أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه : أولئك لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.

وقد قلت :

العبـــد في نعمـــة او بليـــة يكـون او طاعــة او معصيــة
الاحـوال أربـع مـدى الليـالي ومقتضى الحق بذي الأحــوال
أن يشكـر الله عـــلا ويصبرا وليشهـد المنـــة وليستغفـــرا

ولا يخفى ما فيه من النشر المرتب. «**فالناس في**» ورود «**نعمه جل**» عليهم «**على ثلاثة**» أقسام باعتبار تلقيها وقبولها والفرح بها ناقص غافل ومتيقظ عاقل وعارف كامل فالأول هو قوله «**ففرح بهن لا من حيث مهديها ولا منشيها**» عز وجل «**بل**» فرحه لقضاء وطره ونيل غرضه بها و«**تمتع النفوس فيها**» بشهواتها ولذاتها فهذا من الذين غفلوا عن المنعم بالنعمة ونسوا الله تعالى بوجود المنة فكانت هممهم مقصورة على ما يستلذونه من الأكل والشرب والجماع وغيره وربما أثار لهم ذلك خصالا مذمومة كالحرص والطمع والتسويف والاسترسال في العوائد وقلة المبالاة في الأخذ والتصرف وشدة الفرح بالموجود والحزن على المفقود وبه يقع الخسران والهلاك وسياتي أنه يصدق عليه قوله تعالى ﴿حتى إذا فرحوا﴾ الآية والقسم الثاني هو قوله «**وفرح بها**» أي بالنعم «**لما فيها شهد من أنها تفضل**» عليه دون استحقاق «**من الصمد**» فيشكره سبحانه عليها ولم يغب عنه لكن حاله ناقص من حيث أنه ملتفت إلى النعمة وعنده فرح بها وإن كان ذلك من حيث بروزها عن الحق. الغزالي : فهذا القسم داخل في معنى الشكر من أنه فرح بالمنعم ولكن لا من

وَفَرِحٌ بِهِ عَلاَ وَشَمَلاَ حَتَّى إِذَا لِمُبْلِسُونَ الأَوَّلاَ
وَتِلْوَهُ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ وَقُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمُ التَّالِي شَمَلْ

حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحثه على الإنعام في المستقبل وهذا حال الصالحين الذين يعبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه. ثم ذكر القسم الثالث وهو أرفعها فقال: «**وفرح به علا**» من حيث كمال ذاته وجلال صفاته وتقدس أسمائه وجمال أفعاله إن رأى نعمة ذكر منته وإن رأى بلية ذكر رحمته وإن جرى عليه شيء نظر إليه بلا علة فليس من الغافلين الذين شغلهم التمتع عن الإنعام ولا من الذاكرين الذين شغلهم عن المنعم وقد ضرب الناس للأقسام الثلاثة مثالا مداره على أن ملكا أعطى ثلاثة أفراس لثلاثة رجال أما أحدهم فطار قلبه فرحا بانتفاعه بالفرس وحصوله عليه لما يرجو به وهذا وزان الغافل وأما الثاني فاستشعر ذكر الملك له بهذا الفرس فأخذ في الثناء عليه وشكر نعمته ورأى المنة له في ذكره إياه بما وجه له وهذا وزان الشاكر وأما الثالث فاستشعر عظمة الملك وجلاله وأنه موصوف بالكرم والكمال الكامل من جميع جهاته وهذا وزان الفرح بالله الذي لم يشغله عنه شاغل قاله زروق. الغزالي: والأول ليس من الشكر في شيء فإنه فرح بالنعمة لا بالمنعم والثاني داخل في الشكر شيئا لكنه ضعيف بالإضافة إلى الثالث فكمال الشكر أن يكون الفرح بما يفتح الله تعالى من نعمه لا بالنعمة من حيث هي نعمة بل بها من حيث أنها وسيلة إليه إذ بنعمته تتم الصالحات وعلامة هذا أن لا يفرح لكل نعمة تلهيه عن ذكر الله بل يغتم ويفرح بما زوى الله تعالى عنه من شغل الدنيا وفضولها وهذا أكمل الشكر فمن لم يستطع فعليه بالثاني وأما الأول ففرح بالنعمة لا بالمنعم وليس ذلك من الشكر في شيء «**وشملا**» قوله تعالى: ﴿«**حتى إذا**» فرحوا بما أوتوا أخذنهم بغتة﴾ «**لمبلسون**» أي إلى قوله ﴿فإذا هم مبلسون﴾ «**الأولا**» فالآية تصدق على القسم الأول. الشرقاوي: يعني أنه ربما كان توارد النعم استدراجا من الله تعالى كلما أعطي نعمة ازداد غفلة و لم يشكر المولى عليها حتى يأخذه أخذ عزيز مقتدر «**و**» شمل «**تلوه**» أي القسم الثاني قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك «**فليفرحوا هو**» خير مما يجمعون﴾ فتصدق عليه الآية، ابن عجيبة يعني فيكون

فرحه بفضل الله وهو الإيمان ورحمته وهو القرآن وغير ذلك، هو أي فضل الله ورحمته خير مما يجمعون من حطام الدنيا وشهواتها الغرارة «**و**» قوله تعالى : ﴿«**قل الله ثم ذرهم**» في خوضهم يلعبون﴾ «**التالي**» أي القسم الثالث «**شمل**» فتصدق عليه الآية. ابن عجيبة : المراد بالقول في هذا المقام القول القلبي أي اذكر الله على الأشياء كلها تَفْنَ ولم يبق إلا مولاها ثم اترك الناس في وهمهم يلعبون، ومن جملة الأشياء النعم التي يتجلى بها فإذا ذكر الله عليها غاب في شهوده عنها واستغنى به عن كل ما سواه، قال الشبلي رضي الله عنه الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة. وقال أبو محمد الجريري رضي الله عنه : من رأى النعم ولم ير المنعم فقد حجب عن الشكر ومن رأى المنعم بغيبة النعم فقد شكره.

تنبيه : كثيرا ما يستدل الصوفية بهذه الآية على الانقطاع إلى الله والغيبة عما سواه وهو تفسير إشارة لا تفسير معنى اللفظ لأنها نزلت في الرد على اليهود حيث قالوا : ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ فقال لهم الحق تعالى : ﴿قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ فلما لم يجيبوا قال الله تعالى لنبيه ﴿قل الله﴾ أي قل لهم أنزله الله ثم لا تجادلهم بل ذرهم في خوضهم يلعبون. والصوفية رضي الله عنهم يقرون الظاهر على ظاهره ويقتبسون إشارات خفية لا يعرف مقصودهم غيرهم ولذلك رد عليهم بعض المفسرين حيث لم يعرف قصدهم قد علم كل أناس مشربهم، وأما ذكر هذا الاسم باللسان مجردا ففيه ثلاثة أقوال أحدها الجواز مطلقا والثاني الكراهة مطلقا والثالث التفصيل يجوز لأهل النهايات دون أهل البدايات والمشهور الأول وعليه طريق الشاذلية ومن تعلق بهم، كل هذا في ابن عجيبة وقد مضى الكلام في ذلك فراجعه.

«**وهو**» أي الشكر «**الصراط المستقيم الذ قعد به للانسان العدو**» أي الشيطان «**واستعد**» أي تهيأ لقطعه قال تعالى إخبارا عن إبليس اللعين : ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ قيل هو طريق الشكر هذا أحد الوجوه في الآية نقله صاحب القوت وقال فلولا أن الشكر طريق قريب يوصل إلى الله تعالى لما عمل العدو في قطعه ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال : ﴿ولا تجد أكثرهم

شاكرين﴾ وقال تعالى : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ كما قال تعالى : ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه﴾ الآية وفي الآية تنبيه على أن توفية شكر الله صعب ولذلك لم يثن بالشكر من أوليائه إلا على اثنين قال في وصف إبراهيم عليه السلام : ﴿شاكرا لأنعمه﴾ وقال في نوح عليه السلام : ﴿إنه كان عبدا شكورا﴾ وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة وختام تمنيهم فقال تعالى : ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ وقال : ﴿وآخر دعوٰيهم...﴾ الآية انظر الإحياء وشرحه.

ابن زكري : وبالجملة فالشكر كما قال الإمام أبو حامد من المقامات العالية وهو أعلى من الصبر والخوف والزهد وغيرها من المقامات لأنها ليست مقصودة في أنفسها وإنما تراد لغيرها فالصبر يراد منه قهر الهوى والخوف سوط يسوق الخائف إلى المقامات المحمودة والزهد هرب من العلائق الشاغلة عن الله جل اسمه وأما الشكر فمقصوده في نفسه ولذلك لا ينقطع في الجنة وليس فيها توبة ولا خوف ولا صبر ولا زهد والشكر دائم في الجنة ولذلك قال جل جلاله : ﴿وآخر دعوٰيهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ وإياك أن تغلط هنا فتحقر أمر العباد وتستصغر شأنهم فإنهم لم يخرجوا عن دائرة حضرة عناية الله تعالى وحيطة رعايته قال في الحكم : إذا رأيت عبدا أقامه الله بوجود الأوراد وأدامه عليها مع طول الأمداد فلا تستحقرن ما منحه مولاه لأنك لم تر عليه سيم العارفين ولا بهجة المحبين فلولا وارد ما كان ورد، وإنما المقصود من هذا الكلام بيان عظيم مزية الشكر بما له من الشفوف على مقام العبادة فافهم.

واعلم أنه يستعان على علاج القلوب البعيدة من الشكر الغافلة عنه بأمور منها ـــ كما في ابن حمدون ـــ النظر في نعم الله السابقة التي لا حصر لها ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ ومن أعظمها منة الإيمان ومننه اللاحقة ومن أجلها النظر إلى وجهه الكريم ومنها نظرك إلى نقصك وخساسة قدرك ومن أنت حتى أهلك مولاك لخدمته وذكرك سوابغ طوله ومنته وألوف من قرانك وأشباهك قد طردوا وأبعدوا ومنها استحضار فائدة شكر النعم فإنه موجب لزيادتها وبقائها وكفرها وعدم شكرها موجب لزوالها وانفصالها ومنها أن ينظر العبد أبدا إلى من هو دونه ليعرف قدر ما من الله به عليه وإلى هذين الأخيرين الإشارة بقوله رحمه الله تعالى :

بِعِلْــمِ أَنَّــهُ يَزِيــدُ مِنَنَـــهْ لَكَ وَمِـــن زَوَالِهِـــنَّ أَمَنَـــهْ
وَنَظَرِ الأَدْنَـى دُنَّـى وَالأَرْقَـى دِينـاً مَقَـامَ الشَّاكِرِيـنَ تَرَقَّـى

«**بعلم**» صلة ترق الآتي «**أنه**» أي الشكر «**يزيد مننه**» تعالى «**لك**» جمع منة ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ابن زكري قال بعض العلماء الزيادة على الشكر ليست في الدنيا وإنما هي من نعم الآخرة والدنيا أهون من ذلك، والصحيح أنه يجوز أن يكون ذلك وأن يزيد الله أيضا المومن على شكره من نعم الدنيا وأن يزيده منهما جميعا. وفيه أيضا عن الرسائل الكبرى إذا أقررت بالنعم بقي عليك أن تعرف قدرها ومعرفة قدرها أن تعرف أنها لا تليق بك من حيث أنت فيستولي عليك من الفرح بها ما يمنعك من التطلع إلى سواها وذلك هو حقيقة الشكر الذي تستوجب به المزيد «**و**» علم أن الشكر «**من زوالهن أمنه**» أي أمان ﴿إذ يغشيكم النعاس أمنة منه﴾ قال في الحكم: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها. زروق: شكر النعمة ضامن لثلاثة أشياء حفظها عن الزوال وتغير الحال بالانتقال وزيادتها في الحال وبركتها في المآل واتصال العبد بمولاه على وجه العافية بلا إخلال وعدم الشكر ضامن للسلب وتشويش القلب ومقت الرب وقد قال الحكماء الشكر قيد للموجود وصيد للمفقود. وقالوا أيضا من لم يشكر النعم سلبها من حيث لا يعلم قال تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم﴾ الآية وقال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم﴾ الآية أي إذا غيروا ما بهم من الطاعة وهي شكر النعم غير الله تعالى ما بهم أي ما من عليهم من الإحسان والكرم وأنشدوا في ذلك:

إذا كنت في نعمـة فارعهـا فـإن المعـاصي تزيـل النعـم
وداوم علـيها بشكـر الإلـه فـإن الإلـه سريـع النقـم

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: النعم وحشية قيدوها بالشكر. وفي القوت: قال الفضيل ابن عياض: عليكم بمداومة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم، وقد روي في خبر (ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه فمن تهاون بهم عرَّض تلك النعمة للزوال) ولهذا الناظم محمد مولود بن أحمد فال رحمهما الله تعلى:

وَقَالَ بَلْ نَظْرُ الأَدْنَى مُسْجَلاً   مُحَقِّقُونَ بَاعِثٌ إِلَى العُلَى

ما أسبغت نعمه جل على   أحد الا زاد ما تحملا
من مؤن الناس ومهما أعرضا   عنها فللزوال قد تعرضا

«**ونظر الأدنى**» عطف على بعلم أي وبنظرك إلى من هو دونك «**دنى**» أي في أمور الدنيا لتعرف قدر ما من الله به عليك فقد صح (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) ابن زكري : قوله أسفل منكم أي في أمور الدنيا ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فيها فهو أي النظر المذكور أجدر أن لا تزدروا أي لا تحقروا فإن المرء إذا نظر إلى من فضل عليه في الدنيا طمحت به نفسه واستصغر ما عنده من نعم الله وحرص على الازدياد ليلحقه أو يقاربه وإذا نظر للدون شكر النعمة وتواضع وحمد. قال الغزالي : وعجب للمرء كيف لا يساوي دنياه بدينه أليس إذا لامته نفسه يعتذر لها بأن في الفساق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من هو دونه لا لمن فوقه ! أفلا يكون في الدنيا كذلك ؟! «و» بنظرك «**الارق دينا**» لتقتدي به «**مقام الشاكرين ترق**» أي تصعد إليه وهذا بناء على أن الحديث الذي مر في الأمور الدنيوية فقط دون الدينية وعليه الأكثر وحمله المحققون على إطلاقه ليقع الشكر على الدين والدنيا ولذا قال : «**وقال بل نظر الأدنى مسجلا**» دنيا ودينا «**محققون باعث إلى**» مقامات الشكر «**العلى**» جمع عليا أي المرتفعة فالعبد من حيث هو لا يليق به إلا النقص فكل ما ظهر عليه فنعمة من الله وإن قل فيشكر الله أن وفقه الله لقول لا إله إلا الله ولو مرة في عمره انظر ابن حمدون. قال في الشرح : ولو قيل ينظر في الدين لهما لكان حسنا فتأمله. قلت : صرح بذلك في القوت فقد قال فيه : وفي الشكر مقامات عن مشاهدتين وأعلاهما مقام شكور وهو الذي يشكر على المكاره والبلاء والشدائد واللأواء ولا يكون كذلك حتى يشهد ذلك نعمة توجب عليه الشكر بصدق يقينه وحقيقة زهده وهذا مقام في الرضا وحال من المحبة وبهذا الوصف ذكر الله تعالى نبيه نوحا عليه السلام في قوله تعالى : ﴿إنه كان عبدا شكورا﴾ كان يشكر الله تعالى على كل حال من خير أو شر أو نفع أو ضر، وفي الخبر (ينادي مناد يوم القيٰمة ليقم الحمَّادون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة) قيل : ومن الحمادون ؟ قال : (الذين

يشكرون الله تعالى على كل حال) وفي لفظ آخر (على السراء والضراء) وقد قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾ قال ظاهرة العوافي والغنى وباطنة البلوى والفقر فهذه نعم في الآخرة كما قال رسول الله ﷺ: (لا عيش إلا عيش الآخرة) والمقام الثاني من الشكر أن ينظر العبد إلى من دونه ممن فضل هو عليه في أمور الدنيا وأحوال الدين فيعظم نعمة الله تعالى عليه بسلامة قلبه ودينه وعافيته مما ابتلي به الآخر ويعظم نعمة الدنيا عليه لما آتاه الله تعالى وكفاه فيما أحوج الآخر وألجأه إليه فيشكر على ذلك ثم ينظر إلى من هو فوقه في الدين ممن فضل عليه بعلم الإيمان وبحسن يقين فيمقت نفسه ويزري عليها وينافس في مثل ما رأى من أحوال من هو فوقه ويرغب فيها فإذا كان كذلك كان من الشاكرين ودخل تحت اسم الممدوحين وقد روينا معنى ذلك في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله تعالى صابرا شاكرا ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه ونظر في الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا).

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخَلق فلينظر إلى من هو أسفل منه) قال ابن حجر زاد مسلم (فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم) قال وفي معناه ما خرجه الحاكم من حديث عبد الله بن الشخير (أقلوا الدخول على الأغنياء فإنه أحرى أن لا تزدروا نعمة الله) قال ابن بطال هذا الحديث جامع لمعاني الخير لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدا فيها إلا وجد من هو فوقه فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله فيكون أبدا في زيادة تقربه من ربه ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالا منه فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فضل عليه بذلك من غير أمر أوجبه فيلزم نفسه الشكر فيعظم اغتباطه بذلك في معاده، وقال غيره في هذا الحديث دواء الداء لأن الشخص إذا نظر إلى من فوقه لم يأمن أن يؤثر ذلك فيه حسدا ودواؤه أن ينظر إلى من هو أسفل منه ليكون ذلك داعيا إلى الشكر وقد وقع في نسخة عمر بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه قال: (خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا من نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضل به عليه ومن نظر في دينه إلى من فوقه فاقتدى به وأما من نظر

في دنياه إلى من فوقه فأسف على ما فاته لا يكتب شاكرا ولا صابرا). ابن زكري: وما ذكر من النظر في الدين هو من حيث المجاهدة مع تعظيم ما أنعم الله عليه به منه فإن رأى نفسه محتقرة له فلينظر أيضا لمن هو دونه.

فائدة: في ابن زكري: قال ابن عباد: من كان يشاهد ما عليه من الذنوب ويغفل عما الله عليه من النعم لم يفلح أبدا لأن الغفلة عن النعم تؤدي إلى كفرانها وكفرانها يؤدي إلى سلبها ومن النعم التي يجب التنبه لها والشكر عليها توفيق العبد لأن يقول لا إله إلا الله يوما ما من الدهر وأن يصلي على النبي ﷺ أو يتلو آية من القرآن يوما ما الذي هو أثر نعمة الكلام وتوفيقه لأن ينظر في عظم السماء ورفعها بغير عمد وما يظهر فيها من النجوم والأقمار ولرؤية البحار والأنهار والنبات والأشجار على وجه الفكرة والاعتبار الذي هو أثر نعمة البصر وكم من أمثاله سلب ذلك ولم يعطه فإذا انتبه لهذه النعمة وضروبها بقي عليه أن يعرف قدرها بأن يعلم أنها لا تليق به من حيث هو وحينئذ يفرح بها، قال سيدي أبو عبد الله ابن عباد: ومن مقتضى ذلك أن يرحمه مولاه ويسمح له عن مساويه وعيوبه التي هو متصف بها لما معه من الشكر القلبي الذي هو الاعتراف بالنعم ومشاهدة حقارة نفسه وعدم استحقاقه لها.. قال: وذلك حقيقة الشكر المستوجب للمزيد.

ثم شرع يتكلم على الرجاء وهو الرابع من المقامات وعلى الخوف وهو الخامس وقد جمع ذكرهما تبعا للغزالي إذ لابد للمومن من اجتماعهما وعدم انفكاك أحدهما فقال: «**والخوف**» من الله قال في البصائر: والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف بل إنما يراد به الكف عن المعاصي وتحري الطاعة ولذلك قيل لا يعد خائفا من لم يكن للذنوب تاركا وفي الخاتمة الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس واضطراب القلب عند ذكر المخوف، والخشية أخص منه إذ هي خوف مقرون بمعرفة، والهيبة خوف مقترن بتعظيم وإجلال وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة، والإجلال تعظيم مقترن بالمحبة، فالخوف للعامة والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة تكون الخشية ومن ثم قال ﷺ: (أنا أتقاكم لله وأشدكم له خشية) الغزالي: وقد جمع

الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وناهيك بذلك فضلا فقال تعالى : ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ وقال : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقال تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك من خشي ربه﴾ وقال ﷺ : (رأس الحكمة مخافة الله) وقال ﷺ : (من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله تعالى خوفه الله من كل شيء) وقال ﷺ : (قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيٰمة وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيٰمة) «**والرجاء**» : الأمل مع الأخذ في أسباب المرجو وإلا فطمع وغرور وأمنية، قال في البصائر : والفرق بين الرجاء والتمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طرق الجد والاجتهاد والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل والرجاء ثلاثة أنواع نوعان محمودان ونوع غرور مذموم فالأولان رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه ورجل أذنب ذنبا ثم تاب منه فهو راج لمغفرته والثالث رجل متماد في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب واختلفوا أي الرجاءين أكمل رجاء المحسن ثواب إحسانه أو رجاء المذنب التائب عفو ربه وعظيم غفرانه فطائفة رجحت رجاء المذنب لأن رجاءه مجرد عن علة رؤية العمل مقرون برؤية ذلة الذنب «**واجبان**» على كل مكلف في كل حال «**بوفقهم**» أي العلماء. الزبيدي : الرجاء واجب لأنه عقد من عقود الإيمان بكمال الله تعالى، وفي البصائر : والخوف أجل منازل السالكين وأنفعها للقلب وهو فرض على كل أحد قال تعالى : ﴿وخافون إن كنتم مومنين﴾ وقال : ﴿وإياي فاتقون﴾ ومدح الله تعالى أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال : ﴿إن الذين هم من خشية ربهم... إلى قوله... وهم لها سابقون﴾. فالرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود. قال بعضهم : هما كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت. «و» هما وصفان «**متلازمان**» لا ينفك أحدهما عن الآخر وذلك لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ المعلوم لا يرجى ولا يخاف فإذن المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير

لأَنَّ مَحْضَ الْخَوْفِ يَأْسٌ وَالأَمَلْ مُجَرَّداً أَمْنٌ وَكُلٌّ انحَظَلْ

عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكا فيه.. نعم أحد طرفي الشك قد يترجح على الآخر بحضور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فإذا غلب على الظن وجود المحبوب قوي الرجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى: ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا﴾ وقال عز وجل: ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا﴾ أي لا تخافون وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه كما في الإحياء. ابن زكري: الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقي والخوف الحقيقي لا ينفك عن الرجاء ولذلك قيل الرجاء كله لأهل الخوف إلا الأمن والخوف كله لأهل الرجاء إلا اليأس. وإنما تلازما «**لأن محض الخوف**» بلا شائبة رجاء «**يأس**» وقنوط ﴿ولا ييأس من روح الله إلى القوم الكفرون﴾ «**والأمل مجردا**» حتى يفقد الخوف البتة «**أمن**» و﴿لا يأمن مكر الله إلا القوم الخسرون﴾ «**وكل**» من يأس وأمن «**انحظل**» وقد عدهما السبكي من الكبائر. زروق: بساط الكرم قاض بأن الله تعالى لا يتعاظمه ذنب يغفره، وبساط الجلال قاض بأن الله تعالى يأخذ العاصي، ولا يمهله فلزم العبد أن يكون ناظرا لهما في عموم أوقاته حتى لو أطاع بأعظم الطاعات لم يأمن من مكر الله، ولو عصى بأعظم المعاصي لم ييأس من روح الله تعالى، وبحسب ذلك فهو يتقي الله بحسب ما استطاع ويتوب إليه ولو عاد في اليوم ألف ألف مرة فافهم. ابن جزي: من عرف فضل الله رجاه ومن عرف عذابه خافه ولذلك جاء في الحديث: (لو وزن خوف المومن ورجاؤه لاعتدلا) [قال السيوطي في الدرر: لا أصل له.] إلا أنه يستحب أن يكون العبد طول عمره يغلب عليه الخوف ليقوده إلى فعل الطاعات وترك السيئات وأن يغلب عليه الرجاء عند حضور الموت لقوله ﷺ: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) واعلم أن الخوف على ثلاث درجات الأولى أن يكون ضعيفا يخطر على القلب ولا يؤثر في الباطن ولا في الظاهر فوجود هذا كالعدم والثانية أن يكون قويا فيوقظ العبد من الغفلة ويحمله على

الاستقامة والثالثة أن يشتد حتى يبلغ إلى القنوط واليأس وهذا لا يجوز وخير الأمور أوسطها. والناس في الخوف على ثلاث مقامات فخوف العامة من الذنوب وخوف الخاصة من الخاتمة وخوف خاصة الخاصة من السابقة فإن الخاتمة مبنية عليها والرجاء على ثلاث درجات الأولى رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعة وترك معصية فهذا هو الرجاء المحمود والثانية الرجاء مع التفريط والعصيان فهذا غرور والثالثة أن يقوى الرجاء حتى يبلغ الأمن فهذا حرام، والناس في الرجاء على ثلاث مقامات فمقام العامة رجاء ثواب الله ومقام الخاصة رجاء رضوان الله ومقام خاصة الخاصة رجاء لقاء الله حبا فيه وشوقا إليه. ابن حمدون : لا خلاف أن المطلوب من المحتضر تغليب الرجاء وحسن الظن لحديث مسلم عن جابر (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله) ومثل المحتضر في ذلك من نزلت به مصيبة وشدة فيطلب منه تغليب حسن الظن بالله لئلا يقع في الحزن والتسخط وفي التنزيل ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾ واختلف في الأولى في حق غيرهما هل تغليب الرجاء أو الخوف أو اعتدالهما انظر بسط ذلك فيه. التاودي : طريقة المتأخرين تغليب الرجاء وحسن الظن بالله تعالى مطلقا قال في القوت وكان ابن مسعود رضي الله عنه يحلف بالله ما أحسن عبد ظنه بالله تعالى إلا أعطاه ذلك لأن الخير كله بيده فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه لأن الذي حسن ظنه به هو الذي أراد أن يحققه له. وفي المفيد عن بعضهم كن مترددا بين الخوف والرجاء وغلب الخوف عند العمل والرجاء عند حلول الأجل والخوف عند العمل من أمور كثيرة منها الاعتماد عليه أو التلذذ به والفرح من غير رؤية منه لواهبه ومهديه يقول الله سبحٰنه : ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ الآية وكذلك يخاف عند العمل من عدم قبوله أو سلبه أو عدم الاستقامة فيه أو رؤية النفس فيه أو الرياء أو العجب فيه أو لرؤية المزية فيه على غيره أو غير ذلك من الأمور المفسدة للنية للأعمال القاطعة لصاحبها عن التحقق في مقام العبودية والرجاء عند حلول الأجل لانقطاع الأسباب والاعتماد على المالك الوهاب. القشيري : قال يحيى بن معاذ : يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنني أعتمد في الأعمال علي الإخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في ذنوبي أعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف ؟؟

أَمَّا الرَّجَا فَمَا جَرَى لَهُ سَبَبْ ... مِنِ ارْتِيَاحٍ لِمُحَبٍّ مُرْتَقِبْ
وَمَن دَرَى مَا رُسِمَ الرَّجَاءُ ... بِهِ دَرَى الْخَوْفَ إِذِ الأَشْيَاءُ

«**أما الرجا فما جرى له سبب من ارتياح**» القلب «**لمحب**» بالفتح أي محبوب عنده «**مرتقب**» منتظر وإن شئت قلت : الطمع فيما عند الله بشرط العمل في سبب الوصول إليه ولذا قال في الحكم : الرجاء ما قارنه عمل وإلا فأمنية، الغزالي : الرجاء يخالف التمني فإن من لا يتعاهد الأرض ولا يبث البذر ثم ينتظر الزرع فهو متمن مغرور فليس براج إنما الراجي من تعهد الأرض وسقاها وبث البذر وحصل كل سبب يتعلق باختياره ثم بقي يرجو أن يدفع الله الصواعق والقواطع وأن يمكنه من الحصاد بعد الإنبات ولذلك قال عز وجل : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله...﴾ الآية وقال في الفتح : وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي : من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو !!

وينتظم من علم وهو ما وعد الله العاملين في الجنة وحال وهو ما ينشأ عنه من ارتياح القلب لذلك وانتظاره وعمل وهو ما ينشأ عن هذه الحال من الاجتهاد في الطاعات وأفعال الخير لأنها علامات وكل ميسر لما خلق له وإن أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر فيما يقيمك ومن أحسن العمل إلى الله أحسن الظن به. «**ومن درى ما رسم**» أي حد «**الرجاء به درى الخوف إذ الأشياء**» تعرف بأضدادها فهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وقد يكون ذلك الخوف من جريان ذنوب وقد يكون الخوف من الله تعالى بمعرفة صفاته التي توجب الخوف لا محالة وهذا أكمل وأتم لأن من عرف الله خافه بالضرورة ولذا قال جل : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقد أوحى الله تعالى إلى داوود عليه السلام خفني كما تخاف السبع الضاري ولذلك قال النبي ﷺ : (أنا أخوفكم لله) قاله الغزالي.

وينتظم من علم وهو معرفة العبد بتقصيره في حقوق ربه وحال وسو ما ينشأ عن ذلك من تألم القلب واحتراقه بما يتوقعه في المستقبل وعمل وهو المبالغة في اجتناب المعاصي والسيئات لأنه يكدر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون

قَوِّ الرَّجَا إِذَا الْعَدُوُّ جَعَـلاَ   يَقْطَعُ مِن نَفْعِ الْمَتَابِ الأَمَلاَ

إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور لأن الخوف سوط يسوق كما أن الرجاء زمام يقود. الغزالي : وأقل درجات الخوف ما يحمل على ترك الذنوب وعلى الإعراض عن الدنيا وما لا يحمل على ذلك فهو حديث نفس وخواطر لا وزن لها تشبه رقة النساء ولا ثمرة لها. وفي البصائر في مسند الإمام أحمد وجامع الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ﷺ ﴿الذين يوتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾ هو الذي يسرق ويشرب الخمر ويزني ؟ قال : (لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه) وقال الحسن عملوا والله الصالحات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم. وفيه أيضا : قال أبو عثمان : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهرا وباطنا. وقال الأنصاري : الخوف هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر.. يعني الخروج من سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

تنبيه : قال في الإحياء : والخوف ليس بضد للرجاء بل هو رفيق له كما سياتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة، قال شارحه : لأن السبب الموجب للخوف هو بعينه سبب الرجاء لأن الصفات القديمة تعلقت بكل موجود في الوجود ومتعلقاتها لا تنقضي سرمدا فهي التي يصدر عنها كل ما ساء وسر ونفع وضر فقد قهر وجبر وأعطى ومنع كل ذلك على أتم أنواع الكمال فمن عرف ذلك من صفاته تعالى خافه ورجاه وهذا هو الرجاء لذاته الذي لا يتوقع بحسنة ولا يندفع بسيئة إنما ينشأ من فضله الذي هو فضله لمن اختصه في أزله من عباده كما أن الخوف ينشأ عن عدل الله الذي هو عدله لمن أبعده عن حضرته في أزله وينتفع بهذا الرجاء من أخرجه خوف الذنوب والعيوب إلى اليأس والقنوط وينتفع بالخوف الذي يراد لذاته من أخرجه كثرة الأعمال إلى الإدلال والأمن والاغترار.

ثم أشار إلى أمرين ينبغي تغليب الرجاء فيهما بقوله : «**قو الرجا إذا العدو جعلا**» : شرع «**يقطع من نفع المتاب الأملا**» أي الرجاء والإفراط في الخوف

فَارْجُمْهُ بِـالآيِ الْمُـبَشِّرَاتِ بِـأَصْدَقِ الْوَعْـدِ مُرَجِّيَـاتِ

المؤدي إلى القنوط إما بسبب كثرة الذنوب أو بسبب الجهل بجود الله وكرمه وقبوله للتوبة من العبد المذنب إذا رجع إليه قاله الزبيدي. «**فارجمه**» أيها الآئس أي اطرده «**بالآي**» أي باستقراء الآيات القرآنية والأخبار النبوية «**المبشرات بأصدق الوعد**» حال كونها «**مرجيات**» أما الآيات فقد قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا﴾ الآية وقال تعالى: ﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾ وأخبر تعالى أن النار أعدها لأعدائه وإنما خوف بها أولياءه فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾ الآية وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ قال: لا يرضى محمد وأحد من أمته في النار. وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول: أنتم يا أهل العراق تقولون أرجى آية ﴿قل ياعبادي الذين أسرفوا...﴾ الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾. وقال تعالى: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكٰفرين﴾ وقال تعالى: ﴿فأنذرتكم نارا تلظى...﴾ الآية، وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: (أمتي مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيٰمة دفع إلى كل رجل من أمتي رجل من أهل الكتاب فقيل هذا فداؤك من النار) وفي لفظ آخر: (ياتي كل رجل من هذه الأمة بيهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فدائي من النار فيلقى فيها) وقال ﷺ: (الحمى من فيح جهنم وهي حظ المومن من النار) وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبيء والذين آمنوا معه﴾ أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام إني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا نخزيك فيهم، انظر الإحياء فقد جلب كثيرا من الأخبار والآثار في ذلك المعنى، ويقوى الرجاء بدوام الإقبال عليه تعالى وحسن الظن به والتفكر في عظيم فضله وكرمه، قال في الخاتمة: ومما يقوي أسباب الرجاء أن الغالب على أكثر الخلق في الدنيا الخير والسلامة فسنة الله لا تجد لها تبديلا والغالب أن أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم وأنه تعالى أفاض عليهم النعم في الدنيا فيوشك أن يكون في الآخرة كذلك إذ هو ربهما وهو الغفور الرحيم وأوحى الله تعالى إلى

وَهَكَذَا إِذَا وَجَـدْتَ كَسَلاَ   عَرَضَ عِنْـدَ قَصْدِكَ التَّنَفُّـلاَ

داوود عليه السلام (حببني إلى خلقي واذكرني بالحسن الجميل وذكرهم آلائي وإحساني فإنهم لا يعرفون مني إلا الجميل) وكان أبو عفان[7] يتكلم في الرجاء كثيرا فرئي بعد موته فقال لرائيه أوقفني بين يديه فقال ما حملك على ما فعلت ؟ فقال أردت أن أحببك إلى خلقك فقال : قد غفرت لك ! وروي أن رجلا كان يعظ الناس ويشدد عليهم فيقول الله يوم القيٰمة أئيسك من رحمتي كما كنت تؤيس عبادي منها، وأولى الحكم : من علامات الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل. زروق : الناس ثلاثة معتمد على عمله وموقفه التقصير وغايته التشمير ومقامه الإسلام لدورانه مع العمل رجاء وخوفا وبساطه قوله تعالى : ﴿ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ وعلامته ما ذكر في النص ومعتمد على فضل الله تعالى وموقفه شهود المنة وغايته التبري من الحول والقوة ومقامه الإيمان لدورانه مع القدرة في إقباله وإدباره وبساطه قوله تعالى : ﴿وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون﴾ وعلامته الرجوع إلى مولاه في السراء بالحمد والشكر وفي الضراء بإظهار الفاقة والفقر ومعتمد على سابق القسمة وماضي الحكم وموقفه شهود التصريف وغايته الفناء في التوحيد ومقامه الإحسان لما شهد به حاله من المشاهدة والعيان وبساطه قوله تعالى : ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ وعلامته الاستسلام والسكون تحت جريان الأحكام فلا يزيد رجاؤه لعلة ولا ينقص لسبب فلو وزنا لتعادلا في كل حال من أحواله بل هو دائم البشر متواصل الأحزان كما جاء في صفة نبينا محمد ﷺ وقد قال بعض المحققين رضي الله عنهم من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى. «و» قو الرجاء أيضا «**هكذا إذا وجدت كسلا عرض عند قصدك التنفلا**» فرغب نفسك بما ورد فيه كخبر (لايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل... إلخ)

---

(7) في القوت أبان ابن عياش.

يَفْتَحُ بَابَ الْخَوْفِ مِنْكَ النَّظَرُ لِسُوءِ مَا مِنكَ إِلَيْهِ يَصْدُرُ
وَلَحْظُ مَا مِنهُ إِلَيْكَ جَاءِ مِن حَسَنٍ أَبْوبَةَ الرَّجَاءِ

ثم أشار إلى سبب الخوف ومفاتيحه بقوله: «**يفتح باب الخوف**» والحزن «**منك النظر لسوء ما منك إليه**» تعالى «**يصدر**» من موافقة النفس باتباع المعاصي والشهوات ومن وجود التقصير في العمل ومن إساءة الأدب. ثم أشار إلى سبب الرجاء ومفاتيحه بقوله: «**و**» يفتح «**لحظ**» أي نظر وشهود «**ما منه**» تعالى «**إليك جاء من حسن**» من النعم الدنيوية من إيجاد وإمداد ودفع النقم الدينية والدنيوية قلَّتْ أو جلت «**أبوبة الرجاء**» جمع باب.. قال في البصائر: وللسالك نظران نظر إلى نفسه وعيوبه وآفات عمله يفتح عليه باب الخوف، ونظر إلى سعة فضل ربه وكرمه وبره يفتح عليه باب الرجاء، وفي المشرب قال الشيخ عز الدين رحمه الله في قواعده جعل الله لكل معرفة حالا ينشأ عنها فمن عرف نقمة الله كان حاله الخوف ومن عرف سعة رحمة الله تعالى كان حاله الرجاء ومن عرف توحيد الرب تعالى بالنفع والضر والرفع والخفض لم يتكل في جلب النفع ودفع الضر والإعطاء والحرمان إلا عليه ولم يفوض أمره إلا إليه ومن عرف عظمته وجلاله كان حاله الإجلال والمهابة ومن عرف اطلاعه على حاله استحيا منه أن يخالفه ومن عرف سماعه لأقواله استحيا أن يقول ما لا يرضيه ومن عرف إحسانه إليه وإفضاله عليه كان حاله المحبة لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها ومن عرف جماله كانت حاله المحبة العلياء وكانت محبته أفضل من محبة من أحبه لإحسانه وإفضاله وأكثر ما تخطر المعارف بالاستحضار والأفكار أو بالسماع من الأبرار والأخبار فمن استحضر صفة من تلك الصفات أثمرت له حالا يناسبها ويوافقها وينشأ عن تلك الحال من الأقوال والأعمال ما يطابقها ويوافقها فمن لاحظ شدة النقمة حصل له الخوف وما ينبني عليه من الحزن والبكاء والانقباض وتخويف العباد ومن لاحظ سعة الرحمة حصل له من الانبساط وترجية الناس ما يناسب ما حصل له من الرجاء ومن لاحظ صفة الجمال حصل له الحب وما ينبني عليه من الشوق وخوف الفراق وأنس التلاقي والسرور والفرح ومن لاحظ سماعه لأقواله ورؤيته لأعماله كانت حاله الحياء المانع من مخالفته في الأقوال والأعمال وسائر الأحوال.

وَفـوْقَ هَذَيْـنِ مَقَـامُ الأُنْسِ   بِهِ تَعَلَى فَهْوَ عَيْنُ الـرَّغْسِ
وَالأُنْسُ مَعْنَاهُ سُرُورُ القَـلْبِ   إِذَا يُطَالِـعُ جَمَـالَ الـرَّبِّ

«**وفوق هذين**» أي مقامي الخوف والرجاء «**مقام الأنس**» بالضم «**به تعالى فهو عين الرغس**» أي الخير قال في شرح الكبريت والأنس له أقسام فأنس بالخلوة وأنس بالعبادة وأنس به تعالى، وقال في الإحياء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المسقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعونتها وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد. وقال أيضا : إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف. الزبيدي : ظهر الحق على السرائر بأن أظهر الله لصاحبها من جلاله وجماله ما شغله عن إحساسه بنفسه فضلا عن غيره من المخلوقات، وأما قوله «**والأنس معناه سرور القلب**» وفرحه «**إذا يطالع**» يستحضر وينظر «**جمال الرب**» وكماله وقربه فقد ذكره الغزالي تفسيرا للأنس الذي هو من ثمرة المحبة وانظر هل هو قسم آخر من الأنس ؟ قال في الإحياء قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة في الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى انه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته انتهى منه، الزبيدي : اعلم أن معرفة

العارفين بقرب الله تعالى منهم سبب لقربهم من الله واتصالهم به وعنه تتشعب جملة أحوالهم لأن الأحوال نتيجة الصفة المشهودة مع القرب فالقرب أصل لا يفارقه العارفون فإن اقترن به شهود الجمال أثمر المحبة والانس، وإن اقترن بالقرب شهود الجلال أثمر المهابة، وإن اقترن به شهود الكبرياء أثمر الصغار والانمحاق. انظر بقية كلامه، وفي العوارف : قد يكون من الأبس الأنس بطاعة الله وذكره وتلاوة كلامه وسائر أبواب القربات وهذا القدر من الأنس نعمة من الله تعالى ومنحة منه ولكن ليس هو حال الأنس الذي يكون للمحبين. زروق : قال شارح المجالس : العارفون قائمون بالله قد تولى الله أمرهم فإن ظهرت منهم طاعة لم يرجوا عليها ثوابا لأنهم لم يروا لأنفسهم عملا لها وإن صدرت منهم زلة. فالدية على القاتل لم يشهدوا غيره في الشدة والرخاء قيامهم بالله ونظرهم إليه وخوفهم رهبتهم ورجاؤهم هيبتهم ومعنى قوله الدية على القاتل أن المقدر لها هو المجازي عليها إن شاء عاقب وإن شاء غفر إذ لا حجر عليه آخرا كما لا حجر عليه أولا فافهم. «**وعقدك القلب على جميل ياتيك**» بوجه لا يتزلزل إلا بيقين هو «**حسن الظن بالجليل**» تعالى قاله الشيخ زروق وقد عده ابن جزي في المامورات المتعلقة بالقلوب، قال وسببه المعرفة بفضل الله وكرمه وسعة رحمته وذكر الرجاء قبله وقال إن سببه معرفة سعة رحمة الله، وكذا عده ابن عباد أحد مقامات اليقين وكأنه قريب من الرجاء، قال والأخبار والآثار في الرجاء وحسن الظن بالله وسعة رحمته أكثر من أن تحصى ومطالعتها مما يزيد المرء قوة في هذا المقام، وفي الإحياء ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لاسيما في وقت الموت، وفي القوت : ولولا

أن الرجاء وحسن الظن من فواضل المقامات ما طلبه العلماء في آخر الأوقات عند فراق العمر ولقاء المولى لتكون الخاتمة به وهم يسئلون الله حسن الخاتمة لطول الحياة. ابن عباد : حسن الظن يطلب من العبد في أمر دنياه وآخرته أما أمر دنياه فأن يكون واثقا بالله تعالى في إيصال المنافع والمرافق إليه من غير كدر ولا سعي فيها أو بسعي خفيف ماذون فيه وماجور عليه لا يفيته فرضا ولا نفلا مع سكون قلب وراحة بدن وأما في آخرته بأن يكون قوي الرجاء في قبول أعماله الصالحة

وإثابته عليها فيوجب له ذلك المبادرة لأعمال البر مع حلاوة ونشاط وقد قال يحيى بن معاذ : أوثق الرجاء رجاء العبد لربه وأصدق الظنون حسن الظن بالله تعالى ومن مواطن حسن الظن أوقات الشدائد والمحن لئلا يقع في الجزع والتسخط وحالة نزول الموت، وفي الحكم : لا يعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله. الشيخ زروق الإعراض عن حسن الظن بالله من كبائر القلوب ففي الخبر أنه ﷺ قال : (خصلتان ليس فوقهما من الخير شيء حسن الظن بالله وحسن الظن بعباد الله وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر سوء الظن بالله وسوء الظن بعباد الله) وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه قرأت ليله قل أعوذ برب الناس فقيل لي شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك يذكرك أعمالك السيئة وينسيك ألطافه الحسنة ويكثر لديك ذات الشمال ويقلل عندك ذات اليمين ليعدل بك عن حسن الظن بالله تعالى وكرمه إلى سوء الظن بالله ورسوله فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه خلق كثير من العباد والزهاد وأهل الورع والاجتهاد، قال في الحكم : إن لم تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه حسن ظنك به لوجود معاملته معك فهل عودك إلا حسنا وهل أسدى إليك إلا مننا. زروق : الناس ثلاثة أقسام قسم حسن الظن بالله تعالى لأجل وصفه وهو أعلى من الذي بعده وقسم أحب الله وحسن الظن به لأجل إحسانه وهو دون الذي قبله وقسم أحب الله وحسن الظن به لهما وهو أتمُّ حالا منهما، وفي كنون عنه : المقصود تحسين الظن بالله تعالى على كل حال وبكل وجه فقد جاء في الخبر (خصلتان ليس فوقهما... إلخ) وقال ﷺ : (إن حسن الظن بالله من حسن عبادة الله) وقال ﷺ : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) وهذا أمر بدوام حسن الظن لأن العبد لا يدري متى موته فينبغي له أن يستصحب ما يحب الموت عليه دائما. المناوي : أي لا يموتن أحدكم في حال من الأحوال إلا في هذه الحالة وهي حسن الظن بالله تعالى بأن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه لأنه إذا حضر أجله وأتت رحلته لم يبق لخوفه معنى بل يؤدي إلى القنوط وهو تضييق لمجاري الرحمة والإفضال ومن ثم كان من الكبائر القلبية فحسن الظن وعظم الرجاء أحسن ما تزوده المومن لقدومه على ربه.. ثم قال : وأفاد الحث على العمل الصالح المفضي إلى حسن الظن والتنبيه على تاميل العفو وتحقيق الرجاء في روح الله.

وَرَاغِبٌ عَـنِ الدُّنَـا احْتِقَـارَا   لِزَادِهَـا الزَّهِيـدِ وَاخْتِيَـارَا
دَارِ الْقَـرَارِ وَالنَّعِيـمِ الْبَاقِـي   إِلَـى مَقَـامِ الزَّاهِدِيـنَ رَاقِ

ثم تكلم على الزهد وهو السادس من مقامات اليقين فقال: «**وراغب عن الدنا احتقارا لزادها الزهيد**» أي القليل «**واختيارا دار القرار**» مفعول المصدر قبله أو مضاف إليه «**والنعيم الباقي إلى مقام الزاهدين راق**» خبر قوله وراغب... إلخ فالعلم بحقارة الدنيا بالنسبة لما عند الله تعالى المشار له بقوله جل: ﴿قل متاع الدنيا قليل﴾ الآية وبسرعة تقضيها وفنائها المشار له بقوله تعالى: ﴿ما عندكم ينفد﴾ إذا تقرر في القلب وباشر سويداءه أثمر حالا وهي الرغبة عن الدنيا وهذه الحال تثمر عملا وهو الاشتغال بما يرضي الله تعالى وتجنب ما لا يرتضيه من أشغال الدنيا والخوض فيها والتعلق بها. قال في الإحياء: وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك وأخذ لأنه بيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية وهي الدنيا بإسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم المبيع ولم يأخذ الثمن. وقال في العوارف: فإذا صح زهد العبد صح توكله أيضا لأن صدق توكله مكنه من زهده في الموجود فمن استقام في التوبة وزهد في الدنيا وحقق هذين المقامين استوفى سائر المقامات وتكون فيها وتحقق بها.

وللزهد ثلاث مراتب ترك المنهيات الذي هو زهد العوام وترك فضول الحلال الذي هو زهد الخواص وترك ما يشغل القلب عن الله الذي هو زهد العارفين وهو على قسمين ما يتعلق بالأمور الظاهرة كالزهد في المال والجاه والرياسة والظهور وثناء الخلق ومحمدتهم وموالاتهم ومودتهم وما يتعلق بالأمور الباطنة وهو الزهد في المقامات والأحوال بترقي الإنسان منها شيئا فشيئا وانتقاله من مقام إلى مقام بالزهد فيما هو فيه فينقله الله إلى ما هو خير منه أو التخلي عنها دفعة والمحو عنها رأسا إلى ما لا يعبر عنه ولا يظفر به إلا من منّ الله عليه به سبحٰنه كما في

وَالزُّهْدُ فِيمَا فَوْقَ الإِرْبَةِ نُدِبْ وَفِـي مُـؤْدٍّ لِمُحَـرَّمٍ يَـجِبْ

ابن حمدون. الغزالي : الزهد على درجات إحداها أن يزهد والنفس مائلة إلى الدنيا ولكن يجاهدها وهذا متزهد وليس بزاهد ولكن بداية الزهد التزهد.. الثانية أن تفر نفسه عن الدنيا ولا تميل إليها لعلمه أن الجمع بينها وبين نعيم الآخرة غير ممكن فتسمح نفسه بتركها كما تسمح نفس من يبذل درهما ليشري جوهرة وإن كان الدرهم محبوبا عنده وهذا زهد.. الثالثة أن لا تميل نفسه إلى الدنيا ولا تنفر عنها بل يكون وجودها عنده وعدمها بمثابة واحدة ويكون المال عنده كالماء وخزانة الله تعالى كالبحر فلا يلتفت قلبه إليها رغبة ونفورا وهذا هو الأكمل لأن الذي يبغض شيئا فهو مشغول به كالذي يحبه ولذلك لما ذُمَّ الدنيا عند رابعة العدوية فقالت لولا قدرها في قلوبكم ما ذممتموها، وفي الخاتمة قال ابن عيينة : الزهد ثلاثة أحرف الزاي ترك الزينة والهاء ترك الهوى والدال ترك الدنيا بجملتها وحقيقته شرعا ترك الدنيا بجملتها وترك كل ما لا قربة فيه منها مما يتنعم به فيها من مطعم ومشرب وملبس ومسكن وترك التلذذ بملاذها والخلود فيها إلى الراحات و لم يأخذ من ذلك إلا ما لابد منه لأن الله تعالى يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده وأما ترك ما يجب تركه من المحرمات فلا يسمى زهدا وأما ترك ما يجب أخذه من قوام نفسه ومن تلزمه نفقته فمعصية يستحق عليها العقوبة فالزاهد هو المستصغر للدنيا الذي انصرف قلبه عنها لصغر قدرها عنده فلا يفرح بشيء منها ولا يحزن على فقده ولا يأخذ منها إلا ما أمر بأخذه مما يعينه على الطاعة ويكون مع ذلك داعيا للشغل بذكر الله وذكر الآخرة هذا هو أرفع أحوال الزهد فمن بلغ هذه المرتبة فهو في الدنيا شخصه وفي الآخرة روحه، وقال الفضيل جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد «**والزهد فيما فوق الاربة**» أي الحاجة «**ندب و**» الزهد «**في مؤد لمحرم يجب**» قال في الخاتمة : الزهد قسمان فرض وهو ترك كل ما يعطل عن الواجبات ويوقع في بعض المحرمات ونفل وهو ترك كل ما زاد على مقدار الضرورة إلى أن قال وثمرة الزهد الواجب التمكن من إيقاع الواجبات على وجهها والتحصن من الوقوع في شبكة المحرمات بإسرها وثمرة الزهد النفل استنارة القلب بالحكم

ثُمَّ الأُمُورُ تَبَعٌ لِلْقَصْدِ تَرْكٌ لِغَيْرِ اللَّهِ غَيْرُ زُهْدِ

وتعاون الأعضاء على العبادة وكثرة نية العمل ومضاعفة ثوابه وعظم قدره وشرف محله. وقد قلت :

من حيث ذاته المباح لا ورع فيه ولا زهد نعم فيه يقع
كلاهما من كون الاستكثار من المباح موجب الاكثار
من اكتساب موقع فيما اشتبه وبطر كان المباح سببه
إلى سوى ذلك ففيه ياتي الزهد بالعرض لا بالذات
وذا به الجمع لدى القرا في يحصل بين مثبت وناف.

وفي الجامع (إنما يكفي أحدكم ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب) المناوي : وهو ما يوصل لمقصده بقدر الحاجة من غير فضلة في مأكله ومشربه وما يقيه الحر والبرد وهذا إرشاد إلى الزهد في الدنيا والاقتصار فيها على قدر الحاجة فإن التوسع فيها وإن كان قد يعين على المقاصد الأخروية لكن النعم الدنيوية قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونفعها بضرها فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله استكثار بقصد صرف الفاضل إلى ما يوصل إلى منازل الأبرار وإلا فالبعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار.

وللشافعي رحمه الله تعالى :

كم ضاحك والمنايا فوق هامته لو كان يعلم غيبا مات من كمد
من كان لم يوت علما في بقاء غدٍ ماذا تفكره في رزق بعد غد ؟!

وفي القوت : ومن أفضل الزهد الزهد في الرياسة على الناس وفي المنزلة والجاه عندهم والزهد في حب الثناء والمدح منهم لأن هذه المعاني هي من أكبر أبواب الدنيا عند العلماء فالزهد فيها هو زهد العلماء كان سفيان الثوري يقول : الزهد في الرياسة ومدح الخلق أشد من الزهد في الدينار والدرهم قال لأن الدينار والدرهم قد يبذلان في طلب ذلك. وقد قلت :

حقيقة الزهد ترى في الزهد فيما سوى الله العلي الفرد

«**ثم الأمور تبع للقصد**» فلذلك «**ترك لغير**» وجه «**الله**» تعالى «**غير زهد**» ولا

وَزُهْدُ الأَخْذُ لَهُ وَالْـمَسْكُ فَلْيَكُـنَ اخْـذُكَ لَـهُ والتَّـرْكُ

عبادة **«وزهد الأخذ له»** تعالى **«والمسك»** فمن حصل له بعض فضول الدنيا فأمسكه ليتقرب به إليه تعالى فهو زاهد **«فليكن اخذك له والترك»** المناوي : قال علي رضي الله عنه : لو أخذ رجل جميع ما على الأرض وأراد به وجه الله سمي زاهدا ولو ترك جميع ما فيها ولم يرد به وجه الله تعالى لم يسم زاهدا ولا كان لله في ذلك عابدا وليكن أخذك ما تأخذه وتركك ما تتركه لله وحده لا لغيره، وقد قلت :

روح البيان في حديث قد نقل دنياك ما عن ربك الأعلى شغل

وقال العز في قواعده : ويتحقق الزهد بقطع تعلق القلب عما ذكرناه من المحرمات والمكروهات والمباحات وليس الزهد عبارة عن خلو اليد من المال وإنما الزهد خلو القلب عن التعلق به فليس الغنى بمناف للزهد فإن قيل أيما أفضل حال الأغنياء أم حال الفقراء ؟ فالجواب : أن الناس أقسام : أحدهم من يستقيم على الغنى وتفسد أحواله بالفقر فلا خلاف أن غنى هذا خير له من فقره، القسم الثاني من يستقيم على الفقر ويفسده الغنى ويحمله على الطغيان فلا خلاف أن هذا فقره خير من غناه، القسم الثالث من إذا افتقر قام بجميع وظائف الفقر كالرضى والصبر وإن استغنى قام بجميع وظائف الغنى من البذل والإحسان وشكر الملك الديان فقد اختلف في أي حالي هذا أفضل فذهب قوم إلى أن الفقر لهذا أفضل وقال آخرون غناه أفضل وهو المختار لاستعاذته ﷺ من الفقر ولا يجوز حمله على فقر النفس لأنه خلاف للظاهر بغير دليل. المناوي قال بعضهم : الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره، قال ابن القيم : وهذا أحسن الحدود فالزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليد منها وقد جهل قوم فظنوا أن الزهد تجنب الحلال فاعتزلوا الناس فضيعوا الحقوق وقطعوا الأرحام وجفوا الأنام واكفهروا في وجوه الأغنياء وفي قلوبهم شهوة الغنى أمثال الجبال ولم يعلموا أن الزهد إنما هو بالقلب وأن أصله موت الشهوة القلبية فلما اعتزلوها بالجوارح ظنوا أنهم استكملوا الزهد فأداهم ذلك إلى الطعن في كثير من الأئمة. وفي المناوي أيضا سئل بعض الصوفية إذا كان حقيقة الزهد ترك شيء ليس له فالزاهد جاهل

وَابْنُ مُنَبِّهٍ يَقُولُ مَن نَكَبْ عَنِ الْحَرَامِ زَاهِدٌ وَلَوْ أَكَبّ
عَلَى الدُّنَا وَرَاغِبٌ مَن لَمْ يُبَالْ فِيمَا يَنَالُ هَلْ حَرَامٌ أَوْ حَلاَلْ

لأنه ما زهد إلا في عدم ولا وجود له فقال صحيح لكن شرع الزهد ليخرج من حجاب المزاحمة على الدنيا فالمحجوب كلما لاح له شيء قال هذا لي فيقبض عليه فلا يتركه إلا عجزا وأما العارف فلا قيمة للزهد عنده لعلمه بأن ما قسم له لا يتصور تخلفه وما لا يقسم لا يمكنه أخذه فاستراح والدنيا لا تزن عندهم جناح بعوضة فلا يزن الزهد عندهم مقاما وعليه قيل :

تجرد عن مقام الزهد قلبي فأنت الحق وجدك في شهودي
أأزهد في سواك وليس شيء أراه سواك يا سر الوجود

ومنهم من احتقر كل ما في الدنيا مما لم يومر بتعظيمه فرآه لشدة حقارته عدما، ومنهم من تخلق بأخلاق الله ورأى الوجود كله من شعائر الله فلم يزهد في شيء بل استعمل كل شيء فيما خلق له وهو الكامل وإنما زهد الأنبياء في الدنيا حتى عرضها عليهم تشريعا. «**وابن منبه**» وهب «**يقول من نكب**» أي عدل «**عن**» الكسب «**الحرام**» فهو «**زاهد ولو أكب**» أي أقبل «**على الدنا وراغب**» فيها «**من لم يبال فيما ينال**» منها «**هل حرام أو حلال**» فقد قال كما في المفيد : إن أزهد الناس في الدنيا وإن كان مكبا عليها حريصا من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب، وإن أرغب الناس فيها من لم يبال من أين كان مكسبه حلالا أم حراما. وفي الجامع (الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا بإضاعة المال ولكن الزهادة في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله) خرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي ذر. ابن زكري : أشار به إلى أمرين أحدهما أن الزهد لا يتوقف على تجنب المال بالكلية بل أن يتساوى وجوده وفقده ولا يتعلق به القلب والثاني أن الزهد لا ينال بمجرد ذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد فكم من الرهبان ردوا أنفسهم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديراً لا باب له وخشن الثياب وإنما مسرتهم معرفة الناس حالهم ونظرهم إليهم ومدحهم لهم فذلك لا يدل على الزهد دلالة قطعية بل لابد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا وقد يقع الغلط

ممن يسمع هذا الحديث لسوء الفهم فيرى أن جمعه للدنيا وإمساكه إياها واتخاذ الفاخر من طعامها ولباسها لا ينافي الزهد فيظن أنه زاهد مع أنه متعلق القلب بها ومن ثم قال الخواص في وصف المدعين : وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من الثياب ويموهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم ليلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما يعطى المساكين ويحتجون لأنفسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة عليهم وهم خارجون منها هذا إذا طولبوا بالحقائق وألجئوا إلى المضائق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعبئوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم وادعوها حالا لهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى، انتهى كلام الخواص، نعم إذا خرجت الدنيا من القلب وبرد منها حتى لا يفرح بإقبالها ولا ياسى على ما فاته منها لم تضر مباشرتها بالظاهر ولم يكن ذلك منافيا للزهد وقد قال الشيخ أبو محمد عبد القادر رضي الله عنه لما سئل عن الدنيا أخرجها من قلبك واجعلها في يدك فإنها لا تضرك وقال المصنف رضي الله عنه في القواعد قال لنا الشيخ أبو العباس الحضرمي رضي الله عنه ليس الشأن من يعرف تفريق الدنيا فيفرقها إنما الشأن من يعرف كيفية إمساكها فيمسكها قلت وذلك كالحية ليس الشأن في قتلها إنما الشأن في إمساكها حية وقد قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه : الدنيا جرادة ورأسها حبها وإذا قطع رأس الجرادة حلت. انتهى كلامه. ولبعضهم :

وجودك الراحة عند الفقد والبذل عند الوجد حد الزهد

وفي البصائر : قد اختلف الناس في الزهد هل هو ممكن في هذه الأزمنة أم لا ؟ فقال ابن حفص الزهد لا يكون إلا في الحلال ولا حلال في الدنيا وخالفه الناس وقالوا الحلال موجود والحرام كثير وعلى تقدير أن لا يكون فيها الحلال يكون هذا أدعى إلى الزهد فيها وتناوله منها يكون كتناول المضطر للميتة والدم ولحم الخنزير ثم اختلف هؤلاء في متعلق الزهد فقالت طائفة الزهد إنما هو في الحلال لأن ترك الحرام فريضة وقالت فرقة بل الزهد لا يكون إلا في الحرام وأما الحلال فنعمة من الله على عبده والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فيشكره على نعمه والاستعانة بها على طاعته واتخاذها طريقا إلى جنته أفضل من الزهد فيها والتخلي عنها ومجانبة أسبابها، والتحقيق أنها إن شغلته عن الله فالزهد فيها أفضل وإن لم تشغله عن الله بل كان شاكرا فيها فحاله أفضل وقد زهّد الله

أَمَّا التَّوَكُّلُ فَأَنْ تُبَاشِرَا الأَسْبَابَ مَعْ شُهُودِكَ الْمُدَبِّرَا
أَيْ عِلْمٍ أَنَّ مَا يَشَاؤُهُ يَقَعْ وَلاَ يَكُونُ غَيْرُ مَا شَا وَصَنَعْ

تعالى في الدنيا وأخبر عن خستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها ورغَّب في الآخرة وأخبر عن شرفها ودوامها وسرعة إقبالها والقرآن مملوء من ذلك قال تعالى: ﴿اعلموا إنما الحيوة الدنيا لعب... إلى قوله.. إلا متاع الغرور﴾ ﴿إنما مثل الحيوة الدنيا﴾ إلخ ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة﴾ إلخ ﴿ولا تمدن عينيك﴾ إلخ.

وفي المفيد عن الهيتمي ما نصه: واعلم أن من أهل الزهد في الدنيا من يحصل له بعض فضولها فيمسكها ليتقرب بها إلى الله تعالى ومن ثم قال أبو سليمان: كان عثمان وابن عوف رضي الله عنهما خزانتين من خزائن الله في أرضه ينفقان في طاعته وكانت معاملتهما لله تعالى بقلوبهما ومنهم من لا يمسك اختيارا ومع مجاهدة النفس وفضل ابن السماك والجنيد الأول لتحقق يقينه بمقام السخاء والزهد وابن عطاء الثاني لأنه له عمل ومجاهدة ومنهم من لا يحصل له شيء من الفضول وهو زاهد في تحصيله مع القدرة أو بدونها والأول أفضل ولهذا قال كثير من السلف أن عمر بن عبد العزيز كان أزهد من أويس. «**أما التوكل**» وهو المقام السابع «**فأن تباشرا الاسباب مع شهودك المدبرا**» عز وجل وهو من أعلى المقامات لوجهين أحدهما قوله تعالى: ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ والآخر الضمان الذي في قوله تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ قاله ابن جزي «**أي علمٍ**» بدل من شهودك أو بيان «**أن ما يشاؤه**» تعالى «**يقع ولا يكون غير ما شا وصنع**» فهو الثقة بأن حصول المطلوب وإن فعل سببه ليس إلا من الله تعالى فاتخاذ الأسباب من حرفة وتحصن وتداو وادخار وغيرها ليس بمناف للتوكل وإنما اتخذت جريا على عادة الله عز وجل في ربطه الأسباب بمسبباتها وقد لا يحصل. وينتظم من علم وحال وعمل فالعلم تيقن أن لا فاعل إلا الله والحال ما ينشأ عنه من اتكالك

في جميع أمورك عليه وثقة قلبك به واطمئنان نفسك بالتفويض إليه المثمر للإخلاص في الأعمال والدوام عليها ومن ثم كان التوكل أساس كل خير كما في النصيحة. ابن زكري: لأنه مبني على استحضار التوحيد الحقيقي بشهود أن لا

فاعل إلا الله ومقتضى هذا الشهود عدم الاعتماد على الأعمال والركون إليها. القشيري : اعلم أن التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى وإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره. وذكر أيضا عن سهل : علامة المتوكل ثلاث لا يسأل ولا يرد ولا يحبس، وعنه أيضا أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير. وفي الجامع الصغير : (خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته ولم يكن كلاً على الناس) المناوي : أي ثقيلا عليهم فإن الدنيا جارية مجرى الجناح المبلغ إلى الآخرة والآلة المسهلة إلى الوصول إليها ولهذا قال لقمان لابنه خذ من الدنيا بلاغك وابق فضول كسبك إلى آخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال محمولا وليس فيه ذم التوكل لأنه قطع النظر عن الأسباب لا تركها بالكلية فدفع الضرر المتوقع أو الواقع لا يناقض التوكل بل يجب كالهرب من نحو جدار ساقط وإساغة لقمة بالماء. وقال في الخاتمة بعد كلام والحاصل أن المعتبر القلب لا التسبب ولا تركه فإن تسبب ولكن قلبه لم يتعلق بالسبب بل بالله وحده وحسن كفايته وضمانه وقال إن الرزق مقسوم مفروغ منه إن شاء الله تعالى أقام بنيتي بهذا أو بغيره فهو متوكل حقا وإلا كان مذموما فكم من متسبب وقلبه مع الله دون السبب وكم من تارك السبب وقلبه مع السبب فالشأن إذا في القلب.. ثم قال : فائدة : يومر بالتوكل أيضا عند ظهور المخاوف من البلايا والمحن والفاقة والموت فيجب على العبد أن يثبت لها لعلمه أن المخاوف فعل من أفعال الله وما يصيب العبد منها فهو من الله ويتيقن أنه لا راد لأمر الله ولا معقب لحكمه ولا مهرب منه إلا إليه حتى يتلاشى ما يظهر من المخاوف في عينه فأهل الصدق إنما يرون ما تاتي به المخاوف من المكروه من خالقها لا منها فمتى وفق العبد لصدق الحقيقة وثبته مولاه لم يبال بظهور المخاوف في حياته ولا في قبره بعد وفاته مثل اللصوص والموت ومنكر ونكير فإنه لا يراهم لعلمه أن لا حكم لهم مع مولاهم فمن لا يرى له القلب حكما ولا قدرة لا تنظر فيه العين تعظيما ولا هيبة. **«وباعتماد القلب»** صلة تصل الآتي **«في دفع البلا أصلا»** على المصور «و» في **«رفعه**

عَلَـى الـمُصَوِّرِ وَفِــي إِيصَالِ نَفْعٍ وَحِفْظِـهِ مِـنَ الــزَّوَالِ
بَعْـدَ وُصُولِـهِ إِلَـــيْكَ تَصِلُ إِلَـى مَقَـامٍ فُطَنَـا تَوَكَّلُـــوا

إذا ما نزلا» بك «**على المصور**» من غير التفات إلى شيء دونه تعالى «**و**» باعتماد القلب أيضا عليه تعالى «**في إيصال نفع**» أصلا «**و**» في «**حفظه من الزوال بعد وصوله إليك تصل إلى مقام فطنا توكلوا**» ابن جزي : الناس في التوكل على ثلاثة مراتب الأولى أن يعتمد الإنسان على ربه كاعتماد الإنسان على وكيله المامون عنده الذي لايشك في نصيحته له وقيامه بمصالحه والثانية أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه فإنه لا يعرف سواها ولا يلجأ إلا إليها والثالثة أن يكون العبد مع ربه كالميت بين يدي الغاسل قد أسلم نفسه إليه بالكلية فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه بخلاف صاحب الثانية وصاحب الثانية له حظ من المراد والاختيار بخلاف صاحب الثالثة وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخاص الذي تكلمنا عليه في قوله : ﴿وإلٰهكم إلٰه واحد﴾ فهي تقوى بقوته وتضعف بضعفه فإن قيل هل يشترط في التوكل ترك الأسباب أم لا ؟ فالجواب أن الأسباب على ثلاثة أقسام أحدها سبب معلوم قطعا قد أجراه الله تعالى فهذا لا يجوز تركه كالأكل لدفع الجوع واللباس لدفع البرد والثاني سبب مظنون كالتجارة وطلب المعاش وشبه ذلك فهذا لا يقدح فعله في التوكل لأن التوكل من أعمال القلب لا من أعمال البدن ويجوز تركه لمن قوي عليه والثالث سبب موهوم بعيد فهذا يقدح فعله في التوكل.. ثم إن فوق التوكل التفويض وهو الاستسلام لأمر الله تعالى بالكلية فإن المتوكل له مراد واختيار وهو يطلب مراده باعتماده على ربه وأما المفوض فليس له مراد ولا اختيار بل أسند المراد والاختيار إلى الله تعالى فهو أكمل أدبا مع الله تعالى. وفي النقاية وشرحها أنه فضَّل قوم التوكل على الاكتساب بالإعراض عن أسبابه اعتمادا للقلب على الله تعالى وعكس قوم ففضلوا الاكتساب على تركه وفصل آخرون باختلاف الأحوال فمن يكون في توكله لا يتسخط عند ضيق الرزق عليه ولا يتطلع إلى أحد من الخلق فالتوكل في حقه أفضل لما فيه من الصبر والمجاهدة للنفس ومن يكون في توكله بخلاف ما ذكر فالاكتساب في حقه أفضل حذرا من التسخط والتطلع والمختار عندي

أنه لا ينافي التوكل الكسب بل يكون مكتسبا متوكلا بأن يرضى بما قسم له ولا يتطلع إلى أكثر منه وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه لقوم قعدوا وادعوا التوكل بل أنتم المتأكلون إنما المتوكل الذي يلقي بذرة في الأرض ويتوكل. رواه البيهقي. وفي رسالة القشيري عن سهل بن عبد الله التوكل حال النبي ﷺ والكسب سنته فمن قوي على حاله فلا يتركن سنته ويقرب من ذلك حديث أدع ناقتي وأتوكل فقال : (اعقلها وتوكل) ولا ينافيه أيضا ادخار قوت سنة فقد كان ﷺ يدخر قوت عياله سنة كما في الصحيحين وهو سيد المتوكلين. وفي ابن حمدون : الادخار إما حرام وهو ما كان بخلا واستكثارا وإما مندوب وهو ما كان صونا عن الاضطراب لا لعلة بل للضعف والعجز عن مقام اليقين وحال المتوكلين وأما خلاف الأولى وهو ما كان من أهل الحضرة والتفويض والتسليم الذين لا تعلق لهم بغير الله ولا استناد لهم لسوى الله وهذا في حق أنفسهم أما عيالهم فقد يدخرون لهم تسكينا لقلوبهم وإسقاطا لحكمهم عنهم ليتفرغوا لعبادة ربهم وهم في ذلك قائمون بحكم ربهم راعون لرعيتهم التي هم مسؤلون عنها. وفي المشرب حقيقة التوكل عند القوم تخليص القلب من علة التوكل وذلك أن يعلم أن الله لم يترك أمرا مهملا بل فرغ من الأشياء وقدرها فهو تعالى يدبر الأمور ويسوق المقادير إلى أوقاتها فلا ينفع طلب ولا يمنع توكل فلم يبق للعبد إلا السكون إلى سابق حكمته وانتظار قسمته قضاء لحقه تعالى لا طلبا لعوض، قلت : وهذا أيضا من نتائج التوحيد والعلم بانفراد الله تعالى بالملك والتقدير وأن علمه تعالى ومشيئته سابقان بكل شيء فلم يبق للعبد في سعيه إلا تحصيل حاصل أو طلب ما لا يحصل وكلاهما عبث وضلال فلا فائدة في الأسباب من جهة الحقيقة أصلا لكن من طلبت منه شرعا بأن أقيم فيها فلابد أن يشتغل بها قضاء لحق الحكمة التكليفية غير معتمد عليها ولا ملتفت بعقله إليها لأنها لا أثر لها جلبا ولا دفعا فيكون المتسبب بهذا المعنى متوكلا على الله تعالى في سببه لا على سببه فيصح التوكل مع وجود الأسباب كما يصح مع التجريد عنها. انتهى منه.

وللعلامة محمد بن حمَّيْنً رحمه الله تعالى :

وواجد كفاية عن السبب ... فالله أغناه وغيره اكتسب
حتما فيحرم على من قدرا ... جلوسه متكلا على الورى

فإن تعذر من الأسباب باب فغيره من الأبواب
فإن تعذرت جميعا شرعا أو عادة فخل عنك القرعا
ولا تشك في وصول الرزق وثق بذلك الضمان الصدق

وفي القوت قال بعض علمائنا : من أنكر التكسب فقد طعن في السنة ومن أنكر القعود عن التكسب فقد طعن في التوحيد وقال بعث النبي ﷺ إلى الخلق وهم أصناف كما هم اليوم منهم التاجر والصانع والقاعد ومن يسأل الناس ومن لم يسأل الناس فما قال للتاجر اترك تجارتك ولا قال للقاعد اكتسب واصنع بل جاءهم بالإيمان واليقين في جميع أحوالهم وتركهم مع الله في التدبير فعمل كل واحد بعمله في حاله وقد كان بعض المتوكلين يقول من لم يصبر على جوع ثلاثة أيام أخاف أن لا يسعه ترك العمل إذا وجده وقال أيضا من فقد الأسباب فضعف قلبه أو كان وجودها أسكن لقلبه من عدمها لم يصح له القعود عن المكاسب لأن فيه انتظارا لغير الله. وقال بعض العلماء : من طرقته فاقة تسعة أيام فتصور في قلبه طمع في خلق أو استشراف إلى عبد فالسوق أفضل له من المسجد، وقال بعض علمائنا إذا استوى عنده وجود السبب وعدمه وكان قلبه ساكنا مطمئنا عند العدم لم يشغله ذلك عن الله تعالى ولم يتفرق همه فترك التكسب والقعود لهذا أفضل لشغله بحاله وتزوده لمعاده وقد صح له مقام التوكل وقال سفيان الثوري : العالم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلا للظلمة والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه والجاهل إذا لم تكن له معيشة كان سفيرا للفساق. وقال بعض أهل المعرفة الناس ثلاثة رجل شغله معاده عن معاشه فهذه درجة الفائزين ورجل شغله معاشه لمعاده فتلك حال الناجين وآخر شغله معاشه عن معاده فهذه صفة الهالكين ورويناعن علي رضي الله عنه الرزق رزقان رزق يطلبك ورزق تطلبه ففسره بعض العلماء فقال الرزق الذي يطلبك هو رزق الغداء والرزق الذي تطلبه رزق التمليك وهو طلب فضول القوت، وقيل لسهل رحمه الله تعالى : متى يصح للعبد التوكل ؟ قال إذا علم أن تدبير مولاه خير من تدبيره لنفسه وأن نظر مولاه أحسن من نظره لنفسه فيترك الفكر فيما كان والتمني لما يكون فيترك التدبير ولله عاقبة الأمور وهو على كل حال محمود شكور. وكان الحسن يقول : الغنى والعز يجولان في طلب التوكل فإذا ظفرا به وطناه. وفي هذا المعنى قيل :

ثُمَّ السَّلَامَةُ مِنَ انْ تَعْتَرِضَا فِي ظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ عَيْنُ الرِّضَا

يجول الغنى والعز في كل موطن ليستوطنا قلب امرىء إن توكلا
ومن يتوكل كان مولاه حسبه وكان له فيما يحاول معقلا
إذا رضيت نفسي بمقدور حظها تعالت وكانت أفضل الخلق منزلا

وفي البصائر ــ بعد كلام ــ : وحقيقة الأمر أن التوكل حال مركبة من مجموع أمور لا يتم حقيقة التوكل إلا بها فأول ذلك معرفة الرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل والدرجة الثانية إثبات الأسباب والمسببات فكل من نفاها فتوكله مدخول وهذا عكس ما يظهر في بادىء الرأي من أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل ولكن الأمر بخلافه فإن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة فإن التوكل أقوى الأسباب في حصول المتوكل به فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به الدرجة الثالثة رسوخ القدم في مقام التوحيد فإنه لا يستقيم توكله حتى يصح توحيده الدرجة الرابعة اعتماد القلب على الله تعالى واستناده عليه وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من جهة الأسباب الخامسة حسن الظن بالله فعلى قدر حسن ظنك به يكون توكلك عليه السادسة استسلام القلب له وانجذاب دواعيه كلها إليه السابعة التفويض وهو روح التوكل ولبُّه وحقيقته فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة انتقل منها إلى درجة الرضا وهي ثمرة التوكل.

ثم تكلم رحمه الله تعالى على الرضا وهو الثامن من مقامات اليقين فقال : «**ثم السلامة من ان تعترضا في ظاهر وباطن**» على الله تعالى في فعل شيء ما أو تركه لاءم النفس أم لا نفعها أو ضرها هو «**عين الرضا**» بالقضاء وفسره ابن جزي بسرور النفس بفعل الله زيادة على التسليم. وفي البصائر أنه اختلف في وجوبه والأكثر على تأكد استحبابه، أبو علي الدقاق : ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء، وسئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت : إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة، والفرق بينه وبين التفويض والتسليم هو أنه بعد وقوع المقضي به وهما قبل وقوعه، وينتظم من العلم

وَهُـو بَابُـهُ تَعَلَـى الأَعْظَــمُ   فَاحْرِصْ عَلَيْهِ فَعَسَاكَ تُرْحَـمُ

بأن لا فاعل إلا الله وأن كل شيء بقدره ولا يقع في ملكه إلا ما يريد فيثمر حالا وهو انشراح القلب وانفساحه بالتسليم والتفويض للمولى في قضائه وعدم السخط والتضجر المتضمن للبقاء في لذة اختيار محبوبه على اختيار نفسه كما قيل: * وكل ما يفعل المحبوب محبوب *. القشيري: قد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات فأهل خراسان قالوا الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ومعناه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه وأما العراقيون فإنهم قالوا الرضا من جملة الأحوال وليس ذلك كسبا للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال ويمكن الجمع بين القولين فيقال بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة قال في البصائر والتحقيق في المسألة أن الرضا كسبي باعتبار سببه وهبي باعتبار حقيقته فيمكن أن يقال بالكسب لأسبابه فإذا تمكن في أسبابه وغرس شجرته اجتنى منها ثمرة الرضا فإن الرضا أخو التوكل فمن رسخ قدمه في التوكل والتسليم والتفويض حصل له الرضا ولابد ولكن لعزته وعدم إجابة أكثر النفوس له وصعوبته عليها لم يوجبه الله على خلقه رحمة بهم وتخفيفا عنهم لكن ندبهم إليه وأثنى على أهله وأخبر أن ثوابه رضاه عنهم الذي هو أعظم وأكبر وأجل من الجنات وما فيها فمن رضي عن ربه رضي الله عنه بل رضى العبد عن الله علامة رضى الله عنه ومن نتائجه فهو محفوف بنوعين من رضا الله عن عبده رضى قبله أوجب له أن يرضى عنه ورضا بعده وهو ثمرة رضاه عنه ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومحل راحة العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عين المشتاقين ولذا قال: «**وهو بابه تعالى الأعظم**» القشيري: قال المشائخ الرضى باب الله الأعظم يعنون أن من اكرم بالرضى فقد لاق(8) بالترحيب الأوفى. «**فاحرص عليه فعساك ترحم**» قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: احرص على أن تصبح مفوضا مستسلما لعله ينظر إليك فيرحمك، وقد قلت:

الخيرُ في الرِّضَى رَوَوْا عن عُمَر   فارضَ إن اسْطَعتَ وإلاَّ فاصبرِ

(8) لعلها: لوقي.

رُمْ فَتْحَهُ بِذِكْرِ مَا تَفَضَّلاَ بِهِ عَلَيكَ مِن سَوَابِغِ الإِلَى

كذا في البصائر. وفيه أيضا الرضى ثلاثة أقسام رضا العوام بما قسمه الله ورضا الخواص بما قدره الله وقضاه ورضا خواص الخواص به بدلا عن كل ما سواه، وفيه أيضا من أعظم أسباب حصول الرضا أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه فإنه يوصله إلى مقام الرضا ولابد.. قيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعلى : متى يبلغ العبد مقام الرضى ؟ قال إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه فيقول إن أعطيتني قبلت وإن منعتني رضيت وإن تركتني عبدت وإن دعوتني أجبت والرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة لا يفارقان في الدنيا ولا في البرزخ ولا في الآخرة بخلاف الخوف والرجاء فإنهما يفارقان أهل الجنة. وقد قلت :

أَحْسَنُ خُلقِ المَرْءِ في المعامَلَهْ للحقِّ في الرِّضا معَ التسليم لَهْ
وَفي معاملتِهِ للخَلْقِ عفْوٌ مع السَّخَا أجَلُّ خُلْقِ

وقلت أيضا :

حَسنتان لا يضرُّ مَعْهُما كثرةُ سيئاتِ عبدٍ وهُما
صفحٌ عن العبادِ والرضا بما قَضَى العلِي للشاذِلي ذاك انتمى

«**رم فتحه**» أي اطلب فتح باب الرضا «**بذكر**» وفي نسخة يوتيكه ذكرك ما.. أي يعطيك مقام الرضا تذكر «**ما تفضلا به**» الله تعالى «**عليك من فواضل الإلى**» بالكسر النعمة والفواضل الأيادي السنية فمفتاحه كمفتاح الرجاء، وفي الحكم : ليخفف ألم البلاء عليك علمك بأنه سبحٰنه هو المبلي لك فالذي واجهتك منه الأقدار هو الذي عودك حسن الاختيار، ابن عباد : إذا علم العبد أن الله تعالى رحيم به ومستعطف عليه وناظر إليه فكل ما يورده عليه من أنواع البلايا والرزايا ينبغي له أن لا يكترث بذلك ولا يباليه فإنه لم يتعود منه إلا خيرا له فليحسن به ظنه وليعتقد أن ذلك اختيار له وأن في ذلك مصالح خفية لا يعلمها إلا هو كما قال الله تعالى : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾.

قال في البصائر : وطريق الرضا مختصرة قريبة جدا موصلة إلى أجل غاية ولكن فيها مشقة ومع ذلك فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريقة المجاهدة ولا فيها من المفاوز والعقبات ما فيها.. إنما عقبتها همة عالية ونفس زكية وتوطين النفس

وَكُن وَقُوراً سَاعَةَ الـزَّلاَزِلِ وَقُلْ كَمَا عُرْوَةُ قَالَ إِذْ بُلِي
ظُهُورُ حُزْنِ الْمَرْءِ عِنْدَ الْمُزْعِجِ لَيْسَ لَهُ عَنِ الرِّضَا بِمُخْرِجِ
إِنْ سَكَنَ القَلْبُ كَمَا ابْنُ حَجَرِ نَسَبَهُ فِي فَتْحِهِ لِلطَّبَرِي

على كل ما يرد عليها من الله ويسهل ذلك على العبد علمه بضعفه وعجزه ورحمة ربه وبره به فإذا شهد هذا وهذا ولم يطرح نفسه بين يديه ويرضى به وعنه وتنجذب دواعي حبه ورضاه كلها إليه فنفسه نفس مطرودة عن الله بعيدة عنه غير مؤهلة لقربه وموالاته أو نفس ممتحنة مبتلاة بأصناف البلايا والمحن فطريق الرضا والمحبة تسير العبد وهو مستلق على فراشه فيصبح أمام الركب بمراحل وثمرة الرضا الفرح والسرور بالله تعالى. «**وكن وقورا**» صبورا «**ساعة الزلازل**» البلايا والشدائد «**وقل كما عروة**» بن الزبير أحد فقهاء المدينة السبعة «**قال إذ بلي**» وامتحن بقرحة في ساقه بلغت به إلى نشر عظم ساقه في الموضع الصحيح منها فقال له الأطباء : ألا نسقيك مرقدا فلا تحس بما نصنع بك فقال لا ولكن شأنكم بها فنشرت الساق ثم حسموها بالنار فما حرك عضوا ولا أنكروا منه حتى مسته النار فما زاد على أن قال حسبي وأصيب حينئذ ابنه محمد وكان من أحب ولده إليه فلما رأى القدم بيد بعضهم قال أما إن الله يعلم أني لم أمش بها إلى معصية قط ثم قال ياغلام اغسلها وكفنها وادفنها في مقبرة المسلمين ثم جعل يقول لئن أخذت لقد أبقيت ولئن ابتليت لقد عافيت ولئن أخذت لقد طالما أعطيت !! كذا في ابن عباد. وفي الحلية أنه قال له عيسى بن طلحة بن عبيد الله يا أبا عبد الله قد صنع الله بك خيرا والله ما لك حاجة إلى المشي فقال ما أحسن ما صنع الله إلي وهب سبعة بنين فمتعني بهم ما شاء ثم أخذ واحدا وأبقى ستة وأخذ عضوا وأبقى لي خمسة يدين ورجلا وسمعا وبصرا !. ولم يدع ورده من القرآن تلك الليلة وكان ورده ربع القرآن كل يوم نظرا من المصحف ويقوم به اليل ! قاله الزبيدي. «**ظهور حزن المرء عند المزعج**» ما يؤدي إلى القلق يعني عند المصيبة «**ليس له عن**» الصبر و«**الرضا بمخرج إن سكن القلب**» أي اطمأن بل يقال إن من كان ينزعج بالمصيبة ويعالج نفسه على الرضا والصبر أرفع رتبة ممن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلا «**كما ابن حجر نسبه في فتحه**» أي فتح الباري له «**للطبري**»

قائلا إنه أطال في تقريره. الغزالي : اعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الخدود والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها وأن يظهر الرضا بقضاء الله ولا يخرجه عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الإنسان إلى الموت بل ذلك لا يخرج أيضا عن مقام الرضا فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عينه إذا عظم ألمه. انتهى باختصار.

وفي الفتح : التحقيق أن الألم لا يقدر أحد على رفعه والنفوس مجبولة على وجدان ذلك فلا يستطاع تغييرها عما جبلت عليه وإنما كلف العبد أن لا يقع منه في حال المصيبة ما له سبيل إلى تركه كالمبالغة في التأوه والجزع الزائد كأن من فعل ذلك خرج عن معاني أهل الصبر وأما مجرد التشكي فليس مذموما حتى يحصل التسخط للمقدور وقد اتفقوا على كراهة شكوى العبد ربه وشكواه إنما هو ذكره للناس على سبيل التضجر ثم نقل عن بعضهم أن أنين المريض وتأوهه مكروه وتعقبه النووي ثم قال فلعلهم أرادوا بالكراهة خلاف الأولى فإنه لاشك أن اشتغاله بالذكر أولى. ولعلهم أخذوه بالمعنى من كون كثرة الشكوى تدل على ضعف اليقين وتشعر بالتسخط للقضاء وتورث شماتة الأعداء وأما إخبار المريض صديقه أو طبيبه عن حاله فلابأس به اتفاقا، انتهى باختصار.

الغزالي : الدعاء لا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذا كره المعاصي ومقت أهلها وأسبابها والسعي في إزالتها بالأمر والنهي لا ينافيه.

ابن حجر : التداوي لا ينافي التوكل كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك.
الغزالي : ليس من الرضا للعطشان أن لا يمد اليد إلى الماء البارد زاعما أنه رضي بالعطش الذي هو من قضاء الله تعالى بل من قضاء الله تعالى ومحبته أن يزال العطش بالماء فليس في الرضا بالقضاء ما يوجب الخروج عن حدود الشرع ورعاية سنته تعالى أصلا بل معناه ترك الاعتراض على الله عز وجل إظهارا وإضمارا مع بذل الجهد في التوصل إلى محاب الله تعالى من عباده وذلك بحفظ الأوامر وترك النواهي.

أَمَّا الْمَحَبَّةُ فَمَعْنَى قَلْبِي مُسْتَوْجِبٌ لِطَاعَةِ الْمُحَبِّ

«**أما المحبة**» وهي المقام التاسع «**فمعنى قلبي مستوجب لطاعة المحب**» بالفتح أي المحبوب، قال في المشرب هي وجود تعظيم في القلب يمنع الشخص الانقياد لغير محبوبه وقيل إيثار المحبوب على غيره وقيل غير ذلك، الشرنوبي : محبة العبد لله حالة يجدها في قلبه تحمله على الانهماك في طاعته وإيثار رضاه والتحرز عن معصيته. المناوي قال القاضي محبة العبد لله تعالى إرادة طاعته والاعتناء بتحصيل فرائضه ومحبة الله تعالى للعبد إرادة إكرامه واستعماله في الطاعة وصونه عن المعصية، زروق : المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب حتى يتعدى ذلك إلى الجوارح فتكون في طوع المحبوب كما قيل أبت المحبة أن تستعمل محبا لغير محبوبه ولا يجد مساغا للالتفات لسوى المحبوب ومتى وقع الالتفات نقص الحب على قدره. ابن جزي : محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح والجسد في طاعته والنشاط في خدمته والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته والرضا بقضائه والشوق إلى لقائه والأنس بذكره والاستيحاش من غيره والفرار من الناس والانفراد في الخلوات وخروج الدنيا من القلب ومحبة كل ما يحب الله وكل من يحبه الله وإيثار الله على كل ما سواه ولقد صدق القائل :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

الغزالي : إن قصرت بصيرتك عن إدراك الجلال والكمال والميل إلى مطالعته والفرح به والعشق له فلا تقصر عن الميل إلى المنعم المحسن إليك ولا تكونن أقل من الكلب فإنه يحب صاحبه الذي يحسن إليه وتأمل هل لأحد إحسان إليك سواه جل وهل لك حظ ولذة وتنعم في شيء وحرص على نعمة إلا والله سبحٰنه خالقها ومبديها ومبقيها وخالق الشهوة إليها والتلذذ بها وتفكر في أعضائك ولطف صنع الله تعالى بك فيها لتحبه بإحسانه إليك فتكون من عوام الخلق إن لم تقدر أن تحبه لجماله وجلاله وكماله كما تحبه الملائكة لذلك وامتثال قوله ﷺ : (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله) وعند هذا تكون كالعبد السوء يحب ويعمل للأجرة والنفقة فلا جرم يزيد حبك وينقص بزيادة الإحسان ونقصانه

وَأَجْمَعُوا عَلَى وُجُوبِ حُبِّهِ جَلَّ كَذَا يَجِبُ حُبُّ حِزْبِهِ

وذلك ضعيف جدا بل الكامل من يحب الله لجلاله وجماله ومحامد صفاته التي لا يتصور أن يشارك فيها والأسباب الجالبة للمحبة عشرة نظمها في البصائر مؤلفه مجد الدين بقوله :

تلاوة فهم مع لزوم نوافل وذكر دواما وانكسار بقلبه
وإيثار ما يرضى شهود عطائه ووقت نزول الحق يخلو بربه
مطالعة الأسما مجالسة القدى مجانبة الأهوا جوالب حبه

وقد قلت :

مراتب الحب يقول الساده عشرة علاقة إراده
صبابة غرام اي حب مقيم كما يلازم غريمه الغريم
فالود أي صفو المحبة الشغف حب على شغاف قلب قد وقف
فالعشق حب مفرط خيف على صاحبه ثم التتيُّمُ تلا
وهو تذلل وحب خلدا تيَّمه ذلله وعبدا
ثم التعبد وهذا فوقا تتيم له يفوق فوقا
فالعبد من لرقه المحبوب قد ملك ظاهرا وباطنا فقد
إذ كمل الرتبة طٰه وصفه بها العلي فاستحق شرفه
عاشرها مرتبة الخلة قد فاز بها طٰه وإبراهيم قد
محبة تخللت روح المحب لم يبق موضع لغير من يحب
كما بصائر ذوي التمييز بينه بلفظه الوجيز

«وأجمعوا على وجوب حبه جل كذا يجب حب حزبه» : الأنبياء والأولياء والملائكة. ابن زكري قال ابن عمر رضي الله عنه : والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت اليل لا أنامه وأنفقت مالي في سبيل الله ثم أموت وليس في قلبي حب لأهل الطاعة وبغض لأهل المعصية ما نفعني من ذلك شيء وقال الشافعي رضي الله عنه :

أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنال بهم شفاعه
وأبغض من بضاعته المعاصي ولو كنا سواء في البضاعه

وفيه أيضا : قال الشيخ زروق رضي الله عنه : اعلم أن روح الإسلام حب الله وحب رسوله وحب الآخرة وحب الصالحين من عباده قال في الإحياء ـــ ردا على من أنكر المحبة أصلا وعلى من فسرها بالطاعة ـــ : اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض وكيف يفرض ما لا وجود له وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته.. قال شارحه فتفسيرها بالطاعة تفسير باللازم وليس بحد تام ولا تحد بحد أوضح منها فحدها وجودها ولا تحد بوصف أظهر منها. فمن علامة حبه تعالى حب أنبيائه وكتبه فمن أحب شيئا أحب كل ما ينسب له وأكثر ذكره وقال في وسيلة السعادة :

وحبنـــا للأنبيـــا توقفـــا إيماننـــا قطعـــا عليـــه فاعرفـــا

وحبنـــا الـــولي مما وجبـــا شرعـــا وفي دعائـــه فلنرغبـــا

فكم ينـال العفـو من بركتـه كما ينـال الهدْيُ مـن زيارتـه

قال في المباحث وكذا تجب محبة المومن. وفي كنون عن السيوطي من تمام شعار الإسلام المحافظة على محبة العلماء فإن بغض العلماء كفر عند الجمهور لما صح (من عادى لي وليا فقد آذنته بالمحاربة) وإن لم تكن العلماء أولياء الله سبحٰنه فليس لله ولي.

وفي الجامع (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله عز وجل) المناوي : قال مجاهد عن ابن عمر فإنك لا تنال الولاية إلا بذلك ولا تجد طعم الإيمان حتى تكون كذلك. ومن البغض في الله بغض كثير ممن ينسب نفسه للعلم في زمننا لما أشرق عليهم من مظاهر النفاق وبغضهم لأهل الخير فيتعين على من سلم قلبه من المرض أن يبغضهم في الله. وقد قلت :

إن محبـــتك للديـــان بطاعـــة وعـــدم العصيـــان

وحب خير الخلق هادي أمتـه دليلـه هـو اتبـاع سنتـه

وحبك المومن في اللّه الأجـل كـف الأذى ونفعه عليـه دل

وقلت أيضا :

لا يكمـل الإيمان حتـى توثـرا على رضا النفس رضا خير الورى

لـو فيـه حينـك وذا الإيثـار هـو المحبـة التـي تختـار

إذ أعربت عن كون أفضل العرب إليك من نفسك لاشك أحب

لا الحب بالطبع إذ المرء على محبـة النـفس أشدّ جبـلا

إِفْـرَادُكَ الْمَعْبُـودَ بِالْعِبَـادَةِ مَعَ الْحُضُورِ هُوَ صِدْقُ النِّيَةِ
وَرَسْمُ إِخْلاَصِ عِبَادَةِ الشَّكُورْ إِفْرَادُهُ بِهَا وَلَوْ بِلاَ حُضُورْ

ثم تكلم على الإخلاص والصدق كما فعل في المرشد المعين إذ قال يصدق شاهده... إلخ عاطفا على قوله ويتحلى بمقامات اليقين فقال رحمه الله تعالى: «**إفرادك المعبود بالعبادة مع الحضور**» فيها «**هو صدق النية**» وفي الخاتمة الصدق هو الإخلاص في العمل ثم الغيبة عن الإخلاص بشهود التقصير في العمل والتبري من الحول والقوة فيه، القشيري: سئل المحاسِبِيُّ عن علامة الصدق فقال الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من إخلاص الصديقين. وفي رسالة السلوك: الصدق يطلق على ستة معان الصدق باللسان وهو نقيض الكذب والصدق في النية وهو الإخلاص والصدق الذي هو بمعنى قوة العزم فيما يريد كأن يقوى عزمه أنه إذا ولي مثلا لا يظلم والصدق في الوفاء بالعزم أي حال وقوع الولاية مثلا والصدق في الأعمال وهو أن لا يخالف ظاهره باطنه والصدق في المعاملات كلها كالصدق في الخوف والرجاء وغير ذلك فمن اتصف بالستة كان صديقا. «**ورسم**» حد «**إخلاص عبادة الشكور**» وهو الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعيما في الآخرة غير محدود كما مر «**إفراده**» تعالى «**بها**» بأن يريد بها التقرب إليه تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب صفة حميدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب إليه تعالى ويصح أن يقال الإخلاص تصفية الفعل من ملاحظة المخلوقين أو التوقي عن ملاحظة الأشخاص.. قاله القشيري. «**ولو بلا حضور**» فيها.. قال في كشف القناع: من الأدب الفرار من الاقتصار على الإخلاص في العبادة دون الصدق فيها وذلك لأن العبادة إذا شملها الإخلاص ولم يكن فيها صدق فهي كالخشب اليابس جسم بلا روح فالإخلاص كما ذكره المحاسبي يفتقر إلى الصدق والصدق لا يفتقر إلى شيء لأن حقيقة الإخلاص إرادة الحق تعالى بالعبادة فقط والصدق إرادته تعالى بالعبادة مع حضور القلب فكل صادق مخلص وليس كل مخلص

فَهَـــذِهِ مَكَـــارِمُ الأَخْـــلاَقِ مَعَ الْجَلِيلِ الْمَلِكِ الْخَـــلاَّقِ

صادقا. ابن جزي : الإخلاص لله تعالى ــ ويسمى نية وقصدا ــ إرادة وجه الله تعالى بالأقوال والأفعال وضده الرياء وسببه المعرفة بأن الله لا يقبل إلا الخالص وأنه يطلع على النيات والضمائر كما يطلع على الظواهر. وفي الحكم الأعمال صور قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها. زروق : يحتمل قوله سر الإخلاص أن يكون من إضافة الشيء إلى نفسه فالمراد السر الذي هو الإخلاص ويحتمل أن يكون ما هو أخص منه وهو الصدق المعبر عنه بالتبري من الحول والقوة وكلاهما مطلوب : الإخلاص لنفي الرياء والصدق لنفي العجب ولا كمال للعمل إلا به فلذلك قال بعض المشائخ رحمه الله : صحح عملك بالإخلاص وصحح إخلاصك بالتبري من الحول والقوة. الشرقاوي : والإخلاص يختلف باختلاف الناس فإخلاص العباد سلامة أعمالهم من الرياء الجلي والخفي وكل ما فيه حظ للنفس فلا يعملون العمل إلا لله تعالى طلبا للثواب وهربا من العقاب مع نسبة العمل إليهم والاعتماد عليه في تحصيل ما ذكر، وإخلاص المحبين هو العمل لله إجلالا وتعظيما لأنه تعالى أهل لذلك لا لقصد ثواب ولا هرب من عقاب ولذا قالت رابعة العدوية : ما عبدتك خوفا من نارك ولا طمعا في جنتك فنسبت العبادة إليها وإخلاص العارفين شهود انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم من غير أن يروا لنفسهم في ذلك حولا ولا قوة فلا يعملون العمل إلا بالله لا بحولهم ولا قوتهم وهذا أرفع مما قبله. ولشيخ شيوخنا زين بن اجَّمَدْ رحمه الله تعالى :

إخـلاصك العمـل أن تعتقــده فعل إلٰهك الـذي قـد أوجـده
ثم علـــيك شكـــره لأنــــه كانت لـه بـه علـيك المنــه

الشيخ زروق عن بعضهم : من علامة من تولاه الله في أحواله أن يشهد التقصير في إخلاصه والغفلة في أذكاره والنقصان في صدقه والفتور في مجاهداته وقلة المبالاة في فقره فتكون جميع أحواله عنده غير مرضية ويزداد فقره إلى الله تعالى في قصده وسيره حتى يفنى عن كل ما دونه. وقد قال الجنيد رضي الله عنه : لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى تكون الأفعال كلها عنده رياء وأحواله كلها عنده دعاوي. «**فهذه**» المقامات التسع وما معها من الإخلاص والصدق هي «**مكارم الأخلاق**» أي محاسنها «**مع الجليل الملك الخلاق**».

وَاعْنَ بِهَا مَعَ الْوَرَى ارْحَمْ وَاكْفُفِ   أَذَاكَ وَاحْتَمِلْهُ مِنْهُمْ والْطُفِ

تتمة : عد ابن جزي أيضا من المامورات المتعلقة بالقلوب سلامة الصدر للمسلمين وهو يثمر طيب النفس وسماحة الوجه وإرادة الخير لكل أحد والشفقة والمودة وحسن الظن ويذهب الشحناء والبغضاء والحقد والحسد ولذلك ينال بهذه الخصلة ما ينال بالصيام والقيام، وزاد الحياء وهو نوعان حياء من الله وحياء من الناس وهو مستحسن في كل حال إلا في طلب العلم، وزاد المراقبة وهي معرفة العبد باطلاع الله عليه على الدوام فيثمر ذلك الحياء والهيبة والتقوى، وزاد المشاهدة وهي دوام النظر بالقلب إلى الله تعالى واستغراق في صفاته وأفعاله وذلك مقام الإحسان المشار إليه بقوله ﷺ : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه) ثم أشار إلى مقام المراقبة بقوله ﷺ : (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) وبين المقامين فرق، وزاد اليقين وهو صدق الإيمان حتى يطمئن به القلب بحيث لا يتطرق إليه شك كما مر إلى غير ذلك فانظره، وزاد خليل في جامعه سخاوة النفس أي طيبها وسهولتها فلا يطالب الخلق بالإحسان إليه ولو أحسن إليهم لعلمه بأن إحسانه وإساءتهم إليه كل ذلك مخلوق لله تعالى وهو الفتوة ويوثر على نفسه بما لا يذمه الشرع، وزاد أيضا الورع وهو ترك الشبهات وقال يحيى ابن معاذ الورع على وجهين ورع في الظاهر وهو أن لا تتحرك إلا لله تعالى وورع في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سوى الله تعالى، وزاد أيضا القناعة وهي ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء بالموجود أو رضى النفس بما قسم لها من الرزق كما مر إلى غير ذلك فانظره وشرحه. «**واعن بها**» أي اهتم بمكارم الأخلاق «**مع الورى**» أيضا فـ«**ارحم**» ترحم كما ورد فتعاملهم بالشفقة عليهم والرأفة والرحمة على الصغير منهم والحرمة للكبير والشفقة على العاصي والتواضع للمطيع والإحسان لمن أساء والدعاء له بالصلاح من غير حقد عليه ولا ذلة لأحد ففي الحديث : (من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا) رواه البخاري وأبو داوود والترمذي كما في الخاتمة. وفيها أيضا قال سيدي إبراهيم الدسوقي من لم يكن عنده شفقة على الخلق لا يرقى مراقي أهل الله وقد ورد أن موسى عليه السلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منها بعصاه ولا جوعها ولا آذاها فلما علم الله تعالى قوة شفقته على غنمه بعثه الله نبيا وجعله كليما راعيا لبني إسرائيل وناجاه فمن أعز الخلق وأشفق عليه ترقى

إلى مراتب الرجال. وفي الحديث : (خير أمتي علماؤها وخير علمائها رحماؤها... إلى أن قال : ألا وإن العالم الرحيم يجيء يوم القيٰمة وإن نوره قد أضاء...) الحديث. وفيه : (لا تنزع الرحمة إلا من شقي) رواه البخاري وفيه : (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله) رواه الشيخان وفيه : (لا يدخل الجنة إلا رحيم قيل يا رسول الله كلنا يرحم قال ليس أن يرحم أحدكم صاحبه إنما الرحمة أن يرحم الناس) رواه البزار ورد شريك نملة فارسية رآها في سفرته من مقدار أربعة فراسخ رحمة بها وكان يفت الخبز للنمل ويذر لهم الدقيق على بيوتهم وكان أبو الدرداء يشتري العصافير التي يمسكها الأطفال ويرسلها إلى عشها وكذلك الأمهات يرسلها إلى أولادها إذا صيدت وليس هذا من باب تسييب السوائب إنما كان الغرض رحمة الأم والولد. وكان ثابت البناني إذا سأله أحد حاجة دعا له فيها في سجود صلاته حتى تقضى وقال أبو سليمان الداراني : الرضى عن الله تعالى والرحمة للخلق من أخلاق المرسلين. وفيها أيضا قال الشاذلي : اعلم يا أخي إن كان لك تشوف إلى تلك الدرجات العظيمة تكون رحيما لنفسك ولغيرك بل ترحم الجاهل بعلمك والذليل بجاهك والبهائم بعطفك ورفع غضبك وأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم لخلقه. وفي الحديث عن أنس (والذي نفسي بيده لا يضع الله الرحمة إلا على رحيم) قلنا يا رسول الله كلنا رحيم قال : (ليس الرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة ولكن الذي يرحم المسلمين) وفيه عن أبي بكر رضي الله عنه : (قال الله عز وجل إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي) وكان أبو مسلم الخولاني من المبالغين في التخلق بالرحمة حتى إنه ربما مر على القوم فيخاف أن لا يردوا عليه السلام فلا يسلم عليهم ويقول أخاف أن يحتقروني فلا يردوا علي السلام فتلعنهم الملائكة بسببي وكان أبو عبد الله الأنطاكي يقول إذا علمت من الناس الوقوع في عرضك إذا رأوك فلا تجتمع بهم رحمة بهم إلا في أوقات الصلوات والخيرات. وقال المغازلي : من لم ينظر إلى العصاة بعين الرحمة فقد فسق عن طريق القوم. وفي الجامع : (من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر له) المناوي : دل بمنطوقه على أن من لم يكن رحيما لا يرحمه الله ومن لا يغفر لا يغفر الله له ومن شهد أفعال الحق في الخلق وأيقن بأنه المتصرف فيهم رحمهم ومن لم يرحمهم واشتغل بهم عن الحق كان سببا لمقته من الله وجلب كل رزية إليه ويدل على العكس بمفهومه وهو أن كل من كان رحيما يرحمه الرحمٰن الله ومن يغفر يغفر الله له.

فائدة : في الجامع أيضا : (خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم) المناوي : المدافع عن عشيرته في المهمات في حضورهم وغيبتهم ويرد عنهم من ظلمهم في مال أو عرض أو بدن ويكون الدفع بالأخف فالأخف وقوله ما لم يأثم زجر عن المبالغة في المدافعة حتى ينتهي المدافع إلى الإثم ونص عليه وإن كان معلوما ليكون مستحضرا في الذهن إذ الحمية قد تذهل عنه. انتهى باختصار. «**واكفف أذاك**» عنهم، الزبيدي : قال بعض العلماء الأسباب المقتضية لسوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى أربعة : التهاون بالصلاة وشرب الخمر وعقوق الوالدين وأذى المسلمين «**واحتمله**» أي الأذى من باب الاستخدام فالذي يكف ليس هو الذي يحتمل «**منهم**» يعني اصبره، قال كعب الأحبار : لا يوصف بالصبر إلا من صبر على أذى الناس ولم يقابلهم بنظير ذلك يعني لا سرا ولا جهرا حتى بالدعاء عليهم والتوجه إلى الله فيهم لحديث (من دعا على ظالم فقد انتصر منه) وقال عمر بن عبد العزيز إياك أن تقابل من ظلمك فربما تكون أظلم ممن ظلمك بمقابلتك له وذلك أنه يظلمك مرة فتصير تلعنه وتشتمه كلما تذكرت فعله حتى تستوفي بذلك حقك وتكون عليك بعد ذلك التبعة، الشعراني : كان الشاذلي يقول : خصلة واحدة إذا فعلها العبد صار إمام الناس من أهل عصره وهي الإعراض عن الدنيا واحتمال الأذى من أهلها. وقد قال يحيى بن معاذ : ليكن حظ المومن منك ثلاث خصال إن لم تنفعه فلا تضره وإن لم تسره فلا تغمه وإن لم تمدحه فلا تذمه. المناوي : قال يوسف بن إسباط : علامة حسن الخلق عشرة أشياء قلة الخلاف وحسن الإنصاف وترك طلب العثرات وتحسين ما يبدو من السيئات والتماس المعذرة واحتمال الأذى والرجوع بالملامة على نفسه والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره وطلاقة الوجه ولطف الكلام.

فائدة : في الخاتمة عن تنبيه المغترين قال سري السقطي : الحلم على خمسة أقسام الأول حلم غريزي وذلك هبة من الله تعالى للعبد به يعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه ويصل به رحمه وإن قطعه الثاني حلم تحالم بكظم غيظك رجاء الثواب وفي القلب كراهة الثالث حلم مذموم رياء وسمعة وصاحبه حاقد ساكت يرائي جلساءه الرابع حلم كبر لا يراه أهلا بأن يجاوبه الخامس حلم مهانة ومذلة. «**والطف**» أي ارفق بهم بل بجميع الحيوانات عاقلة وغيرها روى الشيخان عن

سُورُ المَقَامَاتِ إِذَا يُـرَصُّ   بِالْقَلْبِ لاَ يَعْدُو عَلَيْهِ اللُّصُّ

عائشة : (إن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله) وفي الحديث : (إذا أراد الله بقوم خيرا أدخل عليهم الرفق يرفق بعضهم ببعض) وقال ﷺ لعائشة (عليك بالرفق ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه) ولبعضهم :

ارحم بني جميع الخلق كلهـم   وانظر إليهم بعين اللطف والشفقه
وقر كبيرهم وارحـم صغيرهـم   وراع في كل خلق حق من خلقه

وفي الجامع (الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله) المناوي : بالهداية إلى الله والتعليم لما يصلحهم والعطف عليهم والترحم والشفقة والإنفاق عليهم من فضل ما عنده وغير ذلك من وجوه الإحسان الأخروية والدنيوية والعادة أن السيد يحب الإحسان إلى عبيده وحاشيته ويجازي عليه وفيه حث على فضل قضاء حوائج الخلق ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو جاه أو إشارة أو نصح أو دلالة على خير أو إعانة أو شفاعة أو غير ذلك. وفي الخاتمة : في الحديث : (إن الله يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره فيقول جعلت لك جاها فهلا نصرت به مظلوما أو قمعت به ظالما أو أعنت به مكروبا) وفيه : (أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له) وعن أبي القاسم البلوي قال : تشفعت بابن عياش التجيبي عند السلطان في حاجة فشفع لي وقال لي يا أبا القاسم لا تحجم عني في حاجة عرضت لك فإن لكل مكتسب زكاة وزكاة الجاه بذله.

فائدة : في الخاتمة أيضا حقيقة حسن الخلق ملكة يسهل على ذويها تجنب القبيح وفعل الجميل كالصبر عند المكاره والحلم عند الجفاء وحمل الأذى والإحسان للناس والتودد إليهم والمسارعة في قضاء حوائجهم والرحمة بهم والشفقة عليهم واللين في القول والتثبت في الأمور وقال أبو القاسم اللجائي وأن تخاطب الناس بقدر عقولهم وأن تعامل كل إنسان بما يؤنسه ولا يوحشه وأن لا يشتكي منك أحد ولا تشتك من أحد والإيثار والكرم والتواضع والأدب وأن تجازي من أساء إليك بالإحسان وعلامة ذلك أن لا تريد لمخلوق إلا ما تريد لنفسك. وقال الحسن البصري : حقيقة حسن الخلق بذل المعروف وكف الأذى وطلاقة الوجه. «**سور المقامات إذا يرص بالقلب**» أي يلصق بعضه ببعض ويضم والسور حائط المدينة المشتمل عليها قال تعالى : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ﴾ «**لا يعدو عليه**» عدا عليه ظلمه

فصـــل

ثُمَّ أَزِلْ حُجْبَ الوُصُولِ وَهْيَا نَـاسٌ وَلُصٌّ وَهَـوًى وَدُنْيَـا

ووثب عليه «اللص» الشيطان قال تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ الآية وقال : ﴿إنه ليس له سلطان﴾ الآية فمن تحقق بهذه الصفات العلية من الإيمان بالله تعالى والعبودية له والتوكل عليه واللجإ والافتقار إليه والاستعاذة به كيف لا ينصره على عدوه ؟ قال في الإحياء قال جرير بن عبيدة العدوي : شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجد في صدري من الوسوسة فقال إنما مثل ذلك مثل البيت الذي تمر به اللصوص فإن كان فيه شيء عالجوه وإلا مضوا وتركوه يعني أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان ولذلك قال تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي تسلط وتمليك لأنهم قد أخلوا قلوبهم عن الشهوات ومقتضياتها فكل من اتبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله ولذلك سلط الله عليه الشيطن وقال تعالى : ﴿أفرأيت من اتخذ إلٰهه هويٰه﴾ وهو إشارة إلى أن من الهوى إلٰهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله، انتهى بزيد من شرحه. زروق : قيل لبعضهم : بم تطرد الشيطان إذا قصدك بالوسوسة ؟ فقال : إنا لا نعرف الشيطن نحن قوم رفعنا هممنا إلى الله فكفانا من دونه. قال في العوارف : إذا كان شأن العبد تمييز خواطر النفس في مقام تخلصه من لمات الشيطن تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير الخواطر الأربعة في حقه ثلاثة ويسقط خاطر الشيطن إلا نادرا لضيق مكانه من النفس لأن الشيطن يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاد إلى الأرض ومن ضايق النفس على التمييز بين الحظ والحق ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه.

«**فصل : ثم**» بعد التخلي والتحلي هكذا في الشرح وانظر هل مراده بعد الكلام عليهما فتكون ثم للترتيب الذكري «**أزل حجب الوصول**» بالضم جمع حجاب أي حجب العبد عن الوصول إلى مقام الإحسان وإلى الله «**وهيا**» أربعة «**ناس ولص**» يعني الشيطان «**وهوى**» مصدر هويته من باب تعب إذا أحببته وعلقت

به ثم أطلق على ميل النفس وانحرافها نحو الشيء ثم استعمل في ميل مذموم وهو تولع النفس إلى محبوبها وميلها إلى مرغوبها ولو كان فيه هلاكها من غير التفات إلى عاقبة الأمر وما فيه نجاتها. الغزالي : الهوى طبيعة مركبة في الإنسان مائلة إلى الشهوات ونيل اللذات. «**ودنيا**» بالضم وحكي الكسر فُعْلى من الدنو أي القرب لسبقها الأخرى وقيل لدنوها من الزوال والمراد بها هنا المال وتوابعه التي هي من جملتها كالجاه والكبر والخيلاء وأقوى الأربعة حجاب هوى النفس لأن حجاب الناس يزول بالعزلة عنهم وحجاب الدنيا يزول بالزهد فيها وحجاب الشيطن يمكن دفعه بالذكر والحوقلة والتلاوة والنفس لا تدفع بشيء إلا بالالتجاء إلى الله تعالى كما في الخاتمة، وقد قلت :

أَرْبَعَــةٌ الاعْــدَاءُ تُستبَــانُ دُنْياً هَوىً والنفسُ والشيطـانُ
سلاحُهـا لِقَـاءِ خَلْقٍ إذ يقَــعْ كـذا الكـلامُ والمنـامُ والشبـعْ
وسِجْنُها العُزلةُ والصمتُ السَّهرْ والجوعُ بالـنشر المرتب ظهــر

«**أما الدنا والناس فارفع عنهما همك واجعله لفاطر السما**» فالهم بالدنيا هو إرادتها بالقلب فتنفض يد القلب منها زهدا فيها ليزكو عملك والزهد قسمان زهد مقدور للعبد وهو ثلاثة أشياء ترك طلب المفقود من الدنيا وتفريق المجموع منها وترك إرادتها بالقلب والثاني غير مقدور للعبد وهو برودة الشيء على قلب الزاهد فالمقدور للعبد مقدمات لغير المقدور له فإنه إذا فعل الثلاثة أورثه ذلك برودة الدنيا على قلبه وأصعب الثلاثة ترك الإرادة بالقلب إذ كم تارك لها بظاهره محب مريد لها بباطنه فالشأن في ترك الإرادة بالقلب دون الطلب والفعل للمراد. انظر الخاتمة، وفيها أيضا ومنه أي من الخلق الذي هو حجب الوصول الناس فارفع همتك عنهم خوفا وطمعا وشكوى وأعرض عنهم إقبالا وإدبارا واقنع بعلمه تعالى فيك وانظر إليهم بعينين عين الشريعة المطهرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحد وشكر إحسانهم وبعين الحقيقة بالعذر إن عصوا فإنهم مجبورون، وقد قلت :

عينُ الشريعةِ بها الخلقَ انظـرِ مُرْهُمْ بعُرْفٍ وانهَهُمْ عن مُنكر

وَبِـدَوامِ الحُـزْنِ وَالمُرَاقَبَـهْ حَسْبَلَةٍ هَوَى النُّفُوسِ طَبِّبَـهْ

وهكـذا عيـنُ الحقيقـةِ بها إذا عَصَوْا فانظرهـم منـتبها
للعـذر بالجَبْـر فمادام عـلا يخلُـق معصِيَـةَ عبـدِه فـلا
يمكنـه التـوْبُ ولا محالـه يتـوب إن ينتـهِ خلقُهـا لَـهْ
فالعينُ الاولى وحدَها من نظرا بها لهم مقتَهُـم واحتقـرا
ومن بالاخرى وحدها لهم يَرى عَذرَهُـمْ فلم يُغيِّـرْ مُنكـرا
فكان قد شاركهم فيما الحظر إذاً فبالعيـنين يلـزمُ النظـر
وإن تكُـن للعـزوِ ذا تشوُّفِ فـذاك في خـاتمةِ الـتصوُّفِ

وقلت أيضا :

اعتزِلِ البشرَ تنوِي كَـفَّ شَرّ مِنك فلا تُوذي بشركَ الـبَشَرْ
إذذاكَ أرفـعُ لـدى الأكيـاسِ مـن نيـة اتِّقـاءِ شَرِّ النـاس
فسوءُ ظَنِّكَ بنـفسكَ أَحَـقّ من سُوءِ ظنٍّ بسوى النفس التحق

«**وبدوام الحزن**» القشيري : الحزن حال يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة والحزن من أوصاف أهل السلوك. الدقاق : صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى في شهر ما لا يقطع من فقد حزنه سنين. ابن خفيف : الحزن حصر النفس عن النهوض في الطرب «**والمراقبه**» لله تعالى في السر والعلانية وهي كما قال القشيري علم العبد باطلاع الرب سبحٰنه عليه.. قيل من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه ويحتمل أنه يعني المراقبة الآتية في قوله ثمت راقبنها إلخ. قال في الإحياء : فأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمواتاة الدنيا فوجدوها قاسية بطرة بعيدة من التأثر بذكر الله تعالى واليوم الآخر وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية قابلة لأثر الذكر فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد عن أسباب الفرح والبطر ففطموها عن ملاذها وعودوها الصبر عن شهواتها حلالها وحرامها وعلموا أن حلالها حساب وهو نوع عذاب فمن نوقش الحساب فقد عذب ثم قال وطريق المجاهدة والرياضة لكل إنسان يختلف بحسب اختلاف أحواله والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه

حِمَايَةُ القَلْبِ مِنَ الشَّيْطٰـنِ   مِنَ الفَرَائِضِ عَلَى ٱلأَعْيَـانِ
فَاتَّقِ مَا زَيَّنَـهُ لَكَ الغَـوِي   لاَسِيَّمَا إِذَا ضَعُفْتَ وَقَـوِي

حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس حتى يقمع مادته متى ظهر، انتهى باختصار. وبدوام «**حسبلة هوى النفوس طببه**» أي عالجنه قال في النصيحة : ومن عسر عليه قياد نفسه فليكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل. ابن زكري وجهه أن معنى حسبنا الله كافينا الله وحده ومعنى نعم الوكيل أنه خير من يتوكل عليه ففيه الاعتصام بالله تعلى والاكتفاء به والالتجاء إليه والتوكل عليه في قمع ما يعجز القائل لهذا الذكر عن قمعه وذلك أن النفس كالشيطٰن والهوى والدنيا كلاب مسلطة على الإنسان فمن رجع إلى ربها والتجأ إليه واحتمى به صرفها عنه وكفاه مؤنتها.

تنبيه : وجود الهوى لا يعاب به لأنه روح النفس مستكن فيها وإنما يعاب باتباعه وكذا لا يذم بوجود الشح لأنه صفة النفس وإنما ذم من أطاع النفس في شحها انظر القوت.. قال في الشرح ولم يتعوذ ﷺ من وجودهما بل من هوى متبع وشح مطاع وقال تعالى : ﴿ومن يوق شح نفسه﴾ ولم يقل من يزل. واعلم أن القلب كما في الإحياء كحصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يعرف أبوابه فـ«**حماية القلب**» أي منعه «**من**» وسواس «**الشيطٰن من الفرائض على الأعيان**» ولا يتوصل إلى دفعه إلا بمعرفة مداخله فصارت معرفتها واجبة لأنها وسيلة واجب.. قال في الإحياء وأغمض أنواع المعاملة الوقوف على خدع النفس ومكائد الشيطٰن وذلك فرض عين على كل عبد. الزبيدي : وإليه ذهب عبد الرحيم بن يحيى الأرموي ومن تبعه من الشاميين إذ قالوا في شرح حديث (طلب العلم فريضة) قالوا إنما عني به طلب معرفة علم الإخلاص ومعرفة آفات النفوس ووساوسها ومعرفة مكائد العدو وخدعه ومكره وغدره وما يصلح الأعمال وما يفسدها فريضة كله من حيث كان الإخلاص فريضة ومن حيث أعلم بعداوة إبليس ثم أمر بمعاداته. «**فاتق**» أي احذر «**ما زينه لك الغوي**» الشيطان فالعدو

لا ينصح بل خالفه في كل ما دعاك إليه من الشر والخير ولا تقصر في مجاهدته وابذل مجهودك فيها بلا غفلة ولا سهو واستعن بالله «**لاسيما إذا ضعُفت**» بمرض قلب «**وقوي**» عليك لمرضك. قال في الخاتمة : والتدبير في دفع الشيطن إنما هو بالالتجاء إليه جل منه والاستعاذة به لا غير فإنه كلب سلطه الله عليك فالرجوع إلى ربه أولى ثم بمجاهدته والقيام عليه بعد ذلك بالرد والدفع والمخالفة وأن تعلم كيده وحيلته فلا يتجاسر حينئذ عليك كاللص إذا علم أن صاحب الدار قد أحس به فر، وأن تستخف بدعوته فلا تعلق قلبك به وتتبعه فإنه بمنزلة الكلب النابح إن أقبلت عليه أولع بك ولج وإن أعرضت عنه سكت قال أبو العباس المرسي في قوله تعالى : ﴿إن الشيطن لكم عدو﴾ فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطن فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب وقوم فهموا من ذلك أن الشيطن لكم عدو وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه، وأن تديم ذكر الله بلسانك وقلبك ففي الحديث أن ذكر الله تعالى في جنب الشيطن كالأكلة في جنب ابن آدم، وأن تقول كل يوم : اللهم إنك سلطت علينا بذنوبنا عدوا من غيرنا بصيرا بعيوبنا مطلعا على عوراتنا يرانا هو وقبيله من حيث لا نراه اللهم أيئسه منا كما أيأسته من رحمتك وقنطه منا كما قنطته من عفوك وباعد بيننا وبينه كما باعدت بينه وبين جنتك ومغفرتك إنك على كل شيء قدير وكان محمد بن واسع يقولها كل يوم فتمثل له الشيطان يوما وقال له : لا تعلم هذا الدعاء أحدا وأنا لا أعود أتعرض لك بسوء أبدا فقال له والله لا أمنعه من أحد واصنع أنت ما شئت، وفي الشعراني أن بعضهم كان يقول : الشيطان نار وحضرة الرب نور والنور يطفيء النار فلا تجاهده بأن تبعد معه عن حضرة ربك الحق ولكن جاهده بأن تواجهه بنور ربك فإن كان له نصيب في السعادة انطفأت ناريته وعاد نورا مسلما لا يامرك إلا بخير وإلا أطفأه نور ربك وأحرقته شهبه فعاد رمادا فافهم.

فائدة : ما يرد على القلب من أربعة أوجه الأول حديث النفس والدليل عليه طلب الشهوات والثاني وسوسة الشيطان والدليل عليه طلب المعصية والثالث إلهام الملك والدليل عليه طلب الهداية والرابع إلهام من الله لا يطلع عليه ملك ولا شيطان والدليل عليه انشراح الصدر وخمود الغواية كما في الخاتمة.

وَسُدَّ الأَبْوَابَ الَّتِي مِنْهَا يَصِلْ   كَشَهْوَةٍ وَشِبَعٍ وَكَالْعَجَلْ

«**وسد**» أولا أي أغلق «**الابواب**» والمداخل «**التي منها يصل**» إلى القلب وأبوابه صفات العبد وهي كثيره ثم أشار إلى بعض أبوابه العظيمة بقوله : «**كشهوة**» وحرص وغضب فقد قال ﷺ : (حبك الشيء يعمي ويصم) رواه أبو داوود. الزبيدي : والمعنى أن من الحب ما يعمي عن طريق الرشد ويصم عن استماع الحق وأن الرجل إذا غلب الحب على قلبه ولم يكن له داع من عقل أو دين أصمه حبه عن العدل وأعماه عن الرشد قاله العسكري، وقيل معناه يعمي ويصم عن الآخرة وفائدته النهي عن حب ما لا ينبغي الإغراق في حبه.

والغضب غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان، وجند العقل هو العلم بالله واليقين وجند الشيطن الجهل والطمع وحب الدنيا ومهما غضب الإنسان لعب الشيطن به كما يلعب الصبي بالكرة يدحرجه كيف يشاء، وقد ذكر أن بعض الأولياء قال لإبليس : أرني كيف تغلب ابن آدم فقال آخذه عند الغضب وعند الهوى أي ميل النفس إلى أمر دنيوي «**وشبع**» وإن من حلال صاف لأنه يقوي الشهوات وهي أسلحة الشيطان ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة أولها أن يذهب خوف الله من قلبه والثاني أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنه يظن أنهم كلهم شباع والثالث أنه يشغل عن الطاعة والرابع أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة والخامس أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس والسادس أن يهيج فيه الأمراض، «**وكالعجل**» أي الإسراع وترك التثبت في الأمور روى الترمذي (الأناة من الله والعجلة من الشيطان) فالأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل، والعجلة تمنع من ذلك فقد روى البيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس رفعه : (إذا تأنيت أصبت أو كدت وإذا استعجلت أخطأت أو كدت تخطىء) وقد قيل في ذلك :

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري. المناوي : قال ابن القيم : إنما كانت العجلة من الشيطان لأنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنع من التثبت والوقار والحلم وتوجب وضع الشيء في غير محله وتجلب

الشرور وتمنع الخيور وهي متولدة بين خلقين مذمومين التفريط والاستعجال قبل الوقت قال الحرالي : والعجلة فعل الشيء قبل الوقت الأليق به.

تتمة : من أبوابه العظيمة الحسد وحب التزين من الأثاث والثياب والدار التي يسكنها ومنها الطمع في الناس ومنها الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال فكل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ومنها البخل وخوف الفقر وسوء الظن بالمسلمين ومن عظيم حيل الشيطان أن يشغل الإنسان عن نفسه بالاختلافات الواقعة بين الناس في المذاهب والخصومات ومن أبوابه العظيمة حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم و لم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي أمور لا يبلغها حد عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها يصير بها كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة وأنه انكشف له بذكائه وزيادة عقله فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا في عقل نفسه وأثبت الناس عقلا أشدهم اتهاما لنفسه وأكثرهم سؤالا من العلماء قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ : (إن الشيطان ياتي أحدكم فيقول من خلقك فيقول الله تبارك وتعالى فيقول من خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه) والنبي ﷺ لم يأمر بالبحث في علاج هذا الوسواس فإن هذا وسواس يجده عوام الناس دون العلماء وإنما حق العوام أن يومنوا ويسلموا ويشتغلوا بعبادتهم ومعايشهم ويتركوا للعلماء فالعامي لو يزني ويسرق كان خيرا له من أن يتكلم في العلم فإنه من تكلم في الله وفي دينه من غير إتقان العلم وقع في الكفر من حيث لا يدري كمن يركب لجة البحر وهو لا يعرف السباحة، ومكائد الشيطن فيما يتعلق بالعقائد والمذاهب لا تحصر قاله في الإحياء.. ثم قال : فهذه بعض مداخل الشيطن إلى القلب ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه وفي هذا القدر ما ينبه على غيره فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ومدخل من مداخله فإن قلت فما العلاج في دفعه ؟ وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ فاعلم أن علاج القلب في ذلك أولا سد هذه المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة فإذا قطعت منه أصولها كان للشيطن به اجتيازات وخطرات و لم يكن له استقرار انظر ما مر عند قوله ولكن الذكر دوا... إلخ.

فصل

فائدة : في الشرح عن المدخل : لا عمل كطلب النجاة ولا سبب لها كخلف الهوى ولا غلبة كغلبته ولا قوة كردّ الغضب ولا عدم كقلة اليقين ولا طاعة كقصر الأمل ولا ذل كالطمع ولا معصية كحب الدنيا.

«**فصل**» في النفس. في المشرب : قال الساحلي في بغيته : قد يجري لنا أثناء كلامنا في هذا المجموع ذكر النفس والقلب والروح والسر والباطن فقد يظن الظان أن اختلاف هذه الأسامي لاختلاف مسمياتها ولست أريد بها إلا مسمى واحدا واختلاف أساميه لاختلاف صفاته وهو الروح الجوهر اللطيف الصافي الشريف الذاكر العارف ومهبط الأنوار الإلٰهية الصادر من أمر الله تعالى فمادام مائلا إلى جنبة النقص في أغلب الأحوال أعبر عنه بالنفس ولايزال مع قيامه بوظائف مقام الإسلام تضعف فيه جنبة النقص وتقوى فيه جنبة الكمال حتى إذا تخلص من مقام الإسلام تساوت عنده الجنبتان فيتقلب عندهما فعند ذلك أعبر عنه بالقلب ولايزال مع قيامه بوظائف مقام الإيمان تغلب جنبة الكمال على جنبة النقص حتى إذا تخلص من مقام الإيمان اتحدت فيه جنبة الكمال لكن يبقى معها أثر من ذلك النقص كما يبقى أثر الجراحات بعد البرء فعند ذاك أعبر عنه بالروح ولايزال مع قيامه بوظائف مقام الإحسان حتى تذهب تلك الآثار وتتخلص تصفيته فعند ذلك أعبر عنه بالسر وربما أشكل الأمر فيما رقى إليه أو رقى عنه فأعبر عنه بالباطن ثم قال في المشرب وماذكره واضح إلا ما فسر به لفظ الباطن فإنه لم يوضحه كما ينبغي وتوضيحه على ما أستقرىء من كلامهم هو أنه إذا قيل باطن الإنسان فالمراد به هذه الأشياء أعني النفس والقلب والروح وقد يراد به ما فيها من الأخلاق الحميدة والذميمة وإذا قيل علم الباطن فالمراد العلم الباحث عن ذلك كله وما يتعلق به من الأحكام والآداب وهو يقابل علم الظاهر والله الموفق.

ثم إن النفس رتبها سبع كما في الشرح فالتي بمقام الأغيار أمارة والأنوار لوامة والأسرار ملهمة والكمال مطمئنة والوصال راضية وبمقام تجليات الأفعال مرضية وتجليات الصفات كاملة.

قال في البصائر : الجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو قال ﷺ :

وَرَابِطِ النَّفْسَ بِسِتٍّ الاولَى   إِلْزَامُهَا أَنْ تَهْجُرَ المَحْظُولاَ
مَنْعاً وَكُرْهاً أَبَداً وَتَاتِي   صَادِقَةً بِنَوْعَيِ الطَّاعَاتِ

(المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله) وكان إذا رجع من الغزو يقول : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) وقال : (أفضل الجهاد مجاهدة النفس)، وإنما كان جهاد النفس أكبر لأن مشقته دائمة إذ لا تفارق صاحبها إلى الموت ومتصل بالإنسان ولا يحصل إلا بامتثال جميع المفروضات بخلاف العدو فيهن، ولبعضهم :

يا من يجاهد غازيا أعداء ديـ   ـن الله يرجوا أن يعان وينصرا
هلا غشيت النفس غـزوا إنها   أعدى عدوك كي تفوز وتظفرا
مهمى غلبت جهادها وعنادهـا   فلقـد تعاطيت الجهـاد الأكبرا

وفي الخبر عن أنس (المومن بين خمس شدائد مومن يحسده ومنافق يبغضه وكافر يقاتله وشيطان يضله ونفس تنازعه) «**ورابط النفس**» قال في البصائر : المرابطة المحافظة وهي ضربان مرابطة في ثغور المسلمين ومرابطة النفس فإنها كمن أقيم في ثغر وفوض إليه مراعاته فيحتاج أن يراعيه غير مخل به وذلك كالمجاهدة. ثم مرابطة النفس تكون «**بست**» مقامات بالمشارطة أولا ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران معاتبة ومعاقبة وإلى المشارطة وهي في الأصل إجراء الشرط بين متعاملين أشار بقوله : «**الاولى**» من الست «**إلزامها أن تهجر المحظولا منعا وكرها أبدا وتاتي صادقة بنوعي الطاعات**» أي فرضها ونفلها فينبغي للعبد أن يفرغ قلبه ساعة بعد الصبح فيقول للنفس ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحدا حتى أعمل فيه صالحا فاحسبي أنك قد توفيت ثم رجعت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، وفي الخاتمة أن النفس إذا تمرنت لم تبق إلى المشارطة حاجة إلا فيما يطرأ من

ثُــمَّتَ رَاقِبَنَّهَـــا فَالْخَائِـــنُ إِذَا خَلاَ الْجَوُّ لَهُ لاَ يُتْقِنُ
ثُمَّتَ حَاسِبْهَا وَتَكْلِيفُ الْجَوَابْ عَمَّا أَتَتْ وَتَرَكَتْ هُوَ الْحِسَابْ

المعاصي. «**ثمت**» ثانيا «**راقبنها**» عند الخوض في الأعمال ولاحظها بالعين الكالئة ولا تغفل عن مراقبتها لحظة واحدة فإنك لو أهملتها لم تر منها إلا الخيانة الظاهرة وتضييع رأس المال «**فـ**»ـكأنها العبد «**الخائن إذا خلا الجو له**» وزالت عنه الموانع وانفرد بالمال «**لا يتقن**» بل تشتد خيانته ويبدد المال حيث لا ينفع فإنه إما لبطنه أو فرجه. قال في الخاتمة : المراقبة مراعاة الرقيب في أقواله وأفعاله ظاهرا وباطنا ويثمره تأكد المعرفة باطلاعه تعالى على ما في الضمائر وانتقامه، ثم أشار إلى المحاسبة وهي الثالثة بقوله : «**ثمت حاسبها**» بعد العمل في آخر النهار أو عندما تأوي إلى فراشك على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التاجر في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا على الدنيا الفانية ليختبر رأس المال والربح فإن وجد فضلا استوفاه وشكره وإن وجد خسرانا طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد تأدية الفرائض وربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار وعامله نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض فإن أداها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها بالجبر بالنوافل وإن ارتكب معصية اشتغل بتعذيبها ومعاتبتها ولا يمهلها لئلا تتأنس بفعل المعاصي فيعسر عليه فطامها كما في الخاتمة وإلى ذلك أشار بقوله الآتي : فإن أتمت فاشكر... إلخ وأما قوله «**وتكليف الجواب عما أتت وتركت هو الحساب**» فلعل الأولى لو قال :

.... وكلفها الجواب عما أتت وتركت لدى الحساب

الغزالي : معنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران لتتبين له الزيادة من النقصان فإن كان ثم فضل حاصل استوفاه وشكره إلى آخر ما مر قريبا.. ثم قال : وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة فيطالبها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة

فَإِنْ أَتَمَّتْ فَاشْكُرِ الْمُهَيْمِنَا وَأَوْصِهَا بِجَعْلِ ذَاكَ دَيْدَنَا
وَاطْلُبْ قَضَا مَا تَرَكَتْ وَجَبْرَ مَا لاَتَتْ وَإِن عَصَتْ فَعَاتِبْ لاَئِمَا

وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه. ابن جزي : اعلم أن المراقبة لا تستقيم حتى تتقدم قبلها المشارطة والمرابطة وتتأخر عنها المحاسبة والمعاقبة فأما المشارطة فهي اشتراط العبد على نفسه بالتزام الطاعة وترك المعاصي وأما المرابطة فهي معاهدة العبد لربه على ذلك ثم بعد المشارطة والمرابطة أول الأمر تكون المراقبة إلى آخره وبعد ذلك يحاسب العبد نفسه على ما اشترطه وعاهد عليه فإن وجد نفسه قد أوفى بما عاهد عليه الله حمد الله وإن وجد نفسه قد حل عقد المشارطة ونقض عهد المرابطة عاقب النفس عقابا بزجرها عن العودة إلى مثل ذلك ثم عاد إلى المشارطة والمرابطة وحافظ على المراقبة ثم اختبر بالمحاسبة فهكذا يكون حتى يلقى الله تعالى. وفي الجامع (حقيق بالمرء أن يكون له مجالس يخلو فيها ويذكر ذنوبه فيستغفر الله منها) المناوي : أي يطلب الرضى وغفرها أي سترها فإن من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره إلى الرضى والغبطة ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والحسرة ومن ثم قيل لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وقيل النفس كالشريك الخوان إن لم تحاسبه ذهب بمالك، وقال الحسن : إنما يخف الحساب غدا على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا.

«**فإن أتمت**» ذلك أي عملته تاما بتأديته على وجهه بالآداب والشروط «**فاشكر المهيمنا**» على ذلك «**وأوصها بجعل ذاك ديدنا**» لها أي عادة حتى تغنى عن المشارطة «**واطلب**» منها «**قضا ما تركت**» وفوتت من أصله مما يقضى كصوم «**و**» اطلب «**جبر ما لاتت**» أي نقصت بتأديته ناقص الشروط والآداب فتكلفها جبره بالنوافل كما مر. ابن زكري قال المناوي : قال ابن عربي كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم

ثُمَّتَ عَاقِبَنَّ كُلَّ جَارِحَهْ   بِمَنْعِ مَا تَقَحَّمَتْهُ طَالِحَهْ

على ما يتكلمون به ويفعلونه ويقيدونه في دفتر فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر منهم من قول وعمل وقابلوا كلا بما يستحقه إن استحق استغفارا استغفروا أو التوبة تابوا أو شكرا شكروا ثم ينامون فزدنا عليهم في هذا الباب الخواطر فكنا نقيد ما تحدث به أنفسنا وتهم به ونحاسبها عليه ! وقد قلت :

مِنَ المَعَاصِي تحصلُ السَّلامَهْ   لك بأمرين فَلا ملامهْ
كُلَّ صباحٍ حَاسِبِ النفسَ على   جميعِ ما تاتيه لَيْلاً عَمَلاَ
وفي المساءِ ذا الحسابَ تَفْعَلُ   على جميعِ ما نهاراً تعمَلُ
فإن تجد حسنةً فالحمدُ   واستغفرن إذا يكونُ الضِّدُّ
بَل قبلَ الإقدامِ على الأفعالِ   نفسَكَ حاسبْهَا فذاك العالي
فتلبسُ وحُكْماً تدرِي   في ترك منهيٍّ وفعلِ الأمرِ
وأَمَلاً قصِّرْهُ تسلمْ وَهْوَا   رجاءُ ما لَهُ النفوسُ تَهْوَى
كطولِ عُمرٍ وزيادةِ غنى   فكن كأنك غريبٌ في الدُّنا

«**وإن عصت**» أي ارتكبت معصية «**فعاتب**»ـها حال كونك «**لائما**» لها ومعذبا كما مر عن الخاتمة. قال الغزالي عقب ما مر عنه : ثم إن النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي مما وجب عليه ثم بعد ذلك يشتغل بالمطالبة والاستيفاء. انتهى باختصار.

ثم إذا حاسبت نفسك فرأيتها خانت وضيعت فلتتدارك بالتوبة والجبر كما مر فإن لم تستطع لغلبة الشهوة فعالج نفسك بالمعاقبة وهي الرابعة وإليها أشار بقوله : «**ثمت**» إذا لم تسلم عن مقارفة معصية وتقصير في حقه جل «**عاقبن كل جارحه**» بما يلائم جنس الذنب ويقابله فإن لكل مرض علاجا ولا تهمل نفسك فتسهل عليك مقارفة المعاصي وتانس بها نفسك ويعسر عليك فطامها ويكون ذلك سبب هلاكك، ثم المعاقبة تكون «**بمنع ما تقحمته**» من شهواتها حال كونها «**طالحه**»

كَالْبَطْنِ بِالْجُوعِ إِذَا مَا أَكَلاَ مُحَرَّماً وَغَضِّ طَرْفٍ أُرْسِلاَ
وَجَاهِدَنَّهَا بِإِلْزَامِ النَّوَافِلِ الكَثِيرَةِ وَهِجْرَانِ الهَوَى
جِهَادُهَا الْحَمْلُ عَلَى المَكَارِهِ إِن شُرِعَتْ وَالكَفُّ عَمَّا تَشْتَهِي

أي غير صالحة «**كالبطن**» تعاقبه «**بالجوع إذا ما أكلا محرما**» أو لقمة شبهة بشهوة نفس «**وغض طرف أرسلا**» إلى غير مَحْرم فيعاقبه بأن لا يفتحه وكذا يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته وقد تكون المعاقبة على خلاف جنس المعصية وإنما هي على حساب ما اقتضاه رأي المعاقب كما حكي أنه نظر بعضهم نظرة واحدة إلى أجنبية فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ثم أشار إلى المجاهدة وهي الخامسة بقوله «**وجاهدنها**» إذا حاسبتها فرأيتها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن تؤدبها «**بإلزام**» أنواع «**النوافل الكثيرة**» وبتثقيل الأوراد عليها جبرا لما فات وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة جماعة أحيا تلك الليلة قائما يصلي وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين «**وهجران الهوى**» ميل النفس إلى الشهوة ويقال للنفس المائلة إليها قال تعالى : ﴿ولا تتبع الهوى﴾ كما في البصائر. «**جهادها الحمل على المكاره**» ما يشق عليها فعله «**إن شرعت**» كالطهارة وغيرها من الطاعات والصبر على المصائب وجميع المكاره «**والكف عما تشتهي**» روى مسلم من حديث أبي هريرة (الدنيا سجن المومن وجنة الكافر) المناوي : سجن المومن بالنسبة لما أعد له في الآخرة من النعيم المقيم وجنة الكافر بالنسبة لما أمامه من عذاب الجحيم وقيل المومن صرف نفسه عن لذاتها فكأنه في السجن لمنع الملاذ عنه والكافر سرحها في الشهوات فهي له كالجنة. القشيري : قال ذو النون المصري : مفتاح العبادة الفكر وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ومخالفتهما ترك شهواتهما. وفي الخاتمة : حقيقة مجاهدة النفس دوام مخالفتها فيما تهواه وتشتهيه من الحظوظ الظاهرة والباطنة من الشهوات والإرادات ودواعي النفس وأمانيها واختياراتها إلا ما لابد منه من حقوقها طلبا

وَالشَّرطُ فِي جِهَادِهَا السَّنِيِّ وِفَاقُـــهُ لِسُنَّـــةِ النَّبِـــيِّ

للاستقامة واستبقاء وثباتا على المعاملات ومجاهدتها إنما هي بالتلطف والتدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى فإن الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدريج فيترك البعض ويسلي نفسه بالبعض ثم إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن تقنع بالبقية وهكذا يفعل شيئا فشيئا إلى أن يقمع تلك الصفات التي رسخت فيه وفي الحديث (لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يغلبه) «**والشرط في**» نفع «**جهادها السني**» الرفيع فهو أفضل جهاد وأكبره كما في الخبر «**وفاقه لسنة النبي**» ﷺ. قال في النصح الأنفع أجمع المسلمون على أنه لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه وفائدة العلم تمييز أحكام الله فالعالم العاصي خير من العابد الجاهل، وفي نور البصر أن مالكا سأله رجل عن علم الباطن فغضب وقال له لا يعرفه إلا من عرف الظاهر فإن عرفه وعمل به فتح له في الباطن ولا يكون ذلك إلا مع فتح القلب وتنويره وقال ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يضعه الله في القلوب، المناوي يشير إلى علم الباطن ابن أبي جمرة اتباع الناس دون علم مهلك فالعاقل يأخذ دينه من القواعد الشرعية التي بها الخلاص، وقال في البصائر : العلم منزلة من منازل السالكين إن لم يصحبه السالك من أول قدم يضعه إلى آخر قدم ينتهي إليه يكون سلوكه على غير طريق موصل وهو مقطوع عليه ومسدود عليه سبل الهدى والفلاح وهذا إجماع من السادة العارفين ولم ينه عن العلم إلا قطاع الطريق ونواب إبليس. قال في الشرح : فعمل الجاهل تعب ولو وافق الشرع على الأصح نعم من كان في أمر لا يوخر وجهل ما يصنع فيه فليجتهد ويعمل بما رجح عنده كما فعل الصحابة في عصرهم يوم بني قريظة ثم إن وجد العلماء سألهم فإن ظهر وفاقه لسان العلم كفاه وإلا جبر ما أخل به أفاده ابن أبي جمرة. وفيه أيضا عنه : اختلف في طاعة جاهل وافقت الشرع قيل يوجر وقيل يوزر لعمله جاهلا وقيل لا ولا.

القشيري : قال النصرابادي : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم حرمات المشائخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد

وترك ارتكاب الرخص والتاويلات وقيل له إن بعض الناس يجالسون النساء ويقولون نحن معصومون في رؤيتهن فقال مادامت الأشباح باقية فإن الأمر والنهي باق والتحليل والتحريم مخاطبون به ولن يجترىء على الشبهات إلا من تعرض للمحرمات. وقال في الخاتمة : وإنما كانت الاستقامة على السنة شرطا في التصوف لأن التصوف إنما يحصل في الغالب بعد مجاهدة ورياضة ولا تنتج تلك المجاهدة إلا بموافقتها السنة والشريعة وإلا كانت عبثا وإتعابا ولكن الرياضات والمجاهدات لها تأثير في صفاء الباطن مطلقا وافقت السنة أم لا إلا أن ما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع ومتابعة الرسول ﷺ ينتج تنوير القلب والزهد وجميع الأخلاق المحمودة وما كان منه من غير سياسة الشرع ومتابعته ﷺ ينتج صفاء في النفس يستعان به على علوم رياضية مما يعنى به الفلاسفة والدهريون وكلما كثر من ذلك كثر البعد من الله ولايزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية وبما يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك حتى يركن إليه ولا يعلم أن هذا الفن غير ممنوع من النصارى والبراهمة وما يفتح من ذلك على من ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لزيادة بعده وغروره وحماقته ولايزال به حتى يخلع ربقة الإسلام من عنقه وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام ويظن أن المقصود ذكر الله وعدم متابعة السنة ثم يتدرج من ذلك إلى تزندق ونعوذ بالله من الضلال وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع ويسمونها وقائع المشائخ قاله صاحب عوارف المعارف وقال السنوسي : التقدم لمعالي الأمور قبل إتقان أصولها وضبط فروعها عجلة مذمومة وشهوة نفسية توجب لصاحبها الفضيحة والهلاك دنيا وأخرى ألا ترى البراهمة والنصارى قد ارتاضوا على قاعدة فاسدة فلم يزدهم ذلك إلا ضلالا وكثيرا ما يغتر أصحاب هذه الطريق بالتخييلات الشيطانية أو النفسانية نوما أو يقظة ويعدونها كرامات وهي في الحقيقة استدراج وزيادة لهم في أنواع الضلالة نسأله سبحانه أن يلهمنا رشد أنفسنا.

وقد قلت :

صِحــةُ الايمان وأن يُتَّبعــا ... ما جَا بِهِ طٰه لذين رجَعا
معنــى استقامــةٍ ولا كرامــهْ ... أعظمُ من حُصول الاستقامــه
فهْــيَ الكرامــةُ الحقيقيــةُ لا ... مَكْرَ ولا استدراجَ فيها دخـلا

بعكسها الكرامة الحسيه لم تُعْتَبَرْ فما لها مزيه
مثل خوارق العوائد فقد يُرزَقُها من استقامةً فقد

ابن أبي جمرة عند حديث (ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال...) إلخ : فيه تنبيه أن ينظر كل شخص في أمر نفسه في زمانه لأن كل زمان لا يخلو من دجاجلة فيكون من أتباعهم وهو لا يعلم ويظن أنه قد سلم من الدجال وهو من أتباعه أو هو في نفسه من الدجاجلة ولا يعرف ذلك إلا بإقامة ميزان الكتاب والسنة على نفسه على مقتضى ما تأوله السلف الصالح رحمهم الله تعالى وإلا يكون مستدرجا وهو لا يعلم فيدخل تحت قوله عز وجل : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ وإلى هذا المعنى إشارته ﷺ بقوله : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) وليلزم الأدب والخوف فالأمر والله عظيم وقد أصبحنا في زمان تغيرت فيه أعلام الخير وتشعبت طرقه وقل فيه السالكون وإليه الداعون فتداركنا الله باللطف منه بمنه وفضله. انتهى بلفظه.

القشيري عن بعضهم من ألزم نفسه آداب الشريعة نور الله قلبه بنور المعرفة ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه. وفي روح البيان : وفي الانتقال من العبادة التي هي جنس من أعمال الجوارح إلى الإيمان والمعرفة دلالة على أنه ما لم يصر الظاهر مزينا بالأعمال الصالحة لا يستقر في القلب نور الإيمان والمعرفة فإن الله تعالى جعل أحكام الشريعة أساس المعرفة فإذا زال الأساس زال ما بني عليه وأيضا العمل لباس المعرفة فإذا انسلخت المعرفة عن هذا اللباس صارت كسراج على وجه الريح. ابن عباد : وليس طريق موت النفس بقطع جميع الارفاق عنها وردها إلى الاجتزاء بالحشيش والنخالة والمبالغة في التقشف والتقلل مع قطع النظر عن أحوال القلب وإرادته وترك الالتفات إلى ما يحمد منها وما يذم فذلك كله بدعة وقد غلط في هذا طوائف عملوا عليه في رياضتهم ومجاهداتهم ولم يقصدوا بذلك إخلاص العبودية لربهم فأداهم ذلك إلى اختلال عقولهم وانحلال قوى أبدانهم ولم يحصلوا من أمرهم على فائدة وذلك لجهلهم بالسنة وما كان عليه سلف هذه الأمة.

والحاصل أنه لابد من الجمع بين الحقيقة والشريعة قال أبو سليمان الداراني : إنها لتقع النكتة من كلام القوم في قلبي أياما فأقول لا أقبلك إلا بشاهدي عدل :

مَن ظَنَّ أَن يَصِلَ دُونَ جَهْدِ فَمُتَمَنٍّ أَوْ بِبَذْلِ الجَهْدِ

الكتاب والسنة. ابن عجيبة : كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقول إذا عارض كشفك الصحيح الكتاب والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة و لم يضمنها لي في جانب الكشف والإلهام. ومثل هذا أيضا قول الجنيد : إن النكتة لتقع في قلبي من جهة الكشف فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل الكتاب والسنة، ولا يلزم من عدم العمل بها انتقادها على أهلها فإن العلم واسع له ظاهر وباطن ومسائل الإلهامات ترد على حسب العلم الظاهر وتارة ترد على حسب العلم الباطن فإن لم تفهم فسلم.

تتمة : بقيت المرابطة السادسة بالمعاتبة وقد أشرت إليها بقولي :

والـــزمْ لأَمَّـــارَتِكَ المَلاَمَـــهْ والعتبَ والوعظَ تكُنْ لَوَّامَـــهْ
وَعَلَّهَـــا تَغْـدُو بـــذاكَ رَاقِيَـــهْ لِلمُطمَئِنَّـــةِ فَتُـــمْسِي رَاضِيَـــهْ

ففي الإحياء لما تكلم عليها : اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت و لم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولا بوعظ نفسك، أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني وقال تعالى : ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المومنين﴾ انظر بقية كلام الإحياء ولابد فقد أطال في سبيل ذلك جدا. وقال في الخاتمة : المقام السادس أن يلوم النفس اللوامة لتتدرج إلى النفس المطمئنة.

«**من ظن أن يصل**» إلى مطلوبه «**دون جهد فمتمن أو ببذل الجهد فمتعن**» تعنى : تعب. القشيري : قال الخراز : من ظن أنه إذا بذل الجهد يصل إلى مطلوبه

فَمُتَعَـنٌ أَوْ شَهِـيَّ الأَكْـلِ لَـيْسَ يَضُرُّهُ أَتَـى بِـإِزْلِ

فهو متعن ومن ظن أنه بغير الجهد يصل فمتمن. وفي شرح منهاج العابدين : قال علي كرم الله وجهه : من ظن أنه بدون الجهد يصل إلى الجنة فهو متمن ومن ظن أنه ببذل الجهد يصل إلى الجنة فهو متعن، وفي الخاتمة : قالوا : من ظن أنه بغير بذل الجهد في الطاعات يبلغ شيئا من الدرجات فقد رام المحال وقالوا لا تخرق للعبد العادات إلا إن زاد على الناس في العبادات. القشيري : سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة واعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريق شمعة تنير له الطريق ويقول أبو عثمان المغربي : من ظن أنه يفتح له شيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها إلا بلزوم المجاهدة فهو مخطىء. ابن أبي جمرة : قال بعض الفضلاء : اعمل عمل من لا يرى خلاصا إلا بالعمل وتوكل توكل من لا يرى خلاصا إلا بالتوكل. ابن عباد : قال بعض العلماء : من ظن أنه يصل إلى الله تعالى بغير الله قطع به ومن استعان على عبادة الله تعالى بنفسه وكل إلى نفسه فعلى العبد السالك أن يجعل معتمد أمره الاستعانة بالله تعالى على ما هو بسبيله ولا يرى حول نفسه ولا قوتها في كثير من عمله ولا قليله فهذا هو أساس السلوك الذي ينبني عليه قواعده. المناوي : قد ثبت أن دقائق علوم التصوف منح إلهية ومواهب اختصاصية لا تنال بمعتاد الطلب فلزم مراعاة وجه تحصيل ذلك وهو ثلاث الأول العلم بما عمل على قدر الاستطاعة الثاني اللجأ إلى الله على قدر الهمة الثالث إطلاق النظر في المعاني حال الرجوع لأهل السنة ليحصل الفهم وينتفي الخطأ ويتيسر الفتح وقد أشار لذلك الجنيد بقوله : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال بل عن الجوع والسهر ولزوم الأعمال. «**أو**» ظن «**شهي الأكل ليس يضره**» أكله «**أتى بإزل**» بالكسر أي كذب قال أبو العباس الموصلي : من زعم أن أكل الشهوات لا يضره فقد أعظم الفرية على الله تعالى. وقال أبو سليمان الداراني : من المحال أن يجد أحد لذة الطاعات وهو يتناول الشهوات. وقال وهيب بن الورد : من تناول الشهوات فليتهيأ للذل في الدنيا والآخرة. وقال يحيى بن معاذ : شهوات النفس نيرانها وحطبها لذتها والجوع ماؤها الذي تطفأ به. وقال : صاحب الشهوات متعب في الدنيا بتحصيلها وفي الآخرة بالحساب

فصـــل

عِرْفَانُهَـا الطُّـرْقُ إِلَيْـهِ أَرْبَـعُ صَدِيقٌ اوْ شَيْخٌ بَصِيرٌ تَتْبَعُ
إيمَاءَهُ وَخِلْطَةُ النَّاسِ فَمَـا رَآهُـمُ ذَمُّـوا اتَّقَـى تَكَرُّمَـا

عليها. وقال : إذا رأيتم الزاهد قد ترخص بأكل الشهوات فاعلموا أنه رجع عن الزهد فإن التبسط في الدنيا معدود من فسق العارفين فكيف بآحاد الناس !

«**فصل**» في معرفتها «**عرفانها**» أي عرفان عيوبها لمن أراد أن يقف عليه «**الطرق إليه أربع**» الأولى أخ «**صديق**» صدوق بصير متدين تجعله رقيبا على أحوالك وأعمالك فما يكرهه من أخلاقك وأفعالك وعيوبك الباطنة والظاهرة ينبهك عليه فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين كان عمر بن الخطاب يقول : رحم الله من هداني إلى عيوبي !. «**أو**» أي والطريق الثاني «**شيخ بصير**» بالعيوب والآفات تجلس بين يديه فتحكمه في نفسك و«**تتبع إيماءه**» أي إشارته في مجاهدتك وهذا شأن المريد مع شيخه والتلميذ مع أستاذه فيعرفه شيخه أو أستاذه عيب نفسه ويعرفه طريق علاجه وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده قاله في الإحياء.. قال شارحه : وإن وجد شيخ على هذه الصفة لم يوجد من يرشده من المريدين الصادقين وإن وجد مريد صادق لم يوجد شيخ كامل بالأوصاف المذكورة فهذا سبب عزة الأمر. الشرنوبي : اعلم أنه لا يصلح للإرشاد إلا من كان على علم يهدي به العباد فإذا مرض مريده بسبب شبهة في علم التوحيد داواه أو تحير في مسألة فقه أفتاه مع قناعة تورثه الغنى عن الناس وخوف يحجزه عن المعاصي والأدناس.. كان الإمام الجنيد يقول : لا يستحق الرجل أن يكون شيخا حتى يأخذ حظا من كل علم شرعي، وأن يتورع عن جميع المحارم وأن يزهد في الدنيا وأن لا يشرع في مداواة غيره إلا بعد أن يفرغ من مداواة نفسه.. ثم قال : فإياك ومتابعة من لم يكن على هذه الأوصاف فإنه من جنود الشيطان واعتبر أقواله وأفعاله وأحواله وزنها بميزان الشريعة والطريقة فإن رأيت شيئا مخالفا لهما فرده فإن كان صاحب حال صحيح ورددته فما عليك من رده بحكم الشرع ولا تتخذه شيخا مرشدا، وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى

يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة. وذلك لأن الكرامة ما كانت عونا لصاحبها على ما يقربه لمولاه ويقوي يقينه ويمكنه من محبته ورضاه فإذا جرى الخارق على يد العبد و لم تشهد له الشريعة بالاستقامة فهو ممكور به وما ألطف ما قاله بعض العارفين من قصيدة جامعة

وللشيخ آيات إذا لم تكن له فما هو إلا في ليالي الهوى يسري
إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن فاضرب به لجج البحر
وإن كان إلا أنه غير جامع لوصفيهما جمعا على أكمل الأمر
فأقرب أحوال العليل إلى الردى إذا لم يكن منها الطبيب على خبر
وآيته أن لا يميل إلى هوى فدنياه في طي وأخراه في نشر إلخ

انتهى بحذف، والأصل في صحبة المشائخ والاقتداء بهم قوله تعالى : ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾ زروق : والإنابة لا تكون إلا بعلم واضح وعمل صحيح وحال ثابت لا ينقضه كتاب ولا سنة. انظر ابن حمدون. «و» الثالث «**خلطة الناس**» بالكسر أي مخالطتهم «**فما رآهم ذموا**» فيما بينهم «**اتقى**» كله أي تجنبه «**تكرما**» أي تنزها عنه.. قال في الإحياء : فكل ما رآه مذموما فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه فإن المومن مرآة المومن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديبا فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب قيل لعيسى عليه السلام من أدبك ؟ قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته.. ثم الطريق الرابع قوله «**وهكذا تعرف**» عيوب نفسك «**من أقوال عداك فيك**» فأعرف الناس بعيب المرء أعداؤه فإذا أصغيت أذنك إليهم فلابد أن تسمع عيبك، ولأبي حيان :

عداتي لهم فضل علي ومنة فلا أبعد الرحمٰن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

«**طالع**» إحياء «**الغزالي**» قال وهذا كله حيل من فقد شيخا عارفا ذكيا بصيرا بعيوب النفس مشفقا ناصحا في الدين فارغا من تهذيب نفسه مشتغلا بتهذيب عباد الله تعالى ناصحا لهم فمن وجد ذلك فقد وجد الطبيب فليلازمه فهو الذي يخلصه من مرضه وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده. الزبيدي : وإن لم يوجد فلينتبه للطرق الثلاثة إما بتأدب من صديقه أو من عدوه أو من خليطه ولا أقل من ذلك، ابن أبي جمرة عند خبر (...ففيهما فجاهد) هذا أدل دليل لأهل الصوفة المتحققين الذين لا يدخلون في المجاهدات والسلوك إلا تحت يد شيخ عارف بالسلوك ويقولون بأن من دخل في ذلك دون شيخ قل أن يجيء منه شيء وإن جاء فلا يصل إلى مقام المربي ومعرفته وفطنته اللهم إلا إن كان ذلك بخرق العادة وما كان بخرق العادة فليس الكلام عليه وإنما الكلام على ما جرت به عادة الحكمة.

تتمة : وكذا تعرف من مطالعة كتب القوم كالمحاسبي والغزالي. ابن زكري : وهذا الطريق اليوم أنفع وأنفذ لأن النفوس اليوم لا تنقاد للنصحاء ولا تقبل نصحهم. ومن ذلك حضور مجالس العلم من تفسير وحديث وتصوف فإنه نافع في ذلك فهذه خمس طرق وبقيت طريقة سادسة وهي أن من لم يجد شيخا يربيه ويرقيه فليلازم الصلاة على النبي ﷺ فهي تربيه وترقيه وتهذبه وتوصله. ذكره الشيخ زروق والشيخ السنوسي، انظر ابن حمدون.

فائدة : قال عز الدين في قواعده والطريق في إصلاح القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحها وتفسد بفسادها تطهيرها من كل ما يباعد عن الله وتزيينها بكل ما يقرب إليه ويزلفه لديه من الأحوال والأقوال والأعمال وحسن الآمال ولزوم الإقبال عليه والإصغاء إليه والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات وحال من الأحوال على حسب الإمكان من غير أداء إلى السآمة والملال ومعرفة ذلك هي الملقبة بعلم الحقيقة وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال والعزوم والنيات وغير ذلك مما ذكرناه من أعمال القلوب فمعرفة أحكام الظواهر معرفة لجل الشرع ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدق الشرع ولا ينكر شيئا منهما إلا كافر أو فاجر وقد يتشبه بالقوم من ليس منهم ولا يقاربهم في شيء من الصفات وهم شر من قطاع الطريق لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى وقد اعتمدوا على كلمات قبيحات يطلقونها

فصــل فــي الاحــوال

على الله ويسيئون الأدب على الأنبياء والرسل وأتباع الأنبياء من العلماء الأتقياء وينهون من يصحبهم عن السماع من الفقهاء لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم وعن سلوك طريقهم. انتهى بلفظه.

«**فصل في الأحوال**» الحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج فالأحوال مواهب ترقي إلى المقامات والمقامات مكاسب بمواهب لأنها إنما تنال بالكسب مع الموهبة.. قولهم معنى يرد على القلب محصله أنها واردات إلهية ترد على قلوب العارفين بواسطة تنوير قلوبهم الناشىء عن الجد والاجتهاد في العبادة مع الإخلاص والمراقبة ولكن لا كسب للعبد فيها وإنما هي مدارج للمطالب من رفيع المقامات مع أن مبنى الأمر على الحال لا القال فارحل من أوحال القال إلى أوطان الحال وقدم بين يدي نجواك صدقة صدق عزم وتقوى لا زخرف قول ولا دعوى.. قولهم من غير تعمد منهم أي ولذا قال أبو محمد عبد القادر الكيلاني رحمه الله: الوارد الإلهي لا يرد باستدعاء ولا يذهب بسبب ولا ياتي على نمط واحد ولا في وقت واحد والطارق الشيطاني بخلاف ذلك فتدبر قولهم ولا اجتلاب أي وإنما هي المواهب الفائضة على العبد من ربه إما ميراثا للعمل الصالح أو امتنانا محضا قولهم ولا اكتساب لهم أي لأن التنزلات العرفانية على القلوب القدسية لا ترد إلا فجأة دون روية واستعداد وتوْقيتٍ وقد ترد عن استعداد وذلك أقل قليل بل يكاد أن يكون معدوما.. قولهم فالأحوال مواهب أي تنشأ عن الهبات الإلهية لا مدخل للكسب فيها وقولهم والمقامات مكاسب أي تنال بكسب العبد وطلبه بمساعدة الهبات ويقال أيضا الأحوال تاتي من عين الجود والمقامات تحصل ببذل المجهود وصاحب المقام متمكن في مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله فالمقامات مستقرة والأحوال متغيرة والتحقيق أن الجميع مواهب إلا أن المقامات يظهر فيها الكسب ويبطن فيها الموهبة والأحوال بالعكس وقد تصير الأحوال مقامات وذلك عند استقرارها. انظر شرح الكبريت.

لَهُمْ عِبَارَاتٌ عَنِ ٱلأَحْـوَالِ   كَالْقُـرْبِ وَٱلْحَيَـا وَالاتِّصَالِ

«**لهم**» أي لطائفة الصوفية «**عبارات**» يعبرون بها «**عن الأحوال**» فهم يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والإجمال والستر على من باينهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب عنهم غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها «**كالقرب**» والبعد. القشيري : أول رتبة في القرب هي القرب من طاعته والالتزام في جميع الأوقات بعبادته وأما البعد فهو التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته فأول البعد بعد عن التوفيق ثم بعد عن التحقيق فقرب العبد يقع أولا بإيمانه ثم بإحسانه وقرب الرب من عبده ما يخصه به في الدنيا من عرفانه وفي الآخرة من رضوانه وفيما بين ذلك من وجوه لطفه وامتنانه ولا يتم قرب العبد من الحق إلا ببعده من الخلق وقرب الرب بالعلم والقدرة عام للناس وباللطف والنصرة خاص بالخواص وبالتأنيس خاص بالأولياء. انتهى باختصار. وفي الشرح : القرب الوصول أو قريب منه. وقال ابن زكري :

والقرب معناه شهود العبد   لقرب مولاه العظيم المجد

«**والحيا**» إطراق الروح إجلالا لعظيم الجلال وقال ذو النون : الحياء وجود الهيبة في القلب مع حشمة ما سبق منك إلى ربك. وقال أبو سليمان : العباد عملوا على أربع درجات على الخوف والرجاء والتعظيم والحياء وأشرفهم منزلة من عمل على الحياء لما أيقن أن الله تعالى يراه على كل حال استحيا من حسناته أكثر مما استحيا العاصون من سيئاتهم. وقال بعضهم الغالب على قلوب المستحيين الإجلال والتعظيم دائما عند نظر الله إليهم، انظر العوارف. «**والاتصال**» قال النوري : مكاشفات القلوب ومشاهدات الأسرار. وقال بعضهم الاتصال وصول السر إلى مقام الذهول. وقال بعضهم الاتصال أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر لغير صانعه. وقال سهل بن عبد الله : حركوا بالبلاء فتحركوا ولو سكنوا اتصلوا، وقال يحيى بن معاذ الرازي : العمال أربعة تائب وزاهد ومشتاق وواصل فالتائب محجوب بتوبته والزاهد محجوب بزهده والمشتاق محجوب بحاله والواصل لا يحجبه عن الحق شيء، وقال أبو سعيد القرشي : الواصل الذي يصله الله فلا يخشى عليه القطع أبدا والمتصل الذي بجهده يتصل وكلما دنا انقطع،

وَكَالتَّجَلِّـــي وَكَالِاسْتِتَـــارِ   وَالسُّكْرِ وَالصَّحْوِ وَكَالسِّمَـــارِ

وكأن هذا الذي ذكره حال المريد والمراد لكون أحدهما مبادءا بالكشوف وكون الآخر مردودا إلى الاجتهاد، انظر العوارف. «**وكالتجلي**» يعبرون به عن الأنوار التي ترد على القلب من قبل الحق وهو أربعة تجلي الأفعال وهو أن يشاهد العبد قيام سائر الأفعال بالحق حتى يغيب بتلك المشاهدة عن الخلق ثم تجلي الأسماء وهو أن يتجلى للسالك باسم من أسمائه حتى يستغرق في معنى ذلك الاسم ثم تجلي الصفات وهو الذي منشؤه اعتبار صفة من الصفات ثم تجلي الذات وهو نهاية السالكين وبداية المجذوبين وأنكره بعض المنتسبين كما في رسالة السلوك.

وفي العوارف قال بعضهم : علامة تجلي الحق للأسرار هو أن لا يشهد السر ما يتسلط عليه التعبير ويحويه الفهم فمن عبر أو فهم فهو صاحب استدلال لا ناظر إجلال. وقال بعضهم : التجلي رفع حجبة البشرية لا أن يتلون ذات الحق عز وجل «**وكالاستتار**» أن تكون البشرية حائلة بينك وبين شهود الغيب أو هو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكمال قوة صفات القلب انظر العوارف. القشيري : العوام في غطاء الستر والخواص في دوام التجلي وفي الخبر (إن الله تعالى إذا تجلى لشيء خشع له) فصاحب الستر بوصف شهوده وصاحب التجلي دائما بنعت خشوعه والستر للعوام عقوبة وللخواص رحمة إذ لولا أنه يستر عليهم ما يكاشفهم به لتلاشوا عند سلطان الحقيقة ولكنه كما يظهر لهم يستر عليهم، «**والسكر**» غيبة بوارد قوي «**والصحو**» رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة وللسكر زيادة على الغيبة من وجه وذلك أن صاحب السكر قد يكون مبسوطا إذا لم يكن مستوفى في سكره وقد يسقط إخطار الأشياء عن قلبه في حال سكره وتلك حال المتساكر الذي لم يستوفه الوارد فيكون للإحساس فيه مساغ وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة والغيبة قد تكون للعباد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقتضيات الخوف والرجاء والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد فإذا كوشف العبد بصفة الجمال حصل السكر وطربت الروح وهام القلب والصحو على حسب السكر فمن كان سكره بحق كان صحوه بحق ومن كان سكره بحظ مشوبا كان صحوه بحظ مصحوبا ومن كان محقا في حاله كان

وَالذَّوْقِ وَالشِّرْبِ وَرَيٍّ هَيْبَهْ   وَقْتٍ وَتَلْوِينٍ شُهُودٍ غَيْبَهْ

محفوظا في سكره والعبد في حال سكره يشاهد الحال وفي حال صحوه يشاهد العلم إلا أنه في حال سكره محفوظ لا بتكلفه وفي صحوه متحفظ بتصرفه والصحو والسكر بعد الذوق والشرب قاله القشيري. «**وكالسمار**» أي المسامرة وهي تفرد الأرواح بخفي مناجاتها ولطيف مناغاتها في سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب كما في العوارف. «**والذوق والشرب وري**» هذه ألفاظ يعبرون بها عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات وبواده الواردات وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الري فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ودوام مواصلاتهم يقتضي لهم الري فصاحب الذوق متساكر وصاحب الشرب سكران وصاحب الري صاح ومن قوي حبه تسرمد شربه فإذا دامت به تلك الصفة لم يورثه الشرب سكرا فكان صاحيا بالحق فانيا عن كل حظ لم يتأثر بما يرد عليه ولا يتغير عما هو به ومن صفا سره لم يتكدر عليه الشرب ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق بدونه «**هيبه**» وأنس وهما حالان فوق القبض والبسط فكما أن القبض فوق رتبة الخوف والبسط فوق منزلة الرجاء فالهيبة أعلى من القبض والأنس أتم من البسط وحق الهيبة الغيبة فكل هائب غائب ثم الهائبون يتفاوتون في الهيبة حسب تفاوتهم في الغيبة وحق الأنس صحو بحق فكل مستأنس صاح ثم يتباينون حسب تباينهم في الشرب ولهذا قالوا أدنى محل الانس أنه لو طرح في لظى لم يتكدر عليه أنسه وحال الهيبة والأنس وإن جلتا فأهل الحقيقة يعدونهما نقصا لتضمنهما تغير العبد فقد سمت أحوال أهل التمكين عن التغير وهم محو في وجود العين فلا هيبة لهم ولا أنس ولا علم ولا حس والحكاية معروفة عن أبي سعيد الخراز أنه قال تهت في البادية مرة فكنت أقول :

أتيه فلا أدري من التيه من أنا   سوى ما يقول الناس في وفي جنسي
أتيه على جن البلاد وإنسها   فإن لم أجد شخصا أتيه على نفسي

قال سمعت هاتفا يهتف بي ويقول :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده   ويفرح بالتيه الدني وبالأنس

وَالْوَجْـدِ وَالوُجُـودِ وَالتَّوَاجُـدِ وَالْفَرْقِ وَالجَمْعِ وَجَمْعِهِ القَدِي

فلو كنت من أهل الوجود حقيقة لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنت بلا حال مع الله واقفا تصان عن التذكار للجن والإنس

انظر القشيري. «**وقت**» ما هو الغالب على الإنسان من فرح أو حزن أو قبض أو بسط أو غير ذلك وقد يراد بالوقت ما يهجم على العبد لا بكسبه فيتصرف فيه فيكون بحكمه يقال فلان بحكم الوقت يعني ماخوذا عما منه بما للحق، ومن كلامهم : الصوفي ابن وقته يريدون أنه مشتغل بما هو أولى به في الحال قائم بما هو مطالب به في الحين فالفقير لا يهمه ماضي وقته وآتيه اشتغالا بالوقت الذي هو فيه. القشيري يقال من صفة الولي أن لا يكون له خوف لأن الخوف ترقب مكروه يحل في المستقبل أو انتظار محبوب يفوت في المستأنف والولي ابن وقته ليس له مستقبل فيخاف شيئا وكما لا خوف له لا رجاء له لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل أو مكروه يكشف وذلك في الثاني من الوقت وكذلك لا حزن له لأن الحزن من حزونة الوقت ومن كان في ضياء الرضا وبرد الموافقة فأنى يكون له حزن قال الله تعالى : ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. «**وتلوين**» وتمكين.. القشيري : التلوين صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق فمادام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف ويخرج من مرحل ويحصل في مربع فإذا وصل تمكن وأنشدوا :

مازلت أنزل في ودادك منزلا تتحير الألباب دون نزوله

وصاحب التلوين دائما في الزيادة وصاحب التمكين قد وصل ثم اتصل وأمارة أنه اتصل إن بالكلية عن كليته بطل قال بعض المشائخ : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا. «**شهود غيبه**» فالشهود هو الحضور وقتا بنعت المراقبة ووقتا بوصف المشاهدة فمادام العبد موصوفا بالشهود والرعاية فهو حاضر فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد يعنون بالغيبة الغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء كما في العوارف. «**والوجد**» وهو ما يصادف قلبك

ويرد عليك بلا تعمد وتكلف ولهذا قال المشائخ : الوجد هو المصادفة والمواجيد ثمرات الأوراد فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله تعالى لطائفه قاله القشيري. «**والوجود**» وهو أن تجد الحق بعد خمود البشرية قال القشيري : أما الوجود فهو بعد الارتقاء عن الوجد ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة وهذا معنى قول أبي الحسن النوري : أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد أي إذا وجدت ربي فقدت قلبي وإذا وجدت قلبي فقدت ربي. وهذا معنى قول الجنيد : علم التوحيد مباين لوجوده ووجوده مباين لعلمه. «**والتواجد**» استجلاب الوجد بالذكر والتفكر كما في العوارف. القشيري : التواجد استدعاء الوجد بنوع من الاختيار وليس لصاحبه كمال الوجد إذ لو كان كذلك لكان واجدا وباب التفاعل أكثره على إظهار الصفة وليس كذلك.. ثم قال : فالتواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة بين البداية والنهاية سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول : التواجد يوجب استيعاب العبد والوجد يوجب استغراق العبد والوجود يوجب استهلاك العبد فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق في البحر وترتيب هذا الأمر قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود وبمقدار الوجود يحصل الخمود !. «**والفرق والجمع وجمعه**» أي جمع الجمع «**القدي**» أي الطيب قال في رسالة السلوك : الفرق ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية والجمع ما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان. وفيها أيضا أن جمع الجمع فوق الجمع فمن أثبت نفسه وأثبت الخلق ولكن شاهد الكل قائما بالحق فهو صاحب جمع وإذا كان مختطفا عن شهود الخلق مصطلما عن نفسه مأخوذا بالكلية عن الأغيار لما استولى عليه من سلطان الحقيقة فمقامه جمع الجمع. ونحوه للقشيري.. قال والتفرقة شهود الأغيار لله عز وجل والجمع شهود الأغيار بالله وجمع الجمع الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى الله عز وجل عند غلبات الحقيقة وبعد هذا حالة عزيزة يسميها القوم الفرق الثاني وهو أن يرد إلى الصحو عند أوقات الفرائض ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها فيكون رجوعا لله بالله تعالى لا للعبد بالعبد فالعبد يطالع نفسه في هذه الحالة في تصريف الحق سبحانه يشهد مبدأ ذاته وعينه بقدرته ومجرى أفعاله وأحواله عليه بعلمه ومشيئته. وقال أيضا قبل هذا : فمن أشهده الحق سبحانه أفعاله من طاعاته ومخالفاته فهو عبد

كَذَا الفَنَا وَلِثَلاَثٍ ضَائِـفِ بَقاً وَتَفْرِيدٍ وَتَجْرِيدٍ صَفِـي

يوصف بالتفرقة ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحٰنه فهو عبد بشاهد الجمع فإثبات الخلق من باب التفرقة وإثبات الحق من نعت الجمع ولابد للعبد من الجمع والفرق فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفة له فقوله إياك نعبد إشارة إلى الفرق وقوله وإياك نستعين إشارة إلى الجمع.

ابن عجيبة : الحاصل أن أهل الجمع لا يشهدون إلا الحق وأهل الفرق لا يشهدون إلا الخلق ويستدلون به على الحق وأهل الفرق في الجمع يشهدون الخلق والحق أعني يشهدون الواسطة والموسوط من غير فرق بينهما. وقال في العوارف يقولون فلان في عين الجمع يعنون استيلاء مراقبة الحق على باطنه فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة فصحة الجمع بالتفرقة وصحة التفرقة بالجمع فهذا يرجع حاصله إلى أن الجمع من العلم بالله والتفرقة من العلم بأمر الله ولابد منهما جميعا.. قال المزين الجمع عين الفناء بالله والتفرقة العبودية متصل بعضها بالبعض وقد غلط قوم وادعوا أنهم في عين الجمع وأشاروا إلى صرف التوحيد وعطلوا الاكتساب فتزندقوا وإنما الجمع حكم الروح والتفرقة حكم القالب ومادام هذا التركيب باقيا فلابد من الجمع والتفرقة. وقال الواسطي : إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة. انظر بقية كلامه. «**كذا الفنا**» قال عز الدين : حقيقته غفلة عن كل شيء للشغل برب كل شيء. الشرنوبي : الفناء على ثلاثة أوجه فناء في الأفعال لا فاعل إلا الله وفناء في الصفات لا حي ولا عالم ولا قادر ولا مريد ولا سميع ولا بصير ولا متكلم على الحقيقة إلا الله وفناء في الذات لا موجود بالوجود الذاتي إلا الله وأنشدوا في ذلك :

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء

فيفنى أولا في الأفعال بذوق ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ ثم يفنى ثانيا في الصفات بذوق ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ ثم يفنى ثالثا في الذات بذوق كان الله ولا شيء معه ويبقى الله ولا شيء معه وعند ذلك يبقى بربه سبحٰنه وتعالى. «**ولثلاث ضائف**» أي قل فناء الفناء وفناء فناء الفناء هذا ظاهره ويدل

للأخير ما في ابن عباد عن بعضهم أنه سئل عن الفناء فقال الفناء أن تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات والأذكار وتفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه وفنائه عن الأشياء وعن فنائه عن الفناء لأنه يغرق في التعظيم عقله. قال في رسالة السلوك : فمن فني عن الخلق مع أنه يشعر بنفسه وأنه فان فهو صاحب فناء ومن فني عن نفسه وعن الخلق وعن فنائه فهو في فناء الفناء «**بقا**» فسره في الشرح ببقاء أضدادها وانظر ما مراده !. ابن عجيبة : الفناء الغيبة عن الخلق بشهود الحق والبقاء شهود الخلق بالحق إن كان بعد الفناء وإن كان قبل الفناء فهو شهود خلق بلا حق وهو محل أهل الحجاب. الشرنوبي : الفناء يطلق على معنيين أحدهما سقوط الأوصاف المذمومة كما أن البقاء وجود الأوصاف المحموده والثاني الاستغراق في المشاهدة القلبية حتى لا يشعر بغير الله ويغيب عن نفسه بالكلية وهو انتهاء السير إليه تعالى فيكون فانيا في الله باقيا به على حد قول بعضهم :

وبعد الفنا في الله كن كيفما تشا فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

القشيري : فمن فني عن جهله بقي بعلمه ومن فني عن شهوته بقي بإنابته ومن فني عن رغبته بقي بزهده ومن فني عن أمله بقي بإرادته وكذلك القول في جميع تصرفاته فإذا فني العبد عن صفته بما جرى ذكره يرتقي عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه وإلى هذا أشار الشاعر :

فقوم تاه في أرض بقفر وقوم تاه في ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقا من قرب ربه

فالأول فناء عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ثم فناؤه عن صفات الحق بشهوده الحق ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق «**وتفريد وتجريد صفي**» فعيل من الصفو نعت تجريد فالتفريد أن لا يرى نفسه فيما ياتي به بل يرى منة الله عليه والتجريد هو أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا ياتي بما ياتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وانقيادا فالتجريد بنفي الأغيار والتفريد بنفي نفسه

وَمِنْ أَوَالِي حَالِكَ الطَّوَالِعْ طَوَارِقٌ لَوَامِحٌ لَوَامِعْ
وَمَا عَلَى القَلْبِ مِنَ المَعَارِفِ يَرِدُ بِالوَارِدِ سِمْ وَعَرِّفِ

واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن كسبه. انظر العوارف. «**ومن أوالي**» قلب أوائل أي من أوائل «**حالك**» أيها المريد «**الطوالع طوارق لوامح**» هكذا في النسخ بالميم قبل الحاء ولعله تحريف فالذي وقفت عليه في العوارف والقشيري ورسالة السلوك وغيرها لوائح بالهمز «**لوامع**» والبوادي والباده والواقع والقادح فهذه الأسماء كلها مبادىء الحال ومقدماته كما في العوارف. القشيري : اللوائح والطوالع واللوامع هذه الألفاظ متقاربة المعنى لا يكاد يحصل بينها فرق كبير وهي من صفات أصحاب البدايات الصاعدين في الترقي بالقلب فلم يدم لهم بعد ذلك ضياء شموس المعارف لكن الحق سبحٰنه وتعالى يوتي رزق قلوبهم في كل حين كما قال تعالى : ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ وكلما أظلمت عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ سنحت لهم فيها لوائح الكشف وتلألأت لوامع القرب وهم في زمان سترهم يرقبون فجأة اللوائح فتكون أولا لوائح ثم لوامع ثم طوالع فاللوائح كالبروق ما ظهرت إلا استترت في الحين كما قال الشاعر :

افترقنا حولا فلما التقينا كان تسليمه علي وداعا

واللوامع أظهر من اللوائح وليس زوالها بتلك السرعة فقد تبقى وقتين وثلاثة ولكن كما قالوا : * والعين باكية لم تشبع النظرا * فإذا لمع قطعك عنك وجمعك به ولكن لم يسفر نور نهاره حتى كرت عليه عساكر اليل فهؤلاء بين روح ونوح لأنهم بين كشف وستر والطوالع أبقى وقتا وأقوى سلطانا وأدوم مكثا وأذهب للظلمة وأنفى للتهمة لكنها موقوفة على خطر الأفول ليست برفيعة الأوج ولا بدائمة المكث وأوقات حصولها وشيكة الارتحال وأحوال أفولها طويلة الأذيال. انتهى منه باختصار وتغيير يسير... ثم ذكر البواده والهجوم قائلا : البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة إما بموجب فرح أو بموجب ترح والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك. وانظر القشيري والعوارف ورسالة السلوك لبقية الأحوال. «**وما على القلب من المعارف يرد بالوارد سم وعرف**» أي حده بذلك.. قال في الحكم : إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه

فصـــل

واردا. ابن عباد : الوارد عبارة عما يرد على القلب من المعارف الربانية واللطائف الروحانية ليطهره بذلك ويزكيه حتى يصلح بذلك للورود عليه والدخول إلى حضرته لأن الحضرة منزهة عن كل قلب منكدر بالآثار متلوث بأقذار الأغيار فإذاً إنما أورد عليك لتكون به واردا. القشيري : الوارد هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد وكذلك ما لا يكون من قبيل الخواطر فهو وارد أيضا ثم قد يكون واردا من الحق وواردا من العلم فالواردات أعم من الخواطر لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه والواردات تكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط إلى غير ذلك من المعاني.

فائدة : في رسالة السلوك الحجاب انطباع الصور الكونية في القلب المانعة له من قبول تجلي الحق فمتى كان في قلب السالك غير الله تعالى فهو محجوب عن تجلي الحق وقد تكثر الأغيار فتصير حجابا ظلمانيا وتقل فتكون حجابا نورانيا فلذلك اختار المحققون للسالك ترك الأسباب والخلوة لئلا تنطبع الصور الكونية في قلبه فتمنعه من تجلي الحق له والدليل على أن المانع هو الصور أنك ترى العابد الذي ليس سالك طريق المحققين يعبد الله سبعين سنة فلا يحصل في قلبه شيء مما يحصل للسالكين لأن قلبه مملوء من الأغيار ولا يسعى في إذهابها من قلبه ولا يريد ما أراده السالكون بل يطلب ما وعده الله تعالى من دخول الجنة فإن قبل عبادته أعطاه ذلك وهو لا يخلف الميعاد والسالك يعطيه الله التجلي في الدنيا وله في الآخرة أعلى المقامات. وأما الشطح فقال عليش هو التواجد وغلبة المشاهدة على العقول. وفي التاج : الشطحات في اصطلاح الصوفية عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الحق تعالى عليهم بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق.

«**فصل**» في المعرفة، والفرق بينها وبين العلم بلسان الصوفية كما في قانون اليوسي : هو أن العلم ما حصل من طريق النقل والسماع أو من طريق النظر والاستدلال والمعرفة ما حصل من طريق الفيض الرباني على جهة الكشف والنوال، وقد يقال في الأول علم مكسوب وفي الثاني علم موهوب فيكون العلم أعم،

مَعْرِفَـةُ ٱللَّـهِ قِيَـامُ مَعْنَـى تَوْحِيدِهِ بِالنَّفْسِ حَتَّى تَغْنَـى
بِـهِ فَـلاَ تَجِـدُ أُنْساً إِلاَّ بِـهِ وَلاَ تَغْفَـلُ عَنْـهُ جَـلاَّ

ويكون لكل منهما أسباب واستعداد يناسبه غير أن ذلك في الأول لازم عادة وهو المعني بقوله ﷺ : (إنما العلم بالتعلم) بخلاف الثاني فإن مواهب الله تعالى تاتي بغتة لئلا يدعيه العباد بوجود الاستعداد وتكون أيضا عن أسباب وذلك المعني بقوله ﷺ : (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) وهذا الفرق من جهة المنشإ والأصل وأما من جهة الخصوصية فالعلم لما كان راجعا إلى اكتساب العباد كان مضبوطا بقوانينه شرعا أو عقلا فصاحبه يفصل ويحصل ويحقق ويدقق والمعرفة لما كانت وراء الطور وهي خصوص للخصوص كانت غير مضبوطة بقاعدة بل بحسب الذوق فكل من سقي شربة يترنم بها ولا ينسحب حكمها على من لم يشربها ومن هذا كان من تكلم في التصوف بلسان العلم كالمحاسبي وأبي طالب والغزالي يقرر القواعد ويحررها بخلاف غيرهم من أرباب المواجيد فإن أقوالهم تختلف في الشيء الواحد لكونه عن مشارب مختلفة مثلا يقول الواحد الزهد هو كذا ويقول الآخر هو كذا فيقتصر كل على ما في ذوقه والعالم ينظر فيها جميعا ويحرر منها ما هو الأولى. «**معرفة الله قيام معنى توحيده بالنفس حتى تغنى به فلا تجد أنسا إلا به ولا تغفل عنه جلا**» في الشرح أن هذا رسم به جسوس المعرفة الحقيقية. وفي القشيري عن بعضهم المعرفة اسم ومعناه وجود تعظيم في القلب يمنعك عن التعطيل والتشبيه. زروق : حقيقة المعرفة هي سريان العلم بجلال الحق أو جماله أو هما في كلية العبد حتى لا يبقى له من نفسه بقية فيشهد كل شيء منه وبه وله فلا يبقى لوجود شيء نسبة عنده دونه. نقله ابن حمدون. وفي البصائر عن بعضهم : لا يكون العارف عارفا حتى لو أعطي ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين وهذا يحتاج إلى شرح فإن ما هو دون ذلك يشغل القلب لكن إذا كان اشتغاله بغير الله لله فذلك اشتغال بالله، انتهى، وقد قلت :

العبدُ عند الموتِ قد قالوا معهْ تبقَى ثلاثـةٌ فقـط لا أربعـهْ
الأنسُ بالذكـر صفـاءُ قلبـه من دنس الدنيا وحبُّ ربـه
واظب على الذكر وأكثِرْ تَنَـلِ أُنساً فالانسُ دون ذا لم يحصل
عن شهوة الدنيا وحظها اكفُفا تنـلْ طهـارةَ الفـؤادِ والصفَـا

فَمَنْ تَحَلَّى قَلْبُهُ بِذِكْرِهِ   بَعْدَ التَّخَلِّي أَوَّلاً عَنْ غَيْرِهِ
فَهُوَ حُرٌّ عَارِفٌ وَلَوْ أَحَبْ   شَيْئاً سِوَاهُ لاَسْتَرَقَّهُ المُحَبْ

ودمْ على تفكـر في العظمــه   وفي جلال من حَبَاكَ نِعَمَـهْ
فلا حصولَ دون ذا للمعرفــه   والحبُّ لا يحصلُ دون ذي الصفه

المناوي : قال بعضهم لا ينبغي لعاقل أن يأخذ من العلوم إلا ما يصحبه إلى البرزخ لا ما يفارقه عند انتقاله إلى الآخرة، وليس المنتقل معه إلا العلم بالله والعلم بمواطن الآخرة حتى لا ينكر التجليات الواقعة فيها، ولا طريق لذلك إلا بالخلوة والرياضة والمجاهدة أو الجذب الالهي. «**فمن تحلى قلبه بذكره بعد التخلي أولا عن غيره فهو حر**» من رق غيره لإعراضه عنه، عبد له تعالى لإقباله عليه بكليته «**عارف**» بالله تعالى وتخليص القلب عن غير الله وتحليته بذكر الله عز وجل هو حاصل علم الصوفية «**ولو أحب شيئا سواه**» تعالى «**لاسترقه المحب**» قال في الحكم : ما أحببت شيئا إلا كنت له عبدا وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدا. وقال الجنيد رضي الله عنه : إنك لن تكون له على الحقيقة عبدا وشيء مما سواه لك مسترق وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديتك بقية. اليوسي : قيل لأبي زيد : لم وجدت هذه المعرفة ؟ فقال ببطن جائع وبدن عار. وقيل للجنيد نحو ذلك فقال : بالجلوس بين يدي الله. والفرق بين المعرفة والعلم عند الصوفية هو ما أشرنا إليه من أن المعرفة ما حصل في القلب عن الله إلهاما والعلم هو ما حصل من الطريق الظاهرة نقلا أو عقلا. القشيري : المعرفة على لسان العلماء هي العلم فكل علم معرفة وكل معرفة علم وكل عالم بالله تعلى عارف وكل عارف عالم وعند هؤلاء القوم المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى في معاملاته ثم تنقى عن أخلاقه الردية وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب عكوفه فحظي من الله تعالى بجميل إقباله وصدق الله تعالى في جميع أحواله وانقطعت عنه هواجس نفسه ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره فإذا صار من الخلق أجنبيا ومن آفات نفسه بريا ومن المساكنات والملاحظات نقيا ودامت في السير مع الله مناجاته وحق في كل لحظة إليه رجوعه وصار محدثا من قبل الحق سبحٰنه بتعريف أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره

يسمى عند ذلك عارفا وتسمى حالته معرفة.. وفي الجملة فبمقدار أجنبيته من نفسه تحصل معرفته من ربه عز وجل. وفي البصائر أن المعرفة علم بعين الشيء مفصلا عما سواه بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مجملا فلا يتصور أن يعرف الله البتة ويستحيل هذا الباب بالكلية فإن الله سبحانه لا يحاط به علما ولا معرفة ولا رؤية فهو أكبر من ذلك وأعظم قال تعالى: ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه﴾. القشيري: سئل سهل بن عبد الله عن ذات الله عز وجل فقال: ذات الله تعالى موصوفة بالعلم غير مدركة بالإحاطة ولا مرئية بالابصار في دار الدنيا وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول وتراه العيون في العقبى ظاهرا في ملكه وقدرته وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته فالقلوب تعرفه والعقول لا تدركه ينظر إليه المومنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية. وقال الجنيد: أشرف كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحٰن من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته. وقال الأستاذ أبو القاسم الجنيد ليس يريد الصديق رضي الله عنه أنه لا يعرف لأن عند المحققين العجز عجز عن الموجود دون المعدوم كالمقعد عاجز عن قعوده إذ ليس بكسب له ولا فعل والقعود موجود فيه وكذلك العارف عاجز عن معرفته والمعرفة موجودة فيه لأنها ضرورية وعند هذه الطائفة المعرفة به سبحانه في الانتهاء ضرورية فالمعرفة الكسبية في الابتداء وإن كانت معرفة على التحقيق فلم يعدها الصديق رضي الله عنه شيئا بالإضافة إلى المعرفة الضرورية كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه.

فوائد : الأولى : في البصائر أن الطائفة المتصوفة نفع الله بهم يرجحون المعرفة على العلم وكثير منهم لا يرفع بالعلم رأسا ويراه قاطعا وحجابا دون المعرفة وأهل الاستقامة منهم أشد الناس وصية للمريدين بالعلم وعندهم أنه لا يكون ولي لله كامل الولاية من غير أولي العلم أبدا فما اتخذ الله ولا يتخذ وليا جاهلا فالجهل رأس كل بدعة وضلالة ونقص والعلم أصل كل خير وهدى.

الثانية : فيه أيضا قال ابن عطاء الله : المعرفة على ثلاثة أركان الهيبة والحياء والأنس، وقيل العارف ابن وقته وهذا من أحسن الكلام وأخصره فهو مشغول بوظيفة وقته عما مضى وصار في العدم وعما لم يدخل بعد في الوجود فهمّه

عمارة وقته الذي هو مادة حياته الباقية ومن علاماته أنه مستوحش ممن يقطعه عنه ولهذا قيل : العارف من أنس بالله فأوحشه من الخلق وافتقر إلى الله فأغناه عنهم وذل لله فأعزه فيهم وتواضع لله فرفعه بينهم واستغنى بالله فأحوجهم إليه، وقيل : العارف فوق ما يقول والعالم دون ما يقول يعني أن العالم علمه أوسع من حاله وصفته والعارف حاله وصفته فوق كلامه وخبره.

الثالثة : فيه أيضا سئل الجنيد عن العارف فقال : لون الماء لون إنائه. وهذه كلمة رمز بها إلى حقيقة العبودية وهو أنه يتلون في أقسام العبودية فبينما تراه مصليا إذ رأيته ذاكرا أو قارئا أو متعلما أو معلما أو مجاهدا أو حاجا أو مساعدا للضيف أو معينا للملهوف فيضرب في كل غنيمة بسهم فهو مع المنتسبين منتسب ومع المتعلمين متعلم ومع الغزاة غاز ومع المصلين مصل ومع المتصدقين متصدق.. هكذا ينتقل في منازل العبودية من عبودية إلى عبودية وهو مستقيم على معبود واحد لا ينتقل عنه إلى غيره.

الرابعة : فيه أيضا : الفرق بين العلم والمعرفة من وجوه ثلاثة أحدها أن المعرفة لب العلم ونسبة العلم إلى المعرفة كنسبة الإيمان إلى الإحسان وهي علم خاص متعلقه أخفى من متعلق العلم وأدق، والثاني أن المعرفة هي العلم الذي يراعيه صاحبه ويعمل بموجبه ومقتضاه، والثالث أن المعرفة شاهدة لنفسها وهي بمنزلة الوجدانية لا يمكن صاحبها أن يشك فيها ولا ينتقل عنها كشف المعرفة أتم من كشف العلم على أن مقام العلم أعلى وأجل، ومن أقسام العلم العلم اللدني وهو ما يحصل للعبد بغير واسطة بل إلهام من الله تعالى كما حصل للخضر بغير واسطة موسى قال تعالى : ﴿آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾ والعلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله ومن كتابه وسنة رسوله وكمال الانقياد له وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة ولم يتقيد بهما فهو من لدن النفس والشيطان فهو لدني لكن من لدن مَن ؟ وإنما يعرف كون العلم لدنيا روحانيا بموافقته لما جاء به الرسول ﷺ عن ربه عز وجل فالعلم اللدني نوعان لدني رحماني ولدني شيطاني وبطناوي والمحك هو الوحي ولا وحي بعد رسول الله ﷺ فالعلم اللدني الرحماني هو ثمرة الموافقة والمحبة التي أوجبها التقرب بالنوافل بعد الفرائض واللدني الشيطاني هو ثمرة الإعراض عن الوحي بحكم الهوى، انتهى منه باختصار وبتغيير يسير.

الخامسة : فيه أيضا : علامة المعرفة أن يبدو لك الشاهد وتفنى الشواهد وتنجلي العلائق وتنقطع العوائق وتجلس بين يدي الرب وتقوم وتضطجع على التأهب للقائه كما يجلس الذي قد شد أحماله وأزمع السفر على تأهب له ويقوم على ذلك ويضطجع عليه ومن علامات العارف أنه لا يطالب ولا يخاصم ولا يعاقب ولا يرى له على أحد حقا ولا يأسف على فائت ولا يفرح بآت لأنه ينظر في الأشياء الفناء والزوال وأنها في الحقيقة كالظلال والخيال وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفا حتى يكون كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شيء وكالمطر يسقي ما يحب وما لا يحب وقال يحيى بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا و لم يقض وطره من شيئين بكاؤه على نفسه وثناؤه على ربه وهذا من أحسن ما قيل؛ لأنه يدل على معرفته بنفسه وعلى معرفته بربه وجماله وجلاله فهو شديد الازدراء على نفسه لهجٌ بالثناء على ربه.

السادسة : في النصيحة : قد جاء : (العلماء ورثة الأنبياء وأمناء الرسل ما لم يميلوا إلى الدنيا أو يداخلوا السلاطين فإذا مالوا إلى الدنيا أو داخلوا السلاطين فاخشوهم في دينكم) ابن زكري : دل صدر الحديث الذي ذكره المصنف رحمه الله تعالى على شرف العلم وعظم فضيلته وقد يوخذ من قوله ورثة الأنبياء وأمناء الرسل أن العلماء الحقيقيين المذكورين في قوله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أفضل من الأولياء الذين لم يؤهلوا لبث العلم ونشره وكذا من الشرفاء الذين لم يؤهلوا لذلك أيضا وإن كانوا هم أفضل من حيث البضعة وهذا هو الحق الذي انفصل عنه الأئمة المقتدى بهم انظر المسألة بطولها فيه، وقال اليوسي في قانونه : كنت أيام صحبتي أستاذنا الإمام أبا عبد الله ابن ناصر رحمه الله تعالى تنازعني نفسي إلى التجرد والسياحة وترك التعليم وكان لا يرى ذلك فقلت له ذات يوم أيما أفضل العلم أم المعرفة ؟ قال : المعرفة، فقلت له : فلم لا تشتغل بأسبابها ؟ قال : المعرفة قسمة من قسم له شيء ياتيه وما رأيت في هذا الزمان أفضل من تعليم العلم. وفي الزبيدي من جواب للعز بن عبد السلام : لا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال أفضل من العارفين بالأحكام فإن العارفين بالله أفضل من أهل الفروع والأصول وكيف يسوى بين العارفين والفقهاء والعارفون أفضل الخلق وأتقاهم لله سبحٰنه وأما قوله

وَالحمدُ لِلَّـهِ الَّـذِي أَتَمَّـا طُهْرَ القُلُوبِ وَحُلاَهَا نَظْمَـا
صَلَّى وَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ مَـا أَضَاءَ بَدْرُ نُورِهِ مَا أَظْلَمَـا
مَن حَازَ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّصَوُّفِ كَانَ مِنَ اهْلِهِ بِلاَ تَكَلُّـفِ
بِهِ مُخَـدَّرَاتُ عِلْـمِ البَاطِـنِ قَدْ بَرَزَتْ بَادِيَـةَ المَحَـاسِنِ

سبحٰنه ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فإنما أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله دون العارفين بأحكامه ولا يجوز حمل ذلك على علماء الأحكام لأن الغالب عليهم عدم الخشية وخبر الله تعالى صدق ولا يحمل إلا على من عرفه وخشيه. ولشيخنا العارف بالله محمد سالم ابن أَلَمَّا رحمه الله تعالى :

جسوس شرح المرشد المعين قــال تخالــف حماة الديــن
في عــالم دليلــه البرهــان بعلمــه ينتفــع الإنسان
وفي ولي للشهــود ينتمــي ما كان في العلم كهذا العيلم
أيهمــا أفضل فانظــر فيــه أواخــر الشرح لــذا تلفيــه

السابعة : قال في الحكم وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به وإلا فجل ربنا أن يتصل بشيء أو يتصل به شيء. زروق الوصول مما يجري في كلام القوم وحقيقته وصول القلب للعلم بجلال الله وعظمته على وجه يباشر حقيقة القلب ويجري معناه في الجوارح حتى تجري على حكمه من غير توقف ولا اختيار، وفي رسالة السلوك : الوصول إلى الله هو الوصول إلى كمال معرفته على حالة يكون العبد كأنه يشاهد ذلك عيانا في سائر أحواله سواء كان في أكل أو في كلام أو نوم أو غير ذلك. «**والحمد لله الذي أتما طهر القلوب**» من أمراضها «**وحلاها**» بضم وكسر جمع حلية يعني تحليها بمقامات اليقين حال كونه «**نظما**» : منظوما «**صلى وسلم على النبي**» ﷺ «**ما**» ظرفية «**أضاء بدر نوره ما أظلما**» من ليل الجهل «**من حاز**» أي جمع «**ما فيه من التصوف**» وتحلى به «**كان من اهله بلا تكلف**» أي تجشم على مشقة «**به مخدرات علم الباطن**» المخدرة بصيغة اسم المفعول الملزمة الخدر بالكسر : سترٌ يُمَدُّ للجارية في ناحية البيت «**قد برزت**» لمن يخطبها

إن كُنْتَ مِمَّنْ أُولِعُوا بِالجَدَنِ فَأَلْـقِ سَمْـعَكَ إِلَيْـهِ وَاذَنِ
أَوْ مُولَعاً بِرَأْيِهَـا لاَ تَعْـدُ عَيْنَاكَ عَنْهُ فَهْوَ سَهْدٌ مَهْـدُ
أَوِ الهُدَى فَهْوَ إِلَيْهِ الدُّلَّـى أَحْبَبْتَ إِن أَحْبَبْتَ أَن تَبلاًّ
أَوْ بِالمُقَـامِ بِمَكَـانٍ مُثْمِـلِ غَنِيتَ أَزْمُناً عَـنِ التَّحَـوُّلِ
وَلاَ تَتِيـهُ مَعَـهُ إِنْ سِرْتَـا فَادْعُ لِمَن أَسْدَى كَمَا أُمِرْتَا

حال كونها «**بادية المحاسن**» جمع حسن بالضم : الجمال على غير قياس «**إن كنت ممن أولعوا**» بالتركيب «**بالجدن**» محركة : الصوت الحسن وأولعه بالشيء أغراه به «**فألق سمعك إليه**» أي اصْغ إلى هذا النظم «**واذن**» أي استمع له، القاموس : أذن إليه وله كفرح استمع معجبا أو عام. «**أو**» كنت «**مولعا**» : مغرى «**برأيها**» أي تلك المخدرات وهو بالكسر المنظر الحسن ﴿أثاثا ورءيا﴾ «**لا تعد عيناك عنه**» أي عن النظم، عدا عن الأمر جاوزه وتركه كتعداه «**فهو سهد مهد**» أي حسن «**أو**» مولعا بـ«**الهدى**» : الرشاد والدلالة «**فهو إليه الدلى**» كرُبَّى : المحجة الواضحة «**أحببت**» من مرضك أي برئت «**إن أحببت أن تبلا**» بالكسر أي تبرأ، بل من مرضه وأبل واستبل برىء وصح. «**أو**» مولعا «**بالمقام بمكان مثمل**» صالح للمقام به «**غنيت**» غني كفرح استغنى «**أزمنا عن التحول و**» إن تحولت فـ«**لا تتيه**» أي تضل «**معه إن سرتا فادع لن أسدى**» إليك هذا النظم «**كما أمرتا**» في الخبر ففي الإحياء قال رسول الله ﷺ : (من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه) الزبيدي : هكذا أورده صاحب القوت وقال العراقي : رواه أبو داوود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ من صنع.

والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات، هذا آخر ما قصدناه من شرح هذا النظم فنحمد الله تعالى ونشكره على ما أنعم وألهم، وقد فرغت منه يوم الجمعة ثالث عشر رجب من الخامس عشر بعد أربعمائة وألف.

هذا وأستغفره جل مما تجرأت عليه من نقل كلام الأولياء العارفين وذكر

أحوالهم مما أنا أجنبي منه فنسأل الله تعلى الكريم أن يمن علينا بسلوك طريقهم المستقيم بيد أني في ذلك أتشبه بابن زكري إذ يقول : ثم مخالطة كلامهم ومطالعة سيرهم والاشتغال ولو في قليل الأوقات بتأمل طرف من حديثهم وخبرهم هو الذي أطلعني على حقائق ما أنا متلبس به من المساوي وعرفني ما أنا منغمس فيه من الدعاوي وهذه والحمد لله نعمة عظيمة ومنة جسيمة وكيف لا ورؤية المعاصي طاعة والغلط باعتقادها مباحات أو قربات هي الداهية الكبرى الموجبة للهلاك دنيا وأخرى لسدها عمن اتصف بها باب التوبة إذ ليس ما أتى به في نظره حوبة وهي لِمَنْ لَمْ يمارس حديث القوم وصف لازم ونعت مرتبط ملازم بل قال الإمام أبو الحسن رضي الله عنه : من لم يتغلغل في علومنا مات مصرا على الكبائر وهو لا يشعر وذلك لتلبيس النفس وتزويرها على الآمل وإبرازها للعمل المدخول والحال المعلول في صورة الكامل وفتحها لباب الترخيص والتاويل وإقامتها لما يظن الجاهل أنه عذر بل برهان ودليل نسئل الله الكريم أن يكمل لنا ذلك بالاستحضار في عموم الأوقات حتى يصير حالا مثمرة للفرار إلى الله تعالى والتعلق به في سائر اللحظات والساعات.

ثم أقول : الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وأسأله جل أن يرزقنا تقواه، وأن يمن علينا برضاه، وصلى الله على سيدنا محمد عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، سبحٰن ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

تعريف مختصر لبعض رجال التصوف الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب مرتبين على حسب ورودهم فيه

القشيري : عبد الكريم بن هوازن أبو القاسم زين الإسلام شيخ خراسان في عصره زهدا وعلما بالدين له مؤلفات منها الرسالة القشيرية (ط) (376 ـ 465هـ / 986 ـ 1073م).

عبد السلام بن مشيش الحسين أبو محمد ناسك مغربي اشتهر برسالة له تدعى الصلاة المشيشية ولد في جبل العلم بتطوان وتوفي فيه شهيدا. (622هـ / 1225م).

اليافعي : عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي عفيف الدين مؤرخ باحث متصوف من شافعية اليمن نسبته إلى يافع من حمير. (698 ـ 768هـ / 1298 ـ 1367م).

الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي أبو القاسم سيد الطائفة الصوفية من أهل بغداد وأصل أبيه من نهاوند وكان يعرف بالقوايري نسبة لعمل القوارير ويعرف الجنيد بالخزاز لأنه كان يعمل الخز. (297هـ / 910م).

طيفور بن عيسى البسطامي زاهد مشهور له أخبار كثيرة.. نسبته إلى بسطام بلدة بين خراسان والعراق. (188 ـ 261هـ / 804 ـ 875م).

سهل بن عبد الله بن يونس التستري أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال له كتاب في تفسير القرآن وكتاب رقائق المحبين وغير ذلك. (200 ـ 283هـ / 815 ـ 896م).

ابن العريف : أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي المري أبو العباس فاضل شهير بالصلاح له شعر ومشاركة في العلوم له كتاب «محاسن المجالس ط» على طريق القوم.. نسبته إلى المرية ووفاته بمراكش. (471 ـ 536هـ / 1088 ـ 1141م).

أحمد بن محمد أبو الحسين النوري صوفي مشهور بغدادي المنشأ والمولد كان يعرف بابن البغوي.. صحب سريا السقطي ومحمد بن القصاب وكان من أقران الجنيد. (295هـ / 908م).

النصرابادي : أبو القاسم إبراهيم بن محمد صوفي مشهور كان شيخ خراسان في زمنه عالما بالحديث كثير الرواية. (369هـ / 979م).

أبو بكر محمد بن سيرين البصري إمام وقته في علوم الدين بالبصرة.. تابعي اشتهر بالورع وتفسير الرؤيا.. من أشراف الكتاب ولد و مات بالبصرة (33 ـــ 110هـ / 634 ـــ 729م).

أبو عبد الله وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني مؤرخ كثير الإخبار عن الكتب القديمة.. يعد في التابعين ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. (34 ـــ 144هـ / 654 ـــ 732م).

أبو علي الثقفي محمد بن عبد الوهاب إمام وقته في أكثر علوم الشرع صحب أبا حفص وحمدون القصار وبه ظهر التصوف بنيسابور (328هـ / 940م).

أبو بكر بن داوود الدينوري الرقي كان من أجل مشائخ وقته وأحسنهم حالا وأقدمهم صحبة للمشائخ. أقام بالشام وكان من أقران أبي علي الروذباذي. عاش أكثر من مائة سنة. مات بعد سنة : (350هـ / 961م).

أبو السعود ابن أبي العشائر بن شعبان بن الطيب الباذيني.. من أجلاء مشائخ مصر. كان السلطان ينزل إلى زيارته. نسبته إلى بلدة بقرب جزائر واسط بالعراق. (644هـ / 1246م).

الحسن البصري : أبو سعيد الحسن بن يسار البصري تابعي.. كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه. أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب وسكن البصرة فعظمت هيبته في القلوب. له مواقف مع الحجاج بن يوسف (21 ـــ 110هـ / 642 ـــ 728م).

الروذباذي : أبو عبد ا لله أحمد بن عطاء شيخ الشام في وقته. مات في صور. نسبته إلى روذباذ قرية من قرى بغداد. (369هـ / 979م).

الجيلاني : عبد القادر بن موسى بن عبد الله أبو محمد محيي الدين الجيلاني

أو الكيلاني أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين. برع في أساليب الوعظ وتفقه وسمع الحديث وقرأ الأدب واشتهر. نسبته إلى جيلان (بالكسر) بلاد وراء طبرستان. (471 ــ 561هـ / 1078 ــ 1166م).

الحيري : أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري صوفي زاهد أصله من الري ثم رحل إلى نيسابور وبه انتشرت طريقة التصوف بها. 298هـ / 910م).

الشاذلي : الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن هرمز الشاذلي المغربي رأس الطائفة الشاذلية من المتصوفة. ولد في بلاد «غمارة» بريف المغرب وتفقه وتصوف بتونس وسكن شاذلة قرب تونس فنسب إليها وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج (591 ــ 656هـ / 1195 ــ 1258م).

المرسي : أحمد بن عمر أبو العباس شهاب الدين المرسي فقيه متصوف من أكابر العارفين. كان يقال إنه لم يرث علم الشيخ أبي الحسن الشاذلي غيره. وهو من أهل الاسكندرية ولأهلها فيه اعتقاد كبير إلى اليوم. أصله من مرسية في الأندلس. (686 هـ / 1287م).

ذو النون المصري : ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض ذو النون المصري أحد الزهاد العباد المشهورين من أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي : كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصرفي ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية. (245هـ / 859م).

ابن عربي : محيي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الأندلسي الطائي الملقب بالشيخ الأكبر. من أكابر الصوفية عارف بالله تعلى. وله شطحات تنكر عليه حتى عمل بعضهم على إراقة دمه. له نحو أربعمائة كتاب ورسالة. (560 ــ 638هـ / 1165 ــ 1240م).

الرازي : أبو محمد عبد الله الرازي صوفي مشهور مولده ومنشؤه بنيسابور. صحب أبا عثمان الحيري والجنيد ويوسف بن الحسين وغيرهم. (353هـ / 964م).

الحافي : بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي أبو نصر المعروف

بالحافي من كبار الصالحين. له في الورع والزهد أخبار. من ثقات رجال الحديث. من أهل «مروَ» سكن بغداد وتوفي بها. (150 ــ 228هـ/ 767 ــ 841م).

ابن أدهم : أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي زاهد مشهور كان أبوه من أهل الغنى في «بلخ» فتفقه ورحل إلى بغداد وجال في العراق والشام والحجاز وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثلاثة. كان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن ويشترك مع الغزاة في قتال الروم. (161هـ / 778م).

الثوري : سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة من مضر. أمير المومنين في الحديث. كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ بالكوفة ثم سكن مكة والمدينة. له مواقف مع الأمراء (97 ــ 161هـ / 716 ــ 778م).

الداراني : عبد الرحمن بن عطية أبو سليمان الداراني صوفي مشهور. نسبته إلى داران من قرى دمشق. كان كبير الشأن في علوم الحقائق والورع. (215هـ / 830).

الداودي : أحمد بن نصر أبو حفص الداودي فقيه مالكي له كتاب «الأموال ــ خ» في أحكام أموال المغانم والأراضي التي يتغلب عليها المسلمون.

القصار : حمدون بن أحمد بن عمارة القصار أبو صالح النيسابوري صوفي مشهور كان شيخ أهل الملامة بنيسابور ومنه انتشر مذهب الملامة (من مذاهب الصوفية. سئل عنه حمدون فقال : هو خوف القدرية ورجاء المرجئة) وكان عالما فقيها يذهب مذهب الثوري. (281هـ / 884م).

الحداد أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد زاهد صوفي من قرية يقال لها «كورداباذ» في طريق بخارى (مدينة في أوز بكستان) كان أحد الأئمة والسادة. توفي حوالي : (260هـ / 874م).

محمد بن محمد وفا السكندري الأصل ثم المغربي ثم المصري الشاذلي الصوفي الشهير. ألف الكتب وهو أمي ابن سبع سنين !! (760هـ / 1359م).

الدباغ : عبد العزيز بن مسعود أبو فارس متصوف من الأشراف الحسنيين

ولد ومات بفاس. كان أميا لايقرأ ولا يكتب ولأتباعه مبالغة في الثناء عليه ونقل الخوارق عنه. وللمطي كتاب «الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز ـــ ط» (1095 ـــ 1132هـ / 1684 ـــ 1720م).

الواسطي : محمد بن موسى أبو بكر الواسطي متصوف مشهور من كبار أتباع الجنيد من أهل واسط (331هـ / 942م).

القرشي : أبو عبد الله القرشي محمد بن رسلان المصري زاهد صوفي من كبارهم مات بمصر سنة (591هـ / 1195م).

الأقطع : عباد بن عبد الله أبو الخير الأقطع التيناني (نسبة إلى تينات فرضة على بحر الشام) صوفي مشهور مغربي الأصل له كرامات عجيبة. (340هـ / 952م).

الجزولي : محمد بن سليمان بن داوود بن بشر السملالي الشاذلي صاحب دلائل الخيرات فقيه صوفي من أهل سوس المراكشية نسبته إلى جزولة من بطون البربر. (807 ـــ 870هـ / 1404 ـــ 1465م).

الطيالسي : أبو داوود سليمان بن دوود بن الجارود مولى قريش من كبار حفاظ الحديث فارسي الأصل سكن البصرة وتوفي بها. صاحب المسند. (133 ـــ 204هـ / 750 ـــ 819م).

الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي أبو علي شيخ الحرم المكي. من أكابر العباد الصلحاء تفقه في الحديث. ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد (مدينة بخراسان) وتوفي بمكة. (105 ـــ 187هـ / 723 ـــ 803م).

الوراق : أبو بكر محمد بن عمر الترمذي أقام ببلخ وصحب أحمد بن خضرويه وغيره. له تصانيف في الرياضة.

داوود الطائي بن نصير أبو سليمان من أئمة المتصوفين. أصله من خراسان ومولده بالكوفة. رحل إلى بغداد فأخذ عن أبي حنيفة وغيره وعاد إلى الكوفة فاعتزل حتى مات (165هـ / 781م).

يحيى الرازي بن معاذ بن جعفر أبو زكرياء واعظ زاهد لا نظير له في وقته من أهل الري أقام ببلخ ومات في نيسابور. (258هـ / 872م).

عوف بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي خطيب صوفي راوية ناسب شاعر كان من آدب أهل المدينة وسكن الكوفة فاشتهر فيها بالعبادة والقراءة حتى مات (نحو : 115هـ / نحو : 733م).

حذيفة المرعشي صوفي زاهد توفي (207هـ / 823م).

رابعة العدوية بنت إسماعيل أم الخير مولاة آل عتيك البصرية صالحة مشهورة من أهل البصرة ماتت سنة (153هـ / 752م) وقيل : (185هـ / 801م).

محمد بن واسع بن جابر الأزدي أبو بكر فقيه ورع من الزهاد من أهل البصرة عرض عليه قضاؤها فأبى وهو من ثقات أهل الحديث. (123هـ / 741م).

إبراهيم الخواص بن أهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق صوفي مشهور من أقران الجنيد ولد في سُرَّ من رأى (بين بغداد وتكريت) ومات في جامع الري (291 هـ / 904م).

سري السقطي بن المغلس أبو الحسن من كبار المتصوفة بغدادي المولد والوفاة خال الجنيد وأستاذه. تلميذ معروف الكرخي. مات (253هـ / 867م).

أبو الحسن الوراق : محمد بن سعيد من كبار المشائخ من أصحاب أبي عثمان كان عالما بعلوم الظواهر والكلام في علوم دقائق المعاملات وعيوب الأفعال مات قبل : (320هـ / 932م).

أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني من مشاهير الصوفية أصله من الأندلس أقام بفاس وسكن بجاية وكثر أتباعه فيها حتى خافه السلطان يعقوب المنصور. توفي بتلمسان وقد قارب الثمانين. (594هـ / 1198م).

النهر جوري : أبو يعقوب إسحاق بن محمد نسبته إلى نهر جور قرية بالقرب من الأهواز. من علماء الصوفية صحب الجنيد وغيره. مات بمكة مجاورا. (330هـ / 941م).

مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل أبو عبد الله الهذلي بالولاء، فقيه الشام في عصره من حفاظ الحديث. أصله من فارس. مولده بكابل. نشأ بها وسبي وأعتق وتفقه وطاف كثيرا من البلدان في طلب الحديث واستقر في دمشق ومات بها (112هـ / 730م).

محمد بن عنان شيخ الشعراني من أكابر الأولياء أصحاب المقامات العالية له كرامات عظيمة، مات سنة (926هـ / 1520م).

أبو عثمان المغربي سعيد بن سلام صوفي زاهد مات بنيسابور وأوصى بأن يصلي عليه أبو بكر ابن فورك. (373هـ / 983م).

الفهرس

المقدمة 5
الترجمة 7
الكلام على الأدب 19
حكم معرفة أمراض القلوب وأدويتها 25
البخل 29
البطر 34
البغض 34
البغي 35
حب المنزلة 35
حب الدنيا 38
حب المدح بما لم يفعل 48
الحسد 48
الحياء المذموم 55
خوض القلب فيما لا ينبغي الخوض فيه 57
خوف الفقر 58
المداهنة 59
الرياء 60
خوف غير الله والرغبة فيه 73
سخط القدر 74
السمعة 75

الطمع 76
طول الأمل 77
الطيرة 79
الظن 81
العجب 83
الغش 86
الغضب 86
الغفلة 91
الغل 92
الفخر 92
الكبر 93
كراهة الذم 100
كراهة الموت 103
نسيان النعمة 107
الهزء 108
دواء أمراض القلوب في الجملة 111
العمل الذي يصفي القلب 116
أصل أمراض القلوب الجامع لها 124
الكلام على الذكر وآدابه وفوائد في الموضوع 127
فصل في الخواطر 150
فصل في المقامات 167
التوبة 170
الصبر 188
الشكر 205
الخوف والرجاء 215

حسن الظن بالله 225
الزهد 227
التوكل 233
الرضى بالقضاء 238
المحبة 243
فصل 152
فصل في النفس 259
فصل في معرفتها 270
فصل في الأحوال 273
فصل في المعرفة 282
الخاتمة 288

تقريظ العلامة الورع الشيخ: عبدا لله بن امين بن حامد بن محمذ ابن محنض بابه الديماني

إن في تصـانيف الفتـى اليعقوبـي … يومـا نظـرت ظفـرت بـالمرقوب
فوجـدت وعـدا منجـزا موفـى بـه … لا مثـل وعـد مخلـف عرقوبـي
ووجـدت تنظيـم الفوائـد مزريـا … بجمـان عقـد جواهـر مثقـوب
ان الجـوادي امتطـى للعلـم والـ … ـعليـا نجيبـا ليـس بـالمنقوب
لمحمـد الحسـن بـن أحمـد الخديـ … ـم العـالم العلامـة اليعقوبـي
منـنٌ على الطـلاب لا تحصـى بمـا … قـد صـح مـن نقـل لـه مجلـوب
فكدأبـه في كـل تصنيـف لـه … لهـم اجتنـى في نخبـة المطلـوب
من شرح مطهـرة القلـوب جنـى بـه … للسـالكين شـفاء داء قلـوب
فأجـاد فيمـا قـد أفـاد بـه فضمْـ … ـمَ إلى الإفـادة جـودةَ الأسـلوب
فمتـى تطالـع صفحـة مـن موضـع … من ذا الكتاب رغبت في المقلوب.

وله أيضا في تقريظ كتاب مرام المجتدي من شرح كفاف المبتدي

نعـم المعين علـى كفـاف المبتـدي … للمسـتعين بـه مـرام المجتـدي
لسـليل أحمـد الخديـم محمـد الـ … ـحسـن التـآليف الكريـم المحتـد
والمهتـدي بهـدى هـداة مـن يـرم … مـن الاقتـدا بهـم الهدايـة يهتـدي
والمقتـدي بذويـه في فضـل كمـا … بأبيـه في كـرم عـدي يقتـدي
مـا زال في علـم وفي عمـل وفي … تهذيـب أخـلاق يـروح ويغتـدي
متسـربل متـأزر مـن سـؤدد … متـوارث في مـن نمـوه مرتـد
سـر المحـب لـه بمـد حياتـه … غيـظ الحسـود بـه المناوي المعتـدي.

طبع بالمغرب

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الايداع القانوني رقم : 1996/297

المؤلف في سطور

* الشيخ العلامة محمد الحسن بن أحمد الخديم اليعقوبي الجوادي الموريتاني.
* من مواليد 1937 في ولاية اترارزة مقاطعة واد الناقة.
* حفظ القرءان الكريم في حدود العاشرة من عمره.
* درس العلوم الشرعية والعربية في عدة محاظر عريقة.
* حصل على عدة إجازات في العلوم الإسلامية من علماء أفذاذ.
* أسس محظرة متميزة ظلت قبلة لطالبي العلم والإرشاد.
* يعتبر شخصية من أبرز الشخصيات العلمية ذات المصداقية في البلاد.
* اعتبره بعض علماء عصره مجدد القرن.
* متفرغ للتدريس المحظري والإرشاد التربوي والتأليف.
* تمتاز موافقة من المسائل الخلافية بالعلمية والموضوعية والإنصاف.
* له مؤلفات تنيف على السبعين طبع منها:
  - مرام المجتدي من شرح كفاف المبتدي (مجلدان) طبع ثلاث مرات.
  - دليل الناسك لما يخفى من المناسك.
  - هداية السعاة إلى معرفة النحاة.
  - المسعد بشرح نظم المسجد.
  - إعانة المتفهم بشرح آداب المتعلم.
  - الفوائد الكفيله بمعرفة الوسيله (طبع للمرة الثانية).
  - نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب(طبع للمرة الثانية).
  - سقاية الظمآن من آداب تلاوة القرءان.
  - الجواهر على البصائر.
  - دفاع المعتدي على مرام المجتدي.
  - نخبة الأبرار من شرح قرة الأبصار.
  - سلم المطالع لدرك الكوكب الساطع.
  - اللآلئ الحسان على محارم اللسان.
* وتحت الطبع منها:
  - الجامع المحرر على نظم الدرر.
  - محصل الأرب بشرح أدب الأدب.
  - تحفة السرور بشرح نظم البرور.
* يعمل الآن مدرس محظرة وشيخ زاوية بقرية التيسير التابعة لمركز تكنت الإداري بولاية اترارزة